جامعة بيروت العربية



تاريخ البحرية الإسلامية
في مصر والشام

تأليف

الدكتور أحمد مختار العبادي
أستاذ التاريخ الاسلامي
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الاسلامي
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

١٩٧٢

جامعة بيروت العربية



تأليف

الدكتور أحمد مختار العبادي
أستاذ التاريخ الاسلامي
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الاسلامي
بجامعتي الاسكندرية وبيروت العربية

١٩٧٢



طبع في دار الاحد (البحيري اخوان) بيروت

مقدمة

أثبتت البحوث العلمية الحديثة الدور الهام الذي تلعبه القوى البحرية في المجالات السياسية والاقتصادية والعلمية، ولهذا خصَّها الباحثون بنصيب وافر من عنايتهم، فصنفوا فيها المؤلفات المطولة، واعتبروها من الموضوعات الرئيسية في البحوث التاريخية .

وتشغل القوى البحرية الإسلامية مركزاً طليعياً في تاريخ البحار والمحيطات المعروفة في ذلك الوقت، ولعل ذلك كان من الاسباب التي حملت الباحثين على تناول هذا الموضوع بالدراسة والبحث من مختلف نواحيه السياسية والاقتصادية(١). وينبغي أن نقر هنا بأهمية هذه الأبحاث بالنسبة للتاريخ الاسلامي بوجه خاص وللتاريخ العالمي بوجه عام. إلا أنه يلاحظ أن

---

(١) نذكر منها على سبيل المثال :

W. Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen-âge, (2 vols., Leipzig, 1885) — J. B. Bury, The naval policy of the Roman empire, in relation to the western provinces from the 7th to the 9th century (Centenario della nascita di Michele Amari, vol. II, Palermo, 1910) — Ali Fahmy: Muslim sea power From the seventh to the tenth century A.d. (1950)

وراجع أيضاً : اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دولة البحار – ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط – هونيرباخ ، البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية، معهد مولاي الحسن، تطوان – حسين مؤنس، المسلمون في حوض البحر المتوسط (المجلة التاريخية المصرية ١٩٥١) – اسماعيل مظهر ، السفن والملاحة بمصر (مجلة المقتطف ١٩٣٤) – أحمد دراج ، المماليك والفرنج – أحمد بن ماجد السعدي ، كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد – عبد الفتاح عبادة ، سفن الاسطول الإسلامي – ياسين الحموي ، تاريخ الاسطول العربي – ابراهيم أحمد العدوي ، الأساطيل العربية في البحر المتوسط – سعاد ماهر ، البحرية في مصر الاسلامية .

معظم هذه البحوث قد اقتصرت في معالجة موضوع البحرية الاسلامية على فترات محدودة من التاريخ الإسلامي ، أو اكتفت بدراسة مجال معين من مجالات النشاط البحري الإسلامي الذي لم تكن له حدود ، ولهذا تفتقد هذه البحوث — رغم قيمتها وأصالتها — إلى النظرة التاريخية الشاملة التي تحدد لنا الصورة المتكاملة لتاريخ البحرية الاسلامية في شرق العالم الاسلامي وغربه في العصر الوسيط . ولسنا نشك في صعوبة تنفيذ هـذا البحث الشامل لعاملين : الأول ، اتساع رقعـة العالم الإسلامي وامتداده شرقاً وغرباً ، وامتداد النشاط البحري الإسلامي بالتالي إلى بحار ومحيطات لا حدود لها ، والثاني ، استمرار التاريخ الإسلامي واتصاله منذ قيام الإسلام كدين ودولة حتى ختام العصر الوسيط . ويستلزم الأمر لتحقيق مثل هذا المشروع الضخم نوعاً من التعاون المشترك والجهود المتضافرة من الباحثين ، ومـا زلنا نؤمن بأهمية البحوث الجماعية ونقدر الجهود العلمية المشتركة ، والتعاون العلمي الصادق المنسق في إنتاج مثل هـذه الدراسات الشاملة . ولقد أدركنا هذه الحقيقة منذ البداية ، وكان من ثمرته ظهور كتابنـا الأول عن تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس منذ الفتح العربي حتى سقوط مملكة غرناطة . وشجعنا النجاح الذي أسفرت عنه التجربة على المضي قدماً في تنفيذ المشروع كله ، واليوم نصدر الكتاب الثاني عن البحرية الاسلامية في الشام ومصر ، ويبقى علينا بعد ذلك لاستكمال دراسة تاريخ البحرية الإسلامية أن نصدر بحثاً ثالثاً عن تاريخ البحرية الإسلامية في بحْرَي اليمن وعمان والمحيط الهندي .

ويقترن تاريخ البحرية الإسلامية في الشام ومصر بحركة الفتوحات الإسلامية التي بدأت في خلافة أبي بكر واستمرت طوال عصر الخلافة الراشدة ثم في عصر الدولة الأموية ، فقد كان لزاماً على العرب بعد أن تمّ لهم فتح الشام ومصر ، وأصبحت لديهم سواحل متصلة تطل على البحر المتوسط أن ينتهجوا سياسة بحرية رضوا أم كرهوا ، لأن استيلاء المسلمين على الشام ومصر أدى إلى تمزيق وحدة الامبراطورية البيزنطية ، وحكم بفصل

بيزنطة عن ولاياتها التابعة لها فيما وراء مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي، وأصبح البحر وحده الوسيلة الوحيدة للربط بين أجزاء هذه الامبراطورية[١]، وكان ذلك نذيراً بقيام صراع بحري مرير بين القوى الإسلامية (التي كانت تعتمد اعتماداً تاماً على المعارك البرية) والقوى البيزنطية (المتفوقة في الحروب البحرية) عاجلاً كان ذلك أم آجلاً لحسم مشكلة السيطرة على حوض البحر المتوسط. وعمد العرب الفاتحون بالضرورة إلى انتهاج سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي الماثل على ثغور المسلمين، وتوسلوا في ذلك بادئ ذي بدء بوسائل دفاعية برية[٢]، فاتجهوا إلى مرمة الحصون الساحلية في الشام ومصر، وإقامة الأربطة والمناظر والمسالح على طول الساحل، وشحنها بالمقاتلة، واتخاذ المواقيد للإنذار باقتراب سفن الروم من السواحل[٣]، بل إن معاوية — وهو بعد وال على الشام — نقل أهالي المناطق الداخلية إلى هذه السواحل، ومنحهم فيها الإقطاعات الواسعة مستهدفاً من وراء ذلك تشجيعهم على ركوب البحر[٤]. وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام مبثوثة بالقلاع والأبراج التي كانت أشبه شيء بسور يمتد بحذاء الساحل[٥] اعتمد عليه العرب في الدفاع البحري، وحظيت سواحل الاسكندرية ورشيد والبرلس وتنيس ودمياط في مصر وسواحل عكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وعرقة وأنطاكية في الشام بقلاع ومحارس شحنت بالحاميات المرابطة.

ثم مضت مرحلة الدفاع البحري بوسائل برية عندما فشلت بيزنطة في استرداد الساحل الشامي سنة ٢٣ هـ، والمصري في سنة ٢٥ هـ أمام قوة

---

(١) مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية ١٩٦٨، ص ٢.

(٢) عبد العزيز سالم ومختار العبادي، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، ١٩٦٩ ص ١٦.

(٣) عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، الاسكندرية ١٩٦٧، ص ٢٣ — تاريخ الدولة العربية، بيروت ١٩٧١ ص ٥٣٦.

(٤) مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٣ — عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية ص ٥٣٦.

(٥) Cheira (M.A.), la Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947, p. 87.

الدفاع العربي الإسلامي ، واستقرت دعائم السيادة العربية الإسلامية في الشام ومصر ، وآن للعرب في خلافة عثمان أن يجاروا البيزنطيين في اصطناع سياسة بحرية دفاعية وهجومية في آنٍ واحد ، وتحتم عليهم أن ينشئوا الأساطيل ، واضطرتهم الظروف إلى الاستعانة في ذلك بأهل البلاد المفتوحة كأقباط مصر[1] وملاحي الشام الذين كانت لهم تجارب بحرية واسعة النطاق في تاريخهم القديم ، وأمجاد وبطولات سجلها التاريخ البحري للفينيقيين والمصريين منذ أقدم العصور حتى عصر التبعية للرومان والبيزنطيين. كذلك استعان معاوية بالعناصر العربية اليمنية في تسيير السفن الإسلامية وقيادة العمليات البحرية في الشام وذلك لتفوقهم على منافسيهم من القبائل القيسية في هذا المجال. والواقع أن عرب اليمن منذ عصر ما قبل الإسلام حتى عصر الفتوح الإسلامية ، وإن كانوا قد قطعوا كل اتصال لهم بالبحر ، وأهملوا شؤونه ، وأوقفوا كل نشاط لهم عبر مياهه ، وافتقدوا الدربة على ركوبه وخوض أهواله ، لانصرافهم إلى التجارة البرية إبان الغزوين الحبشي والفارسي لليمن ، لم يكونوا قد فقدوا تماماً تقاليدهم البحرية التي اكتسبوها من خلال تاريخهم الطويل وتجاربهم الماضية في ممارسة الملاحة ، والطواف بسفنهم التجارية في البحر الحبشي أو الإريتري ، وترددهم على موانئ البحر العربي والمحيط الهندي[2] ، فقد رسخت هذه التقاليد في كيانهم ، وظلت

---

(١) تخصص الأقباط في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها . وقد ثبت أن السفن التي تستخدم المسامير في تثبيت ألواحها أفضل من السفن التي تشد بالحبال (راجع : فلهلم هونيرباخ ، البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ، تطوان ١٩٥٤ ، ص ١٨ – ٢٠) . وقد أدرك حسان بن النعمان الغساني هذه الحقيقة عندما واجهته مشكلة إنشاء دار صناعة تونس ، فطلب من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أن يبعث إليه بعدد من الأسرات القبطية بمصر ليعتمد عليهم في قيام البحرية الإسلامية في بحر إفريقية ، فوجه إليه ألف أسرة قبطية (راجع التفاصيل في : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٢٨ – ٣٤) .

(٢) لا ينبغي أن ننسى أثر موقع بلاد اليمن وعمان والبحرين على سواحل البحر الحبشي وبحر العرب وبحر عمان في تطلع سكان بلاد العرب الجنوبية نحو البحر ، واشتغالهم بالملاحة فيه ، وكان ذلك من العوامل الرئيسية في تفوقهم البحري .

كامنة في أعماقهم ، في عصور الاحتلال الحبشي والفارسي ، إلى أن تهيأت لها ظروف مواتية للظهور منذ عصر الفتوحات فنشطت بعد خمول[1] ، وتجلت مواهب اليمنية في قيادة السفن وظهرت براعتهم في الغزو البحري في بحار الشام ومصر والمغرب والأندلس ، فظهرت شخصية جنادة بن أبي أمية الأزدى اليمني، الذي اعتمد عليه معاوية في غزو قبرص ورودس وإقريطش. كذلك يرجع إلى اليمنية الفضل في إنشاء أول قوة بحرية إسلامية في الأندلس في وقت لم يكن للدولة الأموية أسطول بحري رسمي : فزياد ابن عمرو اللخمي الذي سيّر إلى بلج بن بشر القشيري وأصحابه وقد حصرهم البربر في سبتة سنة ١٢٤ هـ سفينتين مشحونتين بالميرة كان يمنياً لخمياً ، وأبوفريعة وصاحبه تمام بن علقمة اللذان كان لهما بصر في ركوب البحر وتوليا نقل عبد الرحمن الداخل من أرض المغرب إلى ثغر المنكب بالأندلس في سنة ١٣٨ هـ يمنيان ، وطائفة البحريين الذين كانوا يرابطون على سواحل الأندلس، ويغزون في البحر التيراني يمنيون من بني سراج القضاعيين ، ومنهم بنو أسود الغسانيون[2].

ثم جاءت اللحظة التي كان لا بد للعرب من تمكين دفاعهم البحري بإنشاء مزيد من السفن في داري صناعة الاسكندرية وعكا ، وتطلع العرب إلى آسيا الصغرى كمورد جديد للأخشاب اللازمة لصناعة السفن بخلاف جبل لبنان وأحراج مصر العليا ، وفطنت بيزنطة إلى ما يهدف إليه العرب ، فأرادت أن تفوت عليهم فرصة الانتفاع من هذه الموارد البيزنطية ، فكان الاشتباك البحري الحاسم في ذات الصواري سنة ٣٤ هـ الذي سجل

(١) كان القادة البحريون الذي أدبهم عمر بن الخطاب أو لامهم لتغريرهم بالمسلمين في بحر فارس وبحر عمان وبحر الحبشة يمنيين : فالعلاء بن الحضرمي الذي حمل أهل البحرين في البحر إلى فارس بغير إذن عمر كان يمنياً حضرمياً ، وعرفجة بن هرثمة الأزدى الذي أغزي قومه في البحر كان يمنياً أزدياً ، وعلقمة بن مجزز المدلجي صاحب الحملة البحرية إلى الحبشة في سنة ٢٠ هـ كان يمني الأصل لخمياً .

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، ص ٢١ ، ٢٧ .

نهـاية السيطرة البحرية البيزنطية وبداية عصر القوة في تاريخ البحريـــة الإسلامية . ولم يلبث العرب بعد هذا الانتصار الحاسم أن تطلعوا إلى غزو جزر البحر المتوسط الشرقي والغربي ، وأدرك الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني نوايا المسلمين التي تستهدف السيطرة على حوض البحر المتوسط كله ، وقطع الإتصال بين بيزنطة وبين أملاكها في إيطاليا وصقلية والمغرب ، فعمد إلى نقـل عاصمته إلى سرقوصة بصقلية تركيزاً للدفاع عن إيطاليا أمام الدفع السريـع للفتح الإسلامي للمغرب[1].

وبعد فهذا البحث الذي نقدمه اليوم تتمة لبحثنا السابق عن البحرية في المغرب والأندلس ينقسم إلى موضوعين رئيسيين : الأول — يتناول تاريخ البحرية الإسلامية في الشام ومصر حتى نهاية العصر الفاطمي[2] لعبد العزيز سالم ، والثاني يعالج تاريخ البحرية الإسلامية في الشام ومصر في العصرين الأيوبي والمملوكي لمختار العبادي .

ويشرفنا أن نقدم هذا البحث في سلسلة منشورات جامعة بيروت العربية والله ولي التوفيق .

المؤلفان

بيروت في ٢٤ تشرين ثاني ١٩٧١

---

(١) أرشيبالد لويس ، ص ٩٤ .

(٢) اهتممت بوجه خاص بالبحرية الاسلامية في العصر الفاطمي باعتبار أنه العصر الذي برزت فيـه أهمية البحرية المصرية والشامية وأثبتت وجودها ، فخصصت لها باباً ثانياً قائماً بذاتـه ، واعتبرت الباب الأول بفصليه دراسة تمهيدية للبحرية الفاطمية التي لم يسبق للباحثين أن قاموا بدراستها بالتفصيل .

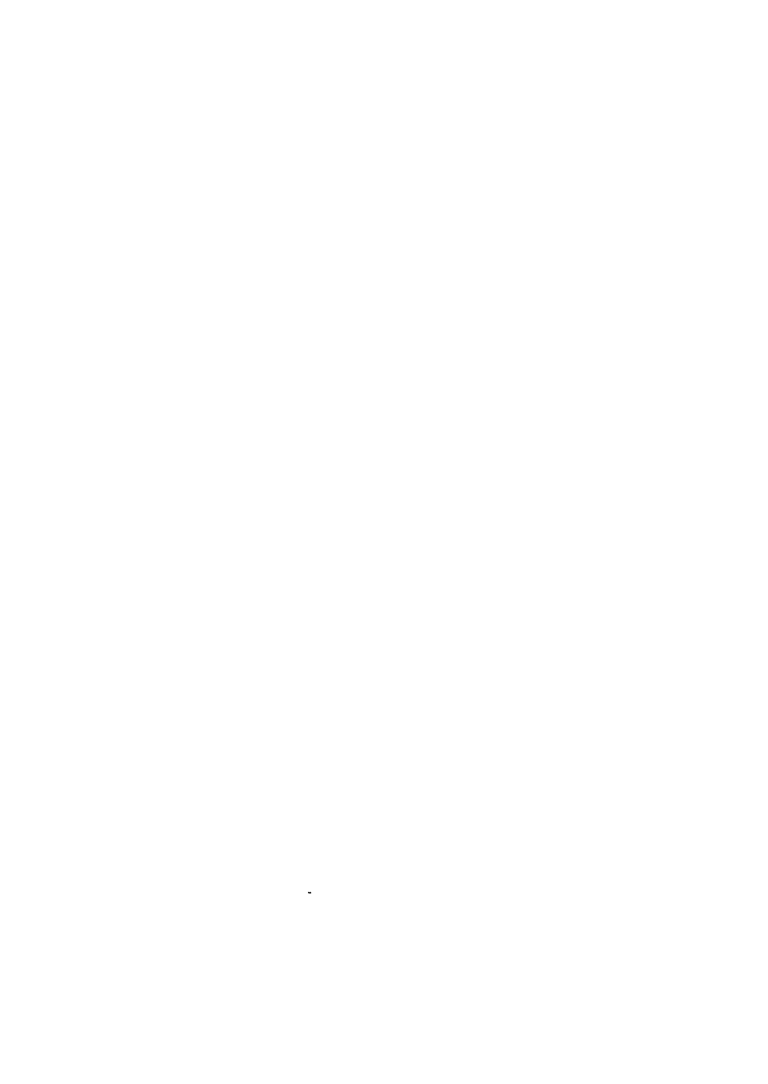


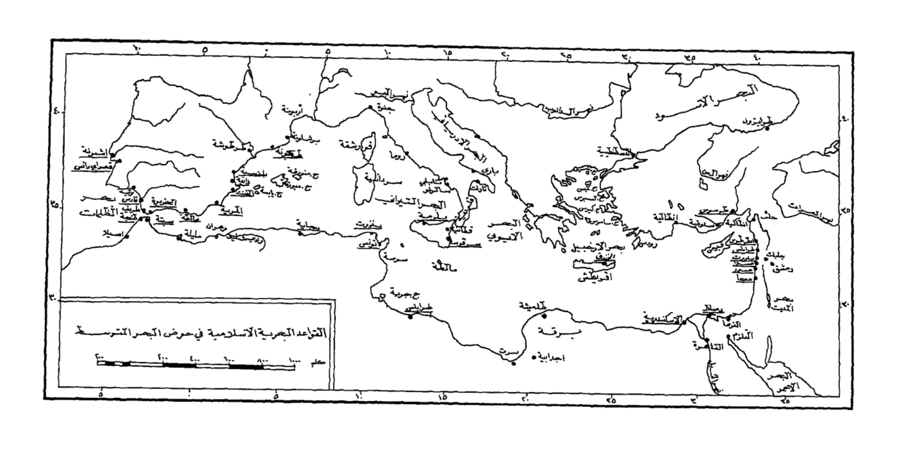
سفينة اسلامية (نقلاً عن مخطوطة محفوظة في لينينغراد)

من كتاب Arab Painting *(By : Skira)*

الأستاذة الدكتورة

إسمت غنيم





القواعد البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط
كلم
البحر الأسود
طرابزون
القسطنطينية
البحر الأدرياتي
باري
روما
جنوة
أربونة
برشلونة
طرطوشة
طركونة
قرشقة
سردانية
البحر التيراني
البحر الأيوني
بحر الأرخبيل
اقريطش
رودس
قبرص
أنطاكية
حلب
بعلبك
دمشق
بحر الظلمات
أشبونة
سبتة
مليلة
وهران
بجاية
تونس
سوسة
مالطة
ج. جربة
طرابلس
طلميثة
برقة
سرت
اجدابية
الإسكندرية
القاهرة
القلزم
الفرما
البحر الأحمر

البحرية الإسلامية في مصر والشام

من الفتح العربي حتى العصر الأيوبي

للدكتور السيد عبد العزيز سالم

الباب الأول

البحرية الإسلامية في مصر والشام منذ نشأتها حتى العصر الفاطمي

الفصل الأول: البحرية العربية الإسلامية في دور الإنشاء

الفصل الثاني: القوى البحرية في مصر والشام في ظل العباسيين والطولونيين



الفصل الأول
البحرية العربية الاسلامية في دور الإنشاء

(١)
نشأة البحرية الإسلامية

يعتبر الانتصار الحاسم الذي أحرزه المسلمون على الجيوش البيزنطية في موقعة اليرموك نقطة تحول هامة في حركة الفتوح الإسلامية أدت إلى انهيار قوى الروم وانفصال الشام عن جسم الامبراطورية البيزنطية . ويذكر المؤرخون أن هرقل عندما بلغه نبأ الكارثة التي حلت بجيشه في وقعة اليرموك رحل إلى القسطنطينية ، فلما تجاوز الدرب الذي يصل أرض الشام بأرض بيزنطة ، نظر إلى الأراضي السورية بأسى وقال يودعها بنظره : « عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو »[١].

وأخذت مدن الشام الكبرى في الشمال والجنوب تتساقط سريعاً الواحدة بعد الأخرى في أيدي المسلمين ، أما السواحل فلم يكد هؤلاء ينتهون من فتح دمشق حتى وجه يزيد بن أبي سفيان همه إلى فتح مدن الساحل الفينيقي ، ولم يأت عام ١٧ هـ حتى كان قد افتتح صيدا وبيروت وجبيل وعرقا فتحاً يسيرا ، وفي نفس الوقت كان عبادة بن الصامت يفتتح عنوة مدن الساحل الشمالي وهي اللاذقية وجبلة وأنطرطوس[٢].

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٥٦ ص ١٦٢ .

(٢) البلاذري ، المصدر السابق ص ١٥٧ – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة صادر ، بيروت ١٩٦٥ ج ٢ ص ٤٩٢ .

وأدى فتح بلاد الشام إلى فتح مصر، إذ كانت تربطها منذ أقدم العصور مصالح سياسية وحربية وتجارية واحدة، وكثيراً ما ارتبط الشام ومصر معاً، بفضل موقعها الجغرافي والمصالح المشتركة، في وحدة تاريخية وثيقة، وكان مصيرهما واحداً خلال فترات طويلة من التاريخ القديم والوسيط[١].

وسجلت الفتوح الشامية والمصرية تحولاً فجائياً في الاستراتيجية الدفاعية للعرب في هذه المرحلة من تاريخهم الإسلامي، فقد أحسوا بعد أن افتتحوا مدناً ساحلية تمتد من أنطاكية شمالاً حتى ساحل برقة غرباً بأهمية الدفاع البحري عنها، في وقت كانوا يدركون تمام الإدراك تخلفهم في الثقافة البحرية ليس بالنسبة لأعدائهم البيزنطيين فحسب، بل بالنسبة لسكان هذه البلاد المغلوبة الذين كانوا بحكم تطلعهم إلى البحر قد تمرسوا في خوض مياهه، ولا شك أن سبب إحساس العرب بالتخلف في المجال البحري يرجع إلى تعرض القسم الجنوبي من بلادهم — وأعني به اليمن وحضرموت وعمان — زمناً طويلاً لسيطرة الأحباش الذين استأثروا بالطريق التجاري عبر البحر الأحمر، ثم لسيطرة الفرس الذين قضوا على تجارة العرب في بحْرَي عمان وفارس (الخليج العربي حالياً) واحتكروا لأنفسهم تجارة الهند[٢]، هذا بالاضافة إلى طبيعة بلادهم الصحراوية حيث يندر وجود الأشجار التي تصلح أخشابها لصناعة السفن، وحيث تخلو من معدن الحديد اللازم لصناعة المراسي والمسامير والكلاليب، باستثناء اليمن[٣]، ومن الزفت والقطران،

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، الصلات التاريخية بين الشام ومصر في العصر الإسلامي، مجلة العلوم، بيروت العدد الخامس، مايو ١٩٦٤ — السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، بيروت ١٩٧٠ ص ٤٨٦ .

(٢) Ali Moh. Fahmy, Muslim sea power in the eastern Mediterranean, Cairo 1966, p. 48.

(٣) يوجد الحديد بعدن وفي الأراضي الممتدة ما بين صعدة والحجاز، وفي نجران أيضاً جبل كان يستخرج منه معدن الحديد. كذلك يتوفر الحديد في نقم وغمدان (راجع الهمداني، صفة جزيرة العرب، نشرة الأستاذ محمد بن عبدالله بن بليهيد النجدي، القاهرة، ١٩٥٣ ص ٢٠٢).

هذا بالإضافة إلى صعوبة الملاحة في البحر الأحمر لكثرة ما يعترض السفن فيه من صخور وشعاب مرجانية [1]. ولهذا السبب ، ولأنـه يدرك عظم القوى البحرية البيزنطية وسطوتها ، عمـد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب إلى اتباع سياسة بحرية دفاعية لمواجهة خطر استرداد البيزنطيين لسواحل الشام ومصر، متوسلاً في ذلك بوسائل برية ، كترميم القلاع والمناور والمراقب والمسالح الممتدة بحذاء الساحل، وشحنها بالمقاتلة والمرابطة [2]. وظل العرب يتبعون هذه السياسة إلى أن تهيأ لهم تثبيت أقدامهم وتمكين سيادتهم على الشام ومصر، فتطلعوا إلى مجاراة البيزنطيين في سياستهم البحرية الهجومية وبدأوا يؤسسون القوة البحرية الإسلامية ، حفاظاً على سيادتهم على الشام ومصر.

ويرجع الفضل الأعظم في إنشاء الأسطول العربي الإسلامي إلى معاوية ابن أبي سفيان ، عامل الشام في خلافة كل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، الذي فطن إلى أهمية الأساطيل في الدفاع عن السواحل أثناء قيام أخيه يزيد بغزو مدن الساحل : فقد تعرض للكثير من المتاعب في فتح بعض تلك المدن كقيسارية وطرابلس وعسقلان . أمـا قيسارية فقد عجز عمرو ابن العاص عن فتحها ، إذ كانت تتلقى الإمدادات من البحر، ويكاد يجمع المؤرخون على أن معاوية هو الذي تولى فتحها قسراً في شوال سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) [3] ، وقيل سنة ٢٠ هـ [4] ، بعد أن كان قد يئس من ذلك . وأما طرابلس فقد استعصت على المسلمين في ولاية يزيد بن أبي سفيان لمناعتها ووثاقة تحصيناتها ، وكان فتحها يستلزم حصاراً برياً وبحرياً قد يطول أمده كما حدث في حصار قيسارية الذي دام ما يقرب من سبع سنوات (من جمادى الأولى سنة ١٣ إلى شوال سنة ٢٠ هـ) فاضطر يزيد إلى إرجـاء

---

(١) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٧ ص ٣٣٥ .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٥٢ — Cheira : la lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947, p. 85.

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٩ .

(٤) نفسه ، ج ١ ص ١٦٩ .

فتح طرابلس حتى تتوفر لديه الإمكانيات[١]. أمـــا عسقلان فقد فتحها صلحاً بعد كيد ، وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة[٢]. فلما توفى يزيد ابن أبي سفيان في طاعون عمواس ، وآلت ولاية الشام إلى أخيه معاوية الذي كان يشاركه في فتوحه لمدن الساحل ، رأى معاوية الحالة السيئة التي وصلت إليها تحصينات المدن الساحلية ، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له حال هـذه السواحل ، ويقترح عليه إنشاء أسطول بحري للغزو في البحر ، فرد عليه عمر يأمره « بمرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيهـا ، وإقامة الحرس على مناظرها ، واتخاذ المواقيد لها ، ولم يأذن له في غزو البحر »[٣]. وامتثل معاوية لما أمره بـه عمر ، فحصّن الثغور الإسلامية وشحنها بالمقاتلة الذين يرابطون بها طوال فصل الصيف ، ويتولون حراستها في المناظر والأبراج والمناور، وأقطع من ينزل السواحل من المسلمين القطائع والأخائذ[٤]. وعلى هـذا النحو أصبحت سواحل الشام سلسلة متصلة من التحصينات التي ترابط فيها حاميات مرابطة ، تنقسم كل منها إلى عرافات أي مجموعات ، وكل عرافة تتألف من مائة رجل. وكانت هذه التحصينات مزودة في أعلاهـا بمواقيد يشعلها الحراس والقائمون بالدفاع عن الساحل عند اقتراب سفن الأعداء منه ليلاً. كذلك اهتم عمر بن الخطاب بسواحل مصر ولا سيما بثغر الإسكندرية ، « فكان يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية »[٥]. وقسّم عمرو بن العاص أجناده في مصر إلى قسمين متساويين : قسم أبقاه معه في الفسطاط ، وقسم وزعـه

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٣٢ .
(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٦٩ .
(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٥٢ .
(٤) نفسه ، ج ١ ص ١٥٢ .
(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والأندلس ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ ص ٢٥٨ – السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج ١ ، القاهرة ١٣٢١ هـ ص ٧٩ – المقريزي ، كتاب المواعظ والاعتبـار ، طبعة بيروت ١٩٥٩ ج ١ ص ٢٩٣ .

إلى نصفين ، أحدهما لرباط الإسكندرية وحدها ، والنصف الثاني لسائر السواحل المصرية ، ووكل عمرو بحراسة كوم الدكة قبلي الإسكندرية إلى قبيلة لخم ، ومن العجيب أن يعهد عمرو في هذه الآونة إلى قبائل اليمنية بالذات من لخم وجذام وكندة والأزد والحضارمة وخزاعة والمزاغنة بسكنى الإسكندرية بقصد حراستها وحراسة مينتها[1]. وقد قيل في فضل الرباط في الإسكندرية أقوال كثيرة ، وكتبت في ذلك رسائل عديدة[2] ، وقرن اسم الإسكندرية لذلك بالثواب والجهاد ، ولذلك عمرت بمن وفد إليها من المرابطة ، وازداد عدد الحامية المرابطة من ثلاثة آلاف في أول الأمر إلى ١٧ ألفاً أيام خلافة معاوية إلى ٢٧ ألفاً[3] ، ونزلها عدد من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين[4].

ولما استخلف عثمان بن عفّان في المحرم سنة ٢٤ هـ كتب إليه معاوية يستأذنه في غزوة قبرص ، ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها ، فرد عليه ينهاه عن ذلك كما نهاه عمر بن الخطاب من قبل[5] ، « ويأمره بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ، ففعل[6] ». وفي بداية خلافة عثمان تغلب البيزنطيون على بعض سواحل الشام ، فقصد لهم معاوية حتى افتتحها ، ثم رمّها وشحنها بالمقاتلة ، ومنحهم القطائع[7]. وفي نفس الوقت سيّر قنسطانز الثاني امبراطور الدولة البيزنطية حملة بحرية لمهاجمة

---

(١) النويري السكندري ، الإلمام بما جرت به الاحكام المقضية في وقعة الاسكندرية ، نسخة مصورة من مخطوطة الهند، محفوظة بكلية الآداب جامعة الاسكندرية برقم ٧٣٨ م ورقة ٧٧ ب. وراجع سبب اعتماده على اليمنية في المقدمة ص ٦ ، ٧ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٩٤ وما يليها .

(٣) عبد الهادي شعيرة ، الاسكندرية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، مقال في كتاب غرفة الاسكندرية التجارية ، ١٩٤٩ ص ٨٦ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٥) البلاذري ، ج ١ ص ١٨١ .

(٦) نفسه ، ص ١٥٢ .

(٧) نفسه ، ص ١٥٠ .

الإسكندرية بقيادة مانويل نجحت في الاستيلاء على الإسكندرية ، ولكنها أخفقت بعد ذلك عندما تمكن عمرو بن العاص ، الذي انتدب للدفاع عن مصر استجابة لطلب أهلها « لأن له معرفة بالحرب وهيبة في أنفس العدو »[١] ، من إيقاع الهزيمة بالبيزنطيين عند نيقيوس ، واستطاع بذلك أن يسترد الإسكندرية ، ويسحق القوة البيزنطية ، ويحرق عدداً كبيراً من السفن البيزنطية[٢].

وعندئذ عزم معاوية على السير في تنفيذ خطته في إعداد أسطول بحري حتى يتهيأ له أن يفتح مدينة طرابلس المنيعة من جهة ، ويغزو الجزر المواجهة لساحل الشام كأرواد وقبرص ورودس ، ويتخذها مراكز أمامية لتوجيه الغزوات البحرية إلى بلاد البيزنطيين من جهة ثانية . فاستحضر الأخشاب من غابات الأرز بلبنان ، وأرسلها في السفن إلى دار الصناعة بالإسكندرية التي لم يكن في مصر سواها حتى ذلك الحين ، استنتاجاً لما أورده البلاذري إذ يقول : « وكانت الصناعة بمصر فقط »[٣]. ويبدو أن دار الصناعة بعكا كانت معطلة منذ الفتح ، ولهذا السبب نشطت دار الصناعة بالإسكندرية في إنشاء سفن الاسطول الشامي المصري ، واستعان معاوية بجماعة من الملاحين العرب من بين الأزد الغساسنة لإدارة العمليات البحرية . وبعد أن تم إعداد عدد من السفن ، أخذ معاوية يفكر جدياً في فتح طرابلس التي كان يعتبرها كالشوكة القائمة في جانبه ، ويذكر البلاذري أنه وجّه لهذا الغرض القائد سفيان بن مجيب الأزدي إلى طرابلس وهي ثلاث مدن مجتمعة ، فبنى في مرج على أميال منها حصناً سمي حصن سفيان ، وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره ، وحاصرهم »[٤]. ونستنتج من ذلك أن سفناً إسلامية حاصرت طرابلس من البحر من جهة المينة حتى

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٦٢ .
(٢) تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، ص ٦٨ - ٧٠ .
(٣) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٠ .
(٤) نفسه ، ص ١٥٠ .

تمنع وصول السفن البيزنطية إليها . والظاهر أن هـذه السفن كانت قليلة أو أنها كانت ملازمة للساحل بدليل أن أهـل طرابلس لما اشتد عليهم الحصار تمكنوا من الإتصال بملك الروم ومطالبته بإرسال عدد من المراكب تحملهم ، فجاءتهم هـذه المراكب فركبوها ليـلاً وفرّوا . « فلما أصبح سفيان — وكان يبيت كل ليلة في حصنه ويحصن المسلمين فيـه ، ثم يغدو على العدو — وجد الحصن الذي كانوا فيه خالياً فدخله »[1]. ولا يمكننا أن نفسر وصول السفن البيزنطية إلى ميناء طرابلس في غفلة من المسلمين إلا بقلة عدد السفن العربية القائمة بالحصار، ومهارة البحريين البيزنطيين في التسلل إلى الميناء وحمل من شاءوا من أهل طرابلس إلى الأراضي البيزنطية. وأغلب الظن أن فتح طرابلس على يـد سفيان بن مجيب الأزدري تم في عام ٢٦ هـ ، أي بعد الفتح الثاني للاسكندرية بأمد وجيز . وشجع فتح طرابلس معاوية على الخروج لغزو قبرص ، فكتب إلى الخليفة الراشـد عثمان في عام ٢٧ هـ يهوّن عليه ركوب البحر إلى قبرص، فأذن له بغزو الروم بحراً في قبرص على ألا يحمل الناس على الغزو كرهاً ، وأن يصحب معه امرأته فاختة بنت قرظة . واشترك مع معاوية في غزوة قبرص جموع من الصحابة من بينهم أبو الدرداء ، وأبو ذر الغفاري ، وفضالة بن عبيـد الأنصاري ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت الذي حمـل معه زوجتـه أم حرام بنت ملحان الأنصارية[2]. وأعدت السفن لنقل القوة العربية على ساحل عكا ، وهناك أقام معاوية بعض الوقت رمم خـلاله تحصينات عكا وصور[3] ، ثم أبحرت الحملة إلى قبرص في ربيع سنة ٢٨ هـ ، وكانت هذه الحملة أول غزو للمسلمين في البحر ، « ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها »[4] . وما كادت السفن العربية ترسو إلى ساحلها حتى أذعن

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ١٥١ .

(٢) نفسه ، ص ١٨١ .

(٣) نفسه ، ص ١٤٠ .

(٤) نفسه ، ص ١٨١ .

أهل قبرص بالطاعة للمسلمين ، وبعث أركونها يطلب الصلح ، فصالحه معاوية على جزية سنوية يؤديها له أهلها ، واشترط عليهم أن يلتزموا موقفاً حيادياً في الصراع العربي البيزنطي ، وأن يبلغوا المسلمين بسير عدوهم من البيزنطيين [١] . فلما كانت سنة ٣٢ هـ أعان أهـل قبرص البيزنطيين على الغزاة في البحر بسفن قدموها لهم فغزاهم معاوية في سنة ٣٣ هـ ، وقيـل في ٣٥ ، في خمسمائة سفينة ، وافتتح قبرص في هذه المرة عنوة ، ثم أقرهم على صلحهم ، وبعث إلى قبرص بجيش عربي عدته ١٢ ألفاً من أهـل الديوان لتعريبها ، ونقل إليها جماعة من بعلبك [٢] .

وما كاد معاوية يظفر بالخلافـة في سنة ٤١ هـ بإجماع المسلمين [٣] حتى عمل على تدعيم الدفاع عن السواحل . والظاهر أن طرابلس انتقضت عليه في أول خلافته ، وتمكن بعض الروم من أهلها من ذبح عاملها وإحراق قطع من الأسطول العربي الراسية في مينائها [٤] ، ولكن معاوية تمكن من القضاء على هذه الحركة ، ولعل ذلك كان من الأسباب التي حملته على نقل جماعة من الفرس والأساورة إلى سواحل الأردن والشام في سنة ٤٢ هـ [٥] ، ومن بينها طرابلس [٦] . ويشير اليعقوبي إلى أن أهـل جبيل وصيدا وبيروت قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية [٧] ، وسنجده يأمر بنقل قوم من زط البصرة والسيابجة في سنة ٤٩ أو ٥٠ هـ إلى السواحل [٨] ، وذلك على أثر غزوة بحرية قام بها البيزنطيون على سواحل الشام في سنة ٤٩ هـ [٩] .

---

(١) البلاذري ، ص ١٨١ .
(٢) نفسه ، ص ١٨٢ .
(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٦٠٧ وما يليها .
(٤) جرجى يني ، تاريخ سوريا ، بيروت ١٨٨١ ، ص ٣٧٨ .
(٥) البلاذري ، ج ١ ص ١٣٩ .
(٦) ذكر اليعقوبي أن أهل مدينة طرابلس قوم من الفرس كان معاوية بن أبي سفيان نقلهم إليها (اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ ص ٣٣٧)
(٧) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .
(٨) البلاذري ، ص ١٩٢ .
(٩) نفسه ، ص ١٤٠ .

سفينة بيزنطية تستخدم النار اليونانية (نقلاً عن مخطوطة من القرن الرابع عشر الميلادي)
من كتاب Ships and Seamanship in the Ancient World *(By : Lionel Casson)*



ومنذ ذلك الحين اهتم معاوية بإصلاح دار صناعة عكا[1] ، وإعدادها للعمل من جديد ، فأمر بجمع الصناع والنجارين فجمعوا ، ورتبهم على السواحل . ولم تزل السفن تصنع في الشام بعكا حتى آلت الخلافة إلى المروانية فنقلوها إلى صور في عهد هشام بن عبد الملك ، وظلت بصور حتى أيام الواقدي المتوفي ٢٠٦ هـ[2] .

(٢)

عوامل قيام البحرية الإسلامية

بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه ، هناك ثلاثة عوامل ساعدت على قيام البحرية الإسلامية ، أولها سعى المسلمين إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، والثاني توافر المواد الخام ودار الصناعة والصناع والملاحين في مصر والشام ، والثالث ارتباط مصر والشام وتضامنهما في العمليات الحربية ضد البيزنطيين .

١ - سعي المسلمين إلى الاستيلاء على القسطنطينية :

من الواضح - كما سبق أن أشرنا في المقدمة - أن العرب كانوا يهدفون إلى القضاء على الإمبراطورية البيزنطية على نحو ما حدث بالنسبة للدولة الساسانية ، فلم يكن العرب بعد الفتوح الشامية والمصرية مطمئنين إلى جانب الروم ، ولذلك كان عليهم أن يفتتحوا القسطنطينية قلب بيزنطة والعالم القديم ، وقلعة الروم المنيعة ، والرأس المدبر للتنظيم البحري للبيزنطيين في حوض البحر المتوسط الشرقي . ونستدل مما كتبه عثمان بن عفان إلى غزاة المسلمين في المغرب أن القسطنطينية تفتح من جهة الأندلس[3] . وقد

---

(١) البلاذري ، ص ١٤٠ - ياقوت ، معجم البلدان ، مادة عكا .

(٢) نفسه ، ص ١٤٠ .

(٣) كتب الخليفة الراشد عثمان يقول : « أما بعد فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس » (ابن الأثير ، ج ٣ ص٩٣ - محمد حميدالله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، بيروت ١٩٦٩ ص ٣٩٥ - مختار العبادي ، دراسات في تاريخ الأندلس ، ص٥)

وضح هذا الاتجاه بعد أن افتتح موسى بن نصير الأندلس ، وخطر له أن يقتحم الأرض الكبيرة (بلاد افرنجة) ويخترق أوربا ، ويفتح القسطنطينية من الجهة الغربية أي جهة البر (١) ، ونستدل على ذلك أيضاً من المحاولات المتكررة التي قام بها ولاة الأندلس في الفترة من ١٠٠ هـ إلى ١١٤ هـ على وجه الخصوص للاستيلاء على الأقاليم الجنوبية من فرنسا : وهي سبتمانية وأقطانية وبروفانس وبرغندية (٢) . والظاهر أن فشل معاوية في فتح القسطنطينية بعد حصار دام سبع سنوات (٥٤ — ٦٠ ه) وما أعقبه من فشل محاولة سليمان بن عبد الملك في عام ٩٨ ، كان من العوامل التي دفعت المسلمين في الأندلس ، منذ عام ١٠٠ ه أي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، إلى البدء بغزو ما وراء البرتات ، ولكن الهزيمة النكراء التي مني بها المسلمون في موقعة بلاط الشهداء (سنة ١١٤ ه) وضعت حداً لمحاولاتهم (٣) .

كان هذا الهدف حافزاً للمسلمين منذ البداية على انشاء أسطول حربي يتوسلون به بادئ ذي بدء للسيطرة على جزر البحر المتوسط الشرقي ، واتخاذها نقط ارتكاز أمامية وقواعد حربية ومراسي لأساطيلهم تجاه السواحل البيزنطية ، حتى يتهيأ لهم الانقضاض من هذه المراكز على القسطنطينية . وقد رأينا كيف نجح معاوية في غزو قبرص في سنة ٢٨ ه ، ثم غزاها للمرة الثانية في سنة ٣٣ ه ، فلما فطن قنسطانز الثاني إلى تحركات السفن الإسلامية في عام ٣٤ ه وإلى نوايا العرب التوسعية في آسيا الصغرى عبر مناطق الثغور الشامية الممتدة إلى شمال أنطاكية كدرب بغراس والمصيصة ، اشتبك معهم بكل ما لديه من قوى بحرية في الموقعة المعروفة بذات الصواري ، وفيها انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً ثبت لهم السيادة

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٥٩ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٠٥ .

(٢) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، مصر سنة ١٣٥٢ ه ، ص ٦٤ - ١٠٥ — حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٢٤٢ - ٢٧٨ — السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٣٤ - ١٥٢ .

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٤٦ .

البحرية في البحر المتوسط ، وأدى إلى تقويض أسطورة التفوق البحري للبيزنطيين . ورأى قنسطانز أمـام تحول ميزان القوى البحرية إلى صالح العرب ، اتخاذ صقلية قاعـدة له سنة ٤٢ هـ صيانة لأملاكه في افريقية وصقلية وإيطاليا من غزو اسلامي محقق [١] ، ولكنه لم يلبث أن اغتيل على يد أحد قواده في سرقوصة سنة ٤٨ هـ (٨٦٦ م) . ثم شغل معاوية بالمطالبة بدم عثمان منـذ سنة ٣٥ هـ ومعارضة الخليفة الراشد الرابع علي ابن أبي طالب من أجـل الظفر بالخلافة ، عن مواجهة البيزنطيين ، فاغتنم هؤلاء الفرصة وشنوا على سواحل الشام هجوماً عاتياً في سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) سبب خسائر فادحة للمسلمين ، وقـد حمل ذلك معاوية على تنشيط دار صناعة عكا . ومنذ ذلك الحين أخذ المسلمون يشكلون خطراً متزايداً على البيزنطيين : فقد استعمل معاوية على البحر القائـد العربي عبدالله بن قيس الذي غزا خمسين غزوة مـا بين شاتية وصائفة ، واستهل معاوية جهاده ضد القسطنطينية بأن أغزى سفيان بن عوف العامري إلى الطوانة بأرض الروم ، فأصيب جيشه بالحمى والجدري ، ثم أغزى بعـده فضالة بن عبيد الأنصاري في سنة ٤٩ هـ براً إلى القسطنطينية ، وسيَّر ابنه يزيد في قوة إسلامية لتعزيز هذه الحملة فسميت غزوة يزيد بن معاوية بالرادفة [٣] .

وبـدأ العرب ينافسون البيزنطيين في البحر ، ونجح جنادة بن أبي أمية الأزدي في فتح جزيرة رودس عنوة في سنة ٥٢ هـ ، وأنزلهـا قوماً من المسلمين [٤] . وفي سنة ٥٤ هـ افتتح جنادة بن أبي أميـة الأزدي جزيرة

---

(١) أرشيبالد لويس ، ص ٤٩ .

(٢) Charles Diehl, Histoire du moyen âge, t. III: le monde oriental, Paris 1936 p. 239.

مختار العبادي ، دراسات في تاريخ العرب ، ص ٥ – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٢٠ .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة صادر ، بيروت ج ٢ ص ٢٢٩ – المسعودي ، مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤ – الطبري ج ٦ ص ١٣٠ .

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٨ .

أرواد (كزيكوس) في ميـاه القسطنطينية ، وأسكنها معاوية المسلمين ، واتخذها قاعدة لتوجيه حملاته البحرية على القسطنطينية أثناء حرب الأعوام السبعة ، فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة القسطنطينية [1] . وفي سنة ٥٥ هـ غزا جنادة اقريطش [2] ، وتهيأ له بعد ذلك مهاجمة البيزنطيين في القسطنطينية عاصمتهم [3] .

٢ ـ توافر المواد الخام والأيدي العاملة الماهرة :

عندما عزم معاوية بن أبي سفيان وهو بعد والٍ على الشام على إنشاء أسطول عربي إسلامي ، كان يعلم تماماً أن في إمكانه تحقيق هذا الهدف ، فالأخشاب التي يمكن أن تصنع منهـا ألواح السفن والصواري والمجاذيف تتوافر في مناطق متعددة من الأراضي العربية في مصر والشام : فأشجار الصنوبر القوي والأرز والبلوط والعرعر تزخر بها جبال لبنان وسورية ، كما أن أخشاب السنط المصري الصالحـة لعمل الصواري وضلوع جوانب السفن ، وخشب الجميز والأثل واللبخ والدوم التي تصلح لصناعة المجاذيف والقرايا اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور [4] . وكانت أشجار السنط تكـــثر في البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية [5] . كذلك كان في إمكان معاوية استغلال معدن الحديد المتوفر في مصر والشام واليمن لعمـل المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس ، كما يتوفر بمصر القطران الوارد من ليبيا [6] وهو مادة لازمة لقلفطة السفن ، ونبات يقال له الدقس كانت تصنع منه حبال السفن [7] . وبالإضافة إلى

---

(١) ابراهيم العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣ ص ١٦٥ .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٣) ابراهيم العدوي ، قوات البحرية العربية ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٥٦ وما يليها .

(٤) الفريد لوكاس ، المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمـة الدكتور زكي اسكندر القاهرة ، ١٩٤٥ ص ٧٠٧ .

(٥) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١١٠ .

(٦) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، نشره دوزي ودي غوية ، ليدن ١٨٩٣ ص ١٣٦ .

(٧) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ ، ص ٦٦ .

هذه المواد الضرورية لصناعة السفن كانت تتوفر في الشام ومصر الأيدي العاملة الخبيرة . ونستدل من الوثائق البردية التي ترجع إلى عهد قرة ابن شريك والي مصر عن وظائف كثير من صناع السفن في مصر كالنجارين والمقلفطين وقصّاري الأقمشة ممن كانوا يشتغلون في دار الصناعة بالاسكندرية [1]. وقد لعب القبط دوراً رئيسياً في صناعة الأسطول الإسلامي السوري والمصري والمغربي كما سبق أن أشرت إليه في مقدمة الكتاب ، وشاركوا في المعارك البحرية التي خاضها العرب ضد البيزنطيين . وقد ازدادت أهمية البحرية الإسلامية منذ أن أسس مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر من قبل معاوية دار صناعة جزيرة الروضة في سنة ٥٤ هـ على أثر قيام البيزنطيين بمهاجمة بلدة البرلس في سنة ٥٣ هـ ، وفي هذه الغزوة قتل وردان مولى عمرو بن العاص ، وعائذ بن ثعلبة البلوى ، وأبو رقية عمرو بن قيس اللخمي في جمع كثير من الناس [2] . أما أهل الشام وبالذات سكان السواحل اللبنانية من صور وصيدا جنوباً إلى جبيل وطرابلس شمالاً فقد برعوا في صناعة السفن وتمرسوا في ركوب البحر ، ونبغوا في قيادة الأساطيل منذ أقدم العصور بحكم تطلعهم إلى البحر واحتكاكهم التجاري بعالم البحر المتوسط القديم ، ونستدل من ظهور أشكال السفن الصيدونية منقوشة على عملات صيدا في العصر الفارسي مثلاً على أن صيدا لعبت دوراً هاماً في التاريخ البحري القديم بحيث اتخذت السفن رمزاً ينقش على عملاتها ، فقد اشتركت صيدا في الحرب الفارسية اليونانية في عهد كل من احشويرش وارتحشتا الأول [3] . ولا ينبغي أن ننسى أن معاوية اعتمد أيضاً على عناصر عربية يمنية تنتمي إلى قضاعة كانت قد استقرت في مشارف الشام قبل نزوح الأزد الغساسنة وأعني بهم بني سليح بن حلوان القضاعيين [4] ،

---

(١) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٢) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق رفن جست ، بيروت ١٩٠٨ ص ٣٨ .

(٣) عبد العزيز سالم ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٨ .

(٤) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، طبعة بيروت ص ١٨٦ .

ثم غلبهم الأزد الغساسنة وحلوا محلهم فيما يقرب من القرن الثاني الميلادي [١] ، وقد سبق أن أشرنا في مقدمة الكتاب إلى احتفاظ هؤلاء اليمنية بتقاليدهم البحرية التي ورثوها عن أجدادهم السبئيين والحميريين . ويكفي أن نذكر أسماء ثلاث شخصيات أزدية غسانية لعبت دوراً هاماً في قيام البحرية الإسلامية في العصر الأموي : هم جنادة بن أبي أمية الأزدي فاتح جزيرتي رودس وإقريطش ، وسفيان بن مجيب الأزدي فاتح طرابلس الشام التي كانت قد استعصت على المسلمين زمناً طويلاً ، وحسان بن النعمان الغساني مؤسس البحرية في تونس ، وقد أشرنا فيما سبق إلى نزول كثير من القبائل اليمنية في سواحل مصر لاسيا الاسكندرية للرباط والحراسة .

٣ - ارتباط مصر والشام وتضامنهما في العمليات الحربية ضد البيزنطيين :

حتم الموقع الجغرافي لمصر وبلاد الشام والمصالح السياسية والاقتصادية المشتركة قيام روابط وثيقة بين القطرين الشقيقين منذ أقدم العصور التاريخية ، تدل عليها بعض المظاهر الحضارية في الاقتصاد ، وفي الفكر والدين والفن [٢] ، وقد تأكدت هذه الصلات التاريخية وتوثقت الروابط الاقتصادية والسياسية عبر التاريخ القديم والتاريخ الوسيط ، بحيث ارتبط البلدان بمصير واحد في معظم الأحوال : فتعرضا للسيطرة الأجنبية الأشورية والفارسية واليونانية والرومانية في العصر القديم وخضعا للدولة البيزنطية ، ثم دخلا في فلك الدولة العربية الإسلامية ، وارتبطا بوحدة وثيقة زمن الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك ، وأصيبا بكارثة الغزو الصليبي ، والغزو المغولي والغزو العثماني .

وأدرك العرب حقيقة التلاحم والتواصل بين البلدين الشقيقين منذ الفتح العربي الإسلامي للشام ، فاستلزم فتح الشام فتح مصر . وفي عصر الخلافة

---

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ١٩٧١ ص ٢٢٦ .
(٢) رشيد الناضوري ، أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ .

الراشدة خاض الأسطول المصري مـع الأسطول الشامي المعارك البحرية ضد البيزنطيين، وفيها اشترك مقاتلة من القبط مع إخوانهم المسلمين، وفطن معاوية منذ بداية الصراع بينه وبين الخليفة الراشد علي بن أبي طالب إلى أهمية ضم مصر إلى سلطانه، فانتدب عمرو بن العاص للاستيلاء عليها وضمها إلى ملكه بالشام قبل اجتماع الحكمين في دومة الجندل حرصاً منه على ضمان التفوق البحري. ومنذ ذلك الحين أصبح تاريخ مصر هو تاريخ الشام ومصير مصر مصيره، وتساند البلدان في المحن وتكاتفا في الأزمات، فكانت مصر خلال مراحل الكفاح التاريخي للعرب في العصر الوسيط المعقل الأمنع للاسلام ومركز الثقل في المنطقة كلها، وعليها وقع عبء النضال في معظم فترات التاريخ الوسيط ضد قوى العدوان لاسيا الصليبي والمغولي الذي انحصر هدفه على سحق قوى مصر وقهرها [1]، وكان ذلك من أسباب انتقال مسرح الصراع الإسلامي الصليبي إلى مصر. وكان للشام أيضاً الفضل الأكبر في إنقاذ مصر والدفاع عنها عندما انتهز الصليبيون فرصة ضعفها وحاولوا الاستيلاء عليها زمن الخليفة الفاطمي العاضد، وشهدت مصر صراعاً عنيفاً بين نورالدين محمود بن زنكي الداعي إلى تأليف جبهة إسلامية متحدة وبين الصليبيين في سبيل ضم مصر [2].

وكان لتضامن مصر والشام في مرحلة التحدي البيزنطي لقوى الإسلام بعد حركة الفتوحات العربية الإسلامية، ووقوف البلدين معاً إبان عمليات الغزو البحري التي كان يوجهها البيزنطيون إلى سواحل الشام ومصر، أكبر الأثر في تحقيق أمل معاوية في إنشاء بحرية إسلامية، ولم تضن مصر عليه بخبرات ملاحيها وصنّاعها الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها [3]، وكان من أثر هـذا التعاون الوثيق قيام

---

(١) جوزيف نسيم، الوحدة وحركات اليقظة إبان العدوان الصليبي، الاسكندرية، ١٩٦٧ ص٥١
(٢) جمال الدين الشيال، وحدة مصر وسورية في العصر الإسلامي، محاضرات جامعة الاسكندرية سنة ١٩٥٨ ص ٩.
(٣) فلهلم هونيرباخ، البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية، تطوان ١٩٥٤ ص ١٨ – مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٤.

بحرية عربية إسلامية ، شامية مصرية مشتركة ، حولت خطط العرب من استراتيجية دفاعيـــة إلى هجومية ، في مرحلة مبكرة للغاية من تاريخهم الإسلامي ، وغمرت صفحات هذا التاريخ بالأمجاد والمفاخر والبطولات .

(٣)

الوقائع البحرية الهامة بين العرب والبيزنطيين حتى نهاية العصر الأموي

خاض العرب ثلاثة وقائع بحرية هامة ضد البيزنطيين : الأولى حسمت السيادة البحرية في حوض البحر المتوسط ، وقلبت التفوق البيزنطي لصالح المسلمين ، وأعني بها موقعة ذات الصواري . أما الموقعتان الأخريان المتعلقتان بحصار المسلمين للقسطنطينية ، مرة في خلافة معاوية ومرة أخرى في خلافة سليمان بن عبد الملك ، فقد صاحبهما الفشل وتسببتا في تدمير العدد الأعظم من قطع الأسطول الإسلامي .

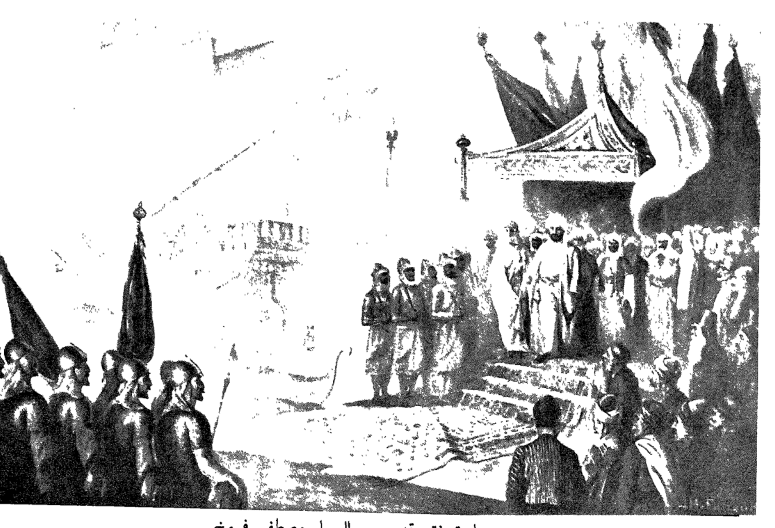
موقعة ذات الصواري :

تشير المصادر العربية إلى أن معاوية خرج مع أهل الشام ومصر في أسطول من مائتي مركب[١] ، تولى قيادته البحرية عبدالله بن سعد ، مستهدفاً مهاجمة الدولة البيزنطية في أراضيها ، وبلغت هذه الأنباء قنسطانز ، فاتخذ أهبته لمعركة حامية ، وأعـد أسطولاً هائلاً من ٥٠٠ سفينة وقيـل ٦٠٠ وقيل ٧٠٠ « لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام » للانتقام لما أصابهم على أيدي المسلمين في إفريقية[٢] . وإذا بحثنا هذا الدافع وجدنا أن العرب

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٥٦ .

(٢) الطبري ، ج ٥ ص ٦٩ (أحداث سنة ٣١ هـ) وفي رواية كان الاسطول البيزنطي مؤلفاً من ألف سفينة (ابن عبد الحكم ، ص ٢٥٦) .



معاوية يفتح قبرص — للرسام مصطفى فروخ



في الفترة ما بين سنة ٢٨ هـ التي تسجل حملة عبدالله بن سعد على إفريقية وغزو معاوية لقبرص، حتى سنة ٣٤ هـ التي وقعت فيها معركة ذات الصواري ، لم يقوموا بنشاط فعال في إفريقية [١] ، كما أن التفسير الذي أورده الدكتور ابراهيم أحمد العدوي للاشتباك البحري في ذات الصواري ويتلخص في أن أخباراً ترامت إلى قنسطانز باستعدادات بحرية هائلة وأخرى برية يقوم بها معاوية لضرب عاصمة البيزنطيين الضربة الأخيرة ، يبدو لنا غير مقنع ، لأنه لا يستند لا على أسانيد وثائقية ولا حتى على استدلالات منطقية ، فالبحرية الإسلامية كانت ما تزال بعد في دور التكوين والإنشاء ، ولا يعقل أن يقوم العرب في هذه المرحلة المبكرة من تاريخهم البحري بغزو بيزنطة المدينة المنيعة التي يرجع إلى حصانتها وروعة موقعها الفضل في استمرار الدولة البيزنطية حتى نهاية العصر الوسيط [٢] . ولما كانت الموقعة قد دارت بالقرب من ساحل ليكيا ، فالأرجح أن هناك سبباً آخر دعا العرب إلى الاقتراب من هذا الساحل بآسيا الصغرى ، وأعتقد أنهم كانوا يسعون إلى الحصول على مصدر جديد للأخشاب الجيدة اللازمة لصناعة السفن ، مثل خشب البلوط الصلد اللازم لصناعة الصواري والقرايا والأقواس ، وخشب التنوب الكيليكي الذي ينمو في آسيا الصغرى ، والعرعر الشبيه بشجر الأرز [٣] ، ونستدل على هذا الرأي بأن كلمة ذات الصواري لم تطلق نسبة إلى كثرة صواري السفن ، كما يزعم فريق من المؤرخين العرب [٤] ، ولكن نسبة إلى موضع بهذا الإسم استنتاجاً من قول الطبري : « فركب في مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري ، فلقوا

---

(١) راجع : عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامي ، وهو الجزء الثاني من كتاب المغرب الكبير ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٧٤ .

(٢) استعصت القسطنطينية مرات عديدة على الغزاة والفاتحين عبر التاريخ ، وأهم هؤلاء الغزاة الجرمان والبلغار والعرب والروس والمغول .

(٣) لوكاس ، المواد والصناعات ، ص ٦٩٤ - ٧٠٣ .

(٤) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ١٣ .

جموع الروم في خمسمائة مركب أو ستمائة »[1] ، وقوله أيضاً : « وأقام عبدالله بذات الصواري أياماً بعد هزيمة القوم »[2] ، ولا يمكن أن يسمى موضع بهذا الاسم إلا لكونه مصدراً لأخشاب تصنع منها الصواري . والظاهر أن قنسطانز كان قد ترامت إليه أنباء هذه الحملة بدليل أنه كان متأهباً لاستقبال سفن الأسطول الإسلامي بسفن لم ير العرب مثل عددها قط . ولو أن العرب كانوا ينوون حقاً غزو القسطنطينية لما غامروا بالخروج في سفن قليلة نسبياً ولما هالهم عدد السفن البيزنطية . ومعرفة قنسطانز مسبقاً بقدوم السفن العربية إلى الساحل البيزنطي يدل على أحد أمرين : إما أن مجيء هذه السفن العربية إلى الساحل المذكور لم يكن للمرة الأولى ، وأنه سبق لهم أن قدموا إليه ، فوصلت أنباء ترددهم على الساحل إلى قنسطانز عن طريق سكان المنطقة ، فترصد لمجيئهم ، وهذا التفسير يؤكد وجهة نظري في تبرير وصول السفن العربية إلى تلك النواحي وقلة عددها قياساً إلى سفن الروم ثم اصطدامها بالأسطول البيزنطي كله ، أو أن يكون قنسطانز قد علم بتحركات المسلمين وأطلع على نواياهم عن طريق عيونه وجواسيسه الذين بثهم على سواحل الشام ، بدليل ما كان يحدث في هذه السواحل من حركات انتقاض كما حدث في طرابلس والاسكندرية ، الأمر الذي دعا معاوية في نهاية الأمر إلى الإقدام على تبديل سكان الساحل بعناصر سكانية جديدة وافدة ، من الفرس والزط .

وأياً ما كان السبب في خروج المسلمين إلى ساحل آسيا الصغرى ، فقد هال المسلمين منظر البحر وقد امتلأ سفناً بيزنطية . ويورد الطبري رواية على لسان مالك بن أوس بن الحدثان أحد رجال المسلمين قال : « كنت معهم ، فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط »[3] . واشتبكت سفن المسلمين مع سفن الروم في معركة عنيفة ، فربط المسلمون

---

(١) الطبري ، ج ٥ ص ٧٠ (حوادث ٣١) .
(٢) نفسه – ابن الأثير ، ج ٣ ص ١١٨ .
(٣) الطبري ، ج ٥ ص ٧٠ .

سفنهم بعضها إلى بعض وحولوا المعركة البحرية إلى معركة أقرب ما تكون إلى المعارك البرية ، واشتد القتال وقتل من الجانبين أعداد هائلة ، واختلطت دماء القتلى بمياه البحر فصبغته بلونها الأحمر القاني ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً [١] . ولكن المعركة انتهت بانتصار حاسم للمسلمين [٢] . وبهذا الانتصار العربي ثبتت للعرب السيطرة على حوض البحر المتوسط والتفوق على البيزنطيين [٣] ، ويعلق الأستاذ فتحي عثمان على انتصار العرب في ذات الصواري بأنها « تعتبر حداً فاصلاً في تاريخ البحر المتوسط ، ذلك أن قنسطانز كان يرمي إلى تحطيم قوة المسلمين البحرية في مهدها ، ولو أنه وفق في ذلك لظلت سيادة البحر الأبيض أو حوضه الشرقي على الأقل بيد البيزنطيين دون المسلمين » [٤] .

حصار المسلمين الأول للقسطنطينية (٥٤ – ٦٠ هـ / ٦٧٣ – ٦٧٩ م)

مهد معاوية بن أبي سفيان للحروب التي خاضتها قواته البحرية والبرية حول القسطنطينية نفسها فيما بين عامي ٥٤ ، ٦٠ هـ بحملات استطلاعية برية وبحرية متتابعة بقصد دراسة الطرق المؤدية إلى الحاضرة البيزنطية ، نذكر من بينها شاتية بسر بن أبي أرطأه بأرض الروم في سنة ٤٣ هـ التي بلغ فيها القسطنطينية ، وفقاً لما رواه الواقدي ، وإن كان فئة من المؤرخين طعنوا في صحة هذا التاريخ [٥] ، وحركة بسر البحرية في سنة ٤٤ هـ ،

---

(١) الطبري ، ج ٥ ص ٧٠ .

(٢) راجع تفاصيل المعركة في :
ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٨ – الطبري ، ج ٣ ص ٦٩ ، ٧١ – الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ١٣ – حسين مؤنس ، أثر ظهور الاسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية في البحر المتوسط ، المجلة التاريخية ، مايو ١٩٥١ ص ٩٠ – ٩٤ – ابراهيم أحمد العدوى ، قوات البحرية العربية ، ص ٤٤ – ٥٢ .

(٣) ابراهيم أحمد العدوي ، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، ص ٦٤ – Aly Fahmy, op. cit. p. 89.

(٤) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٨ .

(٥) الطبري ، ج ٦ ص ١٠٣ .

وشاتية مالك بن عبيد الله بأرض الروم في سنة ٤٦ هـ ، وشاتية مالك بن هبيرة بأرض الروم في سنة ٤٧ ، وصائفة عبدالله بن قيس الفزاري بحراً ، وغزوة مالك بن هبيرة السكوني بحراً ، وغزوة عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر في البحر سنة ٤٨ هـ . وفي سنة ٤٩ هـ (٦٦٨ م) أرسل معاوية حملة برية لغزو القسطنطينية بقيادة سفيان بن عوف ثم أردف به ابنه يزيد بعدما أصاب المسلمين في غزاتهم جوع ومرض شديد ، وصحب يزيـــد بن معاوية معه ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري [١] ، فأوغلت الحمـلة في بلاد الروم حتى بلغ المسلمون القسطنطينية ، واشتبكوا مع البيزنطيين في قتال عنيف ، وتفانى المسلمون في القتال ، واستشهد من أبناء الصحابة عبدالعزيز بن زرارة الكلابي ، فبلغ خبر استشهاده معاوية فقال فيه « والله هلك فتى العرب » [٢] . وفي هـذه الوقعة توفي أبو أيوب الأنصاري وهو يحاصر القسطنطينية ، فدفن بالقرب من سورها . وعاد يزيد بعد ذلك مع جيشه إلى الشام في نفس العام .

وظل المسلمون يهاجمون الأراضي البيزنطية صيفاً وشتاءً في البر والبحر حتى استولى الأسطول على أزمير واحتل ليكيا ، كما استولى على جزيرة رودس وكوس وخيوس . وفي سنة ٥٤ هـ بـــدأ الحصار الفعلي للقسطنطينية ، واستدعي الأمر تعزيز القوة البحرية ، فانضم إلى الأسطول الإسلامي المرابط في مياه القسطنطينية أسطول إسلامي بقيادة جنادة بن أبي أمية ، استولى على جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية [٣] ، فاتخذها المسلمون قاعـدة بحرية أمامية لإمداد الجيش المحاصر للعاصمة البيزنطية بالميرة والسلاح والرجال ، ولقطع الطريق على سفن الروم . وأحكم المسلمون الحصار البري والبحري طوال العام ، اشتبكت أثناءه سفن بيزنطة مع السفن الإسلامية كما استمرت المعارك البرية تدور بين الجيشين العربي والبيزنطي . ثم اضطر المسلمون إلى فك

---

(١) الطبري ، ج ٦ ص ١٣٠ – ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥٨ .
(٢) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٤٥٩ .
(٣) الطبري ، ج ٦ ص ١٦٤ – ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٩٧ .

الحصار عن القسطنطينية عندما حل الشتاء ، وأقام المسلمون في أرواد انتظاراً لحلول الربيع لكي يستأنفوا عملياتهم الحربية . فلما حل الربيع تابع المسلمون حصار القسطنطينية ، ولكنها استعصت عليهم ، وتكرر ذلك عدة سنوات حتى سنة ٦٠ هـ ، أبدى أثناءها المسلمون كثيراً من ضروب البسالة والإقدام على الرغم من توسل البيزنطيين في الدفاع بوسائل كيميائية لا طاقة للعرب بمكافحتها ودفع خطرها ، فقد استخدم الدفاع البيزنطي النار البحرية التي عرفت فيما بعد بالنار اليونانية [١] كوسيلة دفاعية ، تسببت في حرق عدد كبير من قطع الأسطول الإسلامي وفي بث الذعر والهلع في نفوس المحاصرين للمدينة ، وأدرك معاوية في آخر أيامه استحالة الاستمرار في محاصرة القسطنطينية بسبب استخدام المدافعين عنها هذا السلاح الفاتك ، خاصة وقد استنزف الحصار قواهم وتحطم العديد من سفنهم ، فعقد مع قسطنطين الرابع امبراطور الدولة البيزنطية معاهدة صلح في سنة ٦٧٩ مدتها ثلاثون عاماً [٢] .

---

(١) محمد عبدالله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، القاهرة ١٩٣٤ ص ١٠٢ .
وكانت النار اليونانية تتركب من نفط سريع الالتهاب ومن الكبريت والقار بنسب غير معروفة ، بحيث كان هذا التركيب الكيميائي يزداد اشتعالاً عند ملامسته الماء ولا يخمد إلا باستخدام الرمل والخل . ويخترع هـذا السلاح الرهيب الذي فتك بسفن المسلمين وأدى إلى فشل حصارهم للقسطنطينية هو مهندس سوري الأصل اسمه كالينيكوس كان في خدمة العرب في الشام ثم فر إلى القسطنطينية (Diehl, le monde oriental, p. 241.)

(٢) راجع التفاصيل في المراجع الآتية :

1 — Canard, les expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'histoire et dans la légende, J. A. 1926, pp. 36 — 80.
2 — Diehl, le monde oriental, p. 241.
3 — Finlay, History of the Byzantin Empire, Oxford, 1877.
4 — Ostrogorsky, History of the Byzantin state, Oxford, 1961.
5 — Vasiliev, Byzance et les Arabes, t. I, Bruxelles 1935.
6 — Speros Vryonis, Byzantium and Europe, p. 64.

الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ص ١٤٨ — ١٥٢
محمد عبدالله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، ص ٣٢ — ٣٦
العدوي ، قوات البحرية العربية ، ص ٥٧ — ٦٦ .

حصار المسلمين الثاني للقسطنطينية (٩٨ - ٩٩ هـ / ٧١٧ - ٧١٨)

لم يُثبط الفشل الذي صاحب محاولة معاوية في فتح القسطنطينية همم خلفاء بني أمية من بعـــده في معاودة الكرة ، ولم يقض على آمالهم في محاولة فتحها من جديد . والواقع أن الفكرة ظلت تراود الخلفاء المروانيين بعد مروان بن الحكم ولكن وضعها موضع التنفيذ كان يحتاج لدراسة وافية وإعدادات مسبقة ، واستعدادات كاملة . وبدأ التأهب للحصار الثاني منذ بداية عهد الوليد بن عبدالملك ، الذي تابع سياسة تقوية الأسطول الإسلامي ، وعمل على تنسيق التعاون بين القوتين البرية والبحرية وخلق منــاخ طيب للعمليات الحربية ضد الامبراطورية البيزنطية ، واتخــذ الوليد من منطقة الثغور بآسيا الصغرى مجالاً لتدريبات قواته . وفي سنة ٩٤ هـ ، بدأ يعد حملة بحرية برية بقيادة أخيه مسلمة بن عبدالملك ، ومــا إن ترامت أخبار هذه الاستعدادات إلى السلطات البيزنطية حتى بدأت تهتم بتدعيم وسائل الدفاع عن أسوار القسطنطينية ، كما عنيت بتقوية الدفــاع البحري تمهيداً لحصار قد يطول أمده كما حدث في الحصار الأول . ولكن وفاة الخليفة الوليد أدت إلى إرجاء إنفاذ الحملة إلى مقصدها ، فلما اعتلى سليمان عرش الخلافة ، أخـــذ يجهز الجيوش للسير إلى القسطنطينية ، مدفوعاً بنبوءة تواترت على ألسن الفقهاء ، ومهـــد لذلك بغزوة بحرية بقيادة عمر بن هبيرة الفزاري على بلاد الروم في سنة ٩٧ هـ [١] . وفي العام التالي حشد سليمان قوات كثيفة برية وبحرية زودها بمقادير هائلة من المؤن والأقوات والسلاح لحرب طويلة الأمد ، بقيادة أخيه مسلمة ، وأمره بأن يتوجه إلى القسطنطينية وأن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره .

وأقام سليمان في دابق ، وأعطى الله عهداً « أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه إلى الروم القسطنطينية » [٢] . ويذكر الطبري أن مسلمة

(١) الطبري ، ج ٨ ص ١١٣ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦ .
(٢) الطبري ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

لما توغل في آسيا الصغرى هابه الروم ، فاتصل به قائد أرمني اسمه ليو كان يتطلع إلى الظفر بالعرش الامبراطوري ويــدبر أمره لانتزاعه من ثيودوسيوس الثالث (الذي ولاه الجند في سنة ٧١٦ م بعـــد أن عزلوا أنستاسيوس الثاني) ، فاتفق ليو مع مسلمة على خطة تتيح للمسلمين فتح القسطنطينية ، ومـا كاد يصل إلى القسطنطينية حتى غرر بهم وخدعهم بعد أن تحايل على تجريدهم من كل أقواتهم[1] . وتشير المصادر البيزنطية إلى أن ليو الأرمني الذي اعتلى العرش باسم ليو الثالث الايسوري دخل القسطنطينية حيث توج امبراطوراً في مارس سنة ٧١٧ م (٩٨ هـ) . أما مسلمة فقد تابــع سيره حتى وصل إلى مشارف القسطنطينية في أواخر سنة ٩٨ بقيادة جيش عدته ثمانون ألف مقاتل سوى مـا اجتمع للعرب تحت أسوار العاصمة في الـبر والبحر . وحاصر مسلمة القسطنطينية براً وبحراً ، ونصب عليها المجانيق ، ولكن أسوار المدينة المنيعة وقوة الدفاع البيزنطي وفعالية النار اليونانية ردت المسلمين عن اقتحام العاصمة البيزنطية موجة بعد موجة من الهجوم . ومع ذلك فقد واصل مسلمة بعناد محاصرة المدينة وشدد الضغط عليها ، وحفر حول معسكره حفيراً عميقاً ، وانتسف المزارع القريبة ، ومنع الأقوات من التسرب إلى داخلها[2] . أما الأسطول فقد رابطت قطعه حول المدينة ، وتشير الروايات البيزنطية إلى أن قطع الأسطول الإسلامي بلغت ١٨٠٠ سفينة كبيرة كان يتولى قيادتها قائـــد يقال له سليمان[3] ، لعله سليمان بن معاذ الأنطاكي أحد قادة الحملة . وتمكن هذا الأسطول الضخم من إغلاق الممرات المؤدية إلى البحر الأسود ، ولكن عاصفة عاتية حطمت عدداً من السفن وسببت خللاً في مسيرته ، فانتهز البيزنطيون هـــذه الفرصة وسلطوا نيرانهم اليونانية على السفن الإسلامية فأحرقوا عدداً كبيراً منها . واستمر المسلمون بالرغم من ذلك يحكمون الحصار

---

(١) نفس المصدر ، ص ١١٨ .

(٢) مواقف حاسمة ، ص ٣٩ .

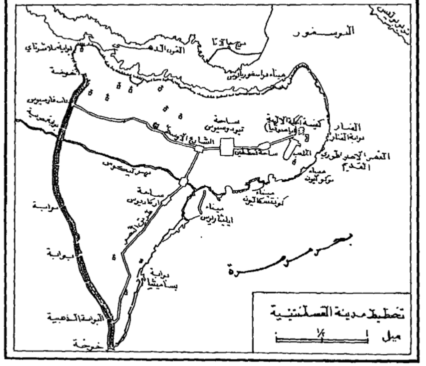
(٣) Diehl, le monde Oriental, p. 251, 252.

على المدينة طوال السنة إلى أن توفي سليمان بن عبد الملك في ١٠ من صفر سنة ٩٩ هـ ، وقد حل الشتاء ببرده وثلجه ، فهلك عدد كبير من عسكر المسلمين من البرد ، ونفقت معظم الخيول والدواب ، وعدمت الأقوات ، كما توفي سليمان قائد الأسطول فسببت وفاته اضطراباً في صفوف البحريين ، وحل الضيق والقحط بمعسكر المسلمين حتى أكل الجند الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب[١]. وظل الأمر كذلك إلى أن كتب الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين ، ووجه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً ، وحث الناس على معونتهم[٢].

ويعتبر فشل المسلمين في الإستيلاء على القسطنطينية المرة الثانية حدثاً من أهم أحداث تاريخ العصور الوسطى ، وكتب للإمبراطورية البيزنطية البقاء بخروجها ظافرة من محنة الحصار ، وظلت تحتفظ بهيبتها أمام دول الغرب الأوروبي فترة طويلة .

(١) الطبري ، ج ٨ ص ١١٨ .
(٢) نفسه ، ص ١٣٠ .


البحر الاسود
القسطنطينية
نيقية
ناكسوس
رودس
انطاليا
خليج سودا
الخندق
اقريطش
اقريطش وجزر بحر ايجة
كلم


البوسفور
القرن الذهبي
ساحة تيودوسيوس
الشارع الاوسط
ساحة قسطنطين
الملعب
المنار
كنيسة الحكمة الالهية
بحر مرمرة
البوابة الذهبية
تخطيط مدينة القسطنطينية
ميل



الفصل الثاني

القوى البحرية في مصر والشام في ظل العباسيين والطولونيين

(١)

أثر استيلاء المسلمين على إقريطش في استعادتهم للسيادة البحرية في شرق البحر المتوسط

في بداية العصر العباسي توقف النشاط البحري للمسلمين في مصر والشام فترة دامت ما يقرب من خمسين سنة ، بسبب انصراف الدولة العباسية — التي انتهجت منذ قيامها سياسة مشرقية وتطلعت بوجهها نحو خراسان — عن شؤون البحر ، ونفض يدها من محاربة البيزنطيين في البحر المتوسط[١] ، بسبب تفرغها لمشاكلها الإقليمية والخارجية . وقد ساعد على تجمد النشاط البحري الإسلامي في شرق البحر المتوسط انصراف الدولة البيزنطية هي الأخرى عن المصادمات البحرية مع المسلمين بسبب الفتن الداخلية والمشاكل الخارجية التي عصفت بها كالنزاع اللاأيقوني الذي تجدد منذ أن اعتلى ليو الخامس الأرمني العرش البيزنطي ، وثورة توماس الصقلي التي احتدمت نارها في أعقاب مصرع ليو الخامس في سنة ٢٠٥ هـ (ديسمبر ٨٢٠ م) ، والصراع مع البلغار منذ عهد قسطنطين السادس وأمه إيرين ، كما ساعد

(١) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والإتصال الحضاري ، ج ١ ص ٣٨٢ ، ج ٢ ص ٣٤٧ .

على ذلك أيضاً انفصال المغرب الإسلامي والأندلس عن المشرق سياسياً ، وتطلعه إلى القيام بدور بحري هام ، واعتماده في ذلك على مقوماته الذاتية مع استغلاله للظروف السيئة التي كانت تجتازها الامبراطورية البيزنطية .

ومع ذلك فقد أبدى خلفاء بني العباس ابتداء من الرشيد اهتماماً خاصاً بالشؤون البحرية ، فالبلاذري يشير إلى ذلك بقوله : « وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون في الغزو ، ونفاذ بصيرته في الجهاد أمراً عظيماً : **أقام من الصناعة ما** لم يقم قبله ، وقسم الأموال في الثغور والسواحل وأشجى الروم وقمعهم ، وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة »[1]. والرشيد ، كما يشير الطبري ، ولّى حميد بن معيوف سواحل بحر الشام ومصر في سنة ١٩٠ هـ ، فغزا جزيرة قبرص عندما نكث أهلها العهد مع المسلمين ، « وهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً ، فأقدمهم الرافقة ، فتولى بيعهم أبو البختري ، فبلغ أسقف قبرص ألفي دينار »[2] ، كما غزا جزيرة اقريطش[3]. وعلى هذا النحو بدأ العباسيون يسعون منذ خلافة الرشيد إلى استعادة السيادة البحرية الإسلامية في البحر المتوسط الشرقي[4] ، لإيجاد نوع من التوازن مع المغاربة والأندلسيين الذي آلت إليهم السيطرة على نصفه الغربي . ولكن الأوضاع في البحر المتوسط الشرقي أخذت تتغير بالتدريج لصالح المسلمين ، ليس بفضل الجهود التي بذلها الرشيد والمتوكل على الله فحسب بل بفضل جهاد غزاة

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ١٩٣ .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٩٩ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٩٦ — السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، بيروت ١٩٦٩ ص ٢٦٨ .

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٤) ومما يثبت هذا السعي والاهتمام ، أن الرشيد رام أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلي بلاد الفرَمَا نحو بلاد تنيس ، فنصحه يحيى بن خالد البرمكي بالانصراف عن تنفيذ ذلك فخوفه من دخول مراكب الروم في البحر الأحمر وتهديد الحجاز ، فعدل الرشيد عن المضي في تنفيذه (المسعودي ، مروج الذهب ، مجلد ٢ ص ٢٦٤ — السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٦٦) .

البحر الأندلسيين[1]، ونشاط البحرية الأغلبية[2]، وذلك عندما تمكنت طائفة من الغزاة البحريين الأندلسيين من النزول في إقريطش والاستيلاء عليها في سنة ٢١٢ هـ في الوقت الذي كان القاضي أسد بن الفرات قائد الأمير زيادة الله بن الأغلب ينزل مع قواته في مازر من موانئ صقلية ويشرع في فتح هذه الجزيرة الكبرى[3].

ومنذ أن تمركز الأندلسيون في إقريطش استأنفت البحرية الإسلامية نشاطها في مصر والشام، فلم تلبث إقريطش أن دخلت في طاعة الخليفة العباسي لتستظل بحمايته بسبب مأمنهم من بلاده ودنو جزيرتهم من سواحل مصر[4]، فأصبحت إقريطش في التقسيم الإداري للدولة العباسية إقليماً تابعاً لمصر[5]، حتى سقوطها في أيدي البيزنطيين في سنة ٣٥٠ هـ، وكانت مراكب أهل إقريطش «تمير أهل مصر بخيرات جزيرتهم وأطعمتهم، وكانت هداياهم تصل إلى عمال مصر»[6]، ويشير النويري السكندري إلى أنه كان يحمل من إقريطش «العسل النحل والجبن الكثير لمصر والشام ويسمى بلغة الفرنج كنديا»[7]، نسبة إلى مدينة كندية أو الخندق قاعدة

---

(١) راجع في ذلك ما كتبته في: تاريخ مدينة المرية الاسلامية، بيروت ١٩٦٩ ص ٢٠–٥٣، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، ص ١٢٨ – ١٤٥، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس، ص ٤٧ – ٨٢، ١٢٢ – ١٢٦.

(٢) راجع أيضاً في ذلك: المغرب الكبير، ج ٢ ص ٣٨٥ – ٣٩٢، تاريخ البحرية ص ٩٥ – ١١١، ١٢١ – ١٢٢.

(٣) مارتينو ماريو مورينو، المسلمون في صقلية، بيروت ١٩٥٧ ص ٨ – عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ص ١٠٤.

(٤) انظر نص رسالة الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى الامبراطور تيوفيل في: ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والاندلس، ص ١١٥ – ١١٨، وقرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج ١ بيروت ١٩٧١ ص ٦٦.

(٥) ابراهيم أحمد العدوي، إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي، المجلة التاريخية المصرية، اكتوبر ١٩٥٠، المجلد الثالث، العدد الثاني، ص ٥٩.

(٦) القاضي النعمان، قضية إقريطش في عهد المعز لدين الله، تحقيق فرحات الدشراوي، حوليات الجامعة التونسية، العدد الثاني ١٩٦٥، ص ٣٣.

(٧) النويري، الإلمام بما قضت به الأحكام ص ١٢٣ أ. ويسميه ابن الأثير «قند» (ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٦٩).

إقريطش . وكانت مصر تتولى تزويدهم بالسلاح والمعدات ، كما كانت دار صناعة دمياط تزودهم بما يلزمهم من السفن التي تنتجها من أخشاب إقريطش . وبفضل هـــذا الأسطول تمكن أهل هذه الجزيرة من مهاجمة جزر بحر الأرخبيل ، وفرضوا سيادتهم في حوض البحر المتوسط الأوسط ، وبالتدريج أصبحت إقريطش منــذ النصف الثاني من القرن الثالث أهم قاعدة بحرية للمسلمين في النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط ، وبفضل جهاد أهل إقريطش في البحر وتضامنهم مع أهل مصر والشام وازدياد نشاطهم في غزو سواحل الروم وجزر بحر إيجة استعادت البحرية الإسلامية في مصر والشام نشاطها وحيويتها .

وإقريطش تتمتع بموقع استراتيجي ممتاز في وسط حوض البحر المتوسط ، فهي تؤلف جسراً يربط بين شبه جزيرة البلوبونيز وشبه جزيرة الأناضول ، ولهذا فهي تتحكم بحكم هذا الموقع في الممرات المائية إلى بحر إيجة وسواحل آسيا الصغرى ومقدونيا ، ثم هي تجاور عدداً لا يحصى من جزر بحر إيجة مثل جزيرة رودس وسكربنتو وميلوس وساموس وخيوس ولمنوس وتاسوس وميتيلين التي تشكل جميعاً خطاً دفاعياً أمامياً لسواحل الامبراطورية البيزنطية المطلة على بحر إيجة وبحر مرمرة ، ولهذا السبب يتيسر لفاتحي هـــذه الجزيرة تهديد الإمبراطورية البيزنطية تهديداً مباشراً . وجزيرة إقريطش بالاضافة إلى ذلــك كله غنية بالأشجار التي يمكن أن يستغلها المسلمون في إنشاء الأساطيل ، وغنية بأراضيها الخصبة الممتدة على السهول الساحلية في شمال الجزيرة . ولقد فطن معاوية بن أبي سفيان إلى أهمية هــذه الجزيرة فغزاها في أيامـــه جناده بن أبي أمية ، ولكنها لم تلبث أن خرجت من دائرة النفوذ الإسلامي بعد سنوات قليلة من حركة جناده ، على أثر الفشل الذي انتهى إليه حصار المسلمين الأول للقسطنطينية في سنة ٦٠ هـ . ثم غزاها حميد بن معيوف الهمداني الذي ولّاه الرشيد سواحل بحـــر الشام (في سنة ١٩٠) في خلافة الرشيد ، ففتح جانباً منها[١] ، ولكن النفوذ

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٩ .

الإسلامي لم يلبث أن انحسر عن الجزيرة مباشرة على أثر رحيل الغزاة . وظلت جزيرة إقريطش تابعة للبيزنطيين الذين حرصوا على الإحتفاظ بها في قبضتهم بسبب ما تتمتع به من استراتيجية تكفل لمن تكون في حوزته السيطرة الفعلية على مداخل بحر إيجة ، والتحكم في الجزر الصغيرة الممتدة ما بين سواحل آسيا الصغرى وبلاد الإغريق ، إلى أن تمكنت قوة من المغامرين الأندلسيين – وهم طائفة من الغزاة البحريين كانت قد ألجأتهم الظروف بعد إحدى غزواتهم إلى إرساء سفنهم على ساحل منطقة الرمل بالاسكندرية في سنة ١٩٨ هـ لابتياع ما يصلحهم من المعاش وشحن سفنهم بالمؤن والأقوات التي تكفيهم لموسم غزوهم التالي ، على نحو ما كانوا يفعلون من قبل في كثير من غزواتهم البحرية –[1] من استغلال الأوضاع السياسية السيئة في البلاد المصرية ، واضطراب العرب المقيمين بالاسكندرية ونواحيها من لخم وبني مدلج ، فدخلوا طرفاً في النزاع ، وأيدوا عمر ابن هلال الحديجي على خصومه ، وأعادوه إلى ولاية الاسكندرية ، وتهيأ لهم بذلك المجال للنزول بأرض الاسكندرية والإقامة في برها على الأقل أثناء فصل الشتاء الذي يتوقف فيه النشاط البحري ، بدلاً من البقاء على ظهور السفن ، ثم انقلبوا على ابن هلال واشتبكوا مع اللخميين في قتال عنيف ، فهزموهم ، ودخلوا الإسكندرية عنوة في ذي الحجة سنة ٢٠٠ هـ ، واستبدوا بشؤونها .

وعزم المأمون العباسي على وضع حد للاضطرابات الداخلية في مصر ، فسير جيشاً من الخراسانيين إليها في سنة ٢١٠ هـ تولى قيادته عبدالله ابن طاهر ، وبعث ابن طاهر في طلب بعض السفن العباسية المرابطة في الثغر (طرسوس) إلى تنيس ، وتمكن بفضل قواته من السيطرة على الموقف ، وحاصر الأندلسيين بالإسكندرية ، فصالحوه على أن يخرجوا منها إلى حيث

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي (طبعة النجف) ج ٣ ص ١٧٤ – الكندي ، ص ١٥٨ – تاريخ الاسكندرية ص ١٣٧ – تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب ، ص ٧٤ .

أرادوا من جزائر الروم . فاختاروا إقريطش[١] ، التي سبق لهم أن أغاروا عليها وعلى غيرها من الجزر اليونانية في عام ٢١١ هـ ، يقودهم أميرهم أبو حفص عمر بن شعيب في أربعين سفينة إلى جزيرة إقريطش ، حيث نزلوا في خليج سودا . ويذكر البلاذري أنهم افتتحوا من إقريطش حصناً واحداً ، ثم توسعوا بعد ذلك ، ففتحوا إقريطش حصناً حصناً[٣] ، حتى أتموا فتحها فيما يقرب من سنة ٢٣٠ هـ[٤] ، مستغلين في ذلك حالة الضعف التي أصيب بها البيزنطيون في أعقاب فتنة توماس .

وكان طبيعياً أن يلتمس مسلمو إقريطش الأمان في ظل سلطة إسلامية تظللهم بحمايتها ، فدخلوا في فلك الدولة العباسية ، ثم أخذوا يمارسون نشاطهم البحري ضد البيزنطيين ، فهاجموا جزر بحر إيجة ، وهددوا سواحل آسيا الصغرى واليونان ، وأدرك الامبراطور ميشيل العموري مدى الخسارة التي أصابت بيزنطة بضياع جزيرة إقريطش التي أصبحت على حد قول ياقوت « من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم »[٥] ، فبذل محاولات يائسة لاستردادها ، ولكنها جميعاً باءت بالفشل ، وأدى الفشل المتلاحق الذي منيت به حملاته البحرية على الجزيرة إلى تخلّيه نهائياً عن فكرة استردادها . وما إن كف البيزنطيون عن محاولاتهم لغزو الجزيرة في عهد تيوفيل حتى تفرغ أهلها لجهادهم البحري ، وأحرزوا انتصاراً على الأسطول البيزنطي بالقرب من جزيرة تاسوس في سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) . ثم عمدوا إلى مهاجمة سواحل الأناضول وخربوا جزر السيكلاد . وحاول تيوفيل أن يستثير عليهم الأمير الأندلسي عبد الرحمن الأوسط حتى يجليهم عن إقريطش ،

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ج ١ ص ٤٥ .

(٢) Vasiliev, Byzance et les Arabes, t. I, la Dynastie d'Amorium, Bruxelles 1935, p. 54.

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ٣٢٧ .

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٢٣٦ .

ولكن الأمير الأندلسي اعتذر بأن مسلمي إقريطش وإن كانوا أندلسيين إلا أنهم ليسوا سوى سفلة أهل الأندلس وفسقتهم ، وأنهم ليسوا وقتئذ خاضعين لسلطانه حتى يملي عليهم أوامره فهم « ليسوا في بلده ولا برتبته حتى يغير عليهم ويكفيه مؤونتهم »[١]. وواصل مسلمو إقريطش شن غاراتهم المدمرة على الجزر البيزنطية في عهد تيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢ م) وميشيل الثالث (٨٤٢ — ٨٦٧ م) ، وهاجموا جزيرة ميتيلين وآتوس في سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) كما أغاروا على جزيرة نيون[٢] في سنة ٢٥٢ (٨٦٦ م) واتخذوا فيها قاعدة شبه دائمة لهم[٣] ، وظلوا يشكلون خطراً جدياً على الدولة البيزنطية التي عجزت تماماً عن القيام بدفعهم ووضع حد لغاراتهم.

ثم اتحدت جهود غزاة إقريطش مع جهود غزاة طرسوس ، وعلى رأسهم ليو الطرابلسي لتوجيه أقوى الضربات إلى البيزنطيين ، وبفضل هذا التعاون الوثيق نجح الإقريطشيون وغزاة طرسوس في تدمير سالونيك الواقعة على ساحل تساليا ، وتمكنوا من أسر ٢٢ ألفاً من أهلها[٤] بيعوا في أسواق النخاسة بطرابلس وكانديا.

وكان من الطبيعي أن يعمل أباطرة الأسرة المقدونية وأولهم بسيل الأول الذي ظفر بالعرش الامبراطوري في (٨٦٧ م) على حماية الجزر اليونانية من التعرض لغزوات المسلمين عن طريق مزيد من العناية بالبحرية البيزنطية وإنشاء أسطول قوي ، وتدعيم القواعد البحرية في الامبراطورية البيزنطية ، غير أن أسطول إقريطش ظل على الرغم من السياسة البحرية للبيزنطيين وبتعاونه الوثيق مع أساطيل الشام ومصر والثغر يشكل خطراً حقيقياً على الدولة البيزنطية ، إلى أن تمكن الامبراطور البيزنطي رومانوس

---

(١) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ١١٧ .
(٢) ڤازيلييف ، الروم والعرب ، ص ٢٢٦ — العدوي ، إقريطش ، ص ٦٥ .
(٣) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٢٣ .
(٤) نفسه ، ص ٢٢٤ — عبدالله عنان ، مواقف حاسمة ، ص ٩٨ .

ليكابينوس من الانتصار على أسطول ليو الطرابلسي في سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) بالقرب من جزيرة لمنوس ، وتحرير منطقة بحر إيجة من غزوات المسلمين. ومنذ ذلك الحين التزمت الإمبراطورية البيزنطية سياسة بحرية خالصة إذ أن بقاء الدولة البيزنطية أصبح رهيناً بتفوقهم البحري على المسلمين. وعندما اعتلى الامبراطور رومانوس الثاني العرش البيزنطي في سنة ٩٥٩ م ركز جهوده على استرجاع إقريطش وجعل ذلك شغله الشاغل وأهم أهدافه ، ونجح بفضل براعة قائده نقفور فوقاس في انتزاعها من أيدي المسلمين بالحرب والجوع [1] سنة ٩٦١ م (٣٥٠ هـ). وأتبع ذلك باستيلائه على جزيرة قبرص في سنة ٩٦٥ م. ويعتبر استرجاع البيزنطيين لجزيرتي إقريطش وقبرص من أهم الأحداث السياسية في القرن العاشر الميلادي ، إذ أبعد عن السواحل البيزنطية خطر الغزوات البحرية الإسلامية ، وأعاد للبيزنطيين تفوقهم البحري في النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط لفترة قصيرة.

(٢)

أهم القواعد البحرية في مصر والشام [2] والثغور الشامية في العصر العباسي

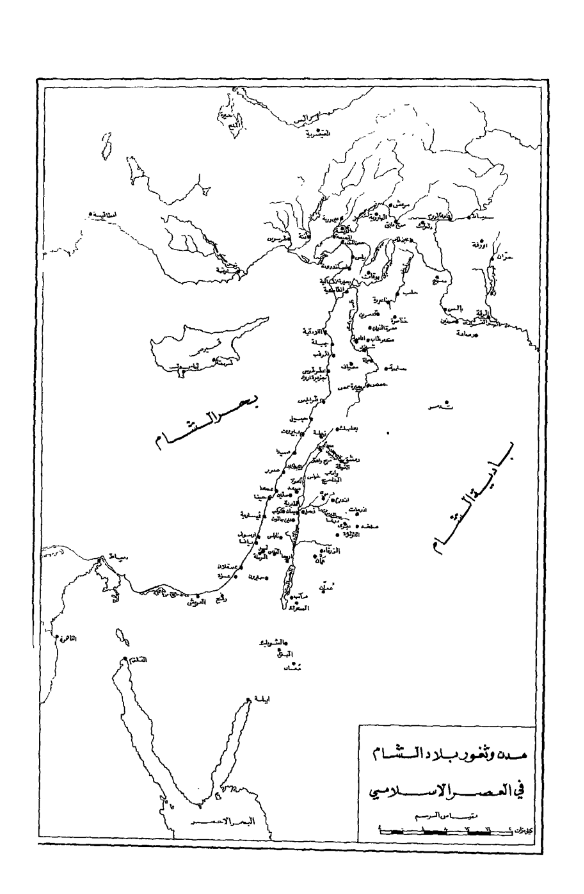
١ — الاسكندرية

ذاعت شهرة الاسكندرية بميناويها الشرقية والغربية في العصر البطلمي كقاعدة بحرية هامة في حوض البحر المتوسط الشرقي ، والمركز الرئيسي

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٢٣٦.

(٢) اكتفينا في هذه الدراسة بأمثلة من هذه القواعد الهامة : ففي مصر مثلتها الاسكندرية ودمياط ، وفي الشام مثلتها عكا وصور وصيدا. وأرجو ألا يفهم من ذلك أنه لم تكن في مصر والشام قواعد أخرى بحرية ، فقد كانت سواحل مصر والشام تزدحم بكثير من هذه القواعد والثغور والرباطات مثل : ثغر رشيد وثغر البرلس وثغر الفرما وثغر القلزم في مصر ، وثغر غزة ، وثغور عسقلان ، وقيسارية ، وحيفا ، وبيروت ، وطرابلس وعرقة واللاذقية وانطرطوس في الشام.



بحر الشام
بادية الشام
البحر الاحمر
قبرص
حلب
دمشق
حمص
تدمر
صيدا
بعلبك
جبلة
ايلة
القاهرة
مدن وثغور بلاد الشام
في العصر الاسلامي
مقياس الرسم
كيلومترات

للتجارة البحرية ، ولهذا السبب حرص البطالمة على إنشاء دار كبرى لصناعة السفن التجارية والحربية ، استخدموا لصناعتها الأخشاب المحلية وأخشاب أخرى مستوردة كأخشاب الأرز الواردة من الساحل اللبناني ، والسرو من جزيرة ميليتوس ، والصنوبر من شمال البلقان ، والقطران من غابات مقدونيا وهضاب آسيا الصغرى . وقد تجدد بناء دار الصناعة البحرية في الاسكندرية [1] في عهد الامبراطور البيزنطي أنستاسيوس الذي نجح في تكوين قوة بحرية حقيقية اعتمد عليها جستنيان وخلفاؤه في إحراز انتصاراتهم البحرية على الشعوب الجرمانية . وظلت دار صناعة الاسكندرية تنشئ القطائع البحرية بعد أن دخلت مصر في فلك الإسلام ، بفضل خبرات الصناع الأقباط ومهارتهم . وقد اشترك الأسطول المصري الذي أسسه عبدالله بن سعد مع الأسطول الشامي في غزوة قبرص [2] ، كما اشترك الأسطولان معاً في معركة ذات الصواري . وكان أمراء البحر يخرجون من ثغر الاسكندرية للغزو ، كما حدث عندما خرج عقبة بن عامر الجهني في سنة ٤٧ هـ في البحر إلى رودس بعد أن نحّاه معاوية عن إمارة مصر وولّاه إمرة البحر [3]. وقد تولى الأسطول المصري السكندري أيضاً عبء غزو جزر البحر المتوسط الغربي إلى أن تمكنت دار صناعة تونس من إنتاج ما يكفيها من السفن ، وعليه (أي الأسطول السكندري) اعتمد الفاتحون العرب للمغرب في عملياتهم الحربية [4].

ومنذ أن دخلت الاسكندرية في طاعة العباسيين حرص ولاة بني العباس في مصر على مواصلة الإهتمام بقاعدة الاسكندرية البحرية التي أصبحت قاعدة رئيسية للعمليات العسكرية في المغرب المتمرد على العباسيين . ففي سنة ١٣٦ هـ سير أبو العباس السفاح الجيوش العباسية إلى المغرب بقيادة

---

(١) أرشيبالد لويس ، ص ٢٩ .
(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٩٦ - فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٨ .
(٣) الكندي ، ص ٣٨ .
(٤) راجع التفاصيل في كتابي تاريخ الاسكندرية ص ١١٠ - ١١٣ .

عامر بن إسماعيل ، كما أمر بإرسال المثنى بن زياد الخثعمي إلى الإسكندرية ليجهز المراكب منها للإقلاع نحو طرابلس الغرب [١] .

واحتفظت الإسكندرية في العصر الطولوني بأهميتها كأكبر قاعدة بحرية في مصر ، وذلك منذ أن أدمجت في ولاية أحمد بن طولون في سنة ٢٥٦ ه [٢] . ومن مظاهر عنايته بثغر الاسكندرية أنه زاره عدة مرات ، ولم يتوان أثناء هذه الزيارات عن الاهتمام بالمدينة والعناية بدار صناعتها حتى تزيد في إنتاج السفن لشدة حاجته إلى أسطول قوي يحمي سواحل بلاده وذلك منذ أن اتضحت نوايا الموفق العدوانية ضده ، ويحافظ بفضله على طرق الإتصال البحري بين الشام ومصر [٣] . كما عمل أحمد بن طولون على تعمير الاسكندرية وربطها بالنيل تدعيماً لتجارتها البحرية في الخارج والنهرية في الداخل ، فأمر في سنة ٢٥٩ ه بإعادة حفر خليج الاسكندرية [٤] . أما خمارويه فقد ورث عن أبيه هذا الاهتمام بقاعدة الاسكندرية ، فكان يخرج لزيارتها ويتفقد قطع الأسطول فيها [٥] .

٢ — دمياط

تعتبر دمياط من القواعد البحرية الهامة في مصر في العصر الإسلامي لوقوعها على البحر المتوسط من جهة وعند مصب الفرع الشرقي للنيل الذي سمي باسمها من جهة ثانية . وكان من مزايا هذا الموقع المزدوج أن أصبحت تجمع بين التجارة الداخلية عبر النيل والتجارة الخارجية مع الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط . وكانت ترسو بها السفن القادمة من المغرب بحذاء الساحل الشمالي لافريقيا [٦] ، كما كانت ترتبط ارتباطاً بحرياً بثغور

---

(١) نفس المرجع ص ١٢١ .
(٢) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق الأستاذ محمد كرد علي ، دمشق ١٣٥٨ ص ٤٧ .
(٣) حسن محمود وسيدة كاشف ، مصر في عصر الطولونين والاخشيديين ، ص ٢٧ .
(٤) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٠ .
(٥) تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، ص ١٦٦ .
(٦) البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، تحقيق دي‌سلان، الجزائر ١٩١١ ص ٨٦

الشام وعلى الأخص صيدا[١] . ولم تبرز دمياط كقاعدة هامـــة منافسة للإسكندرية إلا منذ أن تمكن غزاة البحر الأندلسيون من فتح إقريطش ، فقد أصبحت إقريطش ، ترتبط مباشرة بدمياط ، وكانت دمياط تزودها بكل ما تحتاج إليه من أسلحة وعتاد وسفن وقلوع من إنشاء دار صناعة دمياط أو جزيرة الروضة . وفطن البيزنطيون إلى حقيقة ما تمثله دمياط بالنسبة لجزيرة إقريطش ، فوجهوا همهـم إلى تأديب دمياط بغارة عنيفة قد تجعل أهلها يفكرون طويلاً قبل أن يزودوا إقريطش بالسلاح والعتاد ؛ ففي سنة ٢٣٨ هـ أقبـل البيزنطيون في يوم عرفة على دمياط في ثلاثمائة سفينة يقودها ثلاثة من رؤساء البحر البيزنطيين هم : عرفا (لعله أوريفوس أمير البحر البيزنطي ، وابن قطونة[٢] ، ويسميه اليعقوبي قطوناريس[٣] ، وامردنافه (ولعله لقب بمعنى أمير البحرية « أمير دي ناڤي Amir de nave ») فهاجم ابن قطونة دمياط بمائة من الشلنديات ودخلوا المدينة في غيبة حاميتها من الجند والجرخية والزراقين ، إذ كان قـد استقدمهم عنبسة بن اسحاق والي مصر إلى الفسطاط ليتجمل بهم في حفل إعذار ولديه في يوم العيد[٤] . فنزل البيزنطيون في المدينة ، وكانوا نحواً من خمسة آلاف رجل ، فشحنوا سفنهم من المتاع والأموال والقند والكتان ما كان عبئ ليحمل إلى العراق ، كما احتملوا أسلحة كانت معـــدة لتحمل إلى أبي حفص صاحب إقريطش وعُدّتها نحو ألف قناة وآلتها[٥] . وأثار نزول البيزنطيين في دمياط موجة من الذعر ، ففر عدد كبير من الأهالي بأنفسهم في المخاضات الممتدة ما بين المدينة والشط ، فغرق معظمهم ، وقتل البيزنطيون عـدداً كبيراً من الرجال في داخـل دمياط وسبوا من النساء نحواً من ٦٠٠ امرأة منهن ١٢٥ امرأة مسلمة والباقيات من نساء القبط . ثم أضرم البيزنطيون النار

(١) دراسة في تاريخ صيدا في العصر الإسلامي ، ص ١٦٢ .
(٢) الطبري ، ج ١١ ، ص ٤٨ .
(٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة صادر ، ج ٢ ص ٤٨٨ .
(٤) جمال الدين الشيال ، المجمل في تاريخ دمياط ، الاسكندرية ، ١٩٤٩ ص ١٠ .
(٥) الطبري ، ج ١١ ص ٤٨ .

في خزانة القلوع وهي شرع السفن فأحرقوها ، وأحرقوا جامع دمياط وعدة كنائس[١] ، وألفاً وخمسمائة بيت[٢]. وكان عنبسة قد سجن مقدماً من أهل دمياط في بعض الأبراج ، فلما هاجم البيزنطيون دمياط ولم يمنعهم مانع مضى إليه بعض أعوانه ، وكسروا قيده وأخرجوه ، وانضم إليه طائفة من أهل المدينة فحاربوا البيزنطيين وهزموهم وأخرجوهم من دمياط[٣] . ولما علم عنبسة بخبر هذه الغزوة أقبل بجند مصر ، ولكنه وصل إلى دمياط بعد خروج البيزنطيين منها إلى أشتوم تنيس ، فتقاعس عن مطاردتهم ، وفي ذلك يسخر منه الشاعر يحيي بن الفضل موجهاً الأبيات للمتوكل :

أترضى بأن توطا حريمك عنوة
وأن يُستباح المسلمون ويُحربوا

حمارٌ أتى دمياط والروم وُثّبٌ
بتنّيس منه رأى عين وأقربُ

يُقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما
أصابوه من دمياط والحرب تُرتبُ

فلا تنسنا أنّا بدارٍ مضيعة
بمصر وأن الدين قد كاد يذهب[٤]

وعلى أثر ذلك أمر المتوكل على الله العباسي ببناء حصن دمياط سنة ٢٣٩ هـ ، وحصن تنيس على البحر ، وحصن الفرما[٥] ، وأنشئ من حينئذ الأسطول بمصر ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر[٦]. ولم يكد يمضي على هذه الغزوة

---

(١) الطبري ، ص ٤٨ .
(٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي (دار صادر) ج ٢ ص ٤٨٨ .
(٣) الطبري ، ج ١١ ص ٤٨ – ابن الأثير ، ج ٧ ص ٦٩ – ابن تغري بردي ، النجوم ج ٢ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
(٤) الكندي ، ص ٢٠١ – المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٧٧ .
(٥) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣١١ ، ٣٧٨ .
(٦) نفس المصدر ، ص ٣٧٨ .

تسع سنوات حتى أعاد البيزنطيون الكرة على دمياط في سنة ٢٤٧ هـ ، فطرقوها في نحو مائتي مركب ، وأقاموا يعيثون في السواحل[١]. وعندئذ أمر المتوكل العباسي بترتيب المراكب في جميع السواحل ، وأن تشحن جميعاً بالمقاتلة[٢].

٣ ـ عكا

عكا مدينة حصينة تقع على الساحل الجنوبي لبلاد الشام من فلسطين ، وكانت من خلافة معاوية حتى عهد هشام بن عبدالملك دار صناعة الشام ، والقاعدة الرئيسية في الساحل الجنوبي إلى أن نقل هشام دار الصناعة منها إلى صور ، ولكن المتوكل على الله أمر في سنة ٢٤٧ هـ بترتيب المراكب بها وبغيرها من السواحل[٣]. وقد ازدادت أهمية عكا في العصر الطولوني ، فأولاها الأمير أحمد بن طولون جانباً كبيراً من عنايته . ويذكر المقدسي أنها مدينة حصينة ، وأنها لم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون (يقصد أحمد بن طولون) ، وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على ميناها ، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك المينا ، فجمع صناع الكورة ، وعرض عليهم ذلك ، فقيل لا يَهتدي أحـدٌ إلى البناء في الماء في هذا الزمان . ثم ذُكر جدنا أبو بكر البناء (أي جد المقدسي) وقيـل إن كان عند أحد علم ، هذا فعنده . فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس ، حتى أنهضه . فلما صار إليه وذكر له ذلك ، قال هذا أمر هـيّن : عليّ بفِلق الجميز الغليظة ، فصفّها على وجه الماء بقدر الحصن البري ، وخيّط بعضها ببعض ، وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد ، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء ،

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ص ٣٧٨ .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٩٣ .

(٣) نفس المصدر، ج ١ ص ١٤٠ – ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ١ تحقيق الدكتور سامي الدهان ، دمشق ١٩٦٢ ص ١٧٢ .

وجعلت الفِلق كلما ثقلت نزلت حتى إذا أنها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى أخذت قرارها ، ثم عاد فبنى من حيث ترك : كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم ، داخله فيه وخيّطه به ، ثم جعل على الباب قنطرة ، فالمراكب في كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسلة مثل صور . قال فدفع إليه ألف دينار سوى الخلع وغيرها من المركوب واسمه عليه مكتوب . وقد كان العدو قبل ذلك يغير على المراكب »[1] .

وقد شاهد ناصر خسرو السورين الداخلين في ميـــاه البحر ، وعاين السلسلة في القرن الخامس الهجري ، فقال : « وحائطاها داخلان في البحر وعلى امتدادهما مدخل مفتوح ، وقد شدت السلاسل بين الحائطين ، فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها ، ثم تشد حتى لا يستطيع عدو قصدها بسوء »[2] .

٤ – صيدا وصور

حظيت المدينتان في تاريخهما القديم بشهرة بحرية عالمية ، وعرف ملاحوهما بمهارتهم في قيادة السفن ، وفي فنون القتال البحري . وقـد ظلت صيدا تحتفظ بهذه الشهرة حتى العصر الإسلامي ، فاستعان معاوية بملاحـين من أهلها في تسيير سفنه لسابق خبرتهم ودربتهم في ممارسة الملاحـــة فيه ، على الرغم من أنها لم تكن دار صناعة في العصر الأموي . وقـد عني بها خلفاء بني أمية وعلى الأخص الخليفة الأموي مروان بن محمد الذي نستدل من نقش كتابي أثري أنه أمر بإصلاح ميناء صيدا وترميمه في سنة ١٣٢ هـ ، فتم ذلك على يدي زياد بن أبي الورد . ويشير هـذا النص إلى أن ميناء صيدا المذكور أصبح موضع اهتمام الخلفاء باعتباره قاعدة بحرية هامة للسفن التجارية والحربية[3] .

---

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ليدن ١٩٠٦ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) ناصر خسرو ، سفرنامة ، بيروت ١٩٧٠ ص ٥٠ .

(٣) عبد العزيز سالم ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا ، ص ٦٤ .

وحظيت صيدا بعناية الخليفة المتوكل العباسي ، وكانت في جملة مدن الساحل التي أمر الخليفة المذكور بترتيب المراكب بها ، وأسندت الدولة العباسية مهمة الدفاع عن ساحل صيدا إلى أفراد من البيت الأرسلاني أو التنوخي أمراء الغرب : ففي سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) تولى الأمير النعمان ابن عامر الأرسلاني الذي يرفع بعض النسابة نسبه إلى النعمان بن المنذر ابن ماء السماء اللخمي [١] ، إمارة الغرب وتشتمل على بيروت وصيدا وجبلها ، وذلك بأمر أماجور التركي عامل دمشق وأعمالها من قبل الخليفة العباسي المعتمد على الله [٢] . وظل الأمير النعمان يتولاها إلى أن توفي أماجور في سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٩ م) فآلت إلى أحمد بن طولون ، فأقر الأمير النعمان على صيدا وبيروت ، لما اشتهر به من الشجاعة .

وأما صور فمدينة حصينة للغاية مشرفة على البحر داخلة فيه على شكل كف في زند ، ويحيط بها البحر من ثلاثة جوانب [٣] . ويؤكد المقدسي حصانتها ، ويشير إلى سلسلتها الشهيرة التي على نمطها أقام ابن طولون سلسلة عكا [٤] ، وكانت بصور دار لصناعة السفن ذكرها اليعقوبي فقال : « وبها دار الصناعة ، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم ، وهي حصينة جليلة » [٥] .

٥ – طرسوس

كانت تمتد ما بين الإسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم أخلاها أهلها وانتقلوا إلى داخل الدولة البيزنطية خوفاً من غزوات المسلمين في العصر الأموي ، فتشعثت هذه الحصون بمرور الزمن ، فكان المسلمون إذا

(١) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، طبعة دار المشرق ، بيروت ١٩٦٨ ص ٤١ .
(٢) الشدياق ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ، بيروت ١٩٥٤ ج ٢ ص ٢٨٣ .
(٣) ياقوت ، مجلد ٣ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ .
(٤) المقدسي ، ص ١٦٤ .
(٥) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

غزوا البلاد البيزنطية ألفوها خالية مخربة ، وكانت طرسوس حصناً من هذه الحصون الخربة التي كان المسلمون يمرون بها عند غزوهم لبلاد الروم . وتقع طرسوس على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى في خليج اسكندرونة ، ويشقها نهر صغـــير يقال له البردان[1] . وأول من أوصى بإعادة بنيانها وتحصينها لتكون قاعدة لجيوش المسلمين القائد الحسن بن قحطبة الطائي ، إذ أحس بأهميتها أثناء مروره بها في سنة ١٦٢ هـ في عهد الخليفة المهدي العباسي ، ولكن تعميرها وإعادة تحصينها لم يتما إلا في سنة ١٧١ هـ على يدي الرشيد . ولما أحكم بناؤها[2] نزلها طائفة من أهل خراسان عدتهم ثلاثة آلاف للدفاع عنها ، ثم نزلها ألف من أهـل المصيصة ، وألف من أهل أنطاكية فأقطعت لهم الإقطاعات والخطط ، وأصبحت طرسوس منذ ذلك الحين مركزاً هاماً للرباط ، وأعظم القواعد البحرية في الثغور الشامية في العصر العباسي .

ثم خضعت طرسوس لأحمد بن طولون منذ سنة ٢٦٤ هـ عندما دخلها وعزم على المقام بها وملازمة الغزاة[3] ، فولى عليها سيما الطويل ولكنها خرجت عليه بعد ست سنوات ، فلما قدم ابن طولون إليها سنة ٢٦٩ هـ لاستنزال يازمان الخـادم المنتزي بها استعصت عليه ، وأرسل يازمان[4] الماء على عسكر ابن طولون من نهر البردان فغرق معسكره[5] ، واضطر ابن طولون إلى الرحيل عنها[6] . وقـد تعرضت طرسوس في العام التالي سنة ٢٧٠ هـ لغزو البيزنطيين ، ففي هـذه السنة هاجم البيزنطيون قلمية

---

(١) الكندي ، ص ٢٢٩ .
(٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، طبعة صادر ، ج ٢ ص ٤١٠ — الطبري ، ج ١٠ ص ٥٠ .
(٣) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٣١٧ .
(٤) يسميه ابن الاثير بازمار .
(٥) الكندي ص ٢٢٩ — المسعودي ، مروج الذهب ، طبعـة محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ ج ٤ ص ٢١٣ .
(٦) ابن الأثير ج ٧ ص ٣٩٦ ، ٤٠٩ .

التي تبعد نحو ستة أميال من طرسوس في جيش يتألف من مائة ألف فتصدى لهم يازمان ليلاً فقتل منهم فيما يقال سبعين ألفاً ، وقتل مقدمهم ، وغنم غنائم كثيرة [1] . وفي سنة ٢٧٤ هـ أوغل يازمان في بلاد الروم فأوقع بكثير من أهلها وغنم وسبى وأسر أعداداً كبيرة منهم [2] . ويذكر المسعودي أن يازمان الخادم أمير طرسوس كان لديه رجال من البحريين لم ير مثلهم ولا أشد منهم ، وكان العدو يهابه وتفزع منه النصرانية في حصونها [3] .

وكان خمارويه حريصاً على كسب ود يازمان مستهدفاً أن يدخل في طاعته ، وقد أثمرت هذه السياسة على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان ، ففي سنة ٢٧٧ هـ أنفذ خمارويه إلى يازمان ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسمائة مطرف وسلاحاً كثيراً وكان لهذه الهدية أعظم الأثر في نفس يازمان ، فدعا لخمارويه في طرسوس ، ودخل في طاعته [4] .

ولما توفي يازمان في إحدى غزواته في سنة ٢٧٨ هـ خلفه ابن عجيف الذي كتب إلى خمارويه يخبره بوفاة يازمان ، فأقره خمارويه على ولاية طرسوس وأمده بالخيل والسلاح والذخائر وغير ذلك . واشترك غزاة من مصر أرسلهم خمارويه مع العجيفي أمير طرسوس في غزو بلاد الروم ، نذكر منهم أحمد بن أبا ، وبدر الحمامي ، وطغج بن جف .

ولكن تبعية ثغر طرسوس للطولونيين لم تتجاوز سنة ٢٨٤ هـ ، ففي هذه السنة أخرج أهل طرسوس عامل ابن طولون ، ودعوا للخليفة العباسي المعتضد ، ومنذ ذلك الحين أصبحت طرسوس ثغراً تابعاً للخلفاء العباسيين ، وتوجّه منه الدولة العباسية السفن والأساطيل لغزو البلاد البيزنطية ،

---

(١) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ .
(٢) نفسه ، ص ٤٢٧ .
(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ص ٢١٣ .
(٤) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٤٣٩ .

ففي سنة ٢٨٥ هـ غزا راغب مولى الموفق في البحر فغنم مراكب كثيرة، وقتل ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها وأحرق المراكب[١]. ويبدو أن الخلافة العباسية جعلت ثغر طرسوس قاعدة لأسطولها في البحر المتوسط تولاها – بعد راغب الذي نكبه الخليفة المعتضد في سنة ٢٨٦ هـ – دميانة البحري غلام يازمان، ودميانة هذا هو الذي أشار على المعتضد العباسي في سنة ٢٨٧ هـ بحرق جميع المراكب البحرية التي كان يستخدمها المسلمون للغزو لشيء في نفسه على أهل طرسوس، فأحرقت المراكب وجميع آلاتها، وكان من بينها خمسون مركباً قديمة من نوع نادر لا يوجد نظيره في ذلك العصر. فلما أحرقت مراكب طرسوس أضر ذلك بقوة المسلمين[٢]. وقد لعب دميانة هـــذا دوراً هاماً في القضاء على الدولة الطولونية، فعندما أرسل المكتفي العباسي محمـد بن سليمان الكاتب لمحاربة الطولونيين وإدالة دولتهم، زحف ابن سليمان إلى حمص، ومن هناك كتب إلى دميانة وهو بالثغر يطلب منه السير في مراكبه إلى سواحل مصر، ودخول النيـــل وقطع المواد عن مصر. فقدم دميانة بأسطول عدته ١٨ مركباً حربية مشحونة بالرجال والسلاح[٣]، فاشتبك في تنيس مع مراكب الطولونيين بقيادة وصيف القطرميز وخصيب البربري وحماد بن مايخشى الفرغاني[٤]، فانهزم هؤلاء، وسقطت دمياط وتنيس في أيدي العباسيين، وهرب وصيف القطرميز قائد البحرية الطولونية[٥].

ثم قدم دميانة من الثغر مرة ثانية في مراكبه إلى الفسطاط سنة ٢٩٣ هـ وذلك عندما ثار ابن الخليج من دعاة الطولونيين على عيسى النوشري الوالي العباسي، وتمكن دميانـــة من دخول الفسطاط[٦]. وباستعادة العباسيين

(١) ابن الأثير، ص ٤٩١.
(٢) المسعودي، ج ٤ ص ٢١٣.
(٣) النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٣٦.
(٤) الكندي، ص ٢٤٥.
(٥) نفسه، ص ٢٤٥ – النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١١٠.
(٦) نفسه، ص ٢٦٢.

لمصر في سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) ارتفع شأن القوة البحرية في طرسوس وسواحل الشام[١] .

وقد لعبت طرسوس دوراً هاماً في العصر العباسي الثاني للدفاع عن سواحل مصر من غارات الفاطميين عليها منذ سنة ٣٠١ هـ (٣١٩ م) . فعندما أقبلت من المهدية ثمانون مركباً من مراكب الأسطول الفاطمي بقيادة سليمان الخادم ويعقوب الكتامي في سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) لتدعيم الحملة البرية ، وأرست في مياه الاسكندرية[٢] ، أرسل الخليفة المقتدر بالله الأسطول العباسي المرابط في طرسوس ، فقدمت منه ٢٥ سفينة مجهزة بالنفط والعدد بقيادة ثمل الخادم فأرست برشيد[٣] ، ثم اشتبكت مع السفن الفاطمية في مياه رشيد في معركة بحرية عنيفة وقعت في ٢٠ من شوال سنة ٣٠٧ هـ ، ظفرت فيها مراكب المقتدر ، وأحرقت كثيراً من سفن المغاربة . ويشير الكندي إلى أن ريحاً عاتية عصفت بمراكب الفاطميين فتحطمت وأسر يعقوب وسليمان ، وقتل الأهالي البحريين المغاربة وعدتهم سبعمائة ، وأبقي ثمل على رؤساء المراكب وعدتهم ١١٧[٤] .

* * *

وقبل أن نترك الحديث عن القواعد الشامية لا بد أن نذكر اسم شخصيتين بحريتين بارزتين لعبتا دوراً هاماً في تاريخ البحرية الإسلامية ، وسجلا من البطولات صفحات خالدة في التاريخ ، أما الشخصية الأولى فشخصية ليو الطرابلسي الذي يذكره المسعودي باسم « لاوي المكني بأبي الحرب غلام زرافة صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق » ، ويشير إلى

---

(١) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٥٢ .

(٢) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، صيدا ١٩٥٩ ج ٣ ص ٨٧ – المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ج ١ ص ٧١ .

(٣) الكندي ، ص ٢٧٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧٧ .

أنه كان يلي تدبير المراكب والحرب في النواتية وأرباب المراكب في البحر الرومي[١]، ويسميه الطبري وابن الأثير باسم غلام زرافة[٢]، بينما يسميه الكندي رشيق الوردامي المعروف بغلام زرافة[٣]. وتشير المصادر البيزنطية إلى أنه ولد من أبوين نصرانيين في أتاليا من أعمال پامفليا (في جنوب شرقي آسيا الصغرى) واشترك منذ صغره في العمليات الحربية الإسلامية، واعتنق الإسلام ثم استقر في طرابلس، وتلقى دروسه الحربية في عرض البحر، واشترك في كثير من غزوات المسلمين لسواحل بحر الأرخبيل، ثم انتقل في النهاية إلى طرسوس التي اتخذها قاعدة لسفنه[٤]، وأهم غزوات لاوي غلام زرافة الغزوة التي وجهها من طرسوس في سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) إلى ثغر سالونيك — التي تسميها المصادر العربية انطاليا — أهم ثغور الروم بعد القسطنطينية. وفي هذه الغزوة تمكن لاوي من افتتاحها بالسيف عنوة، فقتل خمسة آلاف، وأسر مثلهم، واستنقذ من أسرى المسلمين أربعة آلاف أسير، وظفر بستين مركباً بيزنطية شحنها بما غنمه رجاله من الفضة والذهب والمتاع والرقيق[٥].

أما الشخصية الثانية فهي شخصية عبدالله بن وزير صاحب مدينة جبلة (فيما يقرب من سنة ٣٣٢ هـ) الذي لم يكن هناك في زمنه من كان « أبصر منه في البحر الرومي، ولا أسن منه، وليس فيمن يركبه من أصحاب المراكب من الحربية والعمالة إلا وهو منقاد إلى قوله ويقر له بالبصر والحذق مع ما هو عليه من الديانة والجهاد القديم فيها »[٦].

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ١ ص ١٢٩.

(٢) الطبري ج ١١ ص ٣٩١ — ابن الأثير ج ٧ ص ٥٣٣.

(٣) الكندي، ص ٢٤٥.

(٤) محمد عبدالله عنان، مواقف حاسمة، ص ٧٨.

(٥) الطبرى، ج ١١ ص ٣٩١ — ابن الأثير، ج ٧ ص ٥٣٣. وراجع تفاصيل الرواية البيزنطية كما رواها المؤرخ البيزنطي كامنياتس الذي أسره ليو الطرابلسي ثم افتدى فيما بعد، في كتاب مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٧٨ — ٨٢.

(٦) المسعودى، ج ١ ص ١٢٩.

(٣)

البحرية في مصر والشام في العصرين الطولوني والاخشيدي

حرص أحمد بن طولون على إنشاء قوة بحرية يعتمد عليها في حماية سواحل مصر من جيش الموفق بالله أبي أحمد طلحة أخي الخليفة المعتمد على الله العباسي ، الذي سيره إلى مصر بقيادة موسى بن بغا مستهدفاً صرف ابن طولون عن ولايتها ، بالإضافة إلى أنه كان يهدف إلى استخدام هذا الأسطول الحربي لدفع خطر الغارات البحرية التي يوجهها البيزنطيون على سواحل مصر والشام . فعندما بلغ ابن طولون نبأ مسير موسى بن بغا إلى الرقة وعزمه على قصد مصر للإطاحة بإمارته ، لم يجد بداً من تدعيم الدفاع عن مصر عن طريق إجراءين : الأول بناء حصن بجزيرة الروضة يتخذه معقلاً لماله وحرمه ، أتم بناءه في سنة ٢٦٣ ، والثاني إنشاء أسطول ترابط وحداته على سواحل مصر الشمالية وفي نهر النيل قريباً من الفسطاط ، لحماية حاضرته القطائع . فاتخذ « مائة مركب حربية سوى ما ينضاف إليها من العلابيات والحمائم والعشارية والسنابيك وقوارب الخدمة ، وعمد إلى سد وجه البحر الكبير ، وأن يمنع ما يجيء إليه من مراكب طرسوس وغيرها من البحر الملح إلى النيل ، بأن توقف هذه المراكب الحربية في وجه البحر الكبير خوفاً مما سيجيء من مراكب طرسوس كما فعل محمد ابن سليمان من بعده بأولاده »[١] .

ومن دلائل اهتمام ابن طولون بالأسطول أنه استقدم ملتزم الصناعة

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ٨٩ . وراجع أيضاً ، البلوى ، سيرة أحمد بن طولون ، ص ٣٤٩ – ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور زكي محمد حسن وآخرين ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ ص ١٣٢ – السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢٢ – عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٢١٩ .

بالروضة أبا كامن شجاع بن أسلم الحاسب ، وقال له : « كل ما تعمل لي من العدة فإنه يكتفي بالقليل مع تقدم هيبتي في صدور الناس إلا المراكب ، فإن البحر لا يتقيني ولا يخاف سورتي ، وليس يعمل فيه إلا وثاقة الصنعة وتقديم الإحتياط ، فقدموا الحزم في المراكب ، واستزيدوا من الإنفاق عليها تسلموا بتوفيق الله من معرة البحر »[1] .

وورث خمارويه عن أبيه هـذا الاهتمام بالأساطيل ، فإن ابن منكلى يذكر أن « عـدة المراكب المرصدة للجهاد في أيام أحمد بن طولون مائة شيني ، فلما مات وتملك ابنه خمارويه زاد في عددها وعـدتها »[2] . غير أن خلفاء خمارويه لم يولوا البحرية ذلك القدر من الاهتمام ، فكانت القوة البحرة في عهدهم لا تتجاوز عدداً محدوداً من السفن ، ولم يقدر لهـذه القوة البحرية أن تلعب دوراً في تاريخ الأسرة الطولونية[3] ، بدليل أن الخلافة العباسية لم تستعن للقضاء على الدولة الطولونية إلا بقوة صغيرة من من الأسطول العباسي الذي كان راسياً بثغر طرسوس ، قوامها ١٨ مركباً حربياً مشحونة بالرجال والسلاح ، يقودها أمير البحر دميانة البحري[4] ، بالإضافة إلى الجيش البري الذي كان ابن سليمان الكاتب يتولى قيادته ، وبدليل أن السفن التي غنمها العباسيون بعد الطولونيين لم تقو على مواجهة الأسطول

---

(١) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٩٥ .

(٢) محمد بن منكلى ، كتاب الأحكام الملوكية والضوابط النموسية في فن القتال في البحر ، لوحة ٤١ ، الباب ٢٩ ، نسخة مصورة من المخطوطة محفوظة بكلية الآداب جامعة الاسكندرية رقم ٩ م .

(٣) يدل على ذلك ما قاله محمد بن داود لأحمد بن طولون وفيه تحامل :

له مراكب فوق النيـل راكدة — فما سوى القار للنظار والخشب
ترى عليها لباس الذل مذ بنيت — بالشط ممنوعـة من عزة الطلب
فما بناهـا لغزو الروم محتسباً — لكن بناها غداة الروع والعطب

(المقريزى ، الخطط ، ج ٣ ص ٩٠ – السيوطي ، ج ٢ ص ٢٢٣) .

(٤) الكندى ، ص ٢٤٥ – النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ١٠٩ ، ١٣٦ .

الفاطمي الذي قدم إلى ميـــاه الإسكندرية في ٣٠٧ هـ مما اضطر الخليفة المقتدر إلى إرسال ٢٥ سفينة مزودة بالنفط والعدد من ثغر طرسوس[١].

ولما تقلد الإخشيد إمارة مصر دخـــل البلاد ، وأقبل معه أسطول عباسي يقوده صاعد بن كلملم إلى تنيس ودمياط ، فتصدى له المغاربة وعلى ابن بدر في المراكب لمواجهـة سفن ابن طغج في النيل ومنعه من الوصول إلى الفسطاط وخلـع ابن كيغلغ ، وانتهت المعركة بانتصار السفن العباسية في شعبان سنة ٣٢٣ هـ ، وتمكن صاعـد من الوصول إلى جزيرة الروضة واستولى على مـا فيها من السفن في رمضان سنة ٣٢٣ هـ[٢]. ثم سارت مراكب صاعد إلى خليج الفيوم لمطاردة الفرقة المغربية بقيادة الثائر حبشي ابن أحمد . غـــير أن صاعد عجز عن الدوران بسفنه في خليج الفيوم لضيقه ، فوقع في قبضة المغاربة فقتلوه ، وظفروا بمراكبه[٣] ، ثم عادوا بهذه السفن إلى الفسطاط ، فأرسوا بجزيرة الروضة حيث تقوم دار صناعة الروضة ، فهاجموها وأحرقوا ما كان بها من السفن ، وكان ذلك سبباً في قيام الإخشيد بنقل دار صناعة الروضة سنة ٣٢٥ هـ من موقعها في الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان بساحل الفسطاط .

أما عن نشاط البحرية الإخشيدية خارج مصر فللأسف لم تزودنا المصادر التاريخية بتفاصيل تستحق الذكر ، وكل ما نعرفه في هـــذا الصدد نص أورده يحيي بن سعيد الأنطاكي يتعلق باحتفال كافور بإنزال عدد من السفن التي تم صنعها في البحر ، فذكر أنه ركب إلى دار الصناعة ليحتفل بطرح مركب حربي كبير في البحر ، وحدث أن تجمع حشد كبير من المتفرجين على حافة مركب كان راسياً هناك ، فلم يتحمل جانبه ثقـل الناس فمال بهم وانقلب بمن عليه فغرقوا ، وتسبب جنوح المركب في غرق عدد من

---

(١) الكندى ، ص ٢٧٦ .

(٢) الكندى ، ص ٢٨٦ - ابن سعيد ، ص ١٥٨ .

(٣) ابن سعيد ، ص ١٦٠ .

السفن كانت ملاصقة له ، فقتل في ذلك اليوم عدد كبير يصل إلى خمسمائة رجل[١] . ونستنتج من الموقف المتخاذل الذي وقفه أبو الحسن علي بن الإخشيد في سنة ٣٥٠ هـ من أهـــل إقريطش عندما استنصروه على البيزنطيين ، وتقاعسه عن مساعدتهم بأسطوله ، وتضليله لأهـالي مصر بإرسال بعض مراكبه في البحر تظاهراً بخروجها لمعاضدة أهل إقريطش[٢] ، يدل على أن البحرية الإخشيدية في مصر في عصر علي بن الإخشيد لم تكن في حالة تسمح لها بالدخول في أي حرب بحرية ولو على نطاق ضيق ضد البيزنطيين خاصة إذا وضعنا في الاعتبـار أن الامبراطور رومانوس الثاني حشد كل طاقاته البحرية وسخرها دفعة واحـــدة لاسترداد إقريطش ، فأعد لهذا الغرض قوة بحرية لم يشهد البحر المتوسط لها مثيلاً من قبـل ، تتألف من ألفي سفينة حربية وألف وثلثمائة وستين سفينة للمؤن والإمدادات[٣] .

---

(١) يحيى بن سعيد الانطاكي ، صلة كتاب سعيد بن بطريق ، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ١١٦ .

(٢) القاضي النعمان ، قضية إقريطش في عهد المعز لدين الله ، ص ٣٣ .

(٣) Diehl, op. cit. p. 462 – أرشيبالد لويس ، ص ٢٩٦

الباب الثاني

البحرية في مصر والشام
في العصر الفاطمي

الفصل الأول : البحرية الفاطمية في المغرب

الفصل الثاني : البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر القوة

الفصل الثالث : البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر الضعف

الفصل الرابع : التنظيمات البحرية في العصر الفاطمي

الفصل الخامس : البحرية التجارية في العصر الفاطمي



الفصل الأول

البحرية الفاطمية في المغرب

(١)

تفوق الفاطميين البحري
في النصف الغربي من حوض البحر المتوسط

لم يكن الفاطميون الذين أسسوا دولتهم في المغربين الأدنى والأوسط منذ عام ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) أقل اهتماماً بشؤون البحر من الأغالبة ، بل إننا لا نتجاوز الصواب إذا ذكرنا أنهم فاقوهم في العناية بالبحرية وفي الجهـاد البحري ، واعتمدوا على الأساطيل في تمكين نفوذهم السياسي في بلاد المغرب ، وفي منافسة القوى البحرية الأموية في الأندلس على السيادة البحرية في البحر المتوسط الغربي ، وفي مغازاة السواحل الإيطالية المطلة على البحرين الأدرياتي والتيراني ، بحيث يمكننا القول – دون أن يكون في ذلك شيء من المبالغة – بأن الفاطميين كانوا أعظم دول الإسلام اهتماماً بشؤون البحر بعد الأمويين ، وأن بحريتهم بلغت درجة هائلة من القوة والانتظام قبل أن ينتقلوا إلى مصر[1]. ففيما يتعلق بمنافسة القوى البحرية الفاطمية للبحرية الأموية نلاحظ أن أول مظاهر هذه المنافسة تنعكس في المعونات المادية التي كان يبذلها مؤسس الدولة الفاطمية لعمر بن حفصون ، إمام الثوار في الاندلس ، وأشدهم

(١) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية ، المجـلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ص ١٠٦ .

سلطاناً ، في فترة تمزقها السياسي أي فيما بين عامي ٢٣٨ هـ و ٣٠٥ هـ (٨٥٢ – ٩١٧ م) ، فقد كان من الطبيعي أن يؤيد الخليفة الفاطمي هذا الثائر الذي كان يسعى للإطاحة بدولة بني أمية عن طريق تحالفه مع أعداء الأمويين في الأندلس كالخلافتين العباسية والفاطمية ، أما الخلافة العباسية فقد كانت قد بلغت أقصى درجات الضعف والإعياء ، زد على ذلك أن سلطانها السياسي لم يكن يتجاوز في طليعة القرن الرابع الهجري حدود مصر ، ولذلك كان لزاماً على ابن حفصون أن يتصل بالمهدي الفاطمي ، ويرغبه في ضم الأندلس إلى أملاكه ، وهو أمر كان المهدي يتطلع إليه ويسعى جاهداً إلى تحقيقه . ويبدو أن المهدي وعد ابن حفصون بنصرته فقد سير إليه بالفعل مراكب في البحر رست في سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) بالساحل الجنوبي من الأندلس كانت تميره من العدوة . وكان لا بد للأمير الأموي أن يبادر بقطع الإتصال البحري بين الثائر ابن حفصون وبين عملائه في المغرب ، فيتخذ ما يراه من الاجراءات لقطع هذا الاتصال ، ويذكر ابن عذاري أن الأمير عبد الرحمن بن محمد شرع في هذه السنة بمهاجمة السفن الفاطمية في الجزيرة الخضراء وحرقها[1] ، ويجمع مؤرخو العرب على أن عبد الرحمن بن محمد بدأ يهتم منذ ذلك الحين اهتماماً جدياً بتدعيم قوته البحرية ليدفع بها الخطر الفاطمي عن بلاده ، وأنه شرع في تسديد ضرباته إلى ممتلكات الفاطميين في المغرب قبل أن يسبقه هؤلاء إلى مهاجمة بلاده ، ولم يلبث النزاع البحري بين الفاطميين في المغرب والأمويين في الأندلس أن تطور إلى صدام بحري مسلح . ففي سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) أمر الخليفة عبد الرحمن بن محمد بإنشاء مركب كبير في دار الصناعة بالمرية ، لم تشهد الأندلس لها مثيلاً من قبل في الكبر والضخامة ، وسيّر فيه أمتعة إلى

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٧ – ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٤ ص ٣٣
وفي مقابل ذلك أيد الخليفة الأموى عبد الرحمن بن محمد الثائر الخارجي على خلفاء الفاطميين أبا يزيد مخلد بن كيداد اليفرني، واستقبل ابنه أيوب من قرطبة استقبالاً حافلاً في سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) (ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٢١) .

بلاد المشرق ، فلقي هذا المركب في البحر مركباً فاطمياً يحمل رسولاً من الحسين بن علي أمير صقلية إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، فقطع عليه ملاحو المركب الأندلسي طريقه ، واستولوا على ما فيه ، كما استولوا على الكتب التي أرسلها الحسين بن علي إلى الخليفة المعز ، فلما بلغ المعز ذلك ، عزم على الانتقام ، فعمر أسطولاً بقيادة أمير صقلية ووجهه إلى ساحل الأندلس الجنوبي الشرقي ، فهاجم هذا الأسطول الفاطمي مدينة المرية في نفس السنة ، واقتحم المغاربة مرسى المرية ، وأحرقوا جميع ما كان راسياً فيه من السفن الأندلسية ، واستولوا على المركب الكبير ، وكان قد عاد من الاسكندرية مشحوناً بأمتعة للخليفة عبدالرحمن الناصر وجوار ومغنيات ، ثم هاجموا المدينة ، وقتلوا ونهبوا ، ثم عادوا سالمين إلى المهدية [١] .

وكان رد الفعل الأندلسي على هذه الغارة البحرية أن هاجم الأسطول الأندلسي بقيادة أمير البحر غالب بن عبدالرحمن الناصري سواحل إفريقية الفاطمية في سنة ٣٤٥ هـ في ستين سفينة ، وكان مرسى الخرز وساحل مدينة سوسة هدفاً لهذه الغارة [٢] ، كما أرسل الخليفة الأندلسي قائده في البحر أحمد بن يعلى في سنة ٣٤٧ هـ لغزو سواحل إفريقية [٣] .

كذلك استخدم الفاطميون أساطيلهم لتمكين نفوذهم السياسي في أرض المغرب ، وإخماد الحركات المناهضة لسلطانهم في هذه البلاد : ففي سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) أرسل عبيد الله المهدي أسطولاً من ١٥ مركباً حربية إلى طرابلس الغرب لمساعدة جيشه الذي سيّره إلى أهل طرابلس بقيادة ابنه أبي القاسم لإخماد ثورتهم عليه ، ولكن أهل طرابلس أخرجوا إليه مراكبهم ، وأحرقوا

---

(١) القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد المغربي ، المجالس والمسايرات ، مخطوطة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠ ورقة ٢٢٥ — ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٦ ص ٣٤٩ — أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، طبعة بيروت ، ج ٣ ص ١٢٧ .

(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، طبعة بيروت ، ج ٢ ص ٣١٨ — Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. II, Leiden, 1950, p. 108 — Torres Balbás, Atarazanas hispano musulmanas, al-Andalus, vol. XI, 1946, p. 180.

(٣) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٣٢ .

أسطول المهدي وقتلوا من فيه[1] ، ومع ذلـك فقد تمكن أبو القاسم من إخضاع الثوار وإعادة طرابلس إلى الطاعـة . كذلك ساهمت الأساطيل الفاطمية في إخماد حركة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الثائر على الفاطميين وهي حركة خطيرة استغرقت نحو ١٤ سنة (من ٣٢٢ إلى ٣٣٦ هـ) وشغلت عصر الخليفة القائم بالله الفاطمي كلـــه وعامين من عصر ابنه أبي العباس إسماعيل المنصور ؛ فعندما اشتد حصار أبي يزيد على سوسة في سنة ٣٣٤ هـ ، بعث اسماعيل المنصور الأساطيل من المهدية .إلى سوسة مشحونة بالمدد من المقاتلة والميرة مـــع رشيق الكاتب وقائد البحر يعقوب بن اسحق ، فلما وصلت المؤن والأقوات إلى أهـل سوسة ، اشتدت مقاومتهم لأبي يزيد وتمكنوا من إيقاع الهزيمة به[2] .

أما فيما يتعلق بالجهاد البحري ضد الروم والفرنجة ، فمن المعروف أن الدولة الفاطمية تابعت نفس السياسة التي كان يقوم بها الأغالبة في هــذا المجال ، فكانت أساطيلهم تغزو سواحل إيطاليا الجنوبية الواقعة على البحرين الأدرياتي والتيراني من قواعدها في صقلية وسردانية ، ففي سنة ٣١٠ هـ غزا مسعود الفتى إقليم قلورية في عشرين شينياً ، فاستولى على مدينـــة أغاتى Santa Agata de Calabria[3] ، كما غزا أبو أحمد جعفر جنوبي إيطاليا بعد ذلك بثلاث سنوات من صقلية ، فافتتح مواضع كثيرة من بينهـا مدينة وارى Oria ، وغنم غنائم كثيرة[4] ، كما قـام صابر الفتى الصقلبي بغزو السواحل الإيطالية في سنة ٣١٥ هـ في ٤٤ شينياً ، فأصاب في هذه الغزوة كثيراً من الغنائم[5] . ثم تتابعت غزوات الأساطيل الفاطمية بقيادة صابر

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٢٣٤ .
(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٨ — عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٦٢٩ .
(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦٤ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٦٧ — ارشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ص ٢٣٤ .
(٥) ابن عذاري ، ص ٢٧٠ .

الفتي وسالم بن راشد الكناني على أذرنت وطارنت [1] Tarentum ، وساليرنو ونابـل في سنة ٣١٧ هـ ، وبقيادة يعقوب بن اسحق على جنوة وسردانية وقرشقة Corsica [2]. وقد بلغ النشاط البحري الفاطمي ذروته في سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٥ م) بفتح جنوة [3] ، وغزو البر الكبير أي الساحل الجنوبي من فرنسا. ولم يتوقف الجهاد البحري الفاطمي إلا فترة ١٤ عاماً شغلوا خلالها بإخماد حركة أبي يزيد مخلد بن كيداد ، وما إن فرغوا من استنزال هذا الثائر حتى عاودوا الغزو البحري على سواحل إيطاليا الجنوبية في ظل ولاة صقلية الجدد من أسرة بني الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي ، وعجز البيزنطيون عن مواجهة الأساطيل الفاطمية ، وانهزموا في موقعتين بحريتين حاسمتين : الأولى في أذرنت باقليم قلورية في سنة ٣٤٠ هـ [4] ، والثانية وهي المعروفة بوقعة المجاز بالقرب من رمطة في سنة ٣٥١ هـ [5].

(٢)

عوامل تفوق القوى البحرية الفاطمية في غرب البحر المتوسط

ساعد الفاطميين على تفوقهم البحري في غرب البحر المتوسط عوامل نذكر منها ما يلي :

١ – تأصل فكرة الجهاد عند الفاطميين

يعتبر الجهاد عند الفاطميين عنصراً هاماً من عناصر سياستهم الحربية

---

(١) ابن الأثـير ، (النص الوارد في المكتبة الصقلية) ص ٥٤ – النويري ، نهاية الأرب ، مخطوطة مصورة ، ج ٢٢ ، ص ٢٣٢ – أرشيبالد لويس ، ص ٢٣٤ .

(٢) ابن الأثـير ، (المكتبة الصقلية) ، ص ٥٤ – ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٩ – النويري ، نهاية الأرب ، ص ٢٣٢ .

(٣) ابن خلدون (المكتبة الصقلية) ص ٤٦٢ .

(٤) ابن الأثير (المكتبة الصقلية) ص ٢٦٠ – أرشيبالد لويس ، ص ٢٣٥ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٦٦ – أبو الفداء ، ص ١٢٢ – النويري ، ص ٢٣٥ .

وركيزة من ركائز العقيدة الإسلامية الشيعية [١] ، ويرجع السبب في تمسك الفاطميين بالجهاد واتخاذهم له ركناً أساسياً من أركان سياستهم الحربية ضعف خلفاء بني العباس وتقاعسهم عن الدفاع عن الثغور الإسلامية الأمر الذي عرض هـــذه الثغور لاحتلال البيزنطيين ، ويعلل أبو المحاسن فتح الفاطميين لمصر بأن الروم « كانوا قد استولوا على الشام والثغور وطرسوس وأنطاكية وأذنة وعين زربة والمصيصة وغيرها » [٢] . والواقع أن تجرؤ البيزنطيين على مهاجمة بلاد الشام منذ أيام الأمبراطور نقفور فوقاس ونجاحه في التغلب على أهم مدن الثغور في سنة ٣٥١ هـ ، وتمكنه من افتتاح كثير من مدن الشام في سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ، فتغلب على حلب ومعرة النعمان ومعرة مصرين وكفرطاب وشيزر وحماة وحمص ، ووصلت قواته إلى عرقة فافتتحوها ، وحاصروا طرابلس ثم أحرقوا ربضها ، وانصرفوا بعد ذلك إلى جبلة فافتتحوها ، ومضوا منها إلى اللاذقية [٣] ، كان هذا التجرؤ من جانب البيزنطيين مع تراخي خلفاء بني العباس في الدفاع عن هذه البلاد من الأسباب التي حملت الفاطميين على فتح مصر والشام ، وقد عبّر المعز لدين الله عن ذلـك عندما وصل إلى الاسكندرية ، واستقبله فيها قاضي مصر أبو طاهر الذهلي ، وأعيان الثغر ، فأعلمهم « بأن قصده قصد المبارك من إقامة الجهاد والحق وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة [٤] » ، وأنه لم يقدم إلى مصر لزيادة في ملك أو استكثار لرجال ، وإنما قدم « رغبة في الجهاد

---

(١) القاضي النعمان ، دعائم الاسلام ، تحقيق آصف عـــلي فيظى ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥١ ص ٣٩٩ – عبد المنعم ماجد ، ظهور دولة الفاطميين وسقوطهـــا في مصر ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ص ١٢١ ، ٢٧٥ .

(٢) ابو المحاسن بن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٧٢ .

(٣) ابن العديم الحلبي ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، ج ١ دمشق ١٩٥١ ص ١٥٨ – السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٤) ابن تغري بردى ، ج ٤ ص ٧٢ .

ونصرة للمسلمين »[١] . وعندما أخـــذ البيزنطيون يركزون هجماتهم على جزيرة إقريطش سنة ٣٥٠ هـ في عهد الأمبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩–٩٦٣م) الذي نجح في تكوين أسطول ضخم وجهه لفتح هـذه الجزيرة ، واضطر عبد العزيز بن شعيب[٢] صاحب إقريطش ، إلى استصراخ مـلوك الإسلام أمثال أبو الحسن على الإخشيد والخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، لم يتردد المعز الفاطمي في بذل جميع إمكانياته لاستنقاذ جزيرة إقريطش ، وكتب إلى أبي الحسن علي الإخشيد رسالة يحثه فيها على الجهـــاد وإمداد أهل إقريطش بالمراكب لقربهم منه واتصالهم به ، وعمد في هـذه الرسالة إلى إزالة مخاوفه من أسطوله الفاطمي على سفنه ، وأعطاه المواثيق والعهود[٣] ، ولكن يبدو أن محاولة المعز استنقاذ إقريطش أخفقت بسبب تقاعس الإخشيديين عن إنفاذ سفنهم إلى مرسى طنبة من أرض برقة[٤] ، بالإضافة إلى عدول المعز عن إقحام أساطيله في معركة غير متكافئة قد تعود عليه بالهزيمة وتدمير الأسطول الذي أعده لغزو مصر ، فقد كان عليه أن يواجه أسطولاً بيزنطياً هائلاً يتألف من ٢٠٠٠ سفينـة حربية ، و١٣٦٠ سفينة للمؤن والإمدادات[٥] ، واكتفى المعز بأن وجه إلى الإمبراطور البيزنطي رسالة تتضمن معاني التهديد بالحرب إذا هاجم إقريطش[٦] .

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٣٣ .

(٢) الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجـــال الأندلس ، تحقيق كوديره ، مدريد ١٨٨٥ ، ص ٣٩٤ – الحميدي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٢٨٣ .

(٣) القاضي النعمان ، قضية إقريطش في عهـد المعز لدين الله ، نص من المجالس والمسايرات نشره الأستاذ فرحات الدشراوي ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثاني ، تونس ، ١٩٦٥ ص ٣٤

(٤) القاضي النعمان ، المصدر السابق ، ص ٣٤ – حسن ابراهيم حسن وطه شرف ، المعز لدين الله الفاطمي ، القاهرة ١٩٤٧ ص ٣٠٤ (الملحق الأول) .

(٥) أرشيبالد لويس ، ص ٢٩٦ – Ch. Diehl, Histoire du Moyen âge, t. III, p. 462

(٦) حسن ابراهيم حسن ، وطه شرف ، المعز لدين الله الفاطمي ، الملحق السادس ، ص ٣٢١ .

٢ – سياسة التوسع الاقليمي

كان لتطلع الدولة الفاطمية الفتية إلى التوسع شرقاً للقضاء على الخلافة العباسية المتداعية ، وفي الشمال الغربي للإطاحة بملـــك بني أمية ، أعظم الأثر في اهتمامهم بتدعيم القوى البحرية ، ومن المعروف أن الحملة البرية التي سيّرها عبيد الله المهدي إلى مصر في المحرم سنة ٣٠٢ هـ[١] بقيادة حباسة ابن يوسف كانت تصحبها حملة بحرية ، إذ اشترك في العمليات الحربية أسطول فاطمي عدتـه مائتا مركب[٢] ، يغلب على الظن أنها من بقايا الأسطول الأغلبي الذي ورثه الفاطميون ، لأن دار صناعة المهدية لم تبدأ في إنتاج السفن إلا بعد سنة ٣٠٤ هـ . كذلك اشترك في الحملة الثانية التي وجهها المهدي في سنة ٣٠٧ هـ بقيادة أبي القاسم محمد بن المهدي ، أسطول فاطمي من ثمانين سفينة يقودها قائدان من أعظم قادة البحر الفاطميين هما سليمان الخادم ويعقوب الكتامي ، أرسله المهدي نجدة لابنه القاسم ، وأرست هذه السفن في مياه رشيد[٣] . ومع أن هذه الحملة البحرية لم يكتب لها النجاح بعد أن تعرض هـــذا الأسطول الفاطمي في ٢٠ من شوال سنة ٣٠٧ هـ لهزيمة نكراء من الأسطول العباسي بقيادة ثمل الخادم (وعدته ٢٥ سفينة) أدت إلى تدمير معظم السفن الفاطمية ، ووقوع قائدي الأسطول ورؤساء السفن في أسر العباسيين[٤] ، فإن هذه الهزيمة كانت حافزاً للمهدي على توجيه مزيد من العناية بالأسطول .

---

(١) عريب بن سعد ، صلة تاريخ الطبري ، طبعـة ليدن ١٨٩٧ ص ١٧٣ – الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٦٩ .

(٢) ابن الأبار ، الحـلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ص ٢٨٦ – ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي المسمى تتمة المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٢٨٥ ، ج ١ ص ٢٥٤.

(٣) أبو الفداء ، المختصر ج ٣ ص ٨٧ – المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ٧١ – ابن الوردي ، ص ٢٥٥ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٩ ص ١٧٢. وقد توفى سليمان الخادم في سجنه بمصر بينما حمل يعقوب بن اسحق الكتامي إلى بغداد ، ومن هناك تمكن من الفرار إلى إفريقية حيث قاد من جديد أساطيل الفاطميين. (الكندي ، ص ٢٧٦ – ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٥ – ابن الأثير، ج ٦ ص ١٦١ – المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ٧١ – النويري ، ج ٢٢ ص ٢٣٢).

أما فيما يتعلق بالتوسع في الأندلس، فعلى الرغم من أن جهود المهدي لاجتذاب عدد كبير من الأنصار والمشايعين في هذه البلاد، تمهيداً لبسط سلطانه مذهبياً وعسكرياً عليها، قد باءت بالفشل أمام رد الفعل الأموي، ومبادرة الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر بتوجيه أساطيله إلى أرض العدوة لمساندة أنصاره الزناتيين ضد الفاطميين، فإن الأسطول الفاطمي بقيادة الحسين بن علي أمير صقلية تمكن من مهاجمة مدينة المرية في سنة ٣٤٤ هـ، وأحرق جميع السفن الأندلسية التي كانت راسية في ميناء هذه المدينة على النحو الذي فصلناه فيما سبق.

٣ – قيام دور الصناعة في المهدية وسوسة ومرسى الخرز بانشاء الاساطيل

يسجل بناء مدينة المهدية في سنة ٣٠٥ هـ [١] شروع الفاطميين في انتهاج سياستهم البحرية، فمما لا شك فيه أن المهدية كانت تتمتع بموقع استراتيجي هام بين سفاقس والمنستير في جزيرة متصلة بالبر «كصورة كف اتصل بزند» [٢]، وبوجود مرسى منقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركباً، يقوم على طرفيه برجان بينهما سلسلة من حديد تحميه من طروق مراكب الروم [٣]، في مثل السلسلة التي كانت مقامة بميناء تونس [٤]، كما كانت

(١) ذكر البكري أن المهدي شرع في بنائها في سنة ٣٠٠ هـ، واستكمل سورها في سنة ٣٠٥ وانتقل إليها في شوال سنة ٣٠٨ هـ (البكري، ص ٣٠)، كذلك ذكر ابن عذاري أن المهدي ابتدأ ببنيان المهدية في سنة ٣٠٠ هـ وأكمل سورها ونصب به الأبواب الحديدية في ربيع الأول سنة ٣٠٤ هـ (ابن عذاري، ج ١ ص ٢٣٤).

(٢) ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت، مجلد ٥، ص ٢٣٠ – ابن خلدون، ج ٤ ص ٧٩ – المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج ١ ص ٧٠.

(٣) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشره دي سلان، الجزائر ١٩١١ ص ٣٠، ٣٩ – كتاب الاستبصار في عجائب الامصار، لكاتب مراكشي مجهول، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية ١٩٥٨ ص ١١٧، ١١٨ – التجاني، الرحلة، تحقيق الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب، تونس ١٩٥٨ ص ٣٢٢ – ميخائيل عواد، المآصر في بلاد الروم والإسلام، بغداد ١٩٤٨ ص ٥٩.

(٤) البكري، ص ٣٩.

تتمتع أيضاً بوجود دار للصناعة منقورة في الجبل كانت تسع مائة شيني[١]. وكان لإنشاء المهدية أعظم الأثر في تدعيم أسطول الفاطميين في إفريقية، فقد كانت دار صناعة المهدية أكثر إنتاجاً للسفن من دار الصناعة بتونس[٢].

ويبدو أن الأئمة الفاطميين منذ أيام المهدي كانوا يسعون إلى إنشاء أسطول ضخم مزود بالرجال والآلات والسلاح لتنفيذ سياستهم التوسعية، سواء في الأندلس أم في مصر، وقد رأينا هذا الأسطول يشارك الجيوش الفاطمية في غزو الاسكندرية، كما شاهدناه يغير على المرية قاعدة الأسطول الأندلسي في عصر الخلافة، وإقليم قلورية بجنوبي إيطاليا، وأصبح للمهدية متولي للبحر هو حسين بن يعقوب الكتامي[٣]، ومتولي لخزائن البحر[٤]، لتوفير مواد صناعة السفن كالأخشاب اللازمة لصناعة الصواري والقرايا[٥]. ويبدو أن مرسى المهدية أصبح يغص بالسفن في عصر المعز لدرجة أن هذا الخليفة لم يتردد في إنشاء دار جديدة للصناعة، وقاعدة للأساطيل في مدينة سوسة[٦]. ويذكر البكري أن مدينة مرسى الخرز الواقعة إلى الشرق من بونة أنشئت بها دار صناعة لصناعة المراكب الحربية التي يغزى منها إلى بلاد الروم[٧].

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ٧٠.

(٢) أنشأ هذه الصناعة حسان بن النعمان الغساني عامل إفريقية بتشجيع من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي حرص على مراسم الجهاد (ابن خلدون، المقدمة، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، ج ٢ ص ٦٢٨)، وأسهم في تأسيس هذه الصناعة ألفي قبطي أرسلهم إليه الأمير عبد العزيز بن مروان من مصر بأهلهم وأولادهم وذلك لشهرة أقباط مصر وقتئذاك في صناعة السفن (التجاني، ص ٦ - ابن أبي دينار القيرواني، ص ١١).

(٣) أبو علي منصور العزيزي الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد عبد الهادي شعيرة، القاهرة ١٩٥٤ ص ٨٧.

(٤) نفس المصدر، ص ١٠٢، ١١٩.

(٥) نفس المصدر، ص ١١٩.

(٦) القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، (مخطوطة) ج ٢ ورقة ٥٩٠ - ٥٩٢، اليعقوبي، كتاب البلدان، ليدن ١٨٩١ ص ٣٤٨ - البكري، ص ٣٤.

(٧) البكري، ص ٥٥.

ولم تكن الدولة الفاطمية تفتقر إلى المواد الخـام الضرورية لصناعة الأساطيل ، فقد كانت هذه المواد تتوفر بكثرة في بلاد المغرب وفي صقلية ، كالخشب الذي تصنع منه ألواح السفن والصواري والقرايا والسكان والمجاذيف والسلالم ، ومثل معدن الحديد اللازم لصناعة المسامير والمراسي والروابط والخطاطيف أو الكلاليب والعرادات والسلاسل ، ومثل الألياف اللازمة لعمل حبال المراسي ، والقطران والزفت اللذين يحتاج إليهما لقلفطة السفن حتى تقاوم أخشابها مياه البحر ، والنفط الذي يصنع من القطران والكبريت ويستخدم كسلاح من أسلحة الأسطول .

أما الخشب فكان يستقطع من مدينة جفلوذ بصقلية التي تشتهر بتوافر أنضر أجناس العود اللازم لصناعة السفن[١] ، كما كان يجلب من جبـال شذت ماركو بجزيرة صقلية نفسها[٢] . وكان يستعان في استقطـاع العود بصقلية بأهل طبرمين ورمطة[٣]. كذلك كان الخشب يجلب في المغرب من أودية بجاية وجبالها[٤] ، ومن جزيرة قوصرة[٥] . أما الحديد فكان يستخرج في جزيرة صقلية من مسيني[٦] وبلرم ، ويصرف ما يستثار منه لصناعة السفن[٧] ، بينما كان يستخرج في إفريقية من بونـة[٨] ومجانة[٩] وبلاد

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة جفلوذ ، ص ١٤٧ .

(٢) الحميري ، منتخبات من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، خاصـة بالجزر والبقاع الإيطالية ، تحقيق الدكتور اومبرتو ريتزيتانو، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مجلد ١٨ ، ج ١ مايو ١٩٥٦ ، ص ١٥٦ .

(٣) سيرة الأستاذ جؤذر ، ص ١١٧ .

(٤) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٥) الحميري ، ص ١٧٢ .

(٦) الإدريسي (المكتبة الصقلية) ص ٣٤ .

(٧) ابن حوقل ، صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ص ١١٧ .

(٨) المقدسي ، أحسن التقاسيم ص ٢٢٦ – ابن حوقل ، ص ٧٧ – الإدريسي ، ص ١١٦ .

(٩) اليعقوبي ، ص ٣٤٩ .

كتامة[1] والأربس[2] وبجاية[3]. وكان الزفت والقطران البالغ الجودة يجلب من أقاليم بجاية[4] ومن جزيرة قوصرة[5] في المغرب، ومن لياج[6] Aci بصقلية، بينما كانت حبال السفن تصنع من نبات يقال له البربير يشبه البردي، كان ينبت بكثرة في بلرم، فكان يفتل حبالاً لمراسي السفن[7].

٤ – تعدد المراسي والقواعد البحرية في المغرب

كان لامتداد السواحل التونسية والجزائرية واتصالها شرقاً بسواحل برقة وطرابلس وغرباً بسواحل المغرب الأقصى، بالاضافة إلى كثرة الخلجان التي تتعمق في الداخل، أثر كبير في تعدد المراسي التي تصلح لاتخاذها قواعد بحرية هامة، فتونس تقع في وسط خليج خارج عن البحر على نحر بحيرة محتفرة يقال له مرسى رادس[8]، وسوسة تقع على الساحل إلى الجنوب الشرقي من تونس[9]، ومنها فتح الأغالبة جزيرة صقلية[10]، ومرسى المهدية يقع شرقي سوسة على طرف داخل في البحر الذي يحيط بها، ومرسى سفاقس يقع شرقي المهدية، وكان من المراسي المشهورة بركود مياهها[11]، وقابس كان مرفئاً للسفن الصغيرة والمتوسطة التي كانت تدخل في واديها[12]،

(١) ابن حوقل، ص ٨٤ – البكري، ص ٣٣.
(٢) الإدريسي، ص ١١٧.
(٣) نفس المصدر، ص ٩١.
(٤) نفس المصدر.
(٥) المكتبة الصقلية، ص ١٣٤.
(٦) الحميري، ص ١٤١، ١٧٤.
(٧) ابن حوقل، ص ١١٧.
(٨) البكري، ص ٣٧.
(٩) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١١٦.
(١٠) البكري، ص ٢٢٠ – ابن عذاري، ج ١ ص ١٣٢ – الحميرى، ص ١٥٧.
(١١) الادريسي، ص ١٠٧.
(١٢) الإدريسي، ص ١٠٧ – أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١١٢.

وكان لمدينة بونة مرسى حسن تخرج منه الشواني غازية إلى بلاد الروم وسردانية وقرشقه وما والاها [١]. أما طرابلس فمرساها كان مأموناً من الرياح، وكان ساحلها كثير الأربطة، وكان أهلها بحريين مهرة شغلوا مناصب هامة في البحرية الفاطمية مثل ابن وسيم الإطرابلسي، أحد أرباب البحر والمراكب في زمن المعز لدين الله الفاطمي [٢]. وقد أصبحت طرابلس في أواخر عصر المعز بإفريقية قاعدة لأسطول صقلية [٣]. وكان لجيجل مرسيان: الجنوبي منهما كان يصعب على السفن أن ترسو فيه لتعرضه للرياح، والشمالي كان حسن الإرساء لسكون حركة الماء فيه [٤]. ومن مراسي المغرب الأوسط المشهورة: مرسى بجاية الذي كان يحميه جون [٥]، ومرسى الدجاج، وكان من المراسي الضيقة التي تقصدها سفن الأندلس بوجه خاص [٦]، ومرسى وهران المعروف بمرسى أرزاو، ومرسى هنين فرضة تلمسان [٧].

أما صقلية، فقد تعددت فيها المراسي الصالحة للسفن، مثل مسيني وطبرمين وقطانية وسرقوسة والبوالص ونوطس ورغوص ولنبيادة وجرجنت والساقة وطرابنش والحمة وبرطنيق [٨]. ومن مراسي قرشقة البوالص والزيتونة [٩]. أما جزيرة جربة فرغم صغرها كانت تضم عدداً كبيراً من

---

(١) البكري، ص ٨٣.

(٢) سيرة الأستاذ جؤذر، ص ٨٧ – سعد زغلول، فترة حاسمة في تاريخ المغرب، ص ١٦.

(٣) نفس المصدر، ص ٨٧، ١١٨ – سعد زغلول، فترة حاسمة في تاريخ المغرب، ص ١٦، ١٧

(٤) الإدريسي، ص ٩٧، ٩٨.

(٥) العمري، وصف إفريقية والمغرب والأندلس، تحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، تونس ١٩٠٦ ص ٩.

(٦) البكري، ص ٦٥ – الإدريسي، ص ٨٩.

(٧) تقويم البلدان، ص ٧.

(٨) الإدريسي، ص ٢٧ – ٣٥.

(٩) الحميرى، ص ١٧٧.

المراسي مثل البرج الكبير المعروف بالحصار ، ومرسى آجيم ومرسى الساقية ومرسى الرملة ومرسى التفاح (١) .

وعلى هـذا النحو تعددت القواعد البحرية للسفن التجارية والحربية الفاطمية ، وكان لذلك أعظم الأثر في التفوق البحري الذي أحرزه الفاطميون على جيرانهم الساكنين بسيف هذا البحر وسواحله الشمالية من أمم الروم والافرنجة (٢) .

٥ – سيطرة الفاطميين على الجزر الواقعة تجاه السواحل التونسية

يمتد بين سيفي البحر المتوسط الشمالي والجنوبي من نصفه الغربي عـدد كبير من الجزر كانت تؤلف للفاطميين ستارة أمامية ، أو خطاً دفاعياً أمامياً ، يقيهم هجمات خصومهم على السواحل المغربية ، وفي نفس الوقت يعينهم على شن الغارات البحرية على أراضي هؤلاء الخصوم : فجزيرة صقلية بحكم موقعها بين الساحل التونسي من الجهة الجنوبية الغربية والساحل الجنوبي من شبه جزيرة قلورية ، كانت لها أهميتها العظمى في حسم التفوق البحري ، ويعتبر فتحها على أيـدي الأغالبة في سنة ٢١٢ هـ ، حدثاً من الأحداث البارزة في تاريخ البحرية الإسلامية ، إذ عرف الأغالبة ثم الفاطميون من بعدهم فالزيريون ، عن طريقها كيف يهددون إيطاليا ، ويسودون البحر التيراني كله (٣) .

ولقد تمكن الفاطميون من السيطرة على معظم الجزر المتوسط الغربي ، وأكبرها صقليـة ثم سردانية وقرشقة ومالطة . وكان يحمي السواحل

---

(١) محمد أبو راس الجربي ، مؤنس الأحبة في أخبار جربة ، تحقيق الأستاذ محمـد المرزوقي ، تونس ١٩٦٠ ص ٧٥ – ٨٣ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٧ .

(٣) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ١٩٦٧ ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

الفاطمية عدد من الجزر الصغيرة منها جزيرة قوصرة ومليطمة [١] الواقعتان تجاه ساحل إفريقية ، وجزيرة قورية بإزاء المنستير ، وجزيرة قرقنة الواقعة قبالة قصر زياد وسفاقس [٢] ، وجزيرة جوبة الواقعة تجاه ساحل بجاية ، وجزيرة قملارية ، وجزائر الكراث الواقعة على مقربة من مرسى بنزرت ، وجزيرتا الجامور في قبالة مرسى بونة ، وجزيرتا الزرقاء تجاه رأس قبودية ، وجزيرة الأحاسي بإزاء المهدية [٣] ، وجزيرة جربة بين قابس وسبرت ، وجزيرة زيزو التي تقع إلى شرقها [٤] ، وجزيرة رازوا الواقعة في قبالة قابس [٥] .

٦ – دربة أهل إفريقية على ركوب البحر

حبت الطبيعة بلاد المغرب وإفريقية بوجه خاص بالمقومات الضرورية للقيام بدور بحري هام ، فإن شكل الساحل التونسي وامتداده في شريط طويل متصل بساحل برقة وطرابلس من الشرق ، وبساحل المغربين الأوسط والأقصى حتى المحيط الأطلسي من الغرب ، حتم على إفريقية القيام بهذا الدور وتقرير مصيرها في ثقة تامة [٦] ، وقد أدرك الفينيقيون أهمية موقع البلاد التونسية بحكم اشتغالهم بالملاحة والتجارة ، كما بنى الوندال سياستهم البحرية على هذا الأساس [٧] . كذلك فطن العرب إلى هذه الحقيقة في إمارة حسان بن النعمان الغساني ، فأسسوا مدينة تونس وزودوها بدار صناعة للإنشاء وإنتاج الآلات . وقد لاحظ ابن خلدون أثر هذا الامتداد

---

(١) الروض المعطار ، ص ١٧٢ .
(٢) البكري ، ص ٢٠ – الإدريسي ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٣) الروض المعطار ، ص ١٨٠ .
(٤) الإدريسي ، ص ١٢٨ .
(٥) البكري ، ص ١٧ .
(٦) Pellegrin, Histoire de la Tunisie, Tunis, 1948, p. 19 — R. Brunschvig, La Berbérie orientale sous les Hafsides, Paris, 1940, t. II, p. 94.
(٧) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٣ – البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس ، ص ٤٨ .

الساحلي لإفريقية والمغرب في تمرس المغاربة بالأمور البحرية ، فقال : « والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار ، فقد كانت الروم والإفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي ، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن ، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ، ولما أسف ما أسف منهم إلى ملك العدوة الجنوبية ، مثل الروم إلى إفريقية والقوط إلى المغرب ، أجازوا في الأساطيل وملكوها ، وتغلبوا على البربر بها ، وانتزعوا من أيديهم أمرها ، وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولا ومرناق وشرشال وطنجة . وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ، ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد ، فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حفافيه ، معروفة في القديم والحديث »[1] .

وقد أثر امتداد الساحل الإفريقي في طبيعة السكان ، فكانوا يتميزون بنشاطهم البحري العظيم ، وهو نشاط يكوّن جزءاً لا يتجزأ من حياتهم الإجتماعية والإقتصادية ، ولم يظهر هذا النشاط في صورته الحقيقية إبّان تبعية بلاد المغرب للخلافة الأموية بالمشرق ، ولكنه اتضح بعد أن تطلع المغاربة إلى الانفصال عن المشرق الإسلامي[2] ، فمارسوا نشاطهم البحري الذي بلغ ذروته في القرنين الثالث والرابع باحتلالهم صقلية وجنوبي إيطاليا ومالطة وسردانية وقورشقة .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٦٢٧ .
(٢) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ١٨٩ ، ٣٤٧ .

الفصل الثاني

البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر القوة

(من المعز لدين الله إلى المستنصر بالله)

(١)

السيادة الفاطمية على حوض البحر المتوسط كله

يسجل استيلاء الفاطمين على مصر والشام فيما بين عامي ٣٥٨ هـ و ٣٦٥ هـ بداية عهد جديد في تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، أصبحت فيه سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر المتوسط الشرقية من أنطاكية إلى غزة ، والجنوبية من غزة شرقاً إلى مصب وادي ملوية بالمغرب الأوسط غرباً ، ملكاً للفاطميين . وكان من الطبيعي أن يهتم الفاطميون بالدفاع البري والبحري عن هذه السواحل الشامية المصرية المغربية المترامية الأطراف من خطر الغزو البيزنطي من جهة ، وخطر القرامطة على مصر من جهة ثانية ، أو عن سواحل البحر الأحمر خوفاً على مراكب الكارم من القراصنة [١] ، ولذلك وجه المعز لدين الله الفاطمي عنايته لتدعيم الأسطول الفاطمي وتنظيمه على نحو يتسق والأوضاع السياسية الجديدة ، على الرغم من أنه كان قد نقل أسطوله من قواعده المغربية إلى الإسكندرية ودمياط وتنيس وعسقلان وطرابلس وصيدا وصور ، ولم يترك في المغرب إلا عدداً قليلاً

---

(١) ولذلك السبب وضعوا أسطولاً في عيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها ، وكانت عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ، تناقصت فيما بعد إلى ثلاث ، وكان والي قوص يتولى أمر هذا الأسطول (القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٢٠)

من السفن لمعاونة نوابه الزيريين في حماية سواحل المغربين الأدنى والأوسط من الخطر الأموي في الأندلس[1] ، وفي نفس الوقت لمتابعة السياسة التي رسمها الأئمة الفاطميون لمواصلة الجهاد البحري في صقلية وجنوبي إيطاليا .

وقد ترتب على انتقال الفاطميين إلى مصر ، أن أصبحت الدولة الفاطمية تنقسم إلى قسمين : قسم مشرقي يضم الشام ومصر ، وقسم مغربي ويشتمل بدوره على ثلاثة ولايات منفصلة : ولاية طرابلس وسرت ثم ولاية الزيريين الصنهاجيين بالمغربين الأدنى والأوسط ، وأخيراً ولاية صقلية التي انحصرت في أسرة بني أبي الحسين الكلبيين[2] .

أما الشام ومصر ، فقد أصبحتا ترتبطان لأول مرة في تاريخهما الإسلامي في وحـدة سياسية شاملة على الرغم مما تعرض له الفاطميون من دسائس أعدائهم في العراق وفي بلاد الشام نفسها[3] ، ثم إن الشام كانت في اعتبار الأئمة الفاطميين أرض جهاد ، لاتصال حدودها الشمالية بأراضي البيزنطيين ، بالإضافة إلى كثرة ثغورها البحرية المعرضة للغارات البحرية البيزنطية[4] .

---

(١) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ٣١٢ .

(٢) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٢ ص ١٣٧ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، الصلات التاريخية بين الشام ومصر في العصر الإسلامي ، مجلة العلوم ، العدد الخامس ، مايو ١٩٦٤ ص ١ — ١٠ ، عبد المنعم ماجـد ، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ، ص ١٢٣ .

(٤) من المعروف أن الامبراطور البيزنطي حنا زيمسكس المعروف في المصادر العربية بابن الشمشقيق ، عزم منذ أن تولى العرش على القيام بحملة صليبية واسعة النطاق ضد المسلمين في الشام (سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٦٤ — عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبي : الامبراطور يوحنا تزيمكس وسياسته الشرقية ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٩٠ — ٩٦) ، سالكاً في ذلك نفس السبيل الذي سلكه سلفه الامبراطور نقفور فوقاس ، فاستغل فرصة ما كان يعانيه الفاطميون من متاعب في الشام من جانب الحسن بن أحمد القرمطي ، وأبي منصور الفتكين التركي ، وتحركت قواته لغزو بلاد الشام في سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، فافتتح حمص وبعلبك ، ودخلت دمشق في طاعته . ثم زحف جنوباً نحو الساحل ، فوصل إلى بلدة صيدا ، حيث هادنه واليها ابن الشيخ علي مال (ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤) . ثم استولى على قيسارية ، وافتتح بيروت عنوة ، ثم افتتح مدينة جبيل الواقعة في شمالها ، فيما بين طرابلس وبيروت . ولكن قواتـه المرهقة لم تستطع أن تقتحم أسوار طرابلس التي كانت في حماية الأسطول =

وأما البلاد اللوبية الممتدة ما بين مصر وإفريقية ، فقد انقسمت في العصر الفاطمي إلى قسمين :

١ – **قسم شرقي** يمتد ما بين حدود مصر الغربية إلى برقة ، ويشتمل على إقليمي لوبية ومراقية ، وكان هذا القسم ، كشأنه في العصور الإسلامية السابقة على العصر الفاطمي ، عملاً من أعمال مصر ، وجزءاً إقليمياً متمماً لها . وظل هذا القسم الشرقي خاضعاً للفاطميين في مصر حتى سنة ٣٩٦ هـ عندما انتزعه منها – خلال عام واحد – ثائر أندلسي يقال له الوليد ابن هشام الأموي ، ويعرف بأبي ركوة ، ولم يلبث هذا الإقليم أن عاد بعد مقتل أبي ركوة إلى تبعيته المباشرة لمصر .

٢ – **وقسم غربي** يمتد ما بين برقه وقابس ، ويضم مدينتي سرت ، وطرابلس ، واقليم أجدابية الواقع جنوبي سرت ، وقد أصبح هذا القسم ولاية جديدة مستقلة عن إفريقية أسندت إلى عبدالله بن يخلف الكتامي ، منذ أن عزم المعز لدين الله على الانتقال من إفريقية إلى مصر . ثم انضافت

= الفاطمي ، فاضطر الامبراطور إلى رفع الحصار عن طرابلس ، ورحل بقواته إلى أنطاكية (محمد جمال الدين سرور ، دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣١ – سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٦٦ – السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، الإسكندرية ١٩٦٧ ص ٥٥ وما يليها)كذلك قام الامبراطور بسيل الثاني بغزو بلاد الشام في سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) ، فنزل بحلب ، وزحف منها إلى شيزر التي استسلمت له بسهولة (ابن القلانسي ، ص ٤٣ – أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ١٢١) . ثم حاصر حمص وافتتحها عنوة ، وافتتح رفنية ، ومن هناك زحف تجاه طرابلس ، فحاصرها أكثر من أربعين يوماً ، ولكنه أخفق في افتتاحها أمام مقاومة أهلها ، ووصول المدد إليها من مصر عن طريق البحر ، واضطر أخيراً إلى رفع الحصار عنها والعودة إلى بلاده . ثم قام في سنة ٣٨٩ هـ بحملة ثانية لقيت نفس مصير الحملة السابقة ، واضطر هذه المرة أيضاً إلى الرحيل عن طرابلس في ٥ من المحرم سنة ٣٩٠ هـ إلى انطاكية (يحيى بن سعيد الانطاكي ، صلة كتاب سعيد بن بطريق ، بيروت ١٩٠٩ ص ١٨٤ – أبو الفداء ، المختصر ، ج ٤ ص ٢٠ – أسد رستم ، الروم والعرب ، بيروت ١٩٥٦ ، ج ٢ ص ٥٦ – سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١٦٩) .

هذه الولاية في سنة ٣٦٧ هـ إلى ولاية إفريقية ، التي كان المعز قد أسندها في سنة ٣٦٢ هـ إلى يوسف بلكين بن زيري الصنهاجي[١]. وظلت هذه الولاية الطرابلسية تابعة لأعقاب بلكين إلى أن خرجت مدينة طرابلس الغرب على باديس بن المنصور ، واتخذها فلفل بن سعيد ، حفيد خزرون الزناتي ، منذ سنة ٣٩٥ هـ مركزاً لإمارة زناتية في قلب ليبيا . ثم عادت طرابلس ولاية تابعة لباديس بعد وفاة فلفل مدة ثلاث سنوات عادت بعدها إلى الانفصال عن إفريقية والدخول في طاعة بني خزرون الزناتيين . وقد اهتم بنو خزرون — وعلى الأخص خليفة بن وروا بن فلفل — في طرابلس بإنشاء أسطول قوي لإمارته ، الأمر الذي نبه الزيريين في إفريقية إلى ضرورة العودة بدورهم إلى الاهتمام بالبحرية والتطلع إلى الجهاد البحري الذي عرفوا به[٢] .

أما المغربان الأدنى (ويعرف بإفريقية ، ونعني به الاقليم التونسي) والأوسط (ويضم تقريباً الأراضي التي تشغلها حالياً الجمهورية الجزائرية) ، فقد احتفظا باستقلالها كولاية قائمة بذاتها مع الإبقاء على صلات الولاء للائمة الفاطميين في القاهرة ، وانحصرت هذه الولاية في بيت بلكين بن زيري ابن مناد الصنهاجي وذلك منذ أن غادر المعز لدين الله الفاطمي أرض المغرب إلى مصر ، بعد أن فصل عنها ولاية صقلية التي أسندها إلى بني أبي الحسين الكلبيين ، وولاية طرابلس وسرت التي أسندها إلى عبدالله بن يخلف الكتامي . ثم انفصل المغرب الأوسط عن إمارة بني زيري وفقاً للصلح الذي تم بين حماد بن بلكين وبين المعز بن باديس في سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ، وبمقتضاه انقسمت الدولة الزيرية إلى دولتين : **الأولى** دولة بني المنصور ابن بلكين ، **والثانية** دولة بني حماد بن بلكين[٣]. وكان حماد ، مؤسس

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٢٩ — سعد زغلول ، فترة حاسمة ، ص ٢٢ — عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٤٣ .

(٢) سعد زغلول ، ص ٣٥ وما يليها .

(٣) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، القسم المغربي ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، ص ٧٦ — السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٦٥١ .

الدولة الحمادية ، قد صرح منذ بداية استقلاله بالمغرب الأوسط في سنة ٤٠٥ هـ بنبذ الطاعة للفاطميين والدعوة للعباسيين[١] ، أمـا بنو زيري فلم يعلنوا انفصالهم السياسي والروحي عن الخلافة الفاطمية بمصر إلّا في سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) في إمارة المعز بن باديس[٢] ، وحـذا أهل برقة حذو المعز ابن باديس ، فدعوا للخليفة القائم بأمر الله العباسي في سنة ٤٤٣ هـ[٣].

والواقع أن كلاً من الولايات المغربية الثلاث : طرابلس وإفريقية وصقلية ، أحست منـذ اليوم الذي انتقل فيه مركز الحكم الفاطمي إلى القاهرة ، بحاجتها الماسة إلى السفن ، وكان أبو الفتوح بلكين أول من تنبه من أمراء بني زيري إلى حاجة بلاده إلى أسطول قوي بعد أن سحب الفاطميون أسطولهم الكبـير معهم إلى القسم الشرقي من البحر المتوسط[٤] ، لمواجهة الغزو القرمطي . ففي ذي الحجة من سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) عهـد إلى واليه عبدالله بن محمد الكاتب بإنشاء أسطول بالمهدية وتزويده بالرجال والعتاد ، فشرع عبدالله في حشد البحريين من كل البلاد مستخدماً في ذلك العنف ، والزج بمن امتنع عن ذلك في سجون القيروان[٥] . وفي عهد الأمير باديس زاد اهتمام الزيريين بدعم القوة البحرية ، فقد زار سواحل إفريقية في عامي ٣٨٦ ، ٣٨٧ هـ ، كالمهدية وسوسة وسردانية ، وعندما وصل إلى المهـدية لعبت المراكب بين يديه ، ورمى النفاطون بالنفط[٦] .

ومنذ أن بـدأ المعز بن باديس يفكر جدياً في إعلان انفصال بلاده السياسي والروحي عن الدولة الفاطمية ، تضاعف اهـتمام الدولة الزيرية

---

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٥١ .

(٢) المغرب الكبير ، ص ٦٥٣ - ٦٦٥ .

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٤١٦ .

(٤) ذكر المقريزي أن الأسطول الفاطمي قـدم في رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) من المغرب وسار إلى الشام ، فأسر وغنم (اتعاظ الحنفا ص ١٣١) .

(٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٢٧ .

(٦) ابن أبي دينار القيرواني ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، ص ٧٤ .

بشؤون البحر ، لإخماد ثورات بني خزرون في طرابلس التي أصبحت في ظل خليفة بن وروا قوة بحرية يخشى بأسها [1] ، ومواجهة الحملات البيزنطية التي سيَّرها بسيل الثاني إلى صقلية وقلورية لوضع حد لغارات الزيريين .

أما طرابلس فقد أصبحت في الفترة التي خضعت فيها لحكم خليفة ابن وروا قاعدة بحرية هامة تضم عدداً كبيراً من السفن ، وكان لهذا التحول البحري لإمارة طرابلس أثره العميق في حمل حكام المغرب الأدنى على اصطناع سياسة بحرية ، واسترجاع المهدية لأهميتها كدار صناعة وقاعدة رئيسية للأساطيل الزيرية . وأما صقلية الإسلامية ، فقد ظلت أرض جهاد ، ولذلك كثرت فيها القواعد البحرية التي يوجه بنو أبي الحسين منها غاراتهم المدمرة على سواحل قلورية وعلى السواحل المطلة على البحرين الأدرياتي والتيراني .

(٢)

مظاهر عناية الفاطميين في مصر بالأساطيل

اهتم الفاطميون في المغرب اهتماماً خاصاً بالبحرية ، وقد بلغ هذا الاهتمام ذروته في خلافة المعز لدين الله ، وأصبح للفاطميين أسطول قوي فرض سيطرته في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، ويصف الشاعر ابن هانئ الأندلسي هذا الأسطول بقوله من قصيدة يمدح فيها المعز :

لك البر والبحر العظيم عبابه
فسيان أغمار تخاض وبيد

أما والجواري المنشآت التي سرت
لقد ظاهرتها عدة وعديد

---

(١) أرشيبالد لويس ، ص ٣١٢ - سعد زغلول عبد الحميد ، ص ٣٤ .

قباب كما تزجي القباب على المها
ولكن من ضمت عليه أسود

ولله مما لا يرون كتائب
مسومة تحدو بها وجنود

وما راع ملك الروم إلا اطلاعها
فتنشر أعلام لها وبنود

عليها غمام مكفهر صبيره
له بارقات جمة ورعود

مواخر في طامي العباب كأنه
لعزمك بأس أو لكفك جود

أنافت بها أعلامها وسما لها
بناء على غير العراء مشيد

إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج
كما شب من نار الجحيم وقود

فأنفاسهن الحاميات صواعق
وأفواههن الزافرات حديد[1]

ثم ازداد اهتمام الخليفة الفاطمي المعز بالأساطيل منذ أن استقر في القاهرة ، حاضرته الجديدة ، إما لمواجهة خطر القرامطة على الشام ومصر أو لحماية سواحل دولته من أنطاكية إلى الإسكندرية من غارات البيزنطيين[2] ، أو لأنه كان ينوي الدخول في مغامرات جديدة مع البيزنطيين في النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط ، بعد أن ضمن التفوق الفاطمي في النصف الغربي من هذا الحوض . وفي ذلك يقول القلقشندي « أما اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور ، واعتناؤهم بأمر الجهاد فكان ذلك من أهم

(١) ابن هانيء ، كتاب تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء الأندلسي المغربي ، تحقيق الدكتور زاهد علي ، مصر ١٣٥٢ ، ص ٢٣١ – ٢٣٥ .
(٢) حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ١٠٤ .

أمورهم ، وأجـــل ما وقع الاعتناء به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام حين كانت بأيديهم قبل أن يغلبهم عليها الفرنج »[1] . ويعبّر المقريزي عــن عناية المعز وبنيه بالأساطيل في مصر بقوله : « وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعز لدين الله ، وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه ، وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد واعتناء بالأسطول ، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينـــة مصر واسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها إلى بـلاد الساحل مثل صور وعـكا وعسقلان ، وكانت جريدة قواد الأسطول في آخر أمرهم تزيد على خمسة آلاف مدونة ، منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد واحدهم قائد ، وتصل جامكية كل واحد منهم إلى عشرين ديناراً ، ثم إلى خمسة عشر ديناراً ، ثم إلى عشرة دنانير ، ثم إلى ثمانية ، ثم إلى دينارين وهي أقلها ، ولهم إقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيهـــا من النطرون ، فيصل دينارهم بالمناسبة إلى نصف دينار »[2] .

وقد بلغ عدد مراكب الأسطول الفاطمي في خلافـة المعز ما يزيد على ستمائة قطعة بحرية ما بين شواني ومسطحات وحمالات ومراكب نيلية ، وانتهى الأسطول المصري في أواخر عصر الدولة الفاطمية إلى ثمانين شونة (أي شينياً) وعشر مسطحات ، وعشر حمالات[3] ، وقيل ٧٥ شينياً وعشر مسطحات وعشر حمالات[4] .

(أ) إنشاء ديوان الجهاد أو العمائر

اهتم الفاطميون اهتماماً خاصاً بالأسطول بحكم اضطرارهم إلى غزو الأراضي

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج ٣ ص ٥١٩ .
(٢) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٨ ، ج ٣ ص ١٠٨ ، ١٠٩
(٣) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٣٧٨ .
(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥١٩ .

البيزنطية ومقاتلة سفن الروم في البحر ، بالإضافة إلى رغبتهم في تيسير الإتصال البحري بين سواحل مصر والشام من جهة والمغرب وصقلية من جهة ثانية ، فخصصوا للأسطول ديواناً عرف **بديوان الجهاد أو ديوان العمائر**، كان مقره دار صناعة الإنشاء بمصر[1] ، ويختص هـذا الديوان بإنشاء مراكب الأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها والنفقة على رؤساء المراكب ورجالها . وذكر المقريزي نقلاً عن ابن الطوير أن « الخدمة في ديوان الجهاد أو العمائر للأسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية ، وكانت تزيد على خمسين عشارياً ، ويليها عشرون دماساً ، منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها[2] ، ولكل منهـا رئيس ونواتي[3] ، لا يبرحون ، ينفق فيهم من مال هذا الديوان ، وبقية العشاريات[4] الدواميس برسم ولاة الأعمال المميزة ، فهي تجري لهم ، وينفق في رؤسائها ورجالها أينما كانوا من مال هذا الديوان ، وتقيم مع أحدهم مدة مقامه ، فإذا صرف عاد فيه ، وخرج المتولي الجديد في العشاري المرسى بالصناعة ، ولا يخرج إلا بتوقيع إطلاقـه والإنفاق فيه ، وللمشارفين بالأعمال عشاريات دون هذه . وفي هـذا الديوان برسم خدمة مـا يجري في الأساطيل نائبان من قبل مقدم الأسطول ، وفيه من الحواصل لعمارة المراكب شيء كثير ، وإذا لم يف ارتفاقه بما يحتاج إليه استدعى له من بيت المال ما يسد خلله »[5] .

---

(١) صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٩٢ – اتعاظ الحنفا (نسخة مصورة من المخطوطة) ، ص ١٦ ب

(٢) راجع تفاصيل الاحتفال بكسر الخليج أو فتحه في القسم الرابع من الفصل الرابع . ومن المعروف أن الخليفة كان له عدد من العشاريات يتراوح مـا بين عشرين وأربعين ، وكانت هذه العشاريات ترسو في حوض خاص بساحـل المقس (ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص ٥٥) وكانت هذه العشاريات مخصصة للاحتفالات أو لنزه الخليفة البحرية (المقريزي ، ج ٢ ص ٣٦٥) .

(٣) نواتي جمع نوتي وهو البحّار ، واللفظة لاتينية الأصل مشتقة من كلمة Nauticus .

(٤) جمع عشاري وهو مركب نيلي برسم نقل الغلال والأحطاب ، وقد عرف في العصر المملوكي باسم الحراقة ، وقد عرفت العشاريات الخليفية بالدواميس .

(٥) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٣٧ .

وقد تجدد هذا الديوان في وزارة رضوان بن ولخشي سنة ٥٣١ هـ[١] (١١٣٦ م) ومن المعروف أن هـذا الوزير وجه اهتماماً خاصاً لتقوية الثغور وتحصينها وهو الذي حصّن عسقلان وزودها بالعدد والآلات .

(ب) إنشاء دار صناعة المقس

ذكر المقريزي ، نقلاً عن ابن أبي طي ، أن المعز لدين الله هـو الذي أنشأ دار الصناعة التي بالمقس وأنه أنشأ بها « ستمائة مركب لم ير مثلها في البحر على ميناء »[٢] ؛ وذكر المقريزي أيضاً في « اتعاظ الحنفا » أن المعز ركب في شوال سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) إلى المقس وأشرف على أسطوله ، وقرأ عليه وعوّذه ، وخلفه جوهر والقاضي النعمان ووجوه أهـل البلد ، ثم عاد إلى قصره[٣] .

وكان بمصر في العصر الفاطمي بالإضافة إلى دار صناعة المقس أربـع دور للصناعة[٤] : منها دار للصناعة في الاسكندرية[٥] التي كانت مقامة منذ الفتح العربي لهذه المدينة ، وقد أنتجت هذه الدار عـدداً كبيراً من السفن لحساب معاوية بن أبي سفيان ؛ والثانية دار الصناعـة بدمياط التي كانت تصنع فيها وفي صناعتي مصر والإسكندرية ، الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات في العصر الفاطمي[٦] ، والثالثة دار صناعة الجزيرة أو جزيرة مصر المعروفة بالروضة ، وهي أول دار للصناعة أسست بفسطاط مصر ،

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٨ .

(٢) ينسب المسبحي هذه الصناعة إلى العزيز بالله بن المعز .

(٣) اتعاظ الحنفاء ، تحقيق الدكتور الشيال ، ص ١٣٩ .

(٤) ذكر ناصر خسرو أنه كان يصنع في الصالحية سفن كثيرة حمولة كل منها مائتا خروار (سفرنامة ، ص ٤١) .

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي (الطبعة الثانية) ، ص١٠٩ ، ٤٩٤ .

(٦) ابن مماتي ، كتاب قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ – المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧ – ج ٣ ، ص ١٠٨ .

إذ أقيمت في سنة ٥٤ هـ[١]، وفيها أمر الخليفة العباسي المتوكل على الله في سنة ٢٣٩ هـ بإنشاء الشواني برسم الأسطول، وذلك بعد أن تغلب البيزنطيون على دمياط في إمارة عنبسة ابن اسحق[٢]. ويذكر المقريزي أن اهتمام هذا الخليفة بشؤون الأسطول ازداد منذ تلك الغزوة زيادة كبيرة، « وصار من أهم ما يعمل بمصر، وأنشئت الشواني برسم الأسطول، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر، وانتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب، هـذا وللناس إذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله وإقامة دينه، لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة[٣]. وفي نفس هذه الصناعة اعتنى الأمير أحمد بن طولون بإنشاء مائة من المراكب الحربية بالاضافة إلى العلابيات والعشاريات والحمائم والسنابيك وقوارب الخدمة[٤]، وأطافها بالجزيرة المذكورة، وسد بها وجـه البحر الكبير (أي البحر المتوسط)؛ وظلت هذه الصناعة قائمة في موضعها هذا، إلى أن أبطلها الأمير أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد، وأنشأ بدلاً منها داراً للصناعة بساحل فسطاط مصر، عرفت بدار صناعة مصر، وذلـك في شعبان سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م)، واتخذ في موضع صناعة الجزيرة بستاناً عرف بالبستان المختار[٥].

ومع ذلك فقد ظلت دار صناعة الجزيرة هي ودار صناعة مصر تنتجان مراكب الأسطول حتى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله عندما أمر الوزير

---

(١) المقريزي، الخطط، ج ٣ ص ٨٦، ١١٤ – السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢ ص ٢٢٢ (طبعة مصر ١٣٢١ هـ).

(٢) نفس المصدر، ج ١ ص ٣٧٧، ج ٣ ص ١٠٥.

(٣) نفس المصدر، ج ٣ ص ١٠٥.

(٤) نفس المصدر، ج ٣ ص ٨٩ – السيوطي، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٢٢.

(٥) نفس المصدر، ج ٣ ص ٩٠، ١١٤ – السيوطي، ج ٢ ص ٢٢٢.

المأمون بن البطائحي في سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) بأن تتولى دار صناعة الجزيرة إنشاء الحربيات والشلنديات [١] .

أما الصناعة الرابعة فهي صناعة مصر التي أقامها الأمير محمد بن طغج الإخشيد في الموضع الذي كان يعرف بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان ، امرأة الأمير أحمد بن طولون ، في سنة ٣٢٥ هـ . ويرجع السبب في إنشائها إلى أن الأمير محمد بن طغج لما تولى إمارة مصر للمرة الثانية من قبل الخليفة الراضي في سنة ٣٢٣ هـ بدلاً من أحمد بن كيغلغ ، وردت الأنباء بقدومه في جيش عباسي إلى مصر ، وقدوم عدد من مراكبه بقيادة صاعد بن كلملم إلى تنيس ودمياط ، فعزم ابن كيغلغ على التسليم ، ولكن محمد بن علي الماذرائي ، صاحب الخراج ، اعترض على ذلك ، وسيَّر فرقة المغاربة بقيادة أبي مالك حبشي بن أحمد السلمي لمنع جيش ابن طغج من الوصول إلى الفسطاط ، كما بعث علي بن بدر في المراكب لمواجهة سفن ابن طغج في النيل ، وعندما اشتبكت السفن ، ونشب القتال ، دارت الدائرة على علي ابن بدر في ١٧ شعبان سنة ٣٢٣ هـ [٢] ؛ وأقبل صاعد في مراكبه إلى الفسطاط ، بينما تقدم ابن طغج في البر لمقاتلة ابن كيغلغ [٣] . غير أن هذا الأخير آثر أن يستسلم إلى ابن طغج حقناً لدماء المسلمين ، في حين أنف المغاربة من الدخول في طاعته . ثم تحرك حبشي وفرقته المغربية لمحاربة ابن طغج ، وزحفوا إلى الفيوم ، فسار صاعد في مراكبه إلى خليج الفيوم ، وأراد أن يدور فلم تدر سفنه لضيق الخليج ، فوقع في قبضة حبشي الذي قتله وقتل عدداً كبيراً من اتباع ابن طغج ، وظفر بمراكبه [٤] . ثم سار حبشي من الفيوم إلى الاسكندرية في حشود جيشه ، بينما سار علي بن بدر ويجكم في مراكب صاعد مارين بالفسطاط ، فأرسيا بجزيرة الصناعة (جزيرة

(١) الخطط ، ج ٣ ص ١١٥ .
(٢) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٨٦ .
(٣) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٦٠ – المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١١٥ .

الروضة) ، وركب الإخشيد في جيشه على ساحل النيل المواجه للجزيرة ، وقد عجز عن التعرض لهما ، فأحرق علي بن بدر وبجكم ما كان بالصناعة من السفن ، وحاول الإخشيد أن يتصدى لهما ، ولكنهما انحـــدرا إلى الإسكندرية ، ثم واصلا السير منها غرباً إلى برقة [١]. وأدرك محمد بن طغج يومئذ الخطأ الذي يترتب على اتخاذ دار الصناعة بداخل الجزيرة ، وعبّر عن إنكاره لذلك بقوله : « صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشيء » ، وصمم منذ ذلك الحين على تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة إلى دار خديجة بنت الفتح [٢]. وقدر لدار صناعة مصر أن تتسع وتشغل أرضاً فسيحة في العصر الفاطمي ، فقد قام الوزير المأمون البطائحي بالتوسعة فيها ، وأضاف إليها الدار المعروفة بـــدار الزبيب ، وأنشأ بها منظرة لجلوس الخليفة يوم تقدمة الأسطول ورميه ، وزودت هذه الصناعة بدهليز ممتد ، صفت على جانبيه مساطب مفروشة بالحصر العبدالية بسطاً وتأزيراً ، واتخذت أيضاً ديواناً للجهاد ، وكان يحرم على أحد من الناس الدخول من باب هــذه الصناعة راكباً ، باستثناء الخليفة والوزير في يوم فتح الخليج ، عند الاحتفال بوفاء النيل ، فكانا يركبان من هناك إلى المقياس [٣].

***

وقد جدد العزيز بالله الفاطمي دار صناعة المقس بالبناء ، ويبدو أنــه أضاف إليها إضافة جديدة في زمنه . وقامت هذه الدار بإنتاج أسطول ضخم كان يعده الخليفة العزيز بالله في سنة ٣٨٦ هـ ليرسله إلى طرابلس الشام ، بقصد عرقلة البيزنطيين ومنعهم من التوغل في بلاد الشام .

---

(١) الكندي ، ص ٢٨٧ – ابن سعيد ، ص ١٦١ – أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٢) ابن سعيد ، ص ١٦٠ – المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١١٥ – السيوطي ، ج ٢ ص ٢٢٣

(٣) المقريزي ، ج ٣ ص ١١٥ .

وما إن انتهى العمل من صناعة هـــذه السفن حتى أعدت للإقلاع ، وأشحنت بالمقاتلة في شهر ربيع الأول من تلك السنة ، وفي ٢٠ من هذا الشهر نودي في القاهرة ألا يتأخر أحد عن المسير في الأسطول[١]. غير أن هذا الأسطول الكبير الذي كان على أهبة الاستعداد للرحيل إلى هدفه لم يلبث بعد أيام قليلة من إعداده وشحنه ان تعرض لحريق مروع ، فقد شبت النار في دار صناعـة المقس في ٢٤ ربيع الآخر ، فاحترقت خمس عشاريات ، وامتدت ألسنة النيران منها إلى بقية سفن الأسطول ، فأتت النار على جميع ما في الأسطول من العـــدد والسلاح ، ولم تنج من هذا الحريق إلا ست سفن فارغة[٢]. وأثار هذا الحريق موجة من الغضب في نفوس البحريين ، فوجهوا تهمة إحراق الأسطول إلى جماعة من الروم كانوا يقيمون بدار مانك المجاورة لدار صناعـة المقس ، ووثب البحريون ، في سورة غضبهم ، بأسلحتهم وآلاتهم على الروم ، وانضم إليهم جماعـــة من العامة ، فنهبوا أمتعة الروم[٣] ، وقتلوا منهم مائة وسبعة من الرجال ، طرحوا جثثهم في الطرقات ، وقبضوا على الباقين ، وحبسوهم بدار صناعة المقس[٤]. وقد اعترف هؤلاء الروم في محضر من الوزير عيسى بن نسطورس ويانس الصقلبي متولي الشرطة ، بأنهم أحرقوا الأسطول ، ثم أمـر عيسى ابن نسطورس الصناع في دار الصناعة بإعداد عشرين مركباً في الحال وطرح لهم الأخشاب اللازمة ، وبات في الصناعة ، ولم يسع الصناع إزاء إلحاحه للفراغ من هذه السفن إلا أن يجدّوا في العمل ويبذلوا كل طاقتهم لإعدادها. ويبدو أن صناعة هذا العدد من السفن كان يتطلب جمع كل ما كان موجوداً

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ٢٩٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) بلغ قيمة ما نهبه العامة تسعون ألف دينار .

(٤) لم يكن حريق الأسطول الفاطمي في سنة ٣٨٦ هـ أول حادث من نوعـــه ، فإن أبا المحاسن يذكر أن العزيز بالله كان قد أعد في سنة ٣٧٧ هـ عدة شواني لغزو الروم ، فاحترقت مراكبه ، واتهم بحرقها إناساً (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ١٥١) .

من الخشب في حواصل البضاعة[١] ، فإذا مـا استنفدت طلب الصناع الكميات المعروضة للبيع في الأسواق لدى الخشابين ، فأصدر عيسى بن نسطورس أمره باستحضار الأخشاب الموجودة عند التجار[٢] ، « فلم يدع عند أحد خشباً علم به إلا أخذه منه » ، وجدّ في إنشاء الأسطول المذكور ، فلم يمض على حادثة الحريق المذكورة شهر ونصف حتى تم صناعة مركبين جديدين في غاية الكبر ، طرحهما الصناع بين يدي الوزير في ٧ من جمادى الآخرة . وفي غرة شعبان طرحوا بين يديه أربع مراكب كبار من المنشأة نفسها[٣] ، غير أن هذا الأسطول الجديد لم يلبث أن تعرض لعاصفة عاتية حطمته بالقرب من ميناء طرابلس الشام ، وأسر الروم بعض رجاله[٤] .

(ج) توفير الأخشاب اللازمة لصناعة السفن

كانت الدولة الفاطمية تهتم بتوفير الأخشاب الضرورية لصناعة السفن من الحراج ، وهي أشجار السنط الكثيرة التي كانت تنمو في أعمال البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والإخميمية والقوصية ، كما كانت تتخذ لها حراساً يحمونها ، وكانت الدولة تستغل أخشاب هذه الأشجار في صناعة الأساطيل ، وتحفظها في حواصل خاصة بآلات السفن ، ولذلك السبب ارتفعت أثمان أعواد السنط حتى إن العود الواحد منها كان يصل ثمنه إلى مائة دينار . وفرضت الدولة على سكان النواحي المذكورة

---

(١) كانت حواصل البضاعة في القاهرة تشتمل على مـا لا يمكن حصره من الأخشاب والحديد وآلات الأساطيل من القنب والكتان والمنجنيقات (القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٥) .

(٢) وذكر بعض المؤرخين أنـه اضطر إلى قلع بعض صواري كانت تسقف دار الضرب بمصر والبيمارستان الذي كان قائماً في سوق الحمام (راجع آدم متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، القاهرة ١٩٤٨ ، ج ٢ ص ٣١٦) .

(٣) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١١٤ .

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكي ، صلة كتاب سعيد بن بطريق ، ص ١٧٨ .

ضريبة يقال لها رسم الخراج نظير ما كان يسمح لهم به من قطع أطراف أشجار السنط التي لا تصلح لعمل مراكب الأسطول ، والتي كان ينتفع بها فقط في الوقود [١] . وكان قطع أخشاب السنط وجرها إلى السواحل لصناعة السفن يتم في شهر برمودة (مايو) من كل سنة [٢] . ولم تكن الأخشاب المحلية تكفي وحدها لصناعة السفن اللازمة للأسطول الفاطمي ، ولذلك اعتمدت مصر الفاطمية على ما كان يرد إليها من أخشاب الصنوبر الصقلية أو المغربية ، بالإضافة إلى ما كانت تحمله منه سفن البنادقه إلى الاسكندرية ، ولقد احتج الإمبراطور البيزنطي على دوج البندقية لإمداده المصريين بالأخشاب ، فأمر الدوج بوقف بيع الأخشاب التي تصلح لصناعة السفن ، والاكتفاء ببيع أشجار اللبخ والسنديان ، على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم [٣] .

ويعدد ابن مماتي أصناف الأخشاب فيذكر منها : القنظاريات والمجاديف والنشاب وألواح الصنوبر وألواح بوارينه وألواح ثلاثية ، وأساقيل وألواح قاطبة ، وألواح مشاقية ، وأفلاق صنوبر ، وأنصاب شوح وحور ، وجزم صنوبر ، وحسنيات ، وسهام سمر ، وسكانات ، وشوح جنوي ، وشوح صخري وصواري ، وعيدان سنديان ، وعيدان صنوبر مدورة ، وقوادن ، وقرايا وكوابيس سنديان ، ولاطات ومربعات قرو ، ومربعات صنوبر ، ومناطق ومداري ومناريات ومطارق [٤] .

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٢٥٠ . وكان بأنصنا عود يقال له البنج ينشر منه ألواح للسفن يباع اللوح منها بخمسين دينار (المقريزي ج ١ ص ٣٦٠) .

(٣) ابن مماتي ، ص ٣٤٦ – آدم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٤٨ ، ج ٢ ص ٣١٥ – محمد ياسين الحموي ، تاريخ الأسطول العربي ، دمشق ، ١٩٤٥ ، ص ٢٦ – راشد البراوي ، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٢٢٤ .

(٤) ابن مماتي ، ص ٣٦٥ .

(٣)

نشاط الأسطول الفاطمي

(أ) الأسطول الفاطمي في خدمة جيوش الفاطميين في الشام ضد القرامطة

بدأ الصراع بين الفاطميين وقرامطة البحرين منذ أن استولى الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق في المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، وامتنع الفاطميون عن دفع الإتاوة التي كان يدفعها الإخشيديون للقرامطة ، فعزم الحسن بن أحمد القرمطي على محاربة الفاطميين ، وساعده البويهيون [١] ، والحمدانيون بالأموال والسلاح حتى يتهيأ له الوقوف أمام التوسع الفاطمي في الشام ، ونجح القرمطي في إعداد جيش ضخم لمحاربة الفاطميين في الشام ومصر ، اشتركت فيه قوة إخشيدية وكافورية ، وفريق من العرب العقيليين ، وزحف القرمطي بهذا الجيش إلى دمشق ، واشتبك جيشه مع القوات الفاطمية في موضع قريب من دمشق يقال له الدكة ، وانتهت الموقعة بهزيمة الفاطميين ومصرع قائدهم جعفر ، واستولى القرامطة على دمشق [٢] ، وولوا عليها ظالم بن موهوب العقيلي. ومن دمشق واصل القرامطة زحفهم نحو الجنوب واستولوا على الرملة ، ثم حاصروا يافا حصاراً شديداً ، وضيقوا على من بها ، فسيَّر جوهر من مصر أسطولاً مكوناً من ١٥ سفينة تحمل الإمدادات والميرة لقواته المحصورين بيافا ، ولكن القرامطة طوقوا هذه السفن ، واستولوا عليها ، ولم ينج من مراكب جوهر سوى مركبان غنمهما الروم [٣]. ثم زحف القرامطة إلى مصر ، فاستولوا على الفرما ثم القلزم ، وتوغلوا بعد ذلك في الأراضي المصرية ، في أوائل عام ٣٦١ هـ ، واستولوا

---

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١ .

(٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ١٢٧ — ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٥٨ — محمد جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٢٥

(٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مصر ١٣٥٣ هـ ، ج ٧ ص ٤٣ .

على عين شمس ، وأشرفت طلائعهم على القاهرة ، وعندئـذ تأهب جوهر لدفعهم عن البلاد ، وحفر لذلك خندقاً عميقاً حولها ، ونصب لهذا الخندق بابين من الحديد [١] ، ثم وزع السلاح على المغاربـة والمصريين ، وتمكن المصريون والمغاربة من الوقوف في وجه القرامطة في معركة دارت في مستهل ربيـع الأول سنة ٣٦١ هـ على أبواب القاهرة [٢] ، فانهزم القرامطة ، ورحلوا إلى الأحساء .

وفي هذه الأثناء وصل الأسطول الفاطمي من بلاد المغرب في رمضان سنة ٣٦١ هـ ، وأقلع من مصر إلى سواحل الشام ليساهم في المعارك البرية التي كان يخوضها الجيش الفاطمي هناك بقيادة سعادة بن حيان [٣] ، وتمكن الفاطميون بفضل هذا الأسطول من استرداد يافا في أواخر سنة ٣٦١ هـ . ومنذ ذلـك الحين لم تتوقف السفن الحربية الفاطمية عن الإقـلاع من تنيس ودمياط والاسكندرية إلى صور وطرابلس لحفظ حصون الشام والدفاع عنها [٤] .

ومن المعروف أن إقلاع المراكب في البحر كان يبدأ في شهر برمهات من كل سنة ، ويقابل هذا الشهر شهر إبريل ، وفي هذا الشهر تجري هذه المراكب « في البحر المالح من الأعمال المصرية والمغربية والرومية ، وفيه الاهتمام بتركيز الأجناد بالثغور المحروسة ومراكب الأساطيل لحفظها » [٥] . ويستمر نشاط السفن الحربية في البحر حتى حلول فصل الشتاء ، فتأوي السفن إلى قواعدها ، ويتوقف نشاطها طوال هـذا الفصل . فعندما طال حصار القرمطي وأفتكين التركي لجوهر الصقلي وعسكره في شتاء سنة ٣٦٥ هـ

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٩ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٣١ .
(٤) نفس المصدر ، (النسخة المخطوطة) ص ٧٧ ب .
(٥) ابن مماتي ، كتاب قوانين الدواوين ، تحقيق الدكتور عزيز سوريال ، القاهرة ١٩٤٣ ص ٢٤٨ .

بثغر عسقلان ، واحتاج جوهر إلى الميرة والأقوات ، لم يتمكن الأسطول الفاطمي من حملها إليه في البحر من مصر وغيرها ، واضطر العسكر إلى أكل الميتة [1]. ويذكر المقريزي أن بدر الجمالي عندما استنجد به المستنصر بالله خرج من عكا في شهر كانون وهي فترة من السنة لا يمكن أن يركب فيها في البحر ، وحذره أصحابه من ركوب البحر في تلك الآونة وخوفوه من مغبة ذلك ، ولكنه غامر وأقلع بمائة سفينة [2].

(ب) اشتراك الأسطول الفاطمي في إخماد الثورات في مصر والشام

اقترن غزو القرامطة للشام الجنوبي ومصر بقيام الثورات في بعض نواحي مصر ضد الفاطميين كثورة أهل تنيس وثورة أهل الصعيد ، ففي المحرم سنة ٣٦١ هـ شق أهل تنيس عصا الطاعة على الفاطميين ، ووثبوا على واليهم وسوّدوا [3] ، فلما تمكن جوهر من إيقاع الهزيمة بالقرامطة سيَّر أبا محمد الحسن بن عمار إلى تنيس لإخماد الثورة ، فنجح ابن عمار في استنزال المدينة [4]. أما الصعيد فقد خرج فيه عبد العزيز بن ابراهيم الكلابي ، وهو كما يبدو من اسمه عربي من بني كلاب الذين استقروا ببلاد الفيوم بعد الفتح [5] ، وكان هذا الثائر قد دعا لبني العباس ، وسوّد ، فبعث إليه جوهر الصقلي عسكراً برياً بقيادة أزرق ، كما سيّر في النيل أربعين مركباً يقودها بشارة النوبي . ونجحت الجيوش الفاطمية في إخماد

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٧ – ابن الأثير ، ج ٧ ص ٦٣ ، ٦٤ – المقريزي ، اتعاظ الحنفا ص ٢٤١ .

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا (نسخة مصورة من المخطوطة) ص ١٠٧ أ – الخطط، ج ٢ ص ٢٠٨.

(٣) أي رفعوا الأعلام السود شعار العباسيين .

(٤) اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٠ .

(٥) المقريزي ، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق ابراهيم رمزي ، القاهرة ١٩١٦ ص ٣٦ .

الثورة والقبض على عبد العزيز بن ابراهيم الكلابي ، وأدخل به في قفص مغلولاً ، وطيف به وبمن معه [1] .

وأخطر الثورات التي واجهها الفاطميون واشترك أسطولهم في إخمادها ثورة الملاح المعروف بالعلّاقة في مدينة صور سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) في خلافة الحاكم بأمر الله ، ففي هذه السنة شق أهل صور عصا الطاعة على الخليفة الحاكم ، وأمّروا عليهم غلاماً من البحرية يقال له العلاقة ، ووثبوا على ممثلي الخليفة من المغاربة فقتلوهم ، وعندئذ أرسل القائد جيش بن الصمصامة والي الشام جيشاً بقيادة أبي عبدالله الحسين بن ناصر الدولة وياقوت الخادم ، وانضم إلى هذا الجيش جماعة من عبيد الشرا لمنازلة صور وإخماد حركة العلّاقة ، وفي نفس الوقت أرسل الخليفة إليها أسطولاً مكوناً من عشرين مركباً من الحربية المشحونة بالرجال ، وكتب ابن الصمصامة إلى علي ابن حيدرة والي طرابلس يأمره بالمسير إليه في أسطوله ، كما أرسل إلى ابن شيخ والي صيدا يأمره بالخروج في أسطوله إلى صور ، وطوق الجيش الفاطمي مدينة صور من البر بينما أحدقت الأساطيل الفاطمية على مينائها من البحر ، فاضطر العلاقة إلى مكاتبة الإمبراطور بسيل الثاني يستنصره على الفاطميين ، فلم يتردد الإمبراطور في نصرته ما دام ذلك يعتبر جزءاً من صميم أهدافه لكسر شوكة الفاطميين في الشام والسير على الخط الذي رسمه نقفور فوقاس وحنا تزيمسكس للسيطرة على الشام والأراضي المسيحية المقدسة . فأنفذ إلى العلاقة عدة مراكب في البحر مشحونة بالرجال المقاتلة ، واشتبكت هذه المراكب مع مراكب المسلمين في معركة عنيفة ، أسفرت عن هزيمة البيزنطيين ، وتمكن المسلمون من الظفر بمركب من مراكبهم قتلوا من فيه من البحريين ، وعددهم ١٥٠ رجلاً ، وانهزمت بقية المراكب ، فضعفت روح المقاومة عند أهل صور ، وفقدوا الأمل في وصول إمدادات بيزنطية أخرى ، ولم تعد لهم طاقة أو جلد على مواصلة الصمود أمام الحصار

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١٣١ .

البري والبحري ، وانتهى الأمر بسقوط صور في أيدي الفاطميين ، وامتنع العلاقة وطائفة من أتباعه في بعض الأبراج ، ولكنهم لم يلبثوا أن استسلموا بالأمان ، فقبض عليهم ، وسيق مع أصحابه إلى القاهرة حيث شُهِّر بهم ، وسلخ العلاقة حياً ثم صلب ، وقتل أصحابه [1].

(ج) **المعارك البحرية ضد البيزنطيين**

كان لزاماً على الدولة الفاطمية بعد أن مدت نفوذها على بلاد الشام أن تتأهب لمواجهة الخطر البيزنطي الذي كان يهدد سواحل الشام ومصر ، فعندما قام الأمبراطور البيزنطي حناتزيمسكس بغزو الشام في ٣٦٥ هـ ، وافتتح معظم بلاد الشام الشمالية ، زحف جنوباً بحذاء الساحل إلى صيدا ، فهادنه واليها أبو الفتح بن الشيخ على مال بذله له [2] ، فرحل إلى قيسارية واتجه بعد ذلك إلى بيروت وجبيل فافتتحها ، وأخيراً وصلت قواته إلى طرابلس ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها لمناعة أسوارها وحصانة الدفاع عنها ، واشتبكت حامية المدينة يعاونها الأسطول الفاطمي مع القوات البيزنطية في قتال عنيف انتهى بهزيمة نكراء أصيب بها البيزنطيون ، واضطر الامبراطور في نهاية الأمر إلى رفع الحصار عنها بعد أن تأكد لديه استحالة النيْل من دفاعها واقتحام أسوارها [3].

وفي سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) وقعت في بحر الاسكندرية معركة بحرية بين الأسطول الفاطمي في مصر والأسطول البيزنطي انتهت بأسر سبعين من رجال البحر البيزنطيين. ثم وردت مراكب البيزنطيين إلى الاسكندرية ، فتصدى لها الأسطول الفاطمي في البحر ، وقوة عسكرية من البر ، أرغما السفن البيزنطية على الفرار بدون قتال ، فطاردتها قطع الأسطول المصري الفاطمي ،

---

(١) ابن القلانسي ص ٥٠ ، ٥١ — ابن الأثير ، ج ٧ حوادث سنة ٣٨٧ — المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، (مخطوطة) ص ٥٣ أ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٥٦ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ، ص ٥٦ .



وانضمت إليها ١٨ مركباً مشحونة بالسلاح والمقاتلة ، وعادت السفن المصرية في جمادي الأولى من سنة ٣٨٤ هـ إلى قواعدها ، ووصل غزاة البحر إلى القاهرة يحملون مائة أسير ، واحتفلت مصر يوم وصولهم احتفالاً رائعاً ، « فزينت القاهرة ومصر أعظم زينة ، وركب العزيز وابنه منصور ، وشقّا الشوارع ، ثم ركب في عشاري ومعه العشاريات سائرة إلى المقس ، ثم ركب من المقس إلى القصر ، فكان يوماً عظيماً لم ير بمصر مثله ، وقال فيه الشعراء »[١].

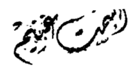
ويبدو أن الأسطول الفاطمي في مصر أقلع مرة أخرى لغزو السواحل البيزنطية في سنة ٣٨٦ هـ ، فقد ذكر المقريزي أن غزاة البحر عادوا في هذه السنة بمائتين وعشرين أسيراً طيف بهم في شوارع القاهرة[٢]. وفي سنة ٣٨٧ هـ أرسل الامبراطور بسيل الثاني عدداً من السفن البيزنطية في البحر إلى ثغر صور لمساعدة العلاقة الثائر على الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، فتصدى لها الأسطول المصري الذي سيّره الحاكم إلى صور بالإضافة إلى أسطولي صيدا وطرابلس ، واشتبكت السفن الفاطمية مع السفن البيزنطية في معركة بحرية عنيفة دارت فيها الدائرة على السفن البيزنطية على النحو الذي أشرنا إليه فيما سبق .

وعندما حاصرت القوات البيزنطية مدينة طرابلس الشام في سنة ٣٨٩ هـ براً وبحراً ، اصطدمت السفن البيزنطية المحاصرة للمدينة من البحر ببعض السفن المصرية في مياه تلك المدينة ، ونشب القتال في البر وفي البحر في مستهل المحرم سنة ٣٩٠ هـ (٩٩٩ م) وانتهى بهزيمة البيزنطيين ، وعدول الإمبراطور بسيل عن متابعة حصاره لطرابلس[٣].

ثم ساد بين الفاطميين والبيزنطيين ، منذ طليعة القرن الخامس الهجري ، سلام كان يقطعه بين الحين والحين نكث من الجانب البيزنطي ، وعودة

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٢٨٢ .
(٢) المقريزي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .
(٣) يحيى بن سعيد ، صلة تاريخ سعيد بن بطريق ، ص ١٨٤ .



البيزنطيين إلى مهاجمة جزر بحر الأرخبيل والسواحل الإسلامية ، وظل الأمر كذلك إلى أن نزل الصليبيون ببلاد الشام .

(د) دور أساطيل طرابلس وصيدا في العصر الفاطمي

كان لطرابلس في العصر الفاطمي أسطول حربي يدافع عنها من البحر ، وقد تمكن هـذا الأسطول بقيادة علي بن حيدرة من التغلب على أسطول بيزنطي كان في طريقه إلى صور لمساعدة ثوارها بزعامة العلاقة على الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة ٣٨٧ هـ ، وكان لهذا الأسطول الطرابلسي الفضل الأعظم في القضاء على ثورة العلاقة . ولما استقل بنو عمار بطرابلس اهتموا بتعزيز أسطول طرابلس ، وقـد لعب هذا الأسطول دوراً هاماً في فترة الحصار الصليبي على طرابلس ، فقد اشتبك هذا الأسطول مع أسطول للبيزنطيين كان يزود الصليبيين بالأقوات ، في قتـال عنيف انتهى بانتصار الأسطول الطرابلسي واستيلائه على قطعة بحرية بيزنطية [١] . ويبدو أن هذا الأسطول الطرابلسي تعرض لخسارة فادحة عندما تدخل الجنوية في حصار طرابلس ، فغرقت معظم قطعه ، وأصبحت السفن الباقية عاجزة عن مقاومة الحصار الصليبي ، غير أن بعض هـذه السفن تمكنت من اختراق الحصار البحري الصليبي واتجهت إلى مصر لالتماس معونتها والدخول في طاعتها ، فسيّر إليهم الأفضل شاهنشاه شرف الدولة بن أبي الطيب ليتولى أمرهم ، وزوده بالغلة والأقوات والسلاح . ونستدل من ذلك على أن الاتصال البحري بين مصر وطرابلس كان جارياً في هذا العصر .

أما صيدا فكان لهـا أسطولها الحربي الخاص ، وهو الأسطول الذي اشترك في الحصار البحري الذي فرضه الفاطمون على صور [٢] . ويبدو أن هـذا الأسطول تعرض لكارثة بعد سنة ٤٩٥ هـ [٣] إبان مرحلة الحصار

---

(١) طرابلس الشام ، ص ٣٩٣ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٥١ .

(٣) في هذه السنة أرسلت كل من صيدا وصور اثني عشر غراباً وحمالة ضخمة تحمل الأجناد =

الصليبي لصيدا ، بحيث اعتمد أهل صيدا في الدفاع عنهم على الأساطيل الفاطمية القادمة من مصر ، وقد أنقـذ الأسطول الفاطمي صيدا مرة في سنة ٥٠١ هـ[١] ، ولكنه لم يستطع أن ينقذها في المرة الثانية بسبب إحكام الصليبين الحصار حولها ، وعجز عن إمدادها بما كانت تحتاج إليه[٢] .

= والآلات لقذف النار اليونانية إلى عكا لاستنقاذها من الحصار الصليبي ، وتمكنت هـذه السفن من تدمير سفن الصليبيين وآلاتهم (راجع دراسة في تاريخ مدينة صيدا ص ٩٤) .

(١) ابن القلانسي ص ١٦٢ .

(٢) دراسة في تاريخ مدينة صيدا ، ص ١٠١ .

الفصل الثالث
البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر الضعف
(من المستنصر بالله إلى نهاية الدولة الفاطمية)

(١)

تقلص النفوذ الفاطمي في بلاد الشام منذ عصر المنتصر بالله

(أ) خروج الفاطميين عن معظم قواعدهم البحرية في الشام

نجح الفاطميون في عصر الحاكم بأمر الله الفاطمي في فرض سيطرتهم الشاملة على بلاد الشام وذلك بعد أن عقد مع الإمبراطور البيزنطي بسيل الثاني هدنة تستغرق عشر سنوات ، وقضى على حركة بني جراح الطائيين في فلسطين وعلى سلطان الحمدانيين في حلب . غير أن هـذه السيطرة لم تلبث أن داخلها الوهن في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ — ٤٢٧ هـ) ، فقد تمكن بنو مرداس الكلابيون من تأسيس إمارة لهم في حلب ، واضطر الخليفة الفاطمي إلى محاربتهم حيناً ومسالمتهم حيناً آخر ، الأمـــر الذي أتاح الفرصة لنشر الفوضى وإشاعـة الإضطراب في هذا القسم الشمالي من بلاد الشام ، وساعد على هذا الإضطراب ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث في بلاد الشام ، وتمكنهم منذ سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) من اقتطاع عدد كبير من مدن الشام ، ومع ذلك فقد ظل الفاطميون يحتفظون حتى تلك السنة بمعظم قواعدهم الساحلية هناك . وفي هـذا الوقت الذي بدأ

سلطان الفاطميين على الشام يتزعزع ، تمكن القاضي أبو طالب الحسين بن عمار من إعلان استقلاله بطرابلس في سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) [١] ؛ وتعتبر هذه السنة سنة نكبة على الدولة الفاطمية ، إذ أعلنت دمشق وصور وأكثر مدن فلسطين استقلالها في هذا التاريخ [٢] ، فصور استقل بها القاضي ابن أبي عقيل ، وطرابلس استقل بها القاضي أبو طالب الحسين بن عمار ، في حين استولى ابن حمدان على الرملة والساحل ، ولم يبق لأمير الجيوش بدر الجمالي الذي قلده الخليفة المستنصر بالله الفاطمي على عكا وسواحل الشام سوى عكا وصيدا [٣] .

وقد عمل بدر الجمالي [٤] على استرجاع بعض السواحل الشامية ، فنزل في سنة ٤٦٢ هـ على ثغر صور ، وحاصر عين الدولة ابن أبي عقيل قاضي المدينة المتغلب عليها ، وشدد حصاره على المدينة ، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار عنها عندما قدم الأمير قرلو مقدم الأتراك في بلاد الشام بعسكر كثيف لنصرة قاضي صور ، وأغار بهذا العسكر على صيدا ، وحاصر

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٧ .

(٢) Wiet, Une inscription d'un prince de Tripoli de la dynastie des Banu Ammar, Mémorial H. Basset, Paris 1928, p. 280.

(٣) ابن القلانسي ، ص ٩٧ .

(٤) هو أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالي المستنصري ، وكان مملوكاً أرمنياً لجمال الدولة بن عمار ولذلك السبب نسب إليه ، ثم أخذ يتدرج في الرتب العلية والمناصب الرفيعة إلى أن تولى بلاد الشام وتقلد إمارة دمشق من قبل المستنصر بالله مرتين : الأولى في ربيع الآخر سنة ٤٥٥ هـ والثانية في شعبان سنة ٤٥٨ ، وفي هذه المرة ثار عليه أهل دمشق ، فرحل عنها إلى مصر ، فقلده المستنصر ولاية عكا ، ثم استدعاه الخليفة عندما فسدت الأحوال في مصر أثناء الشدة العظمى ، فلبى طلبه وركب البحر من عكا في فصل الشتاء بمائة مركب ، ووصل إلى تنيس ودمياط في سنة ٤٦٦ (ابن منجب الصيرفي ، الاشارة إلى من نال الوزارة ، القاهرة ١٩٢٤ ص ٥٧ — المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٠٧ أ — الخطط ، ج ٢ ص٢٠٩) . وما إن دخل القاهرة حتى استبد بالبلاد وتحكم في شؤونها وألقى إليه المستنصر كل مقاليد دولته ، فضبطها أحسن ضبط ، وصلحت بقدومه أحوال البلاد المصرية وعمرت بعد خرابها ، وتوفى أمير الجيوش في سنة ٤٨٧ هـ .

المدينة ، فسار بدر الجمالي لاستنقاذها ؛ وبعد أن تمكن من إبعاد الخطر عنها عاود الكرة على صور للمرة الثانية ، وأقام يحاصرها براً وبحراً مدة سنة ، ولكنها استعصت عليه فرحل عنها(١) .

ولم يلبث بدر أن لبّى طلب الخليفة ، فقدم إلى مصر بعد أن فسدت أحوالها واجتاحتها الفتن ، واستعصى عليه العلاج . وفي هذه الأثناء هاجم أتسز التركماني مصر بتحريض من ابن يلدكز الذي كان قد لجأ إليه بعد أن قتل بدر الجمالي أباه في سنة ٤٦٦ هـ . وكان أتسز قد استولى على دمشق في سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) وقطع الخطبة العلوية ، وزحف بعد ذلك إلى مصر وتوغل في أراضيها ، واقتربت قواته من القاهرة . وكان بدر الجمالي قد هيأ المراكب والسفن بعد هزيمة المصريين على يد أتسز في جمادي الآخرة سنة ٤٦٩ هـ ، للإقلاع إلى الإسكندرية حفظاً لها في حالة إذا ما تغلب جيش أتسز على الجيوش المصرية في الموقعة الفاصلة(٢) ، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد انهزم أتسز على أيدي المصريين في رجب سنة ٤٦٩ هـ ، وتراجع مهزوماً عن مصر إلى دمشق(٣) .

وترتب على انتصار الفاطميين على السلاجقة عودة بعض مدن الشام إلى إعلان ولائها للفاطميين ، وعلى هذا النحو عزم بدر الجمالي على استرجاع دمشق ، فسيّر إليها عسكراً بقيادة نصر الدولة ، وحاصرها ، فاضطر أتسز إلى طلب النجدة من تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ، فقدم تتش لنجدته ، وعندما اقتربت جيوشه من دمشق بادر الجيش الفاطمي برفع الحصار والرحيل إلى مصر .

وهكذا لم تأت سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) حتى كانت الدولة الفاطمية قد فقدت سلطانها من معظم سواحل الشام ، وبزوال سلطان الفاطميين عن صيدا

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٩٨ .
(٢) ابن القلانسي ، ص ١١٠ ، حاشية ٢ .
(٣) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ص ١٠٢ .

وعكا وطرابلس وعرقة وجبيل وبيروت ، انحصرت قواعد الفاطميين البحرية في الشام في عسقلان وحدها التي أصبحت المركز الرئيسي الذي تخرج منه الأساطيل لغزو سواحل الشام. ومع ذلك فإن الأفضل شاهنشاه الذي ولي الوزارة بعد وفاة أبيه بدر الجمالي، حاول استعادة النفوذ الفاطمي على بلاد الشام مستغلاً الصراع القائم بين دقاق ورضوان ولدي تاج الدولة تتش ، وتمكن في سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م) ، من إرسال الأساطيل المصرية إلى الساحل وإنزال قواته في صور ، ونجح في افتتاحها عنوة[١] ، كما نجح في شعبان سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) في الإستيلاء على بيت المقدس بالأمان بعد أن تغلب على إيلغازي وسقمان ابني أرتق[٢] ، وترك على ولايتها أمير يقال له افتخار الدولة[٣]. وفي نفس الوقت ظلت بيت المقدس خاضعة للفاطميين إلى أن دخلها الصليبيون عنوة في شعبان سنة ٤٩٢ هـ .

(ب) عسقلان آخر قاعدة بحرية للفاطميين في الشام

بينما كانت انباء الزحف الصليبي على سواحل الشام تصل تباعاً إلى السلطات الفاطمية في القاهرة ، وبينما كانت انتصارات الصليبيين تتوالى على المسلمين بحيث تمكنوا في أمد قصير من الاستيلاء على أنطاكية ومعرة النعمان وكفرطاب وحصن الأكراد ، وحاصرت قواتهم عرقة وطرابلس وصيدا وصور وعكا ، كان المسؤولون في الدولة الفاطمية ينظرون إلى هذه الانتصارات الصليبية على أنها لا تهمهم في شيء ، ولذلك لم يتحرك هؤلاء المسؤولون ولم يقوموا بعمل حاسم ضد الصليبيين ، ويتساءل ابو المحاسن عن سبب سكوت الأفضل على ذلك بقوله : « ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر عصر ، وما أدرى ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٩ .
(٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ١١٣ أ. وهناك من المؤرخين من يقدم استرداد الفاطميين لبيت المقدس سنتين ، فيحددون سنة ٤٨٩ هـ لذلك (راجع أبو الفداء ، ج ٤ ص ٦٤) .
(٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٨٩ – أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٥٠ .

على المال والرجال »[1]. ويبدو أن الدولة الفاطمية كانت تنظر منذ البداية إلى الصليبيين على أنهم حلفاء لهم ضد السلاجقة، خصوم الفاطميين سياسياً ومذهبياً، ولذلك تلكأوا في مواجهتهم، فلما حاصر الصليبيون بيت المقدس، واقتحموا أسوارها في ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ هـ بعد حصار دام أكثر من أربعين يوماً، وارتكبوا فيها المذابح الرهيبة[2]، لم يسكت الأفضل أكثر مما سكت، وعزم على السير لاسترجاع بيت المقدس التي اعتبر سقوطها في أيدى الصليبيين اعتداءً صارخاً موجهاً إلى الدولة الفاطمية[3].

ففي أوائل رمضان سنة ٤٩٢ هـ خرج الأفضل في عشرين ألفاً من عسكر مصر إلى عسقلان بقصد استرداد بيت المقدس، ونزل بظاهر عسقلان في ١٤ رمضان منتظراً وصول الأسطول الفاطمي في البحر والنجدات البرية التي وعده بها عرب فلسطين[4]، ولكنه بهذا الانتظار أخطأ خطأً فاحشاً، إذ ترك للصليبيين فرصة مبادرته بالهجوم وإنزال الهزيمة به، وانهزم العسكر المصري إلى داخل عسقلان، واضطر الأفضل إلى العودة إلى القاهرة عن طريق البحر[5].

وأصبحت عسقلان القاعدة الرئيسية للفاطميين لخروج الغزاة في الأساطيل إلى السواحل الشامية والثغور التي يحاصرها الصليبيون، لإمدادها بالسلاح والأقوات. وكان الأفضل يجهز العساكر في كل عام ويبعثها لمحاربة الصليبيين براً وبحراً[6]، ويبدو أنه تمكن من استرجاع عكا في سنة ٤٩٤ هـ وأقام

---

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٤٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، حوادث ٤٩١ هـ، ص ١٨٩ – النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٤٩.

(٣) Rousset, Histoire des Croisades, Paris, 1957, p. 104.

(٤) ابن القلانسي، ص ١٣٧ – النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٥٠.

(٥) المقريزي، الخطط، ج ٢ ص ١٦٥ – النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ١٥٠ – سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١ ص ٢٥٥.

(٦) ابن منجب الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص ٦١.

عليها والياً من قبله هو بنا المعروف بزهر الدولة الجيوشي[١] ، بدليل أن هذا الوالي سيقاوم الصليبيين مقاومة شديدة عندما يقومون في سنة ٤٩٧ هـ بحصارها براً وبحراً ، ويضطر أخيراً إلى الخروج عنها بعد أن يعجز عن حمايتها[٢]. كذلك نعتقد أن الأفضل استرجع مدينة صور ، وأقام عليها والياً يقال له عز الملك أنوشتكين الأفضلي[٣].

وفي سنة ٤٩٣ هـ سيّر الأفضل جيشاً من مصـــر بقيادة سعد الدولة القواس ، فالتقى مع الفرنج في عسقلان ، واشتد القتال ، فقتل ، وصبر المصريون وثبتوا ، وحملوا على الصليبيين ، فهزموهم إلى قيسارية[٤] ، وقيل إلى يافا[٥]. وفي سنة ٤٩٦ هـ تمكن شرف المعالي بن الأفضل من استرداد مدينة الرملة[٦] .

ثم شغل الأفضل في بداية عصر الآمر بأحكام الله بتصريف شؤون الدولة عن الدفاع عن السواحل الشامية ، فأخذ الصليبيون يستولون عليها مدينة بعد مدينة ؛ ففي سنة ٤٩٤ هـ سقطت حيفا وأرسوف وقيسارية ، وفي ٤٩٥ هـ سقطت أنطرطوس ، وفي سنة ٤٩٧ هـ استولى الصليبيون على عكا قهراً بعد أن حاصروها من البحر في أكثر من تسعين مركباً ومن البر بجيوش كثيفة . وفي سنة ٥٠٢ هـ استولوا على طرابلس وجبلة ، وفي العام التالي سقطت بيروت وجبيل وبانياس ، وفي سنة ٥٠٤ هـ سقطت صيدا .

أما عسقلان فظلت تجاهد الصليبيين حتى سقطت بدورها في سنة ٥٤٨ هـ بعد حصار أحكمه الصليبيون عليها من البر والبحر دام سبعة أشهر .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٢١ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢١ .
(٣) ابن القلانسي ، ص ١٨٢ .
(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥٢ .
(٥) ابن القلانسي ، ص ١٤٠ .
(٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢١٨ .

(٢)

جهود الأسطول الفاطمي في مصر في استنقاذ الثغور الشامية من الغزو الصليبي

(أ) غارة الأسطول المصري[١] على يافا في سنة ٤٩٧ هـ

على الرغم من خروج السواحل الشامية من طاعة الفاطميين منذ الربع الأخير من القرن الخامس الهجري ، وقيام دويلات مستقلة في دمشق وطرابلس وصور وصيدا ، فإن الأفضل شاهنشاه لم يكن يتردد في بذل العون لها بالميرة والأقوات عندما كان ولاتها يستنصرون به من حصار الصليبيين لها براً وبحراً . ففي أول رمضان سنة ٤٩٦ هـ خرجت العساكر المصرية في البر إلى الشام ، وأقلع الأسطول المصري في البحر بقيادة شرف المعالي ابن الأفضل نفسه ، فوصل الأسطول إلى يافا في آخر شهر شوال ، وأقام في مياهها أياماً ، تيسر له خلالها أن يمدها بالميرة والغلال ، فصلحت أحوال المدينة [٢] . ثم عاد ولد الأفضل إلى مصر بعد أن قدم على الأسطول رجلاً يقال له القاضي ابن قادوس ، وعلى العسكر قائداً يعرف بتاج العجم . ويبدو أن الصليبيين هاجموا يافا بعد رحيل الأسطول المصري عنها ، فكان على ابن قادوس أن يتوجه بأسطوله إليها ليقتحم الحصار الصليبي على المدينة

---

(١) يجمع المؤرخون على تسمية الأسطول الفاطمي في مصر بالأسطول المصري استناداً على أن الفاطميين كانوا أصحاب مصر وعلى أن مصر مركزهم ومقر ملكهم ودعوتهم وعلى انهم اندمجوا في الحياة المصرية (راجع ابن القلانسي ، وأبو شامة ، وابن الاثير ، والمقريزي) ولهذا السبب أطلق بعض المؤرخين أمثال المقريزي وأبو شامة على خلفائها اسم الخلفاء المصريين كما سموها بدولة المصريين والدولة المصرية (راجع أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ص ٥٦١ ، ٥٦٦ ، مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والفاطمي ، ص ٢٦٠) .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

من البحر بينما يتوجه تاج العجم من البر[1]. فمضى ابن قادوس بأسطوله إلى يافا، وأقام عليها عشرين يوماً، لم تصل خلالها العساكر المصرية لمساعدته من البر، الأمر الذي أدى إلى سقوط يافا في أيدي الصليبيين، فبلغ ذلك إلى الوزير الأفضل، فأمر بالقبض على تاج العجم الذي اتهم بالتقصير والإهمال، وأرسل رجلاً يسمى جمال الملك جعله مقدماً على العساكر في عسقلان.

(ب) الأسطول المصري يزود طرابلس بالأقوات والميرة

طمع ريموند دي سان جيل كونت دي تولوز، وأحد زعماء الحملة الصليبية، في إمارة طرابلس الغنية التي كان يتولى إمارتها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الشام الأمير فخر الملك أبو علي عمار بن الحسين بن قندس بن عمار الطائي (٤٩٢ – ٥٠٢ هـ)، فعزم على افتتاحها واتخاذها مركزاً لكونتية صليبية. ففي سنة ٤٩٥ هـ سار في جمع قليل من رجاله لا يتجاوز ثلثمائة رجل لمحاصرتها[2]، ولكنها امتنعت عليه بسبب توافد النجدات إليها من دمشق وحمص، فانسحب إلى أنطرطوس، وأرجأ فتحها إلى فرصة مواتية تتوفر لديه فيها القوة والسلاح، وظل ريموند مقيماً في أنطرطوس في الفترة ما بين عامي ٤٩٥، ٤٩٧ هـ، ولكنه لم يكف خلالها عن شن الغارات عليها ومهاجمتها، غير أن طرابلس كانت من الحصانة والمنعة إلى حد أنها لم تكن تتأثر بهذه الغارات أو حتى لحصار بري طويل الأمد، ما دامت سفنها تزودها من البحر بما كانت تحتاج إليه من مؤن وأقوات، وكان فخر الملك يرسل أتباعه في المراكب للإغارة على سواحل الصليبيين[3]، ففي سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م) قام أسطول طرابلس بالاشتباك مع السفن البيزنطية التي سيّرها الإمبراطور الكسيوس كومنين لنجدة وليم جوردان،

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨ ص ٢١٩.

(٢) ابن الأثير، حوادث ٤٩٥ هـ – سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١ ص ٣٥٦.

(٣) نفس المصدر، ج ٨ ص ٢١٩.

وانتهت المعركة بهزيمة البيزنطيين ، وتمكن أسطول طرابلس من الاستيلاء على قطعة بيزنطية [١] .

ولما اشتد حصار الصليبيين لطرابلس في سنة ٥٠٠ هـ ، وطال ترقب الأمير فخر الملك لوصول الإمدادات من بغداد ، وتأزم الموقف في طرابلس ، عزم الأمير على السير بنفسه إلى بغداد ، فاستناب على طرابلس ابن عمه أبا المناقب بن عمار مع جملة من وجوه رجاله يرأسهم سعد الدولة فتيان ابن الأعز [٢] ، وقيل ابن الأعسر [٣] ، ورتب معه الأجناد براً وبحراً [٤] ، ثم رحل إلى بغداد . ولكن ابن عمه أبا المناقب استغل فرصة غيابه عن طرابلس ، وأعلن خروجه عليه ، وقتل سعد الدولة ، فقبض عليه الأهالي ، ونادوا بشعار الأفضل بن بدر الجمالي بمصر ، وأرسل أهل طرابلس إلى الأفضل بمصر يلتمسون منه إنفاذ وال يصل إليهم في البحر ومعه الغلة والميرة في المراكب ليسلموا إليه المدينة ، فجهز إليهم الأفضل جيشاً في البحر ، وقدم عليهم تاج العجم من أكبر مماليكه ، ثم بلغه أن تاج العجم ينوي إعلان عصيانه عليه في طرابلس ، فأمر بالقبض عليه ، وأرسل إلى طرابلس الأمير شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي واليامن قبله ، ومعه الغلة والأقوات ، فما كاد شرف الدولة يصل إلى طرابلس حتى أمر بالقبض على بني فخر الملك بن عمار وحريمه وأتباعه ، وجرد قصره من الذخائر والأموال والآلات والتحف ، وسيّر الجميع إلى مصر عن طريق البحر [٥] .

ثم رأى أهل طرابلس ما نفرهم منه ، فصبروا على تحمله ، إذ لم يكن لهم رجاء أمام الحصار الصليبي سوى نجدات المصريين [٦] .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٣٥ .
(٢) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٧ .
(٣) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ٢ قسم ٢ ص ١٠٩ .
(٤) ابن القلانسي ، ص ١٦٠ – ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٠ .
(٥) نفس المصدر ، ص ١٦١ – ابن الأثير ، ص ٢٥١ – نص ابن ميسر في كتاب Recueil des Historiens des Croisades, t. III, p. 468 – المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ص١١٥أ
(٦) ابن الفرات ، ج ٨ ص ٧٨ .

(ج) الأسطول المصري يدافع عن صيدا في سنة ٥٠١ هـ

لم يتردد الفاطميون في نجـدة ثغر صيدا عندما هاجمه بلدوين صاحب مملكة بيت المقدس في عساكره ، فحاصروه براً وبحراً في سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) ، ونصبوا الأبراج الخشبية على السور ، فأرسل الأفضل أسطولاً للدفاع عن صيدا وحمايتها ، وتمكنت سفن هذا الأسطول من التغلب على مراكب الجنوية وعسكر الصليبيين ، وظل الأسطول المصري يقوم بواجبه من الدفاع عن الثغر إلى أن اتصل بهم وصول العسكر الدمشقي [١] ، لحماية صيدا والذب عنها ، فرحل الأسطول المصري قافلاً إلى مصر .

(د) الأسطول المصري يصل إلى طرابلس متآخراً بعد سقوطها في سنة ٥٠٢ هـ

عندما اشتد الحصار البري حول طرابلس للحشود الصليبية المؤلفة من قوات تنكريد صاحب أنطاكية ، وبلدوين ملك بيت المقدس ، وبرترام بن ريموند الصنجيلي ، والحصار البحري الذي يمارسه الأسطولان البروفنسي والجنوي ، بحيث تمكن الصليبيون من قطع الإتصال عنهـــا تماماً من البر والبحر ، استمات أهل المدينة في الدفاع عنها . غير أن تضامن الصليبيين فيما بينهم ، وتضييقهم الخناق على أهل المدينة من البر والبحر ، واستخدامهم الأبراج في مهاجمة الأسوار تمهيداً لاقتحامها ، كل ذلك دفع أهـــل طرابلس إلى الاستنجاد بمصر وطلب العون من الوزير الأفضل شاهنشاه ، فأرسلوا إليه رسلهم يلتمسون منه أن يزودهم بالميرة والسلاح والرجال ، وأقاموا ينتظرون ورود السفن المصرية .

ومر وقت طويل منذ أن استصرخ أهل طرابلس الفاطميين في مصر دون أن تصل إليهم الإمدادات والأقوات ، حتى نفـذت المؤن وعدمت الأقوات وتضاءل أمـــل القوم في الصمود ، وفترت مقاومتهم للأعداء .

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٢ – ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥١ – المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ١١٦ أ .

وأخيراً تمكن الصليبيون من دخول طرابلس بالسيف في ١١ من ذي الحجة سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨ م) . ولو أن الحكومة الفاطمية اتخذت وقتئذ إجراءً سريعاً حاسماً لتموين طرابلس ونجدتها ، لكان من الممكن إطالة أمد المقاومة في داخل طرابلس ضد العدو المحاصر ، ولكن استهتار الأفضل بإنجاد طرابلس وتلكأه في إرسال المؤن كان من العوامل الرئيسية التي أدت إلى سقوط المدينة . ونستنتج من تعليل ابن الأثير لتأخر وصول الأسطول بأن المسؤولين في القاهرة « فرغوا منه ومن البحث عليه ، واختلفوا فيه أكثر من سنة ، وسار ، فردته الريح ، فتعذر عليهم الوصول إلى طرابلس ليقضي الله أمراً كان مفعولاً »[1]. ومعنى هذا أن الإجراءات الخاصة بجمع قطع الأسطول المصري الذي أعده الأفضل لإنجاد طرابلس من الموانئ المصرية استغرقت زمناً طويلاً ، وأن خلافاً عميقاً نشب بين قواد الأفضل فيمن يتولى قيادته ، ومن المعروف أن مثل هذا الخلاف حدث من قبل بين تاج العجم وابن قادوس في عسقلان ، وانتهى بالقبض على تاج العجم . ونستنتج من نص ابن الأثير أن الخلاف دام ما يقرب من سنة ، وأن ريحاً مضادة لسير الأسطول أعاقته عن الوصول إلى المدينة في الوقت المناسب ، فلم يصل إلى مياه طرابلس إلا بعد أن سقطت طرابلس وجبلة في أيدي الصليبيين . ويشير ابن القلانسي إلى وصول هذا الأسطول عقب سقوط طرابلس بقوله : « ووصل عقيب ذلك الأسطول المصري ، ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة والرجال والمال لمدة سنة مع تقوية ما في المملكة المصرية من ثغور الساحل وأهله ، ووصل إلى صور في يوم الثامن من فتح طرابلس ، وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها ، وأقام بالساحل مدة ، وفرقت

---

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٥٩ . ونطالع مثل هذا النص في : ابن القلانسي ، ص ١٦٣ — ابن الجوزي ، كتاب مرآة الزمان ، ج ٨ ص ١٧ — أبو الفداء ، ج ٤ ص ١٤٣ — المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ١١٦ أ . ولكن أبو المحاسن يعلل تأخر وصول الأسطول المصري بأنه كلما «سار نحو البلد رده الإفرنج إلى مصر» (أبو المحاسن ، ج ٥ ، ص ١٧٩).

الغلة في جهاتها ، وتمسك به أهل صور وصيدا وبيروت ، وشكوا أحوالهم وضعفها عن محاربة الإفرنج ، ولم يمكن الأسطول المقام فأقلع عائداً عند استقامة الريح إلى مصر »[١].

وهكذا كان تباطؤ مصر في إرسال الأسطول وتأخره في الوصول إلى طرابلس قبل أن تسقط في أيـدي الصليبيين سبباً في توجهه إلى ساحل صور بعد سقوط طرابلس بثمانية أيام ، وهو أمر إن دل على شيء فإنما يدل على استهانة المسؤولين في مصر الفاطمية بالدفاع عن السواحل الشامية ، واستهتارهم بالموقف . وعلى الرغم من تمسك أهل صيدا وصور وبيروت ببقاء هذا الأسطول في مياه ثغورهم حماية لهم من غزو صليبي وشيك ، فإن قادة الأسطول المصري أسرعوا بالعودة إلى مصر .

ويندد أبو المحاسن بعدم اكتراث أهل مصر بالفرنج ، ويصور هذه اللامبالاة في الدفاع عن طرابلس بثلاثة أمور : ١ — تقاعسهم عن المسير مدة طويلة ٢ — ضعف العسكر الذي أرسلوه مع الأسطول ٣ — عدم خروج الأفضل بنفسه للدفاع عن طرابلس[٢].

ويورد ابن الفرات رواية تتضمن سخرية لاذعة للموقف المتخاذل الذي وقفه المسؤولون في مصر يومئذ إزاء إنجاد طرابلس فيقول : « وحكي أن السبب في أخذ طرابلس أنه لما ضايقها الفرنج كتب من بها إلى الديار المصرية يستنجدون خليفتها ، ويسألون الميرة ، وأقاموا ينتظرون ورود الجواب بالمدد والميرة ، فبينما هم في ذلك ، إذا بمركب قـد أقبل ، فما شكّوا أن فيه نجدة ، فطلع منه رسول وقال : قد بلغ الخليفة أن بطرابلس جارية حسنة الصورة ، وأنها تصلح للخدمة ، وقد أمر بإرسالها إليه ، وأرسلوا إليه من حطب المشمش ما يصنع منه عيدان للملاهي ، فعند ذلـك أيسوا من نصره ،

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٤ — المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ١١٦ أ .

(٢) أبو المحاسن ، ج ٥ ص ١٧٩ .

وضعفت قواهم ، وخارت نفوسهم ، وذلوا ، وملكها الفرنج في التاريخ المذكور »[1] . وعلى الرغم من وضوح عامل الاختلاق في هذه الرواية ، فإنها تعبر عن حقيقة لا شك فيها ، وهي استهتار المسؤولين في مصر الفاطمية بالدفاع البحري عن سواحل الشام مع قدرتهم على ذلك .

(هـ) اشتراك الأسطول المصري في الدفاع عن بيروت وصيدا قبيل سقوطها في سنتي ٥٠٣ هـ ، ٥٠٤ هـ

كان سقوط طرابلس في أيدي الصليبيين قبل أن يصل الأسطول المصري إليها لإمدادها بالمؤن والأقوات والسلاح والرجال درساً قاسياً تلقاه المصريون ، ولذلك لم تكد الأخبار تصل إلى الأفضل بزحف الصليبيين بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس ، وبرترام بن صنجيل وجوسلين صاحب تل باشر ، نحو بيروت ، وإحكامهم الحصار عليها من البحر والبر ، واستعدادهم لدخولها بالأبراج المنصوبة ، واستبسال أهلها في الدفاع عنها والصمود أمام حصار شديد القسوة ، لم يتردد في إرسال قسم من أساطيله لإنجادها والإسهام في الدفاع عنها . فجهز تسعة عشر مركباً حربية مزودة بالميرة والسلاح والرجال ، ووصلت هذه السفن سالمة إلى بيروت ، وتغلبت على مراكب الصليبيين ، واستولت على بعضها ، ثم أفرغ البحريون شحنة تلك السفن من الأقوات والمؤن والعدد والسلاح ، فقويت نفوس أهل بيروت ، واشتدت عزائمهم ، وبدأوا يشددون هجماتهم على قوات الصليبيين المحيطة بالمدينة ، وعندئذ استنجد بلدوين بالجنوية الذين طالما سخّروا سفنهم في خدمة الحركة الصليبية ، فقدم من سفنهم في هذه المرة أربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة ، ونصبوا عليها مائة منجنيق ، وأخذوا يمطرون المدينة التعسة بقذائف الحجارة المدمرة ، ولكن أهل المدينة تفانوا في الدفاع عنها ، وقاتل البحريون بعنف في يوم الجمعة ٢١ من شوال ، واستبسلوا في الدفاع البحري عن بيروت ، واستشهد في المعركة مقدم الأسطول المصري

---

(١) ابن الفرات ، ج ٨ ص ١٨٩ .

وعـدد كبير من رجاله . ويشهد ابن القلانسي بضراوة المقاومة الإسلامية فيقول : « ولم ير الإفرنج فيما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا اليوم »[١] . ولكن المعركة تحدد مصيرها أمام ضخامة الحشود الصليبية ، فانهزم المسلمون ، ودخل الصليبيون المدينة قهراً .

وفي آخر سنة ٥٠٣ هـ أقلع أسطول مصري إلى صور ليقيم في قاعدتها بقصد الدفاع عنها ، واتفق في ربيع الآخر سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠ م) أن قدم إلى ساحل الشام أكثر من ستين مركباً مشحونة بالرجال للغزو ضد المسلمين والحج إلى بيت المقدس ، فاستغل بلدوين هذه الفرصة لفتح صيدا ، ونزل عليها بقواته براً ، وحاصرها الأسطول الصليبي بحراً ، ورأى مقدم الأسطول المصري في مهاجمة هـذا الأسطول الكبير مغامرة خطيرة قد تنتهي بكارثة للمسلمين ، فآثر البقاء في صور خوفاً من أن تتعرض وحدات أسطوله للتدمير ، فلما يئس أهالي صيدا من قدوم النجدة ، خافوا أن يصيبهم ما أصاب أهـل بيروت من قبل ، فخاطبوا الصليبيين في تسليم بلدهم بالأمان ، فدخلها الفرنج بعد حصار دام ٤٧ يوماً[٢] .

(و) الأسطول المصري يساعد صور على الصمود أمام القوى الصليبية حتى سنة ٥١٨ هـ

بعد أن استولى الصليبيون على صيدا زحفوا إلى صور ، وحاصروها في سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) ، فتصدى لهم ظهير الدين طغتكين ، وقطع الجسر الذي كان يُعبر عليه بين صيدا وصور ، وأحرق عشرين مركباً كانت ترسو في مياه صيدا ، وأصدر إلى أهل صور الكتب يدعوهم فيها إلى المصابرة على الإفرنج والجـد في قتالهم . وأمام مقاومة أهل صور العنيفة ، واستماتتهم في الدفاع عن بلدهم ، اضطر الصليبيون إلى فـك الحصار عنها[٣] .

---

(١) ابن القلانسي ، ص ١٦٨ – المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ١١٦ أ .
(٢) ابن القلانسي ، ص ١٧١ – ابن الأثير ، ج ٨ ص ٢٦٠ – اتعاظ الحنفا ، ص ١١٦ أ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

وفي سنة ٥٠٦ هـ تجددت مخاوف أهـــل صور من عودة الفرنج إلى محاصرتهم ، فأجمعوا ، بالإتفاق مع عز الملك أنوشتكين الأفضلي ، والي صور من قبل الأفضل ، على تسليمها إلى ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق بحكم ما بذله في العام السابق من جهود في سبيل الدفاع عن صور ، ولم يتردد ظهير الدين من جهته في قبول طلبهم ، فأمر سيف الدين مسعود ، واليه على بانياس ، وتاج الملوك بوري ، نائبه في دمشق ، بأن يتسلما صور ، وأرسل ظهير الدين إليها فرقة من الأتراك لتدعيم الدفاع عنها ، كما أرسل إلى أهلها الأقوات والمؤن من دمشق ، وطيب نفوس أهلهـــا . ولكن ظهير الدين بتبديله الإدارة الفاطمية بإدارة تركية ، لم ينتزع صور من مصر ، بل أبقى على تبعيتها لها ، وترك الدعوة والسكة على ما كانتا عليه لصاحب مصر ، ولم يغير للفاطميين أي رسم من رسومهم ، وكتب ظهير الدين إلى الأفضل شاهنشاه بمصر يبرر له تصرفه ، برغبته الخالصة في الإبقاء على صور بلدة إسلامية عن طريق تقويتها بالرجال ، وأبلغه قائلاً بأن بلدوين « قد جمع وحشد للنزول على صور ، وأن أهلها استنجدوا بي عليه ، والتمسوا مني دفعه عنهم ، فبادرت بإنهاض من أثق بشهامته لحمايتها والمراماة دونها إليه ، وحصلوا فيها » ، ثم أضاف بأنه على أتم استعداد لإجلاء قواته وإخراج نوابه عنها متى وصل إليها من مصر من يتولى أمرها والذب عنها وحمايتها ، ثم أوصى الأفضل في نفس هذا الكتاب بقوله : « وأنا أرجو أن لا يُهمل أمرها ، وإنفاذ الأسطول بالغلة إليها ، والتقوية لها »[1] .

أقام رسول طغتكين إلى الأفضل شاهنشاه بمصر حتى ذي الحجـة من سنة ٥٠٦ ، وفي فترة إقامته بالقاهرة تمكن من تصوير الوضع في صور على حقيقته للأفضل ، موضحاً له ما يتهددها من أخطار من جانب الصليبيين ، ودور طغتكين في الدفاع عنها ، وذكر له مـا عرضه عليه طغتكين من التطوع للدفاع عن صور إلى أن يقوم هو أي الأفضل بإنفاذ أسطوله إليها . فأعاد

(١) ابن القلانسي ، ص ١٨٢ – المقريزي ، اتعاظ الحنفا ص ١١٧ أ .

الأفضل الرسول بكتاب رد فيه على طغتكين رداً حسناً ، وعبر له عن شكره له على ما فعله ، واستصوب رأي طغتكين فيما اعتمده . ثم شرع في تجهيز الأسطول المصري وشحنه « بالغلة والميرة ومال النفقة في الأجناد والعسكرية وما يباع على الرعية من الغلات »[1] .

وفي أول سنة ٥٠٧ هـ (١١١٣ م) أقلع الأسطول من مصر بالغلات والرجال متجهاً إلى صور ، وتولى قيادة هـــذا الأسطول متولي طرابلس السابق قبيل استيلاء الصليبيين عليها وهو الأمير شرف الدولة بدر بن أبي الطيب الدمشقي ، ووصل الأسطول إلى صور سالماً في آخر صفر سنة ٥٠٧ هـ ، وبوصوله إلى صور وإنزاله الشحنات رخصت الأسعار في المدينة ، واستقام أمرها ، وحسن حالها ، وعلى هـذا النحو أفسد تصرف طغتكين الحكيم ووصول الأسطول المصري إلى صور خطط الصليبيين ، وأبعـــد خطرهم عنها ، وأرسل مقدم الأسطول شرف الدولة بدر بن أبي الطيب هدية الأفضل إلى ظهير الدين طغتكين ، وتتألف من الخلع الفاخرة الجليلة برسمه ورسم ولده تاج الملوك بوري وخواصهما ، وبرسم سيف الدولة مسعود نائب ظهير الدين في ولاية صور . وأقـام الأسطول المصري في مياه صور فترة من الوقت إلى أن استقامت له الرياح ، ثم أقلع عنها في العشر الأخير من شهر ربيع الأول من السنة . ثم إن بلدوين ملك بيت المقدس بعث إلى الأمير مسعود والي صور يلتمس منه المهادنة والموادعة لحسم أسباب النزاع بين الجانبين ، فأجابه مسعود إلى ذلـك ، وانعقدت الهدنة بينهما ، واستقامت أحوال صور ، وأمنت الوافدين عليها من التجار والمسافرين من جميع الأقطار[2] .

وظل الأمر كذلك في حياة الأفضل الذي لم يكن يضن عليها بمساعداته باعتبارها آخر ثغور الشام التابعة للفاطميين ، ولو أن العمر طال بالأفضل لكان في إمكان صور أن تصمد فترة أطول ، غير أنه اغتيل في ليلة عيد

---

(١) ابن القلانسي ص ١٨٨ – المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ١١٧ ب .

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٨٨ .

الفطر من سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، فخلفه في الوزارة المأمون أبو عبدالله محمد بن أبي شجاع فاتك البطائحي الذي كان — رغم شجاعته — أقل دراية بشؤون السياسة من الأفضل ، بدليل أن مصر خسرت مدينة صور بسبب سوء تصرفه ، وتفصيل ذلك أنه ما كاد يتولى الوزارة ويستبد بأمور البلاد حتى عزم على إزالة نفوذ طغتكين من صور والإطاحة بولاية مسعود الذي كان يتولاها من قبـــل طغتكين ، ففي بداية سنة ٥١٦ هـ أرسل المأمون الأسطول المصري إلى ثغر صور وقد شحنه « بالرجالة البحرية وطائفة من العساكر »[١] ، كما شحنه بكميات كبيرة من الغلال تقدر بخمسة عشر ألف إردب وأقوات كثيرة . فلما وصل الأسطول إلى صور ، خرج واليها سيف الدولة مسعود لاستقبال مقـــدم الأسطول ، فطلب منه هذا النزول بسفينته ، فاستجاب مسعود لرغبته ، وما كاد ينزل بمركب مقدم الأسطول حتى أمر هذا باعتقاله ، وصدر الأمر على الفور إلى العساكر بالنزول في المدينة والسيطرة عليها ، ثم أقلع الأسطول من ميناء صور حاملاً الأمير مسعود إلى مصر ، فلما وصل إلى القاهرة ، بولـغ في إكرامه ، وأنزل في دار ، وأطلق له ما يحتاج إليه[٢] ، ثم أعيد إلى دمشق بعد ذلك[٣] . ويعلل ابن القلانسي هـذا التصرف من جانب السلطات المصرية بأن أهل صور شكوا مرات عديدة إلى الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله ووزيره الأفضل بما كان يعتمده مسعود مـع الرعية من مخالفتهم والإضرار بهم ، ويعلق ابن القلانسي على عزل مسعود عن ولاية صور بقوله : « وكانت عاقبة خروجه منها وسوء التدبير فيهـــا خروجها (يقصد صور) إلى الإفرنج وحصولها في ملكتهم »[٤] .

ولما علم الصليبيون بالانقلاب الذي تم في صور، تحركت أطماعهم في

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٠٧ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠٧ – اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٦ ب .
(٣) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣١٥ .
(٤) ابن القلانسي ، ص ٢٠٧ – ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣١٥ .

الإستيلاء عليها من جديد ، وشرعوا في الإعداد لفتحها والتأهب للنزول عليها وإحكام الحصار حولها ، وأدرك والي صور الجديد عجزه عن دفعهم لقلة ما لديه من الجند والميرة ، فأرسل إلى الآمر بأحكام الله يطلعه على جلية الأمر، فاقتضى الرأي أن تَرُدَّ مصر ولاية صور إلى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها على ما جرى رسمه فيها مع احتفاظ مصر بحق الإشراف وفرض سلطانها عليها ، وأصدر الآمر منشور ولاية صور باسم طغتكين ، ولم يتردد طغتكين في قبول الأمر الواقع ، من تقبل مسؤولية الدفاع عنها ، ولكنه ندب لتوليها عنه جماعة لا غناء لهم ولا كفاية فيهم ، فساءت حالتها ، وانتهز الصليبيون هذه الفرصة ، ونزلوا بظاهرها في ربيع الأول سنة ٥١٨ هـ ، وأحكموا الحصار حولها حتى عدمت بها الميرة والأقوات ، فأرسل طغتكين إلى مصر يطلب إرسال المعونة إليها ، ولكن مصر لم تتحرك لنجدتها ، ومضت الأيام دون أن تصل أساطيل مصر بالمعونة المرتقبة ، فضعفت نفوس أهلها ، وقرروا تسليمها للصليبيين ، وتم ذلك في ٢٣ من جمادي الأولى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) [١] ، وبسقوط صور تلاشى نفوذ الفاطميين في مصر نهائياً على بلاد الشام .

(٣)

جهاد الأسطول المصري ضد الصليبيين حتى نهاية الدولة الفاطمية

(أ) في عصر الآمر بأحكام الله (٤٩٥ – ٥٢٤ هـ)

بلغ الأسطول المصري في عصر الآمر بأحكام الله درجة كبيرة من القوة على الرغم من حالة الضعف السياسي التي وصلت إليها مصر . وقد تعددت

(١) ابن القلانسي ، ص ٢١١ – ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣١٦ .

ميادين النشاط البحري الحربي في خلافة الآمر : ففي سنة ٥١٧ هـ بلـغ المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أبا تراب حيدرة والي الاسكندرية والأعمال البحرية نبأ نزول الروم والبنادقة في أكثر من عشرين مركباً على الاسكندرية ، فبادر إليها بسفن أسطول الاسكندرية ، فلما شاهدها الأعداء أقلعوا دون قتال ، وظفر المصريون بعدة قطع للأعداء[1] . وذكر المقريزي نقلاً عن ابن المأمون ، أنه وصلت رسل ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق وآقسنقر صاحب حلب في المحرم سنة ٥١٧ هـ إلى الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي والوزير المأمون ، وأنهما مثلا أمام الخليفة بالقصر وقدما إليه كتباً بعثها كل من طغتكين وآقسنقر يستنصران فيهـــا الخليفة ويحثانه على نصرة الإسلام وتجهيز العساكر والأساطيل إلى السواحل حتى لا تتواصل إمدادات الصليبيين ، ويبدو أن هـــذه الكتب أثرت في نفس الآمر تأثيراً عميقاً دفعه إلى المبادرة بالعمل ، فاشتعل حماسه ، واشتد عزمه على تلبية ندائها وأمر بتجهيز الجيوش **والأساطيل الثانية** لانشغال الأساطيل الرئيسية في الغزو ، ثم اختار حسام الملك البرني ليكون مقدماً على هذه الأساطيل ، وخلع عليه ، وأمر بأن ينزل الصناعتين بمصر والجزيرة وينفق في أربعين شينياً ، ويكمل نفقاتها وعددها ، ويحمل العسكر عليها ، كما أمر بأن يصحبه عشرون أميراً وعـــدد من الأطباء والمؤذنين والقراء والحجاب ، وأفرد لكل من هؤلاء عملاً يقوم به ، وأوصى بأن يجتمع العسكر والعربان للعرض في عسقلان قبل أن يقلع منها الأسطول إلى السواحل ؛ ويذكر المقريزي أن الخليفة « جهز المال والخلع المذهبات ، والأطواق ، والسيوف ، والمناطق ، والخيل بالمراكب الحـــلى الثقال ، وغير ذلك من التجملات ، وخلع على الرسل وأطلق لهم التغيير ، وسلمت إليهم الكتب والتذاكر ، وتوجهوا صحبة العسكر »[2] . ثم ركب الخليفة الآمر إلى باب الفتوح ، وجلس بالمنظرة ، وهناك استدعى الأمير حسام الملك وخلـــع عليه بدلة

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٦ ب – تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، ص ٢٠٣ .
(٢) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

جليلة مذهبة ، وطوقه بطوق من الذهب ، وقلده ومنطقه بمثـل ذلك . وقام الوزير المأمون البطائحي بتسليم الأموال وخزائن الكسوة إلى الأمير حسام الملك ، ثم ركب الخليفة إلى جامع المقس ، وجلس بالمنظرة ، واستدعى مقدم الأسطول وخلع عليه ، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدة إلى البحر الملح .

والظاهر أن هذا الأسطول الثاني اشتبك مع أسطول للبنادقة في معركة بحرية دارت بالقرب من سواحل الشام وانتهت بهزيمة الأسطول المصري ، وتمكن البنادقة من الظفر بعدة قطع ، واضطرت بقية السفن المصرية إلى العودة إلى مصر [١] . ولكن الأسطول المصري الرئيسي لم يلبث أن عاد مظفراً في شعبان من سنة ٥١٧ هـ بمن فيه من البحريين سالمين ، وقد غنموا شينيين من شواني الصليبيين وبطسة كبرى ، وأسروا عـدداً من الرجال والنساء ، واحتفل الخليفة بعودة الأسطول من الغزو بما جرت به العادة ، واصطفت العساكر بالعـدد والأسلحة ، فخلع الخليفة على الأمراء وعلى زمام [٢] الأسطول والرؤساء [٣] .

(ب) في عهد الظافر بأمر الله (٥٤٤ – ٥٤٩ هـ)

وتلت ذلك فترة مضطربة شغل فيهـا المصريون عن الجهاد البحري بمصرع الآمر بأحكام الله في سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٩ م) على أيدي جماعة من النزارية ، وخلافة الحافظ لدين الله من بعده ، وما تبع ذلك من أحداث خطيرة أدت إلى انتشار الفوضى والاضطراب في داخل البلاد فترة طويلة لم تنته بوفاة الحافظ لدين الله في سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) بل استمرت في خلافة ابنه الظافر بأمر الله حتى مصرعه في سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) على

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٢٠٩ – ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣١٤ .

(٢) المقصود بزمام الأسطول قائد الأسطول أو مقدمه (صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٨٢) .

(٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٨ ب .

يدي نصر بن عباس . واتسم عهد الظافر بظهور الخلل في أجهزة الدولة لحداثة سن الخليفة واشتغاله باللهـو[1] ، ولاشتداد النزاع بين الوزيرين ابن مصال وابن سلار واستعانة كل منهما بفريق من العسكر على زميله . ولذلك أهمل المسؤولون وقتئذ في مصر الدفاع عن عسقلان التي لم تلبث أن سقطت في أيدي الصليبيين في سنة ٥٤٨ هـ بعد أن حوصرت عدة مرات ، وكان المصريون يمدونها بالرجال والذخائر ، ولذلك طال أمد مقاومتها . ويروي ابن القلانسي أن العادل ابن سلار « جلس للإنفاق في رجال الأسطول ليجهزه في البحر إلى ناحية عسقلان بالميرة لتقوية من بها على النازلين عليهـا من الإفرنج والمضايقين لها ، وهو في الجمع الكثير والجم الغفير ، بالمال والرجال والغلال ، وإشراف أهلها على الخطر »[2] . ويضيف ابن القلانسي أن أسطول مصر وصل إلى عسقلان قبل سقوطها في أيدي الصليبيين ، « فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال ، وظفروا بعدة وافرة من مراكب الفرنج في البحر ، وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها ، والزحف بالبرج إليهم . واستمر ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليها من بعض جوانب سورها فهدموه ، وهجموا البلد ، وقتل من الفريقين الخلق الكثير ، وألجأت الضرورة والغلبـة إلى طلب الأمان ، فأجيبوا إليه ، وخرج من أمكنه الخروج في البر والبحر إلى ناحية مصر وغيرها »[3] .

وينبغي أن نشير بالرغم من ذلك إلى حقيقة لا بد من ذكرها وهي أن الأسطول المصري قـام بواجبه في مدافعة الفرنج وحماية المدينة من البحر وتخفيف حـدة الحصار البحري خير قيام ، وأن غزاة الأسطول المصري

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٨٨ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣١٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢١ ، ٣٢٢ – أبو شامة ، الروضتين في أخبـار الدولتين ، ج ١ ص ٢٢٤ – ابن الأثير ، ج ٩ حوادث ٥٤٨ – الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، ج ٤ ص ١٩ – ويجعـل ابو المحاسن تاريخ سقوط عسقلان في سنة ٥٤٥ هـ (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٩٩) .

بذلوا أقصى ما يستطيعون بذله في الدفاع عن عسقلان وإمدادها بالأقوات والميرة . كما ينبغي أيضاً أن نذكر مرة أخرى أن هذا الأسطول أبدى قبل سقوط عسقلان بسنتين نشاطاً بحرياً لم تشهد السواحل الشامية له نظيراً من قبل : فعندما أغار الصليبيون في سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) على الفرما ونهبوها وأحرقوها وأخربوا دورها[١] ، جهز الوزير العادل ابن سلار المراكب الحربية بالرجال والعدد ، وسيّرها في ربيع الأول إلى ثغور الساحل الشامي . ويذكر ابن القلانسي أن الأسطول المصري وصل إلى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة العدد والعدة ، كما ذكر أن عدة مراكبه بلغت سبعين مركباً حربية مشحونة بالرجال ، وعندما اقترب هذا الأسطول من يافا من ثغور الصليبيين أغار على الساحل ، فقتل رجاله وأسروا عدداً كبيراً من عسكر الصليبيين ، واستولوا على عدة قطع من مراكب الروم والفرنج ، وأحرقوا ما عجزوا عن الظفر به ، ثم قصد الأسطول المصري بعد هذه الغارة إلى ثغر عكا ، ففعل غزاته مثلما فعلوه في يافا ، ووقع في أيديهم عدد من المراكب الحربية الفرنجية ، وقتلوا من حجاج الفرنجة وغيرهم خلقاً كثيراً[٢] ، ثم أنفذوا ما أمكنهم إنفاذه من الغنائم إلى مصر . ثم أغار الأسطول المصري على ثغور صيدا وبيروت وطرابلس ، وأبلى غزاة البحر المصريون بلاءً حسناً ، وفعلوا في هذه الثغور مثلما فعلوه في يافا وعكا . ثم عادت قطع الأسطول المصري غانمة مظفرة بعد أن بلغت النفقة عليها ثلثماية ألف دينار[٣] .

(ج) في عصر الفائز بنصر الله (٥٤٩ – ٥٥٤ هـ)

عاود الأسطول المصري الفاطمي نشاطه البحري في غزو السواحل الشامية الخاضعة للصليبيين منذ سنة ٥٥٠ هـ ، ففي هذه السنة أقلع الأسطول المصري إلى

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ ب .
(٢) ابن القلانسي ، ص ٣١٥ – الروضتين ، ج ١ ص ٢٠٢ – اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ ب .
(٣) اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٤ ب .

سواحل الشام الجنوبية ، وأغار على ميناء صور ، وذلك رداً على غارة قام بها الصقليون على مدينة تنيس في غفلة من أهلها في جمادى الأولى سنة ٥٤٩ هـ [١] ، وتفصيل غارة الأسطول كما رواها ابن القلانسي وأبو شامة أن مقدمي الأجناد من جيش الوزير الصالح طلائع بن رُزِّيك اختاروا مقدماً مشهوراً بالشهامة والصرامة والبسالة وحسن السياسة ، « ارتضى لتولية الأسطول المصري مقدماً من البحرية شديد البأس ، بصيراً بأشغال البحر ، فاختار جماعة من رجال البحر يتكلمون بلسان الإفرنج ، وألبسهم لباس الإفرنج ، وأنهضهم في عدة من المراكب الأسطولية ، وأقلع في البحر لكشف الأماكن والمكامن والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرف أحوالها ، ثم قصد ميناء صور ، وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة ، فيها رجال كثيرة ومال كثير وافر ، فهجم عليها وملكها ، وقتل من فيها ، واستولى على ما حوته ، وأقام ثلاثة أيام ، ثم أحرقها ، وعاد عنها في البحر ، فظفر بمراكب حجاج الإفرنج ، فقتل وأسر وانتهب ، وعاد منكفئاً إلى مصر بالغنائم والأسرى » [٢] .

وفي سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) سيَّر الصالح طلائع المراكب الحربية المصرية إلى بيروت ، فأوقعت بمراكب الفرنج ، وأسرت منهم أعداداً كبيرة ، وغنمت غنائم لا حصر لها . ثم سيَّر الأسطول إلى عكا ، فتمكن البحريون المصريون — بعد قتال عنيف — من أسر نحو سبعمائة من الصليبيين ، وعاد الأسطول إلى قواعده في مصر في شهر رمضان [٣] . وفي نفس السنة تكسرت عدة مراكب صليبية تحمل حجاجاً على ساحل الإسكندرية ، فقبض عليهم نائب الثغر الاسكندري [٤] .

---

(١) ابن القلانسي ، ص ٣٣١ — الروضتين ، ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٣٢ — الروضتين ، ج ١ ص ٢٥٣ .

(٣) اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٩ أ .

(٤) نفس المصدر .

ثم نشطت الأساطيل المصرية في سنة ٥٥٣ هـ نشاطاً كبيراً بفضل تشجيع الصالح طلائع ، أعظم وزراء الدولة الفاطمية ، الذي لم يتوان قط في مدة توليه الوزارة عن مغازاة الفرنج ، وتسيير الجيوش لقتالهم في البر والبحر ، وكان يرسل البعوث الحربية على السواحل الجنوبية لبلاد الشام في كل سنة [١] ، وكثيراً ما تعددت غزوات الأسطول المصري في السنة الواحدة : ففي أوائل ربيع الأول سنة ٥٥٣ هـ أغارت طائفة كبيرة من العساكر المصرية على غزة وعسقلان وأعمالها ، وكان يظاهرهم الغزاة في البحر ، واشتبك المصريون مع الصليبيين في عدة معارك انتصر فيها المصريون ، وظفر مقدم الغزاة في البحر بعدة مراكب مشحونة بالإفرنج ، وأسر منهم عدداً كبيراً ، وعاد ظافراً إلى مصر [٢] . وفي ٢٣ ربيع الآخر من نفس السنة سار الأسطول المصري الرئيسي إلى تنيس ، ثم أقلع منها في الثامن من شعبان لغزو سواحل الصليبيين . وفي ٢٦ من ربيع الآخر قدم أسطول الاسكندرية من إحدى غزواته على السواحل الصليبية ، وقد امتلأت أيدي الغزاة المصريين بالغنائم [٣] . وفي الخامس من شعبان سيّر الصالح طلائع خمس شواني للإغارة على سواحل الشام المحتلة ، واستطاعت هذه الشواني الخمسة أن تظفر بعدة سفن صليبية ، وعادت في ٢٢ من رمضان وقد غنمت غنائم كثيرة ، وأسرت عدداً كبيراً من الصليبيين [٤] .

وفي السنة التالية أقلع الأسطول المصري في جمادى الأولى إلى سواحل الشام تلبية لدعوة نور الدين محمود بن زنكي أتابك حلب ، ومساندةً له [٥] في تخريب السواحل الشامية المحتلة .

---

(١) الخطط ، ج ٣ ص ٢٦٢ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٣٥١ – الروضتين ، ج ١ ص ٢٨٨ .

(٣) اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٩ أ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٩ أ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٤٩ ب .

ولم يزل الأسطول المصري على مثل هـذه الحالة من النشاط البحري وغزو السواحل الشامية المحتلة حتى كانت أيام شاور بن مجير السعدي الذي تولى الوزارة بعد مقتل الصالح طلائع في رمضان سنة ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م) . وفي وزارته اضطربت الأحوال الداخلية مع مصر ، وتدخل النوريون حيناً والصليبيون حيناً آخر ، إلى أن كانت سنـة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) عندما دخل عموري ملك بيت المقدس الأراضي المصرية ، ونزل بلبيس واستولى عليهـا عنوة ، ثم زحف إلى القاهرة . فأمر شاور بإحراق الفسطاط ، وإحراق مراكب الأسطول ، لتعويق تقدم الصليبيين إلى القاهرة ، فاحترقت السفن التي كانت ترابط بصناعة مصر[١] ، وخسرت مصر بذلك معظم رصيدها البحري ، ولم يبق لهـا سوى الأساطيل الراسية بالثغور البحرية في الاسكندرية ودمياط وتنيس وعيذاب .

(١) الخطط ، ج ٣ ص ١١٠ .

الفصل الرابع

التنظيمات البحرية في العصر الفاطمي

(١)

موظفو ديوان العمائر ومراتب البحريين

ذكرنا فيما سبق أن ديوان العمائر كان مقره دار صناعة الإنشاء بمصر التي كانت تقع على الساحل القديم من مصر الفسطاط بالقرب من المنظرة الخلافية المعروفة بمنظرة الصناعة التي أنشأها الوزير المأمون البطائحي . وكان من اختصاصات ديوان العمائر الإشراف على صناعة الأسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية والأحطاب وغيرها ، ومنه كان ينفق على رؤساء المراكب ورجال الأسطول من النواتي[١] . وكانت المراكب السلطانية المذكورة تضم ما يزيد على خمسين عشارياً وعشرين ديماساً ، من بينها عشرة عشاريات كانت مخصصة لركوب الخليفة الفاطمي في مواسم الاحتفالات بوفاء النيل كتخليق عمود المقياس وفتح الخليج ، أما بقية العشاريات والدواميس فكانت برسم ولاة الأعمال المميزة ، في حين كان للمشارفين بالأعمال عشاريات أخرى دون عشاريات الخليفة وولاة الأعمال . وكان الديوان المذكور يضم عدداً كبيراً من الحواصل لعمارة المراكب[٢] ، في كل حاصل منها نفر من الصناع من مختلف المهن كالنجارين والحدادين والقلفطين والمزوقين ، ويتولى

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧ – صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٩٢ .

(٢) نفس المصدر – عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ج ١ ص ٢٢٠ .

الديوان الإنفاق على إنشاء السفن ، فإذا لم يف ارتفاقه بما تحتاج إليه هذه السفن استدعى له مزيد من المال من بيت المال لسد النقص . ومن موظفي الديوان :

١ – رئيس العشاريات والنواتي : كان يتولى كل عشاري أو ديماس من عشاريات ودواميس الديوان رئيس ونواتي ينفق فيهم من مال هذا الديوان .

٢ – نائبا مقدم الأسطول : وكانا يتوليان خدمة ما يجري في الأساطيل .

أما فيما يتعلق بمراتب البحريين ، فقد ذكر المقريزي أن جريدة قواد الأسطول في أواخر عصر الدولة الفاطمية كانت تزيد على خمسة آلاف مدونة من البحريين ونعني بهم النواتية ، يتقدمهم عشرة أعيان يقال لهم قواد تصل جامكية أكبرهم إلى عشرين ديناراً ، بينما لا تقل لأقلهم شأناً عن دينارين ، وكان يختار من بين هؤلاء القواد العشرة قائد يتميز منهم ويرتفع عنهم يسمى رئيس الأسطول . وكان هذا الرئيس هو الذي يقلع بالغزاة وبصحبته مقدم الأسطول وفانوس تهتدي به المراكب الأخرى ، وبه كان يقتدي سائر قواد الأسطول ، فيقلعون بإقلاعه ويرسون بإرسائه [١] . أما مقدم الأسطول فكان يشترط في اختياره أن يكون من بين أعيان أمراء الدولة وأن يكون أقواهم جأشاً ، وكان يعرف بزمام الأسطول [٢] .

وإلى جانب هؤلاء القواد الكبار كان يتولى دعوة الغزاة لتسلم النفقة قبيل الخروج للغزو في البحر عدد من العرفاء يقال لهم النقباء ، عددهم عشرون ، تقتصر مهمتهم على استدعاء الغزاة من دورهم [٣] .

وكان الخليفة عندما يتولى توزيع النفقة قبيل تحرك الأسطول للغزو يمنح مقدم الأسطول مائة دينار ، ورئيس الأسطول عشرين ديناراً .

---

(١) المقريزي ، الخطط ج ٢ ص ٣٧٨ ، ج ٣ ص ١٠٩ .
(٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٨ ب – صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥١٩ .
(٣) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١٠٩ .

وكان نواتية الأسطول المعروفين بالبحريين أو الأسطولية [١] موضع احترام الناس وتبجيلهم ، فكان يقال لهم المجاهدون في سبيل الله ، والغزاة في أعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم [٢] . ومن المعروف أن العدد الأعظم من هؤلاء البحريين كانوا مغاربة ، وقد عرف المغاربة بمهارتهم في قيادة السفن والملاحة في البحر منذ عصر مبكر ، وذاعت شهرتهم في الجهاد البحري في العصر الأيوبي ، واشترك البحريون المغاربة في مهاجمة مراكب الصليبيين عند عيذاب [٣] ؛ فقد استعان الحاجب حسام الدين لؤلؤ بجماعة من أنجاد المغاربة البحريين في مراكب عمرت من مصر والاسكندرية في مهاجمة مراكب الفرنج وحرقها وأسر من بها [٤] ، وأصبح للبحريين المغاربة في عصر المماليك البحرية مكانة خاصة ، وكان يلبغا الخاصكي يقدرهم قدرهم ، ويعتبرهم فرسان البحر [٥] ، وكان يكثر من قيّاد المغاربة على المراكب . وكان رئيس دار الصناعة بالاسكندرية ، ابراهيم التازي ، مغربياً ، عرف ببطولته في الجهاد ضد الصليبيين ، وقد ذكر النويري معلقاً على بطولته بأن الفرنج « ليس يقهرهم سوى المغاربة ، ذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس ، يعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم في بر وبحر ، فلو كان منهم بالاسكندرية من المغاربة جمعاً كبيراً بجوامك مرتبة ، وغربان مجهزة بعددها وأزوادها ، كانوا يخربوا جزر كثيرة ، وصارت الفرنج معهم في جزيرة » [٦] . وكان البحريون في العصر الفاطمي وما تلاه من عصور يشتغلون في سفن الأسطول إما بالتجديف أو بنشر القلوع أو توجيه الدفة

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١١١ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق وليم رايت ، ص ٥٩ . وذكر ابن سعيد أن الأساطيل كانت وقفاً على المغاربة لمعرفتهم بمعاناة الحروب والبحر (المقري ، نفح الطيب ، ج ٣ ص ١١١) .
(٤) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول القسم الأول ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٧٩ .
(٥) النويري السكندري ، الإلمام بما قضت به الأحكام ، نسخة مصورة من مخطوطة الهند ، ص ١١٦ ب .
(٦) نفس المصدر ، ص ٢٧٧ ب .

أو مراقبة البحر ، فكان منهم المجذفون وناشرو القــلوع على القرايا ، والنواظير ، وكان منهم طائفة مقاتلة إما بالأنفاط ويعرفون بقاذفي اللهب أو زرّاقي النار ، وبالعرادات والمجانيق ، وكان منهم رماة السهام والكلابون أو الكالمون بالكلاليب ، والراجمون بالرجام والسالبون بالأساليب [١] .

(٢)

قُطَع الأسطول الفاطِميّ الحَربيّ وَالمدَنيّ

يقسم المقريزي السفن المصرية إلى نوعين

١ ــ الحربية ، وهي سفن الأسطول التي تصنع خصيصاً لغزو العدو ، وكانت تشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة ، فتمر من ثغر الاسكندرية وثغر دمياط وتنيس والفرما في مصر ومن ثغر طرابلس وثغر صيدا وثغر صور في الشام إلى جهاد أعـداء الدولة من البيزنطيين والفرنج .

٢ ــ النيلية ، وهي إما سفن تجارية تنشأ لحمل الغلال والأحطاب وغيرها ، ونقل هذه البضائع في النيل ، صاعدة إلى أعلى الصعيد ، أو منحدرة إلى أسفل الأرض[٢] ، أو سفن تخصص للاحتفالات بتخليق عمود المقياس وكسر الخليج ولنزه الخلفاء الفاطميين ، كالعشاريات اللطاف ، التي يقال لها السماويات ، والعشاريات الخاص الكبار [٣] .

ويمكننا أن نضيف إلى هذين النوعين نوعاً ثالثاً مخصصاً للملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهنـدي ، لنقل تجارة الكارم أو لنقل الحجاج ما بين عيذاب وجدة .

---

(١) العماد الأصفهاني ، ص ١٦٠ .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١٠٣ .

(٣) نفس المصدر ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٠ .

وكانت السفن المصرية في العصر الفاطمي سواء الحربية منها أو المدنية ، تصنع في دار صناعة الجزيرة ، فأنكر الوزير المأمون البطائحي ذلك ، وقصر صناعة المراكب التجارية النيلية الحاملة للغلات والأحطاب بصناعة مصر ، في حين واصلت دار صناعة الجزيرة والمقس والإسكندرية ودمياط إنشاء السفن الحربية كالشّواني والشلنديات والمسطحات[1]. ويذكر ناصر خسرو ، الرحالة الفارسي الذي زار مصر في العصر الفاطمي ، أنه كانت تصنع في مدينة الصالحية سفن تجارية لنقل البضائع إلى مدينة مصر حتى أبواب دكاكين البقالين[2] .

وقد تعددت أنواع قطع الأسطول الحربي الفاطمي ، وأهم هذه القطع ما يـــلي :

١ – **الشواني الحربية** : (جمع شيني أو شينية أو شونة) ، وكانت أهم قطع الأسطول الفاطمي[3] ، وكانت تعرف أيضاً بالأغربة أو الغربان (جمع غراب) لأنها كانت تطلى بالقار وكانت لها قلوع بيضاء فهي في ذلك تشبه الغربان ، ويعبر ابن الأبار عن ذلك التشابه بينها وبين الغربان في قوله :

يا حبّذا من بنات الماء سابحـــة
تطفو لما شب أهــل النار تطفئه
تـُطـِيرُهَـا الـّريح غرباناً بأجنحة الـ
حـــمائم البيض للإشراك ترزؤه
من كل أدهم لا يلفي به جرب
فـــا لراكبه بالقـــار يهنؤه
يدعى غراباً وللفتخاء سرعتـــه
وهو ابن ماء وللشاهين جؤجؤة[4]

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧ ، ج ٣ ص ١٠٨ .
(٢) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص ٤١ .
(٣) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ج ١ ص ٢٢٢ .
(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ص ٢٠٠ .

والشيني مركب كبير طويل ، يمتاز بأنه يجدف بمائة وأربعين مجدافاً[1] ، ويحمل المقاتلة والجدافين . وكان مزوداً بأبراج وقـلاع تستخدم للدفاع والهجوم ، وقد وصف ابن حمديس الصقلي الشواني الحربية وأبراجها التي يقذف النفاطون منها النفط الأبيض على العدو ، فقال مخاطباً الأمير الحسن ابن علي من أمراء بني زيري في المغرب الأدنى :

أنشأْت شوانيَ طـائرةً ... وبَنَيْتَ على ماءٍ مُدُنا

بـبُرُوجٍ قتـالٍ تحسَبُها ... في شُم شواهقهـا قِنَنَا

ترمى ببروجٍ إن ظهَرَتْ ... لعـدوٍ مُحْرقـةً بطنا

وبنفطٍ أبيضَ تحسَبـه ... ماء وبه تذكى السكنا[2].

ووصف الشاعر الأسواني المصري أبو علي الحسن المهذب بن الزبير انتصار الأسطول المصري على الأسطول الصليبي في بحر طرابلس الشام ، في أيام الصالح طلائع بن رزّيك ، فقال :

ولقد أتى الأسطولُ حين غزا بما
لم يأت في حينٍ من الأحيان

أحْبِبْ إليّ بها شوانيَ أصْبَحَتْ
من فتكها ولها العـداة شواني

شُبِّهْن بالغربان في ألوانهـا
وفعلن فعـل كواسِرِ العُقْبَان

أوْقَرْتهَا عُدَدَ القتال فقد غدت
فيها القنا عوضاً عـن الأشطان

فأتَتْكَ مُوقَرةً بسبْيٍ بينه
أسراهُم مغـلولةُ الأذقـان[3]

---

(١) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٢) ديوان ابن حمديس ، تصحيح وتقديم الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٠ ص٥١٣ .

(٣) محمد كامل حسين ، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ١٧٦ – محمد زغلول سلام ، الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ، الاسكندرية ١٩٥٩ ص ٣٧٥ .

٢ — **الحراريق** : (جمع حراقة) : وهي مراكب حربية يعبر اسمها عن وظيفتها في إحراق سفن العدو بالنفط [١] ، تلي الشواني في الأهمية . وقد استكثر الفاطميون من هذه السفن، إذ ورثوه عن الأغالبة [٢]، واستخدموه في غزو قلورية وفي حروبهم البحرية ضد البيزنطيين ، وكان يجدّف فيها بما يقرب من مائة مجداف [٣] ؛ وقد وصفها الشاعر الأندلسي أبوعبدالله ابن الحداد فقال :

ذات هـدب من المجاذيف حاك
هـدبَ باكٍ لدمعه إسعـاد

حمـم فوقهـا من البيض نار
كل من أرسلت عليـه رمـاد [٤]

٣ — **الحرابي أو الحربيات** : (جمع حربية) : وهي نوع من الشواني ولكنها أصغر منها حجماً ، وتمتاز هـذه المراكب عن الشواني بسرعتها وخفة حركتها ، وكان هذا النوع من المراكب يصنع في العصر الفاطمي بمصر في دار صناعة الروضة [٥] ، وكانت من أهم قطع الأسطول الأندلسي في عصر دولة بني أمية ، واستخدمت في المعارك بأرض المغرب والأندلس [٦]. وقد وصفها الشاعر ابن حمديس بقوله :

يخوضون بحراً كل حـين إليهم
ببحر يكون المـوج فيه فوارساً

وحربية ترمي بمحرق نفطهـا
فيغشى سعوط الموت فيها المعاطسا

---

(١) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق الأستاذ محمد صبيح ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٨٨ .
(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٧ .
(٣) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .
(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ص ١٩٨ .
(٥) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧ ، ج ٣ ص ١١٥ .
(٦) العذري ، ص ٨١ — الإدريسي ، ص ١١٢ .

تراهن في حمر اللبود وصفرها
كمثل بنات الزنج زُفّتْ عرائسا
إذا عثنت فيها التنانير خلتها
تفتح للبركان عنها منافسا [1]

وقال ابن حمديس أيضاً يصف حربية تقذف النفط على سفن الأعداء سنة ٥١٢ هـ :

رأوا حربية ترمي بنفط   لإخماد النفوس له استعار
كأن المهل في الأنبوب منه   إلى شي الوجوه له ابتدار
كأن منافس البركان فيها   لأهوال الجحيم بها اعتبار
نحاس ينبري منه شواظ   لأرواح العلوج به بوار [2]

٤ — **الطرائد** : (جمع طريدة) : وهي سفن كانت مخصصة لحمل الخيل ، وتتسع الطريدة الواحدة لحمل أربعين فرساً [3] . وكانت تفتح عادة من الخلف حتى يتيسر للخيل أن تصعد إلى ظهرها أو تنزل منها إلى اليابسة . كذلك كانت تستخدم لحمل المقاتلة والمؤن والسلاح ، كما كانت تستخدم لانتقال الناس [4] .

٥ — **الشلنديات** : (جمع شلندي ثم خففت إلى صندل) : وهي سفن كبيرة الحجم ، عظيمة الجرم ، شديدة الاتساع ، وكانت تستخدم لنقل المؤن والسلع ، وكان هذا النوع من السفن معروفاً عند البيزنطيين . ويتميز الشلندي بأنه مركب مسطح من أعلى ليمكّن الغزاة والمقاتلة من مقاتلة

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص ٢٧٦ — علي مصطفى المصراتي ، ابن حمديس الصقلي ، سلسلة اقرأ ، عدد ٢٥٠ ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٨٥ .

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص ٢٣٩ — سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٣٣ .

(٣) ابن مماتي ، ص ٣٣٩ — العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٣٤٠ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، مخطوطة ، نسخة مصورة محفوظة بمكتبة جامعة الاسكندرية برقم ٦٤ ص ٤٢٤ أ .

أعدائهم من ظهرها ، بينما يُجَدّف الجدافون تحتهم [١] ، والشلنديات بهذا السطح تشبه المسطحات [١] ، وأعتقد أنهـا كانت تسمى في الأندلس بالأجفان الغزوية أو الغزوانية [٢]. ويقترن اسم الشلنديات مـع الشواني والمسطحات في مصر الفاطمية [٣] ، وقـد ذكر المقريزي أنها كانت تصنع في دار الصناعة بالروضة [٣].

٦ — **المسطحات** : (جمع مسطح) : وهي مراكب ضخمة مسطحة كانت تحمل الأسلحة للأسطول ، وكانت تعرف في الأندلس بالمراكب الحمالة [٤].

٧ — **البطس** : (جمع بطسة) : وهي مراكب كبيرة الحجم كانت تتكون من عدة طوابق ، وكانت تزود بعدد كبير من القلوع يصل أحياناً إلى أربعين قلعاً [٥] ، وكانت تستخدم لنقل الأزواد والميرة [٦] ، كما كانت تستخدم في نقل جموع كبيرة من المحاربين [٧] ، قـد يصل عددهم إلى سبعمائة [٨].

٨ — **المركب المسمى بالغيطاني والمركب المسمى بالعجزي** : هما مركبان عظيما الحجم ، صنعا بدار صناعة مصر ، كانا يحملان عدداً كبيراً من الركاب وأموالاً طائلة [٩].

وقد وصلت إلينا أسماء مراكب أخرى عرفت في المغرب ، في عصر

---

(١) ابن مماتي ، ص ٣٤٠ .
(٢) ابن عذاري ، ج ٤ ص ٣٩٣ — الحلل الموشية ، طبعة تونس ، ١٣٢٩ هـ ، ص ٩٩ .
(٣) المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ١٠٨ .
(٤) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١٧٩ .
(٥) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، ص ٢٢٢ .
(٦) الفتح القسي ، ص ٣٤٠ .
(٧) المقريزي ، ج ٢ ص ٣٧٣ — فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٧١ .
(٨) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيّال ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٩ حاشية ١ .
(٩) ابن القطان ، قطعة من نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ٢٣٣ .

الأغالبة ، وعرفها الفاطميون بحكم نشأة دولتهم في المغرب ، وبحكم انتقال تراث البحرية الأغلبية إليهم . ومن هذه المراكب النواشي [١] ، والفتاش [٢] . كذلك وصلت إلينا أسماء مراكب كانت معروفة في مصر الأيوبية ، ومن المعتقد أن لها تقاليد فاطمية : مثـل الأعزاري [٣] ، وهو مركب صغير لحمل الأزواد ، والمركوش [٤] ، وهو مركب صغير لنقل مياه الشرب ، وكانت سعته لا تقل عن مائة إردب . وذكر ناصر خسرو أن بعكا في عصر المستنصر بالله كانت تصنع مراكب تسمى جودي [٥] .

* * *

أما المراكب التجارية فمنها الشواني (جمع شونة) ، وكانت تتخذ لحمل الغلال إذ تشتمل على أهراء ومخازن لحفظ الغـلال وصهاريج لحفظ مياه الشرب [٦] ، ومنها المراكب السفرية الخاصة بنقـل الركاب والانتقال من بلد إلى آخر [٧] .

أما السفن النيلية فأهمها العشاريات (جمع عشاري) التي كانت تعرف في العصر المملوكي بالحراقات ، وكانت تتخذ إمـا لنقل الغلال السلطانية والأحطاب ، أو لنزه الخلفاء وكبار القوم ، أو لركوب الخلفاء في أيام تخليق عمود المقياس وفتح الخليج [٨] ، وكان عدد عشاريات الخلفاء يزيد على الخمسين عشارياً . والعشاريات نوعان : اللطاف وهي المراكب الصغيرة ويقال لها

---

(١) الادريسي ، ص ١١٢ .
(٢) العذاري ، ص ٨١ .
(٣) ابن مماتي ، ص ٣٤٠ .
(٤) نفس المصدر .
(٥) ناصر خسرو ، ص ١٨ .
(٦) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .
(٧) الادريسي ، ص ١٩٣ — ابن مماتي ، ص ٢٤٧ .
(٨) المقريزي ، ج ٢ ص ٣٧٧ .

أيضاً السماويات [١] ، لأنها مكشوفة للسماء ، والخاص الكبار ، وكان عددها ست عشاريات هي : الذهبي ، والفضي ، والأحمر ، والأصفر ، واللازوردي ، والصقلي، وكانت هذه العشاريات تكسى بالستور الدبيقي الملونة وتعلق برؤوسها وأعناقها الأهلة وقلائد الخرز[٢]. وكان لأم الخليفة المستنصر عشاري يعرف بالفضي يزدان رواقه بفضة تصل قيمتها إلى ١٣٠ ألف درهم [٣] ، وكان للخليفة ٣٦ عشارياً برسم النزه البحرية . وكان العشاري الذي يركبه الخليفة يوم فتح الخليج يشتمل على بيت مثمن من عاج وأبنوس عرض كل جزء ثلاثة أذرع وطوله قامة رجل ، وبأعلاه قبة من خشب محكم الصناعة ، وهو بقبته ملبس بصفائح الفضة والذهب [٤] . وكان للأفضل شاهنشاه عشاريات موكبية يركبها في انتقالاته عندما كان يمضي إلى الروضة بجري جزيرة الروضة [٥]. وكانت العشاريات الخلافية تعرف أيضاً بالدواميس .

ويذكر المقريزي أنه كانت تصنع بدار صناعة الجزيرة في زمن ابن طولون العلابيات والحمائم والعشارية والسنابك وقوارب الخدمة [٦] ، وكلها مراكب نيلية . ويضيف ابن سعيد إليها نوعاً يقال له الطيارة [٧] .

* * *

أما النوع الثالث من السفن ، فهو الذي كان يتنقل في البحر الأحمر بسواحل بحر جدة ما بين أيلة وعيذاب أو ما بين عيذاب والبحر الحبشي ، وهي سفن كانت تسمى الجلاب أو الجلبات (جمع جلبة) . ويذكر ابن جبير

---

(١) المقريزي ، ج ٢ ص ٣٧٠ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٦٥ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٧ .
(٥) اتعاظ الحنفا ، ص ١٢١ ب .
(٦) المقريزي ، ج ٣ ص ٨٩ .
(٧) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٨ .

أنه لم يكن « يستعمل فيها مسمار البتة ، إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط ، ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ، ... ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري . وعود هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن وكذلك القنبار المذكور ، ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل »[1] . ويعلل المسعودي عدم استخدام المراكب المسمارية في البحر الأحمر بأن ماء البحر الحبشي لا يثبت فيه الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير في البحر وتضعف ، فاتخذت السفن المذكورة من ألواح الساج المثقبة والمخنطة بليف النارجيل بدلاً من المسمارية ، ثم طليت بالشحوم والنورة[2] . والظاهر أن السبب في اتخاذ هذا النوع من المراكب في البحر الأحمر يرجع إلى كثرة الشعاب المرجانية ، ولا يخفى أن الجلاب نوع من السفن شديد المرونة أمام مصادمات الشعاب المرجانية ، فضلاً عن استطاعتها الإرساء على الشاطئ فوق الزبد الكثيف وتحمل صدمات الأمواج على السواحل الرملية[3] . هذا بالاضافة إلى ندرة الحديد وغلو ثمنه[4] ، ورسوخ تقاليد وعادات البحريين في هذا البحر .

---

(١) ابن جبير ، ص ٧٠ .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، طبعة محي الدين عبد الحميد ، ج ١ ص ١٥٣ .

(٣) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٦٥ – سعاد ماهر ، ص ١٩٦ .

(٤) جورج فاضلو حوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة الدكتور يعقوب بكر ، ص ٢٥٧ .

(٣)

الأسلحة وآلات القتال البحري والأزواد

كان البحريون المقاتلة يتسلحون بأنواع مختلفة من الأسلحة نذكر منها ما يلي:

اللتوت والدبابيس والمستوفيات : وهي عمد من الحديد ، لها رؤوس مستطيلة الشكل مضرسة ، مصنوعة أيضاً من الحديد [١] ، وقد تكون مقابض هذه اللتوت من الخشب المحكم التدوير ، ولكن خرزتها تكون في هذه الحالة من الحديد ، وتلبّس في المقبض ، وقد تضرس تدويرة الخرزة أو تُسَنَّن [٢] . أما الدبابيس فلا تختلف عن اللتوت إلا في رؤوسها ، فهي مدورة مضرسة [٣] . وأما المستوفيات فهي عمد من الحديد مربعة الشكل طويلة يبلغ طول العمود منها ذراعين ، وله مقبض مستدير [٤] ، وتستخدم هذه الأسلحة في تهشيم الخوذات المعدنية .

السيوف والرماح والفؤوس : السيوف أنواع ، منها الصماصم [٥] المصقولة ، ومنها السيوف المحدبة ؛ وكانت السيوف من أهم أسلحة البحريين . أما الرماح فأنواع كثيرة ، منها الرماح القنا ، ومنها القنطاريات المدهونة المذهبة ، وهي الرماح القصيرة ، ومنها المزاريق والفريجيات والضواري

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣١٧ – عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، ص ٦٥ .

(٢) مرضي بن علي الطرطوسي تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسوار ، تحقيق كلود كاهن ، مجلة الدراسات الشرقية ، بالمعهد الفرنسي بدمشق ، ج ١٢ سنة ١٩٤٧– ١٩٤٨ ، بيروت ، ١٩٤٨ ص ١١٧ .

(٣) المقريزي ، ج ٢ ص ٣١٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣١٧ .

(٥) الصماصم جمع صمصم وصمصامة وهو السيف القاطع ، أو السيف الصارم الذي لا ينثني (ابن منظور ، لسان العرب ، ج ١٢ طبعة بيروت ١٩٥٦ ، ص ٣٤٧ – Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, t. I, p. 844).

والصبربرات[1] ، وهي الرماح الطويلة المخصصة للطعن . أما الفؤوس فسلاح له رأس نصف مستدير مبطط حاد النصل ، ومقبضه خشبي مستدير وأحياناً يتخذ من الحديد ، وتسمى الفأس أحياناً بلطة أو طبر[2] .

الأقواس والنشاب : الأقواس آلات لقذف النشاب ذات النصول مثلثة الأركان ، وهي أنواع : منها قسي الزّيّار المصنوعة من خشب السنديان ، وهي أشد القسي رمياً وأعظمها جرماً وأنكأها سهماً ، وتنصب عادة على الأبراج وما شابهها ، ومنها القوس العقّار والجرخ ، وهما دون الزّيّار في القوة ، ويجذب وترهما بلولب ، ومنها قسي الرِّجْل وتوتر بدفع الرجلْين لها ، وتصنع عادة من خشب التخش[3] ، ومنها قسي لرمي قوارير النفط ، وتصنع من خشب الصنوبر[4] .

الكلاليب والباسليقات : الكلاليب نوع من الخطاطيف الحديـدية كان يستخدمها البحريون للرمي على مراكب العـدو لجذبها وشدها ، والعبور إليها عن طريق ألواح خشبية أو سلالم من الحبـال لمقاتلة ملاحيها[5] . وقد استعمل أهل صور الكلاليب عندما حاصرهم الافرنج في سنة ٥٠٥هـ ، وتفصيل ذلك أنه لما اشتد حصار الفرنج لصور والصاقهم الكُبُش والأبراج على أسوارها ، صنع رجـل من مقدمي البحرية عارف بالصنعة من أهل طرابلس ، كلاليب من الحديد لإمساك الكبش الصليبية من جانب رؤوسها ، فكان يربط هذه الكلاليب بحبال ويقذفها على الكبش ثم يجذبها ، فتميل الأبراج وتنكسر[6] . أما الباسليقات فسلاسل تنتهي عند رؤوسها برمانة من الحديد كانت تستخدم في القتال على سطح السفن[7] .

---

(١) مرضي بن علي ، ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٢) عبد الرحمن زكي ، السلاح في الإسلام ، القاهرة ١٩٥١ ص ٣٩ .
(٣) مرضى بن علي ، ص ١١٠ — المقريزي ، ج ٢ ص ٢٦٨ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١١١ .
(٥) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٧٥ .
(٦) ابن القلانسي ، ص ١٧٩ .
(٧) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٧٤ .

ومن آلات القتال البحري مما تتزود به السفن الحربية :

التوابيت : (جمع تابوت) : وهي صناديق مفتحة من أعلاها تنصب بأعلى الصواري ، يصعد إليها البحريون ومعهم قطع من الحجارة يضعونها في مخلاة تعلق إلى جانب التابوت ، ويرمون بها الأعداء ، ثم يحتمون في التوابيت . وقد يحملون معهم قوارير من النفط ، أو جرار النورة يرمون بها في مراكب العدو ، فتعمي الرجال بغبارها [١] .

النفط البحري : وهو نفط خاص بإحراق المراكب ، ويجهز من قطران وكبريت ومواد أخرى مختلطة شديدة الالتهاب ، ولا تنطفئ النيران التي تنشأ من قذف هـذا النفط بملامسة الماء [٢] ، ويطلق النفط من آلة من النحاس أو الحديد تعرف بالنفاطة . وكثيراً ما يقذف النفاطون النفط بالسهام والنشاب وأحياناً بالمنجنيق [٣] .

المجانيق والعرادات : هي آلات لقذف الأحجار الضخمة المضرسة التي توضع على الكفة ثم تقذف إلى الأهداف بواسطة الشد على لوالب . وقـد تستخدم المجانيق والعرادات لقذف النفط أو جرار الزيت المغـلي أو القلفونية [٤] . والعرادة آلة تشبه المنجنيق ولكنها دونه في الحجم ، وتستخدم كذلك لرمي الحجارة والسهام وقدور النفط [٥] .

ويتسلح البحريون عند نشوب القتال في البحر بالدروع المسبلة والزرديات ذات المغافر الملثمة [٦] ، والكزاغندات المدفونـة بالزرد المغشاة بالديباج ،

---

(١) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٢) مرضي بن علي ، ص ١٢٣ .

ويعبر البيت الآتي لابن حمديس الصقلي عن هذا المعنى :

ومـا للماء بالإطفاء حـكم عليه لدى الوقود ولا اقتدار

(ديوان ابن حمديس ، ص ٢٣٩) .

(٣) مرضي بن علي ، ص ١٢٢ – فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ١٨٠ .

(٥) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٦) المقريزي ، ج ٢ ص ٣٢٩ .

والجواشن المبطّنة المذهبة (١). ويتقي البحريون أنفسهم من سهام الأعداء وسيوفهم بالتراس الواقية ، وهي أنواع من حيث الشكل ، فمنها المدور والواسع التدوير والبيضي ، وكذلك تختلف التراس من حيث مادة الصنع فمنها المصنوع من الحديد أو الخشب المكسو بالجلود المغطاة بالدهن والأصباغ . وقد تكون التراس من جلود اللمط . وتسمى التراس المدورة الطوارق ويصل ارتفاعها إلى ارتفاع قامة الرجل ، وهي مستديرة الشكل من أعلى ومدببة من أسفل ، وقد تكون هذه التراس مبتورة من أدنى وتسمى في هذه الحالة بالجنويات (٢) .

وفي أيام السلم يلبس النواتية الشقق الاسكندراني والكلوتات والمناديل السوسي والفوط الحرير (٣) .

ومن الشائع أن يشحن الأسطول قبل إقلاعه بكل ما يحتاج إليه البحريون والغزاة من الميرة والأزواد ، فمن الأهراء السلطانية كانت تخرج جرايات رجال الأسطول وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول (٤) . كذلك كانت توسق المراكب بأنواع الفواكه والخضروات والبقول لغداء البحريين ، كالرمان والسفرجل والبطيخ السندي والكمثري والتين والجوز والحمص والباقلا والثوم والبصل والجبن والأسماك وما إلى ذلك (٥) . كذلك كانت تخصص لحمل المياه اللازمة للشرب مراكب صغيرة يقال لها المركوش سبق أن تحدثنا عنها . وكثيراً ما كان يصحب البحريين أطباء وقراء ومؤذنون لخدمة الغزاة في البحر كما حدث عندما خرجت أساطيل مصر الثانية في سنة ٥١٧ هـ لنصرة طغتكين صاحب دمشق (٦) .

---

(١) المقريزي ، ج ٢ ص ٢٦٧ .
(٢) مرضي بن علي ، ص ١١٤ .
(٣) المقريزي ، ج ٢ ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٤٨ .
(٥) ابن جبير ، ص ٣١٤ .
(٦) المقريزي ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

(٤)

مظاهر الاحتفال بخروج الأسطول المصري للغزو

(أ) الاحتفال بتوزيع النفقة على الغزاة

كان من أهم الاحتفالات الفاطمية الاحتفال بخروج الأساطيل للغزو إلى بلاد الساحل ، وكان هذا الاحتفال يتم على مرحلتين : الأولى توزيع النفقة على الغزاة ، والثانية الموادعة أو توديع الغزاة . ففي المرحلة الأولى كان يطلب إلى النقباء استدعاء الغزاة الذين يعيشون بمصر والقاهرة أو يعيشون بخارجها ، للتجمع ، فإذا ما اجتمعوا أبلغ النقباء مقدم الأسطول ، فيبلغ ذلك بدوره إلى الوزير ، فيقوم الوزير بمطالعة الخليفة بأمر اجتماعهم ، وعندئذ يقرر يوماً للنفقة على الغزاة . ويجلس الخليفة في ذلك اليوم ، ويجلس الوزير في موضعه المخصص له ، ويأتي صاحبا ديوان الجيش : وهما المستوفي أي أمير الجيش ، وكاتب الجيش ، فيجلس الأول من داخل عتبة المجلس ، بينما يجلس كاتب الجيش بالقرب منه من وراء العتبة في قاعة الدار على حصر مفروشة ، ثم يحضر الوزانون بيت المال ، وتجهز أنطاع لصب الدراهم عليها ، ثم يدخل الغزاة مائة مائة ، ويصطفون بين يدي الخليفة من جانب واحد نقابة نقابة ، ويتولى مستوفي الجيش استدعاءهم من أوراق سجلت فيها أسماؤهم واحداً واحداً ، فإذا نودي على الواحد منهم ، عبر من الجانب الذي كان واقفاً فيه إلى الجانب الآخر الخالي ، وعندما يستكمل المستوفي النداء على عشرة منهم ، يزن الوزانون لهم النفقة ، وهي خمسة دنانير لكل واحد ، قيمة كل دينار ٣٦ درهماً ، فيتسلمها النقيب ، وتكتب باسمه وبتوقيعه ، فإذا ما تم توزيع النفقة على هذا النحو ، يركب الوزير من بين يدي الخليفة ، وينفض ذلك الجمع ، ثم تحمل إلى الوزير من القصر مائدة يقال لها « غداء الوزير » ، وتتكرر النفقة بمثل هذا الاحتفال عدة أيام متوالية أو متفرقة [١] .

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ — ج ٣ ص ١٠٩ .

(ب) الموادعـــة

بعد أن تتكامل النفقة على الغزاة ، وتتجهز المراكب ، وتتهيأ للإقلاع ، يركب الخليفة والوزير إلى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة ، حيث يجلس الخليفة بمنظرة المقس الواقعة لصق جامع المقس على ساحل النيل من الجهة البحرية ، وهي منظرة أقيمت خصيصاً لنزول الخليفة عند تجهيز الأسطول لغزو الفرنج[١] ، برسم وداع الغزاة أو لقائهم عنـد عودتهم مظفرين من الغزو[٢] . وعندما يجلس الخليفة في مجلسه يقبل القواد بالمراكب من صناعة مصر إلى ساحل المقس « للحركات في البحر بين يديه ، وهي مزينة بأسلحتها ولبودها وما فيهـــا من المنجنيقات ، فيرمي بها[٣] ، وتنحدر المراكب وتقلع ، وتفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدو ، ثم يحضر المقدم والرئيس إلى بين يدي الخليفة ، فيودعهما ، ويدعو للجماعـــة بالنصرة والسلامة ، ويعطي للمقدم مائة دينار ، وللرئيس عشرين ديناراً ، وينحدر الأسطول إلى دمياط ، ومن هناك يخرج إلى بحر الملح ، فيكون له ببلاد العـــدو صيت عظيم ومهابة قوية »[٤] .

وجرت العادة في العصر الفاطمي أنه إذا غنم الأسطول مركباً من مراكب العـدو بما فيه ، لا يتعرض الخليفة إلى شيء منه سوى الأسرى والسلاح ، فإنها تؤول إليه ، وما عـــدا ذلك من المال والثياب وغيرها يُصبح غنيمة لغزاة الأسطول ، لا يشاركهم فيها أحد . ويذكر المقريزي أنه اتفق مرة أن قُـدّم على الأسطول أمير يقال له سيف الملك الجمل ، فظفر في غزوته ببطسة عظيمة كانت تحمـــل ألفاً وخمسمائة من الرجال والنساء ، قتل البحريون المصريون منهم نحواً من مائة وعشرين رجلاً أثناء

(١) المقريزي ، ج ٢ ص ٣٧٢ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٣ ص ١٠٩ .
(٣) كان الرؤساء يلعبون بالسفن في النيل تجاه الجامع ومـــا وراء الخليج من جهته الغربية ، فيقومون بمناورات أشبه شيء بالقتال الذي يدور بينهم وبين أعدائهم .
(٤) المقريزي ، ج ٢ ص ٣٧٣ ، ج ٣ ص ١١٠ .

القتال ، فقدم هذا الأمير إلى القاهرة وبصحبته الأسرى ، ففرح الخليفة بقدومه ، واحتفل بذلك احتفالاً عظيماً ، ومن المعروف أن الخليفة كان يتوجه يوم عودة الغزاة ومعهم الغنائم والأسرى إلى منظرة المقس ، فيجلس هناك للقاء الأسطول ، ثم يعود إلى القصر بعد أن تنتهي مراسيم اللقاء ، ويجلس في إحدى مناظر القصر لمشاهدة موكب الأسرى عند مرورهم بأدنى المنظرة من جانب البر ، وكان الأسرى يركبون على ظهور الجمال كل اثنين على جمل ظهراً لظهر ، وجرت العادة أن ينزل الأسرى في المناخ المجاور للقصر ، فيضاف الرجال منهم إلى من فيه من الأسرى ، أما النساء فكانوا يمضون بهن إلى القصر بعد أن يمنح الوزير طائفة منهن ، وتوزع الباقيات على الجهات والأقارب فيستخدمونهن ويربونهن حتى يُتقنّ الصنائع . أما صغار الأسرى من الصبية فيدفعون بهم إلى الأستاذِين ، فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويعرفون لذلك بالترابي[١] ، أو صبيان الحجر[٢] ، لأنهم كانوا يقيمون في رعاية الأستاذين في حجرة تقع داخل باب النصر في معزل عن القصر ، وعندما يكبر هؤلاء الصبيان يصبحون من صبيان خاص الخليفة .

وكان من يُشكُّون في نواياه من الأسرى يوقعون به ، في حين كانوا يضربون عنق من لا ينتفعون به من شيوخ الأسرى في موضع يقال له « بئر المنامة » في خربة قريبة من مصر الفسطاط ، ولم يؤثر قط عن الدولة الفاطمية أنها فادت أسيراً من الفرنج بمال ولا بأسير مثله[٣] .

وعلى هذا النحو من رسوم الاحتفالات بخروج الأساطيل للغزو يذكر المقريزي أنه عندما وردت كتب طغتكين صاحب دمشق وآقسنقر صاحب حلب إلى الخليفة الآمر بأحكام الله في سنة ٥١٧ هـ ، تحثه على غزو الفرنج

(١) المقريزي ، ج ٢ ص ٣٧٣ ، ج ٣ ص ١١٠ .
(٢) القلقشندي ، ج ٣ ص ٤٧٧ .
(٣) المقريزي ، ج ٢ ص ٣٧٣ ، ج ٣ ص ١١٠ .

بالعساكر المنصورة والأساطيل المظفرة ، ركب الخليفة الآمر إلى الدار المأمونية وأتم النفقة على الفرسان ، ثم توجّه « إلى الجامع بالمقس وجلس بالمنظرة في أعلاه واستدعى مقدم الأسطول الثاني[1] ، وخلع عليه[2] » ، ثم أمره بأن ينزل الصناعتين بمصر والجزيرة ، ويُعِدّ أربعين شينياً ، ويستكمل الإنفاق على عددها ، ويتوجه بها صحبة العسكر ، « وأنفق في عشرين من الأمراء للتوجه صحبته ، فكملت النفقة في الفارس والراجل ، وفي الأمراء السائرين ، وفي الأطباء ، والمؤذنين ، والقراء ، وندب من الحجاب عدة ، وجعل لكل منهم خَدَمة ، فمنهم من يتولى خزانة الخيام ، وسيّر معه من حاصل الخزائن برسم ضعفاء العسكر ومن لا يقدر على خيمة خيم ، ومنهم حاجب على خزائن السلاح »[3] . ثم ركب الخليفة الآمر بأحكام الله إلى باب الفتوح ، واستعرض وهو جالس بالمنظرة المعدة له خارج هذا الباب العسكر المتوجه إلى الشام ، واستقدم قائد الجيش وخلع عليه بدلة جليلة مذهبة ، وطوقه بطوق ذهب ، وقلّده ومنطقه بمثل ذلك ، ثم ركب الخليفة إلى الجامع بالمقس ، وجلس بالمنظرة ، واستدعى مقدم الأسطول ، وخلع عليه ، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والأسلحة[4] .

(١) ذكر المقريزي في موضع آخر من كتابه المواعظ أن السبب في إحضار مقدم الأساطيل الثانية أن الأساطيل الرئيسية كانت قد توجهت للغزو (المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٦) .

(٢) المقريزي ، ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٣) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٧٣ ، ٣٧٦ .

(٥)

اشتراك العشاريات في رسم الاحتفال بتخليق عمود المقياس وفتح الخليج

حرص الفاطميون منذ أن ثبتت أقدامهم في مصر على الاحتفال بوفاء النيل على نحو يتفق وأهميته بالنسبة لحياة البلاد الاقتصادية ، وقد ابتدعوا في ذلك رسوماً جديدة لم تكن متبعة في مصر من قبل ، فقبل أن يصل ارتفاع منسوب مياه النيل في زمن الفيضان إلى ستة عشر ذراعاً بإصبع أو إصبعين ، كان يؤمر قراء الحضرة والمتصدرون بجوامع القاهرة ومصر الفسطاط بأن يبيتوا في جامع المقياس في تلك الليلة التي يستوفي فيها النيل ستة عشر ذراعاً ، لختم القرآن الكريم ، وهناك يمد لهم السماط بالأطعمة الفاخرة ، وتوقد لهم الشموع حتى الصباح . وكان يُعهد بمقياس الروضة [١] ،

---

(١) أقيم مقياس النيل الذي يعول عليه في معرفة ارتفاع منسوب مياه النيل زمن الفيضان ، في الطرف القبلي من جزيرة الروضة ، ويعرف هذا المقياس بالمقياس الهاشمي ، والمقياس الجديد ، لأن الخليفة المتوكل على الله هو الذي أمر بإنشائه في سنة ٢٤٧ هـ على يدي أحمد محمد الحاسب، فتم إنشاؤه بالقرب من الموضع الذي كان يشغله المقياس القديم الذي بناه أسامة بن زيد التنوخي بأمر الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في سنة ٩٧ هـ . وكان النصارى يختصون بمهمة قياس منسوب مياه النيل ، فعزلهم المتوكل عن هذه المهمة ، ورتب فيها أبا الرداد عبدالله ابن عبد السلام بن أبي الرداد المؤدب ، وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب الخراج يومئذ سبعة دنانير في كل شهر. ثم تولى الأمير أحمد بن طولون إصلاحه في سنة ٢٥٩ هـ (الكندي ، ص ٢٠٣ – القلقشندي ، ج ٣ ص ٢٩٤ وما يليها – المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ٩٦).
والمقياس عمود من الرخام الأبيض مثمن الشكل مدرج إلى ٢٢ ذراعاً قسم كل ذراع من الاثني عشر ذراع السفلي إلى ٢٨ إصبعاً في حين قسم كل من الأذرع الباقية إلى ٢٤ إصبعاً (القلقشندي ، ج ٣ ص ٢٩٥ – المقريزي ، ج ١ ص ١٠٥) ، ونصب هذا العمود في وسط بئر أو بركة مربعة طول كل جانب منها ٦ أمتار ، بطنت جدرانها من الداخل بالحجارة والرخام وزودت بتجويفات غير عميقة تتوجها عقود مدببة . وكان هذا العمود مثبتاً في عارضة من الخشب منقوشة بالذهب واللازورد ، كتبت عليها آية الكرسي . وكانت مياه =

إلى شخص يراقب ارتفاع الماء عنده في زمن الفيضان من أسرة ابن أبي الرداد وهي أسرة توارث أفرادها مهمة مراقبة المقياس ورعايته وتنظيفه منذ أن تولى هذا العمل عميدها الفقيه عبدالله بن عبد السلام بن أبي الرداد في سنة ٢٤٧ هـ . وجرت العادة قبل العصر الفاطمي أن يقاس النيل في بداية الفيضان وقت العصر من كل يوم ، ثم ينادي صاحب المقياس بزيادة عدد الأصابع من الغد دون أن يصرح بذرع ، إلا أنه كان يكتب في كل يوم رقاعاً لأعيان الدولة يذكر فيها زيادة النيل في ذلك اليوم من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، ويذكر بعد ذلك ما كانت عليه الزيادة في ذلك الوقت من العام السابق ، ولا يطلع على ذلك عوام الناس ، فإذا وفى ١٦ ذراعاً يسبل صاحب المقياس الستر الأسود الخليفي على شباك المقياس ، فيتباشر الناس على الفور بالوفاء[1] . وقد منع الخليفة المعز في سنة ٣٦٢ هـ النداء بزيادة النيل وأمر بألا يكتب بذلك إلا إليه وإلى القائد جوهر ، وأصبح التكتم في الزيادة عادة التزمها الخلفاء الفاطميون في مصر ، وعندما يستوفي النيل الزيادة يباح النداء ويكسر الخليج[2] .

وعندما يثبت الوفاء ، يُعلم الخليفة ، فيركب في احتفال مهيب ، ويلبس التاج ، ويشق القاهرة في موكبه الحافل إلى باب زويلة ، ويسلك الموكب الشارع المؤدي إلى الجامع الطولوني والجسر الأعظم إلى أن يصل

= النيل تصل إلى البئر من ثلاث فتحات في الجدار الشرقي فتغمر العمود ، وعلى هذا النحو يستطيع صاحب المقياس أو القائم بشأنه أن يعرف ارتفاع منسوب النيل (محمد عبد العزيز مرزوق ، الفن المصري الاسلامي ، القاهرة ١٩٥٢ ص ١٩ – حسن عبد الوهاب ، الآثار الإسلامية بمصر ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٣ ، ٤) ويذكر المقريزي أن الآمر بأحكام الله بنى لمقياس الروضة حظير دائر في سنة ٤١٥ هـ بالحجر والجص وأشرف على البناء أبو طالب محمد بن العجمي ، متولي دار الصناعة (اتعاظ الحنفا ص ٧٤ ب) والمقصود بالحظير الدائر البناء الخارجي للمقياس .

(١) المقريزي ، ج ٣ ص ٩٦ – محمود رزق سليم ، النيل في عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٥٢ .

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٨ .

إلى مصر الفسطاط ، ويدخل من دار الصناعة ، ويمر بدهليز ممتد ، قد اصطفت عليه مصاطب مفروشة بالحصر العبداني يؤزر بها ، ويخرج من بابها ويخترق موكبه مصر إلى أن يصل بعد ذلك إلى المنظرة المعروفة برواق الملك ، وكانت تقع قريباً من باب القنطرة ، فيدخلها من الباب المواجه له ، ويمضي الوزير معه ماشياً إلى المكان المعد له ، ويركب الخليفة العشاري الخاص[1] وبصحبته عدد من الأستاذين المحنكين يصل من ثلاثة إلى أربعة ، بالاضافة إلى الوزير واثنين من خاصته . وكان نواتية العشاري يلبسون الشقق الاسكندرانية والكلوتات بينما يلبس رؤساء العشاري الشقق الدمياطي والمناديل السوسي والفوط الحرير الأحمر . ثم يسير العشاري في النيل من باب المنظرة إلى باب المقياس العالي على الدرج ، فينزل الخليفة من العشاري ويدخل إلى فسقية المقياس ، ويقف الوزير والأستاذون المحنكون بين يديه ، فيصلي كل من الخليفة والوزير ركعتين ، ثم يُؤتى بالزعفران والمسك ، فيُديفه الخليفة بآلة معه في يده بداخل إناء ، ويتناوله صاحب بيت المال ، فيناوله لصاحب المقياس ، فيلقي هذا نفسه في الفسقية بثيابه ، ويتعلق في عمود المقياس برجليه ويده اليسرى ، ويخلّقه بيده اليمنى أي يطيبه بالمسك والزعفران . وفي أثناء عملية التخليق يقوم قراء الحضرة بقراءة القرآن . ثم يخرج الخليفة على أثر ذلك فيركب العشاري ، ويقفل عائداً إلى دار الملك الواقعة بالقرب من باب القنطرة ، ومنها يركب في موكب حافل فيعود من هناك إلى القاهرة . ويكون في النيل في ذلك اليوم نحو ألف مركب قرقورة مشحونة بالناس للتفرج وإظهار الفرح[2] . وفي اليوم التالي يأتي صاحب المقياس إلى الايوان الكبير بالقصر ، فيخلع عليه الخليفة خلعة مذهبة بطيلسان مقوّر ، ويدفع إليه خمسة أكياس في كل منها خمسمائة درهم ، فيلبس الخلعة ، ويخرج من باب العيد أحد أبواب القصر ، ويسير في موكب تصدح أمامه الأبواق ، وتضرب من ورائه الطبول ، فيشق بين

---

(١) القلقشندي ، ج ٣ ص ٥١٣ — المقريزي ، ج ٢ ص ٣٦٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥١٣ — المقريزي ، ج ٢ ص ٣٦٦ .

القصرين ، وكلما مر على باب من أبواب القصر يدخل منه الخليفة أو يخرج ، نزل وقبّله ، ثم يخرج من باب زويلة في الشارع الأعظم حتى يصل إلى مصر ، فيخترق المدينة ماراً بالجامع العتيق ، ويتجاوزه إلى شاطئ النيل ، ثم يجوز إلى المقياس بخلعته ، وما معه من الأكياس ، فيأخذ من الأكياس قدراً لنفسه ، ويوزع باقي ذلك على الأقارب وغيرهم .

وفي اليوم الثالث والرابع من التخليق ، وبعد أن يأخذ النيل في الزيادة ، يخرج الخليفة في موكب حافل ، وقد لبس ثوباً من حرير مرقوم بالذهب يقال له بدنة [1] ، ويسير حوله الأستاذون المحنكون ، ويسلك الموكب نفس الطريق التي كان قد سلكها يوم تخليق عمود المقياس إلى أن يصل إلى ساحل الخليج ، فيسير حتى يقارب الخليفة الخيمة المنصوبة له على حافة الخليج الغربي عند المنظرة المعروفة بمنظرة السكرة [2]. وكانت هذه الخيمة من الديباج الرومي الموشى بالذهب ومكللة بالجواهر [3] ، فيترجل الخليفة على باب الخيمة ، ويجلس على الحشية الموضوعة له فوق سرير الملك ، ويحيط به الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون بعدهم ، ويجلس الوزير على كرسي مخصص له ، ويقف أرباب الرتب صفين من سرير الملك إلى باب الخيمة ، ويبدأ الحفل بتلاوة آيات من القرآن الكريم تستغرق ساعة من الزمان ، ثم يدخل الشعراء وينشدون ، فإذا انفض هذا المجلس ركب الخليفة إلى المنظرة بالسكرة ، وهي منظرة بناها العزيز بالله ، فيجلس الخليفة في الموضع المعد له ، ويجلس الوزير في موضع منها ، ثم يشير

---

(١) البدنة ثوب لا يدخل في لحمته وسداه من الغزل سوى أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب ، تبلغ قيمته ألف دينار ، واختصت بصناعته مدينة تنيس (المقريزي ، ج ١ ص ٣١١) .

(٢) كان عمود الخيمة يلف بديباج أحمر أو أبيض أو أصفر من أعلاه إلى أسفله ، وينصب فيه سرير الملك مستنداً إليه ويغشى بقرقوبي ، ويوضع عليه حشية من الفرش للخليفة (راجع التفاصيل في : ناصر خسرو ، سفرنامة ص ٥١ — ٥٥ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥١٤ وما يليها) .

(٣) ناصر خسرو ، ص ٥٢ .

الخليفة إشارة البدء في فتح السد[1] ، فيفتح بالمعاول ، وتضرب الطبول والأبواق من ضفتي الخليج . فإذا مـا اعتدل الماء في الخليج ، دخلت فيه العشاريات اللطاف ، يليها العشاريات الكبار وعددها سبعة : منها الذهبي المخصص للخليفة ، وهو الذي يركبه في يوم تخليق عمود المقياس ، والفضي ، والأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، واللازوردي ، والصقـلي ، وهو عشاري أنشأه نجار من صقلية فنسب إليه ، وتسير هذه العشاريات ، وقد ازدانت بالستور الدبيقي الملونة ، وعلقت في أعناقها الأهلة وقلائد العنبر والخرز الأزرق ، في الخليج حتى ترسو على بر المنظرة التي يجلس فيهـا الخليفة . وبعد صلاة العصر يركب الخليفة وقد غير ثيابه التي كان يلبسها في الصباح ، ويسير في موكبه في البر الغربي من الخليج مخترقاً البساتين ، حتى يصل إلى باب القنطرة ، فيعطف على يمينه ، ويمضي إلى القصر[2]. واعتاد الخلفاء الفاطميون أن يبذلوا الأموال الطائلة على النواتية الذين يجدفون بالخليفة في العشاري في يوم الاحتفال بفتح الخليج ، مثل ذلك الحاكم بأمر الله أنعم في رمضان سنة ٤١٥ هـ بإقطاعات وأموال على النواتية[3] .

والمعز لدين الله أول من احتفل بوفاء النيل من خلفاء الدولة الفاطمية ، ففي السنة التي قدم فيها إلى مصر ركب لكسر خليج القنطرة ، فكسر بين يديه ، ثم سار على شاطئ النيل في موكب عظيم ، وخلفه وجوه أهـل الدولة ، ومر على سطح الجرف ، وعطف على بركة الحبش ، ثم على الصحراء ، وطاف بالخندق الذي حفره جوهر[4] .

---

(١) هو سد من التراب كان يقام عند فم الخليج قبل الاحتفال بكسره في كل سنة .

(٢) القلقشندي ، صبـح الأعشى ، ج ٣ ص ٥١٥ ، ٥١٧ – المقريزي ج ٢ ص ٣٧٠ – أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٩٩ – ١٠٠ ، عبد الرحمن عبـد التواب ، منشآتنا المائية عبر التاريخ ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١١٤ .

(٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ص ٦٨ ب .

(٤) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ١٣٩ – الخطط ، ج ٢ ص ٣٥٧ .

الفصل الخامس
البحرية التجارية في العصر الفاطمي

(١)
طرق التجارة البحرية

(أ) الطريق البحري

خصت الدولة الفاطمية في مصر التجارة البحرية مع أقطار البحرين المتوسط والأحمر والتجارة الهندية بجانب كبير من عنايتها ، وكان لذلك أعظم الأثر في التقدم الاقتصادي والازدهار الحضاري اللذين أحرزتها مصر في هـــذا العصر ، وهو حقيقة تشهد بها ما كانت تحتويه خزائن الجوهر والطيب والطرائف والكسوات والفرش والأمتعة والسلاح والتوابل والأدم وغيرها من خزائن الدولة الفاطمية مما نوه بـه المقريزي في خططه [١] ، والرحالة الفارسي ناصر خسرو في رحلته [٢] .

ويبدو أن طرق الإتصال البحري بين مصر والبلاد التي تتعامل معها كان يتم عـــن طريق خطوط ملاحية تربط مصر بالشام والقسطنطينية وجزيرتي قبرص وإقريطش من جهة ، أو تربطها ببلاد المغرب والأندلس وجزيرة صقلية من جهة ثانية ، أو بالحجاز واليمن عـبر البحر الأحمر من جهة ثالثة . وكانت السفن التجارية تبحر من ثغور تنيس ودمياط والاسكندرية

---

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٢٥٢ – ٢٧٦ .

(٢) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٣٧ – ٦٤، زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة ١٩٣٧

إلى عسقلان وسواحل الشام ، أو تقلع من الاسكندرية وطرابلس الشام [١] ، إلى صقلية والمغرب والأندلس. ويبدو أن مدينة الاسكندرية كانت أكثر اتصالاً في البحر بموانئ المغرب والأندلس من غيرها من ثغور مصر الشمالية ، بحكم موقعها في الشمال الغربي من دلتا مصر ، وهو موقع يجعلها أقرب ثغور مصر إلى بلاد المغرب الإسلامي ، ويؤكد ذلك ما ذكره ناصر خسرو إذ يقول : « إن بحر الاسكندرية كان يمتد حتى القيروان » [٢]. وكانت السفن القادمة من المغرب تسير بحـذاء الساحل المغربي والليبي ، وترسو بثغور تونس وبرقة إلى أن تصل إلى الاسكندرية ، ثم تبحر منها إلى أنطاكية مارة بسواحل مصر كدمياط وتنيس ، ثم بسواحل الشام كعسقلان وقيسارية ويافا وحيفا وعكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية [٣] . أما ثغرا دمياط وتنيس فقد كانا يرتبطان فيما يظهر ارتباطاً وثيقاً بثغور الشام ، بحكم قربهما منها .

وكانت السلع القادمة من المغرب والأندلس وصقلية وأوربا عبر البحر المتوسط ، تصل إلى ميناء الاسكندرية ، ومنه تنقل إلى الفسطاط عبر خليج الاسكندرية المتفرع من فرع رشيد ، ثم في النيل الذي سهل الإتصال بين موانئ مصر الشمالية وبين مـدن الصعيد حتى أسوان . أما بالنسبة لتجارة التوابل ، فقد كانت تسلك طريقين : طريقاً برية ، وطريقاً بحرية . أما الطريق البرية فكانت تمتد ما بين البصرة وسواحل الشام عبر بغداد ودمشق ، وأما الطريق البحرية فكانت تمتد ما بين أيلة والاسكندرية عبر الفسطاط . غير أن تجارة التوابل لم تلبث أن تحولت إلى الطريق البحرية عبر البحر الأحمر (عيذاب ـ الاسكندرية) منـذ أن قلب فتح بيزنطة لكل من إقريطش وقبرص وقيليقية الأوضـاع البحرية في شرق البحر

(١) ذكر ناصر خسرو أن أمير طرابلس في العصر الفاطمي كانت له سفن تسافر منها إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة (سفرنامة ، ص ١٣) .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٤ .
(٣) البكري ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

المتوسط في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وازداد ذلك الانقلاب بعد أن تمركز الصليبيون على سواحل الشام في نهاية القرن الخامس الهجري ، بحيث أصبح الإتصال بين الموانئ المصرية وعسقلان آخر منفذ شامي تابع للفاطميين (حتى سنة ٥٤٨ هـ) محفوفاً بالأخطار ، بسبب تعرضه للقرصنة الصليبية [١] . وأصبحت الإسكندرية منذ ذلك الحين أهم قاعدة في مصر لتجارة التوابل بالنسبة لدول أوربا [٢] ، وكانت السلع الواردة عليها سواء من المغرب الإسلامي أو من الأندلس أو من المدن الإيطالية ، تصل إلى مينائها ، ثم تحمل على ظهور الإبل ، وتخرج من الباب القبلي المعروف بباب السدرة أو البهار ، ثم تنقل بالسفن في خليج الاسكندرية حتى تصل إلى الفسطاط ، بينما كانت أحمال التوابل من البهار والفلفل والقرفة وغيرها تصل عبر البحر الأحمر إلى عيذاب ، ثم تنقل في القوافل البرية إلى قوص أو أسوان ، ومن هناك تحمل في النيل على سفن الشحن النيلية لينتهي بها المطاف في خزانة التوابل بالقاهرة ، وكان يصدر منها إلى الاسكندرية الكميات المراد تصديرها إلى أوربا عن طريق خليج الاسكندرية ، ولعل ذلك كان من الأسباب التي حملت الخليفة الحاكم بأمر الله على تطهير ترعة الخليج من الرواسب الطينية في سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) ، فقد ذكر المقريزي أن الخليفة الحاكم أطلق في هذه السنة لحفر الخليج مبلغاً قدره خمسة آلاف دينار ، أنفقها كلها في حفر الخليج كله [٣] . ولم يلبث هذا الخليج أن طمرته الرواسب الطينية من جديد في عهد المستنصر بالله ، ولم يعد صالحاً إلا في زمن الفيضان . وقد ظل هذا الخليج وسيلة الإتصال النهري بين الاسكندرية والقاهرة في العصور الإسلامية التالية إلا في الأوقات التي ينطم فيها هذا الخليج بالرمال أو الرواسب الطينية ، ولذلك

---

(١) راشد البراوي ، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، القاهرة ، ١٩٤٨ ص ٢٤٢ .

(٢) حسين مؤنس ، أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر الأبيض المتوسط ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ٥١

(٣) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٠٠ .

حرص سلاطين المماليك البحرية بوجه خاص على تطهيره وإعادة حفره[١].
ويذكر ابن مماتي أن المراكب كانت تسير بخليج الاسكندرية وتحمل إليها الشب والغلال والكتان والبهار والسكر وغير ذلك من الأصناف، كما تحمل من الاسكندرية الأخشاب والحديد برسم عمارة المراكب وذلك في شهر مسرى الموافق لشهر آب (أغسطس) حيث ترتفع مياه النيل، ويمتلئ خليج الاسكندرية بالماء[٢]. ويشير ابن سعيد المغربي إلى أنه عندما وصل إلى الاسكندرية قادماً من إفريقية، ركب في الخليج إلى النيل، ثم سار في النيل حتى وصل إلى منية السيرج التي تقع في شمال القاهرة[٣]، كذلك يشير في موضع آخر إلى ما كان يرد في زمانه على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي[٤].

وكانت توابل الهند قبل العصر الفاطمي تصل إلى الاسكندرية عن طريق أيلة أو القلزم — الفرما[٥]، فقد كانت السفن التي تتولى نقل التوابل من جزر الهند الشرقية إلى مصر تضطر بسبب الشعب المرجانية إلى أن تسير نهاراً، ملتزمة السير بحذاء الساحل حتى لا تتعرض للغرق، ثم أصبحت عيذاب منذ العصر الفاطمي المركز الرئيسي لتجارة الهند واليمن والحبشة[٦]. ويذكر المقريزي أن «أحمال البهار والقرفة ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها (أي بصحراء عيذاب) والقفول صاعدة وهابطة لا يعترض لها

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها، ص ٢٨٢، ٢٩٢ وما يليها.

(٢) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٢٥٧.

(٣) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج ١ ص ٥.

(٤) نفس المصدر، ص ١١.

(٥) يذكر المسعودي أن المسافة ما بين الفرما إلى القلزم مسيرة ليلة، يحمل إليها من جميع الممالك المحيطة ببحر الروم (البحر المتوسط) وبحر الصين (المحيط الهندي) من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاوية والعقاقير والجواهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المآكل والمشارب والملابس، فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها. (المسعودي، التنبيه والاشراف، مكتبة خياط، بيروت ١٩٦٥ ص ٢٠).

(٦) المقريزي، الخطط، ج ١ ص ٣٥٦.

أحد إلى أن يأخذها صاحبها [1] ، فلم تزل مسلكاً للحجاج في ذهابهم وإيابهم زيادة على مائتي سنة من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة إلى أعوام بضع وستين وستمائة ، وذلك منذ كانت الشدة العظمى في أيام الخليفة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر ، وانقطاع الحج في البر إلى أن كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الكعبة ، وعمل لها مفتاحاً ، ثم أخرج قافلة الحاج من البر في سنة ست وستين وستمائة ، فقل سلوك الحاج لهذه الصحراء ، واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب إلى قوص ، حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة » [2]. غير أن القلقشندي يخالف المقريزي في تاريخ إبطال طريق عيذاب ـ قوص ، فيذكر أن ذلك حدث في سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) عندما عاد السفر في البحر الأحمر من الطور إلى اليمن ، وأبطلب عيذاب [3] .

وكانت التوابل تنقل على هذا النحو من عيذاب إلى قوص حيث تحمل في السفن النيلية إلى أن تصل إلى ساحل الفسطاط ، فتنقل إلى خزانة التوابل الفاطمية أو فندق الكارم [4] .

ويبدو أن مراكب تجار الكارم كانت تتعرض فيما بين عيذاب وسواكن لسطو القراصنة واللصوص ، ولذلك اهتم الفاطميون بتخصيص أسطول يرابط في عيذاب ، مهمته « أن يتلقى الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب فيحميهم الأسطول منهم ، وكانت عدة هذا الأسطول خمسة

---

(١) ذكر ابن جبير نفس المعنى فقال : « ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسا ها من السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذه السبيل اما لإعياء الإبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس » (ابن جبير، الرحلة ، ص٦٧، ٦٨)

(٢) المقريزي ، ج ١ ص ٣٥٧ .

(٣) القلقشندي ، ج ٣ ص ٤٦٥ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٦٤ .

مراكب ثم صارت إلى ثلاث . وكان والي قوص هو المتولي لأمر هـذا الأسطول ، وربما تولاه أمير من الباب »[1] . ومن أمثلة حوادث القرصنة في بحر القلزم ما رواه المقريزي في اتعاظ الحنفا ، إذ يشير في أحـداث سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) إلى أن التجار القادمين إلى القاهرة من عيذاب شكوا إلى الوزير الأفضل شاهنشاه من خروج قاسم بن أبي هاشم صاحب مكة عليهم في مراكب ، فقطعت عليهم الطريق ، « وأخذ جميع ما كان معهم ، فغضب الأفضل وقال : صاحب مكة أخذ تجاراً من بلادي ؟ أنا أسير إليه ... بأسطول أوله عيذاب وآخره جدة »[2] . ثم كتب إلى أشراف مكة يعلمهم بما فعله أميرها ، وأقسم لهم مهدداً بمنع التجار والحجاج من قصد مكة حتى يقوم أمـــير مكة برد ما نهبه من أموال التجار المصريين . ثم كتب إلى والي قوص وأمره بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه إلى عيذاب ويمنع أي تاجر مصري من ركوب الجلاب القادمة من مكة ، وأن يفحص الشواني والحراريق الموجودة بالساحل بعيذاب ويصلح ما يحتاج منها إلى مرمة أو إصلاح ، ويشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازية ، ثم أمر المستخدمين بصناعة مصر أن يقدموا خمسة حراريق لتسير إلى الحجاز . فلما تلقى أشراف مكة رسالة الأفضل وشهدوا مقاطعـة التجار المصريين لأسواق الحجاز ، عظم عليهم الأمر ، وبادروا بإرسال رسول إلى الأفضل ، استقبله المسؤولون في القاهرة استقبالاً فاتراً ، ورأى الرسول الجـــد والاهتمام بأمر الأساطيل ، وتجهيز العساكر إلى أمير مكة ، فالتزم بإحضار جميع أموال التجار ، وسأل التوقف عن ذلـك حتى يعود بالبضائع والأموال ، فأجيب إلى ذلك . ثم عاد الرسول إلى القاهرة وبصحبته جميع ما أخذه أمير مكة من التجار من البضائع والأموال[3] .

---

(١) القلقشندي ، ج ٣ ص ٥٢٠ .
(٢) المقريزي ، اتعاظ الحنفا (نسخة مصورة من المخطوطة) ص ١١٨ أ .
(٣) اتعاظ الحنفا ، ص ١١٨ أ .

وكانت الرحلات التجارية في البحر المتوسط إلى صقلية والمغرب والأندلس تتم في مواسم معينة ، فكانت السفن التجارية تبحر سواء من طرابلس الشام أو دمياط أو الاسكندرية إلى هذه البلاد في قوافل ، تحرسها في العادة سفينة حربية أو أكثر لمواجهة القراصنة الذين يعترضون هذه السفن في البحر ، ومنعهم من الاعتداء عليها . وكانت الرحلات إما سنوية أو نصف سنوية [1] ، بمعنى أن السفن لا ترحل إلى هذه الأقطار إلا مرة في كل سنة أو في كل ستة أشهر ، ويبدو أن نظام هذه الرحلات كان له اتصال كبير بمواسم هبوب الرياح أو بمواعيد الأنواء ، فقد ذكر ابن جبير أن « الريح الشرقية لا تهب فيها (أي في جهات الساحل الجنوبي الشرقي من البحر المتوسط) إلا في فصلي الربيع والخريف ، والسفر لا يكون إلا فيهما ، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا في هذين الفصلين ، والسفر في الفصل الربيعي من نصف أبريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها إلى آخر شهر مايه وأكثر وأقل بحسب ما يقضي الله تعالى به . والسفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ومدتها أقصر من المدة الربيعية ، وإنما هي عندهم خلسة من الزمان ، قد تكون خمسة عشر يوماً وأكثر وأقل ، وما سوى ذلك من الزمان ، فالرياح فيه تختلف ، والريح الغربية أكثرها دواماً ، فالمسافرون إلى المغرب وإلى صقلية وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد صادق » [2] .

(ب) الطريق النهري

يعتبر النيل الشريان الحيوي للتجارة الداخلية والخارجية في مصر ، إذ يربط بين مختلف مدنها وقراها ، ففيه تسير المراكب الصغيرة والكبيرة حاملة المنتجات الزراعية من أقصى الصعيد إلى أسفل الأرض مارة بالفسطاط

---

(١) راشد البراوي ، ص ٢٦٦ .

(٢) ابن جبير ، ص ٣١١ .

وساحل المقس ، ومن الفسطاط تصل الحاصلات المراد تصديرها إلى الاسكندرية عن طريق خليج الاسكندرية المتفرع من فرع رشيد قبالة فوّه [١] ، أو إلى تنيس عـن طريق خليج يخرج من فرع دمياط ويصب في بحيرة المنزلة [٢] . وفي النيل كانت تسير المراكب الحاملة للغلات السلطانية والأحطاب وغيرها [٣] ، والعشاريات التي عرفت في العصر المملوكي بالحراقات . وقد وصف كاتب مصري في القرن الثامن الهجري (في سنة ٧٦٢ هـ) الملاحة في النيل في رسالة كتبها إلى أخيه بمصر قال فيها : « ولا تنس الجواري المنشآت في البحر كالأعلام ، التي تسبق عند طياب الرياح مفوقات السهام ، وإعجابها بغربانها البحرية وحراقاتها الحربية ، وشوانيها ، وهول مبانيها ، وجلال شكلها وجمال مغانيها . تبدو موشاة بالنضار الأحمر ، منقشة باللون الأفخر ، فهي كالأرقم المنمر ، أو كمتلوّن الثمر ، أو الطاوس الذكر ، أو الناووس لبني الأصفر ، معمرة ببأس الحديد والأحجار ، محمولة على سيح الماء التيار ، مشحونة بالرجال ، منصورة عند القتال ، مصونة بالمجن والنبال تبرز مذكرة بالآية النوحية ، وتضمن إحراز الهمة العلية الفتحية ، حصون أمنع من أعز قلاع ، تطير إذا فتح لها جناح القلاع ، فتسبق وفد الريح عند الإسراع ، وتفوق سرعة السحاب عند الاتساع ، فهن مع العقبان في النيق حوّم ، وهن مع البنيان في البحر حوّم ، لو أقسم من رآها ، ولو قال مشاهد معناها ، إن الله نفخ فيها الروح فأحياها ، لبرّ في يمينه التي أقسم وتلاها ، وكم من مركب لحسنه معجب ، وكم من سفين قوي أمين ، وخضاري جليل ، وعشاري طويل ، ومسماري طويل جميل ، وتستراوي

---

(١) ابن مماتي ، ص ٢٢١ – القلقشندي ، ج ٣ ص ٣٠١ – المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٢٦ .

(٢) راشد البراوي ، ص ٢٨٢ .

(٣) مثل ذلك الشب الذي كان يستخرج من صحراء صعيد مصر والواحات ، فيحمل إلى ساحل قوص وإخميم والبهنسا إلى الاسكندرية ، وكان الشب من بين السلع التي تحتكرها الدولة الفاطمية ولا يتصرف في شيء منها سوى الديوان . (ابن مماتي ، ص ٣٢٨) كذلك كان النطرون المستخرج من الفاقوسية والطرانة من بين منتجات مصر التي تحتكرها الدولة (نفس المصدر ، ص ٣٣٤) .

عكاوي ، وككة [١] ، ودرمونة ، ومعدية مكينة ، وسلور دقيق ، وشختور رشيق ، وقرقور رقيق ، وزورق ذي زواريق ، وطريـدة بخيل الطراد معمورة ، وهماء بحمل الجياد والأجناد مشهورة .... » [٢] .

وكان النيل بالاضافة إلى اتخاذه طريقاً ملاحياً في داخل البلاد ، يتخذه الناس في العصر الفاطمي وما تلاه للنزه والفرجة ، فكان الناس يركبون العشاريات والقوارب لمتعة النظر إلى الماء والخضرة ، من ذلك ما أنشده الأمير تميم ابن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي :

يوم لنـــا بالنيل مختصر ولكل يوم لذاذةٍ قصر
والسفن تجري كالخيول بنا صعداً ، وجيش الماء منحدر [٣]

وفيه أنشد الكاتب الكبير ابن فضل‌الله العمري :

والنيل في تياره المنـــ ـصب مهـــتز الصفـــاح
وبـــه السفائن كالجبـــ ـال تخول أمثال القداح
فركبت مـــن صهواتها دهمـــاء ساكنة الجماح
حراقــة تجري على اسـ ـم الله في الماء القراح [٤]

ويبدو أن أهل الخلاعة والفساد ، وذوي البطالة كانوا يركبون السفن في خليج مصر ، ويصحبون معهم النساء الماجنات وبأيديهن المزاهر يضربن بها ، وكان كثير منهم يتظاهرون بالمنكرات كاحتساء الخمر ، ولذلك أمر الحاكم بأمر الله في سنة ٤٠١ هـ بمنع الناس من الركوب في القوارب في الخليج إلى القاهرة ، وشدد في المنـع ، وأمر بسد أبواب القاهرة التي يتطرق منها إلى الخليج [٥] .

---

(١) ورد اللفظ في هذا النص (لكة) ، وهو تحريف لكلمة (ككة) ؛ نوع من مراكب الصعيد كبير . راجع في صحة الاسم : (القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٢٣٥) .
(٢) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ١٩٠ .
(٣) المقريزي ، ج ١ ص ١١٢ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢١٣ .
(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢٣١ .
(٥) المقريزي ، ج ٣ ص ٣١ .

(٢)

مراكز التجارة الداخلية في مصر والشام

كان من الطبيعي أن تعتمد المدن الصناعية المصرية والشامية التي يعوزها الانتاج الزراعي على التجارة ، باعتبارها الحرفة الرئيسية لسكانها ، وكانت تجارة مصر والشام الداخلية تتركز في عدد من المدن أهمها الفسطاط التي ذكر المقدسي أنها « مصر مصر ، وناسخ بغداد ، ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنام ، وأجل من مدينة السلام ، خزانة المغرب ، ومطرح المشرق ، وعامر الموسم ، ليس في الأمصار آهـــل منه ، كثير الأجلة والمشايخ ، عجيب المتاجر والخصائص ، حسن الأسواق والمعايش ، إلى حماماته المنتهي ، ولقيا سيره لباقة وبهاء ، ليس في الإسلام أكبر مجالس من جامعه ، ولا أحسن تجملا من أهله ، ولا أكثر مراكب من ساحله ... »[١] . ويلي الفسطاط في الأهمية كقاعـــدة تجارية في مصر مدينة الاسكندرية وتنيس ودمياط وعيذاب والقلزم في مصر ، وطرابلس وصيدا وصور وبعض المدن الداخلية في الشام .

الفسطاط

كانت الفسطاط مستودعاً للتجارة الداخلية ومركزاً رئيسياً للتجارة البحرية الخارجية ، لوقوعهـــا على النيل في موضع متوسط بين الوجهين البحري والقبلي ، ولاتصالها بثغور مصر الشمالية ومـــدن الصعيد الجنوبية عن طريق النيل ، ولاتصالها عمرانياً بالقاهرة مقر الخلفاء الفاطميين ، ولقيام الصناعة في الفسطاط وتعدد مرافقها[٢] . ويعبر المقريزي عن أهمية الفسطاط من الناحية الاقتصادية ، وأثر ذلك في رخص أسعارها عن أسعار القاهرة ، فيقول : « والفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة لقرب

---

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١٩٧ .

(٢) راشد البراوي ، ص ١٩٣ .

النيل من الفسطاط ، فالمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ، ويباع ما يصل فيها بالقرب منها ، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة »[١]. ويفسر ذلك الأعداد الهائلة من السفن التجارية التي كانت ترسو بساحل الفسطاط حاملة المتاجر إليها من مختلف موانئ مصر من شمال النيل ومن جنوبه[٢] . وقد ذهل المقدسي عندما لاحظ هذه الظاهرة ، فعبر عن دهشته من كثرة المراكب بقوله : « وكنت يوماً أمشي على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة ، فقال لي رجل منهم : من أين أنت ؟ قلت : من بيت المقدس . قال : بلد كبير ، أعلمك يا سيدي أعزك الله أن على هذا الساحل وما قد أقلع منه إلى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذَهَبَتْ إلى بلدك لَحَمَلَتْ أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال كان ههنا مدينة »[٣] . وفي موضع آخر يقول : « يجيء أبداً إليه (أي إلى الفسطاط) ثمرات الشام والمغرب ، وتسير الرفاق إليه من العراق والمشرق ، ويقطع إليه مراكب الجزيرة والروم »[٤]. أما ابن سعيد ، فعلى الرغم من تعبيره عن سخطه بسبب قذارة ساحل الفسطاط، وضيق ساحته ، وتكدر تربته ، يعترف بأنه « كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار النيل ، ولئن قلت أني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني أقول حقاً »[٥] . ويقول في موضع آخر : « وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فإنه فوق ما يوصف ، وبها مجمع ذلك لا القاهرة ، ومنها يجهز إلى القاهرة وسائر البلاد »[٦] .

وعندما ترسو المراكب الواصلة إليها بأصناف الغلات سواء بساحلها

---

(١) المقريزي ، ج ٢ ص ١٨٥ .
(٢) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ١ .
(٣) المقدسي ، ص ١٩٨ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٩ .
(٥) ابن سعيد ، ص ٧ .
(٦) نفس المصدر ، ص ١١ .

أو بساحل المقس ، يقوم الحمالون بحمل ذلك إلى الأهراء السلطانية التي تقوم في عدة أماكن بالقاهرة ، وكانت تحتوي على ٣٠٠ ألف أردب من الغلات أو أكثر من ذلك ، ولها الحماة من الأمراء والمشارفون من العدول [١]. ويذكر المقريزي أن ساحل المقس كان به ميدان الغلة ، إذ كان موضعاً للغلال في العصر الفاطمي ، وكانت المراكب تقف من جامع المقس إلى منية السيرج طولاً ، ويصبح عند باب القنطرة في أيام النيل من مراكب الغلة وغيرها ما يستر الساحل كله [٢].

ولم يتضعضع مركز الفسطاط التجاري كثيراً بعد الشدة العظمى مع ما عانته بسبب الصراع بين طوائف الجند في زمن الخليفة المستنصر بالله ، وتعدد المكوس التي فرضتها الدولة الفاطمية على كل عمليات البيع والشراء إلى حد يشكو منها المقدسي ، ويعبر عن ذلك بقوله : « وأما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل » [٣].

الاسكندرية

تألقت الاسكندرية في العصر الفاطمي واستعادت ازدهارها القديم ، وأصبحت بحق الثغر التجاري الأول الذي تفد إليه السفن التجارية محملة بسلع الشرق والغرب ، وكانت محطاً رئيسياً للسفن التجارية القادمة من المغرب والأندلس إلى الشام ومصر. ومنها توسق السفن الحاملة منتجات مصر كالشب والنطرون والمنسوجات الدبيقية والتنيسيّة والاسكندرانية بالإضافة إلى التوابل التي تصل إليها من الفسطاط . وكان يجلب من الاسكندرية الفواكه بالسفن إلى الفسطاط[٤] ، كما كان يجلب منها النسيج السكندري المشهور والتحف الزجاجية التي اشتهرت بصناعتها في العصر الفاطمي[٥].

---

(١) المقريزي ، ج ٢ ص ٣٤٧ .
(٢) المقريزي ، ج ٣ ص ١٨ .
(٣) المقدسي ، ص ٢١٣ – ابن جبير ، ص ٦٢ ، ٦٣ .
(٤) ناصر خسرو ، ص ٤٠ .
(٥) زكي محمد حسن ، فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٥٨٦ .

تنيس

كانت تنيس مركزاً تجارياً هاماً ، لكونها أهم مناطق صناعة النسيج في مصر ، فقد عرفت بصناعة « رفيـــع الثياب من الدبيقي والشروب والمصبغات من الحلل التنيسية التي ليس في جميع الأرض مـا يدانيها في الحسن والقيمة ، وربما بلـغ الثوب من ثيابها إذا كان مذهباً ألف دينار ونحو ذلـك ، وما لم يكن فيه ذهب المائة والمائتين ونحوه »[١]. وذكر المقريزي أنها مدينة كبيرة أهلها مياسير وأكثرهم حاكة ، وبها يحاك ثياب الشروب التي لا يصنع مثلها في الدنيا ، وكان يصنع فيها للخليفة الفاطمي ثوب يقال له البدنة « لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار ، وليس في الدنيا طراز ثوب كتان يبلـغ الثوب منه وهو سادج بغير ذهب مائة دينار عيناً »[٢] ، وكان التجار يركبون السفن من تنيس إلى الفرما[٣] .

قوص

تعتبر قوص أهم مركز تجاري نهري في مصر لوقوعها عند نهاية طريق القوافل الممتد ما بين عيذاب والنيل ، ولكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة ، لأنهـا كما يقول ابن جبير « مخطر للجميع ، ومحط للرحال ، ومجتمع الرفاق ، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب »[٤].

دمياط

كانت دمياط مركزاً رئيسياً في مصر لصناعة النسيج وقد ساعد على رواج هذه الصناعة وفرة الكتان بمنطقتها ومنطقة شرق الدلتا ، وأصبحت

---

(١) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ليدن ١٨٦٤ ، ص ١٥٦ .
(٢) المقريزي ، ج ١ ص ٣١١ .
(٣) نفسه .
(٤) ابن جبير ، ص ٦٥ .

المدن الصغيرة المحيطة بهـا مثل شطا ودبيق وتونة وبورة ودميرة تختص بإنتاج نوع من المنسوجات ينسب إليها ، واكتسبت هذه المنسوجات شهرة عالمية [١] ، ففي شطا كانت تصنع الثياب الشطوية وفيها كانت تنسج القباطي التي تتخذ كسوة للكعبة [٢] ، وفي دبيق تنسج الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة ، والدبيقي المذهب ، والعمائم الشرب المذهبة ، وهي عمائم تحمل رقوماً منسوجة بالذهب ، يبلغ ثمن العمامة منها ٥٠٠ دينار سوى الحرير والغزل ، وقد استحدثت هذه العمائم وغيرها في زمن العزيز بالله سنة ٣٦٥ هـ [٣].

وفي تونة يعمل طراز تنيس ، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحياناً [٤] .

القلزم

كانت القلزم فرضة مصر والشام ، فمنهـــا كانت تحمل الحمولات إلى الحجاز واليمن ، وكانت القلزم قبـل العصر الفاطمي على اتصال بالفرما فقد ذكر ابن خرداذبة أن « الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقليـة وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً ، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فتحة في البحر الغربي ، فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم ، وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة ، ثم يمضون إلى السند والهنـد والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلـك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ، ثم يحملونه إلى الفرما » [٥] . وقد

---

(١) جمال الدين الشيال ، مجمل تاريخ دمياط ، الاسكندرية ، ١٩٤٩ ص ٧٠ — حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٦٠١ .

(٢) المقريزي ، ج ١ ص ٣٩٧ .

(٣) نفسه ص ٣٩٨ .

(٤) نفسه ص ٣١٨ .

(٥) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

اضمحل شأن القلزم منذ أن تحولت التجارة إلى عيذاب ، ولذلك أعفى الحاكم بأمرالله أهل القلزم مما كان يؤخذ منهم من مكوس المراكب[1] ، تشجيعاً للتجار على قصدها .

وامتازت بعض مدن مصر بنشاط كبير لوقوعها وسط مناطق زراعية وصناعية هامة ، أو لوقوعها على طريق المتاجر المنقولة في النيل إلى الثغور الشمالية لمصر أو إلى الفسطاط ، ومن أمثال هذه المدن فوه التي تقع على الطريق المائي الهام بين ساحل البحر المتوسط والفسطاط ، قريباً من مخرج خليج الاسكندرية ، ومنفلوط الواقعة على النيل والتي يصعد إليها التجار في المراكب النيلية لاستجلاب قمحها إلى الفسطاط والقاهرة ، وكان معروفاً بطيبه ورزانة حباته[2] .

طرابلس

كان لنشأة طرابلس في السهل الواقع على مصب نهر أبي علي أثر كبير في اشتغال طائفة من سكانها بالزراعة وكانت المناطق المزروعة لا تقتصر على غوطة طرابلس المحيطة بها ، وتعرف أحياناً بالمرج ، وإنما كانت تمتد على ضفتي نهر أبي علي وعلى سفوح الجبال القريبة منها . وقد اشتهرت طرابلس في العصر الفاطمي بزراعة قصب السكر، والنخيل[3] ، والفواكه أمثال النارنج والترنج والموز والليمون[4] ، وكان يحمل من طرابلس إلى مصر في زمن الحاكم بأمر الله الفواكه اليابسة والرطبة[5] . ويصف الادريسي محاصيلها الزراعية في عصره بقوله : « ولها رساتيق وأكوار

(١) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ٣٧٥ .
(٢) ابن جبير ، ص ٦٠ .
(٣) الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر الحيني ، القاهرة ١٩٦١ – ناصر خسرو ، سفرنامة ، طبعة القاهرة ، ١٩٤٥ ص ١٣ – Heyd, Histoire du commerce du Levant, t. II, p. 459
(٤) ناصر خسرو ، ص ٨ .
(٥) يحيي بن سعيد الأنطاكي ، ص ٢٠٠ .

وضياع جليلة ، وبهـا من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه وضروب الغلات الشيء الكثير »[١]. وقد ترتب على ثروة طرابلس الزراعية قيام عـدة صناعات اختصت بها طرابلس في العصر الفاطمي ، فمن الزيتون كان يستخرج الزيت في المعاصر ، ومن الزيوت صنع الصابون الذي اختصت طرابلس بصناعته ، ومن قصب السكر كان يصنع السكر الطرابلسي الذي ذاعت شهرته في العصور الوسطى ، وإلى جانب هـذه الصناعات فاقت طرابلس غيرها من مدن الشام في صناعة الورق[٢] ، وصناعة المنسوجات الحريرية .

وكان طبيعياً أن تصبح طرابلس في العصر الفاطمي مركزاً هاماً للتجارة في الشام لعاملين : الأول ميناؤها الواسع الذي يمكن أن يتسع لعدد كبير من السفن ، والثاني قيام حرفتي الزراعة والصناعة بها وبأعمالها مما يترتب عليه ضرورة تصريف منتجاتها إلى الخارج . ولقد ظهرت طرابلس منذ أن خضعت لمصر الفاطمية كمدينة تجارية من الطراز الأول وهو أمر تؤيده أقوال الرحالة والمؤرخين العرب : فناصر خسرو يشيد بذكر أسواقها وخاناتها ، ويمتدح صناعة الورق فيها ، ويعظم ثروتها الزراعية كما أنه يشير إلى اتخاذها قاعدة تجارية في البحر المتوسط تصل إليها السفن من مختلف الأقطار للتجارة[٣]. والإدريسي يؤكـد أنها « مدينة عظيمة ، والوارد والصادر إليها كثير » ، كما يذكر أنها « معقـل من معاقل الشام مقصود إليها بالأمتعة وضروب الأحوال وصنوف التجارات »[٤]. وكانت السفن التجارية الإسلامية والفرنجية منذ العصر الفاطمي تصل ما بين مصر والشام عن طريق ميناء طرابلس ، فقد أمر العزيز بالله بإرسال الميرة من غلات مصر لنجدة منجوتكين ، فوصلت إلى طرابلس ، ومنها على ظهور الإبل

---

(١) الادريسي ، وصف فلسطين والشام من كتاب نزهـة المشتاق ، نشره جيلدميستر ، بون ١٨٨٥ ص ١٧ .
(٢) ناصر خسرو ، ص ١٣ .
(٣) نفسه ، ص ١٣ .
(٤) الإدريسي ، ص ١٧ .

إلى أفامية[١]. وعندما حاصرها الصليبيون براً وبحراً وقلت بها الأقوات وصلت إليها السفن الفاطمية من مصر تحمل الغلة والميرة[٢].

صور وصيدا وبيروت

ذاعت شهرة صور وصيدا منذ أقدم العصور في صناعة الزجاج والخزف[٣]، وظلت صور تحتفظ في العصر الإسلامي بهذه الشهرة، فكان يعمل بها الزجاج المحكم والفخار[٤]، وذكر المقدسي أن صور كانت تصدر السكر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات[٥]. أما صيدا فكانت أكثر أهمية في مجال التجارة البحرية من صور، وعلى الرغم من قصر فترة الاستقرار التي نعمت بها صيدا في العصر الفاطمي بسبب تصارع القوى الإسلامية المختلفة، وتنازع الولاة على السلطان، فإنها بلغت ذروة ازدهارها في هذا العصر. ونستدل من وصف ناصر خسرو لصيدا في سنة ٤٣٨ هـ على أنها كانت تعتمد في ثروتها الاقتصادية على قصب السكر والفاكهة، كما نستدل أيضاً من وصفه لسوق صيدا وبهائه وحسن منظره على ازدهار التجارة الصيداوية وهو أمر طبيعي باعتبارها ثغراً بحرياً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموانئ الشام الأخرى وموانئ مصر[٦]. ويشير ابن العديم الحلبي إلى أن السفن المصرية كانت تخرج من تنيس ومن الاسكندرية إلى طرابلس الشام وصور[٧]. أما بيروت فكانت في العصر الفاطمي الأول مركزاً هاماً للتجارة، وكانت تجارات البحر عليها دارة واردة وصادرة[٨].

---

(١) ابن القلانسي، ص ٤٢.
(٢) راجع كتابي: طرابلس الشام في التاريخ، ص ١٠٩.
(٣) راجع كتابي: دراسة في تاريخ صيدا ص ٤٧.
(٤) الأعلاق الخطيرة، ج ١ ص ١٦٣.
(٥) المقدسي، ص ١٨٠.
(٦) دراسة في تاريخ مدينة صيدا، ص ٨٥، ٨٦.
(٧) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، نشره الدكتور سامي الدهان، دمشق ١٩٥١ ج ١ ص ٢٢٢.
(٨) ابن حوقل، ص ١٦٢.

المدن الداخلية في الشام

نقتصر هنا على ذكر ثلاث من هـذه المدن كانت مراكز تجارية هامة بين الجوف السوري والسواحل ، هي : بعلبك ودمشق وحلب .

أما بعلبك فتقع على حافـة سهل مرتفع فسيح من جهته الشمالية بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية ، يعرف بسهل البقاع أخصب سهول الشام ، على مسافة تبعد عن دمشق بنحو ٣١ ميلاً ، ويبلغ ارتفاع هذا السهل البعلبكي نحو ١١٥٠ متراً فوق مستوى سطـح البحر[١] . وتعتمد بساتين المدينة ومزارعها التي تلتف حولها على نبـــع غزير المياه يسمى رأس العين . وكانت بعلبك أهم مدن البقاع من الناحية الاقتصادية بحكم وقوعها على الطريق التجاري بين صور والشرق ، وكانت لهذا السبب محطاً للقوافل التجارية بين البلاد الشرقية والسواحل . وقد ازدهرت بعلبك في العصر الفاطمي ، فكانت على حد قول ابن حوقل « مدينة كثيرة الخير والغلات والفواكه الجيدة ، بيّنة الخصب والرخص ، وهي قرية قريبة من مدينة بيروت على ساحل بحر الروم ، وهي فرضتها وساحلها »[٢] ، وذكر المقدسي أن بها المزارع والأعناب ، كما ذكر من تجاراتها الملابن (جمع ملبن)[٣] ، وظلت بعلبك تحتفظ بشهرتها في إنتـــاج الكروم والأعناب حتى عصر المماليك[٤] . ويشير القزويني إلى أن الميرة كانت تنقل من بعلبك إلى جميع بلاد الشام[٥] . ويلخص ياقوت خيراتها ومنتجاتها بقوله : « وببعلبك دبس[٦] ، وجبن وزيت ولبن ليس في الدنيا مثلها ، يضرب فيها المثل »[٧] . وإلى

(١) جانين سورديل ، دائرة المعارف الإسلامية الجديدة ، مادة بعلبك ، ص ١٠٠٠ .
(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٦٢ .
(٣) المقدسي ، ص ١٦٠ ، ١٨١ .
(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٣ ص ٨١٠ .
(٥) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٥٦ .
(٦) يصنع من عنبها .
(٧) ياقوت ، معجم البلدان مادة بعلبك ، مجلد ١ .

جانب مدينة بعلبك في الداخل كانت مدينتا دمشق وحلب تشغلان من حيث التجارة الداخلية مركزاً ممتازاً ، أما دمشق ، مصر الشام[1] ، فتقع على ارتفاع يصل إلى ٦٩٠ متراً فوق مستوى سطح البحر ، عند السفوح الشرقية لسلسلة جبال أنتيلبنان ، وفي بداية السهول الفسيحة الممتدة إلى الشرق والشمال الشرقي حتى الفرات ، وإلى الجنوب حتى قلب جزيرة العرب[2] ، وحظيت دمشق لذلك السبب ولقربها من جزيرة العرب والعراق والجزيرة ومصر ، بمركز اقتصادي هام لقيامها بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب[3] ، وكانت بالاضافة إلى ذلــك سوقاً لمنطقة زراعية ومركزاً صناعياً هاماً[4] ، وأهم ما اختصت به دمشق صناعة المنسوجات الحريرية والديباج النفيس الذي نسب إليها ، وصناعة الأواني الزجاجية المنزلة بالمينا وصناعة الورق ، هذا إلى صناعات معدنية كالحلي والأسلحة وصناعة الأثاث .

أما حلب فتقع في مفترق الطرق التجارية الكبرى في شمال الشام[5] ، وعلى حدود البادية ، وقد ازدهرت في العصر الفاطمي ، وكانت على حد قول الحسن بن أحمد المهلبي في كتاب المسالك والممالك الذي وضعه للخليفة الفاطمي العزيز بالله ، مدينة جليلة ، عامرة آهلة ، حسنة المنازل ، وبها من الكور والضياع مـا يجمع سائر الغلات النفيسة ، وكان إقليمها الممتد ما بين معرة مصرين إلى جبل السّماق غنياً بالتين والزبيب والفستق والسماق والحبة الخضراء ، تحمل إلى مصر والعراق وتجهز إلى كل بلد[6] .

---

(١) المقدسي ، ص ١٥٦ .

(٢) جان سوفاجيه ، دمشق الشام: لمحة تاريخية ، ترجمة فؤاد أفرم البستاني ، بيروت ١٩٣٩ ص ٦ .

(٣) محمد كرد علي ، دمشق مدينة السحر والشعر ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٦ ، ١٩٤٤ .

(٤) سوفاجيه ، ص ٨ .

(٥) وفي ذلك يذكر الاصطخري أنها تقع على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات (الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور محمد جابر الحيني ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٦ – ابن حوقل ، ص ١٦٣) .

(٦) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج ١ ، القسم ١ ، دمشق ١٩٥٣ ، ص ١٥٣ .

ويذكر القزويني أنه كان يزرع في أرضها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكرم والمشمش والتفاح والتين ، وفي موضع آخر يقول : « ومن عجائبها سوق الزجاج ، فإن الإنسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقها لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة ، تحمل إلى سائر البلاد للتحف والهدايا »[١]. ويشير الأصطخري إلى أن بالتينات وهو حصن يقع قريباً من حلب على ساحل البحر « مجمع لخشب الصنوبر ، الذي ينقل إلى الشامات وإلى مصر والثغور »[٢].

وكانت حلب تحصّل المكوس عما يمر من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق ، وإليها كان يفد التجار من جميع الأقطار المذكورة للتجارة[٣] ، فكانت على هذا النحو باب المشرق والمغرب ، ولهذا كثرت بها السلع الشرقية والرومية وغيرها ، فابن الشحنة يذكر أن من خصائصها « نفاق ما يجلب إليها من البضائع كالحرير والصوف واليزري والقماش العجمي وأنواع الفراء من السمور والوشق والفنك والسنجاب والثعلب وسائر الوبر ، والبضائع الهندية وأجناس الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الأجناس ، فإنه قد يتفق أنه يباع فيها في يوم واحد ما لا يباع في غيرها في شهر كل ذلك بأطيب ثمن وأرغبه ، مثلاً إذا أحضر إلى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة أحمال لا تباع في شهر ، وعلى هذا فقس »[٤].

(١) القزويني ، آثار البلاد ، ص ١٨٤ .
(٢) الاصطخري ، ص ٤٧ — ابن حوقل ، ص ١٦٧ .
(٣) سفرنامة ، طبعة بيروت ، ص ٤٤ .
(٤) ابن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، بيروت ١٩٠٩ ص ٢٥٠ وما يليها .

(٣)

التجارة البحرية الخارجية

(أ) مع المدن الايطالية والدولة البيزنطية

اقترن قيام الدولة الفاطمية في مصر بقيام حكومات مركزية في أوربا سعت إلى إقرار الأوضاع الاقتصادية فيها عـن طريق استئناف التبادل التجاري مع دول قارتي إفريقيا وآسيا ، ويعبر عن هـذا الإتجاه الجديد الزيادة المحسوسة في عـدد الحجاج الأوربيين الوافدين إلى بيت المقدس ، ولا يخفى أثر هـذه الرحلات عبر الشام ومصر في زيادة معرفة العالم الأوروبي باقتصاديات الشرق الأدنى الإسلامي ، ولعل ذلك يفسر إلى حد كبير العامل الاقتصادي الذي كان متستراً وراء المظهر الديني للحركة الصليبية ، التي كان يمكنها أن تحقق لأوربا المسيحية السيطرة على سواحل الليفانتي والتحكم بالتالي في الطرق التجارية البرية المؤدية إلى الشرق الأقصى الغني بتوابله وسلعه ، مما كانت تحتاج إليه الدول الأوربية [١]. وقد تجلت الدوافع الاستعمارية للحركة الصليبية بعد أن استقرت أقدامهم في المنطقة ، وسيطروا على الطرق التجارية للسلـع الشرقية التي أصبحت مصدر ثراء عريض للمشتغلين بها [٢] ، وغلبت الصفة التجارية البحتة على الجالية الصليبية التي لم يكن الباعث الديني يعنيها إلا بالقدر الذي يكفل لها تحقيق مصالحها [٣].

وكانت المدن الإيطالية قد عقدت مع مصر الإسلامية منذ أيام الطولونيين علاقات تجارية ، إذ كان من الطبيعي أن تسعى هذه المدن الإيطالية البحرية إلى تدعيم علاقاتها التجارية مـع مصر باعتبار أن الطريق التجاري الذي

---

(١) راشد البراوي ، ص ٢١١ .

(٢) جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، الاسكندرية ١٩٦٣ ، ص ٧٢ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٧٤ .

يمر بها أفضل بكثير من الطريق البري الذي يخترق بلاد الجزيرة والشام لسرعته ولرخص تكاليف النقل فيه[1]. ولم تلبث القوى البحرية لهذه المدن أن نازعت القوى البحرية الإسلامية في غرب البحر المتوسط، ولم يحل عام ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) حتى صارت پيزة وجنوة قوتين بحريتين عظيمتين، بينما استطاعت البندقية التي تركزت بحريتها في التجارة والنقل لا في احتراف القرصنة أن تبني لنفسها في أواخر القرن الرابع الهجري قوة بحرية، أخذت تزداد على مر الأيام. وكانت أمالفي الواقعة على الساحل الغربي لإيطاليا المنافس الأول لتجارة البندقية في بيزنطة والعالم الإسلامي، وتوثقت علاقاتها التجارية مع مصر الفاطمية. وكان اهتمام أمالفي موجهاً بوجه خاص إلى نقل المنسوجات الحريرية التي تصنع في دبيق من قرى دمياط إلى سوق روما، وأصبح لها فنادق بالإسكندرية، وعلى الرغم من خضوع أمالفي سياسياً للنورمان منذ سنة ١٠٧٦ م، فقد ظل تجارها يتعاملون مع مصر الفاطمية.

أما جنوة فكانت بحريتها قد بلغت درجة كبيرة من القوة منذ عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م)، واتسعت علاقاتها مع مصر منذ النصف الثاني من القرن الخامس، بعد أن تحررت من سلطان البيزنطيين، وأصبحت حرة التصرف في اتباع سياسة اقتصادية تتفق ومصالحها دون أي اعتبار آخر، وكان الجنويون يشترون غلات مصر كالشب والنطرون والسكر ويبيعونه إلى تجار الروم.

كذلك اهتمت پيزة بتمكين علاقاتها التجارية مع الخلفاء الفاطميين،

---

(١) استطاعت البندقية رغم احتفاظها بصلاتها مع بيزنطة واعترافها بسلطانها عليها أن تتعامل على نطاق واسع مع البلاد الإسلامية عن طريق تصدير حاصلاتها الثلاثة: الحديد والخشب والأسلحة، وهي مواد كانت متوافرة لديهم ومطلوبة بوجه خاص على طول السواحل الإسلامية من فلسطين إلى المهدية، يضاف إلى ذلك أن تجارة الرقيق درت على البنادقة أرباحاً طائلة من أسواق الرقيق في العالم الإسلامي ما بين قرطبة وبغداد (أرشيبالد لويس، القوى البحرية، ص ٢٧٠)

منذ أن تحولت إلى النشاط البحري في أواخر القرن الخامس الهجري ، فأرسلت سفيراً إلى الخليفة الفاطمي الظافر في سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، لتصفية الرواسب المتخلفة عن حادثة اعتداء جماعة من البيزية على المسلمين بالقتل ، ومحاولة استرضاء مصر عن طريق تعهدها بعدم تقديم أي مساعدة للصليبيين في الشام أو غيرهم من أعداء مصر .

أما البندقية فكانت ترتبط منذ قيام الدولة العباسية بعلاقات تجارية مع السواحل الإسلامية ، إذ كانت رغم ولائها للبيزنطيين ، ورغم القيود البيزنطية التي فرضت عليها ، تشتغل بتصدير الرقيق والخشب لمصر والشام ، ولم ترضخ لتحريم الامبراطور البيزنطي ليو الخامس اشتغالها بالتجارة مع البلاد الإسلامية ، بدليل أن سفنها استطاعت في سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) ، أن تنقل رفات القديس مرقص من الإسكندرية [١]. وظلت البندقية تمد مصر بالحديد والسلاح والأخشاب اللازمة لصناعة السفن إلى أن أصدر الإمبراطور حنا تزيمسكس في عام ٣٦١ هـ (٩٧١ م) قراراً حرم عليهم فيه نقل هذه المواد إلى البلاد الإسلامية ، ومع ذلك ، فلم تتقيد حكومة البندقية بهذه السياسة ، وعمل رؤساؤها على تدعيم علاقاتهم التجارية مع مصر .

ونلاحظ أن الأساطيل الإيطالية لعبت دوراً سياسياً ذا وجهين ، فبينما كان الإيطاليون يرتبطون مع مصر اقتصادياً ، نراهم يسهمون في إنجاح الحركة الصليبية منذ حملتها الأولى على بلاد الشام ، فبفضل العون والمساعدات البحرية التي قدمها الجنوية والبنادقة والبيزية للصليبيين ، تمكن هؤلاء من السيطرة على المدن الساحلية في الشام ، وفي مقابل ذلك ظفر الإيطاليون في الثغور الشامية التي خضعت للصليبيين بامتيازات كثيرة ، وأنشأوا فيها الوكالات التجارية للإشراف على شؤون التجارة ونقل الحجاج [٢].

---

(١) ارشيبالد لويس ، ص ١٧٩ – شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٢١ – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ، ص ٢٠٤ .

(٢) ارشيبالد لويس ، ص ٣٨٣ .

أما فيما يتعلق بالبيزنطيين ، فقد سعوا إلى تمكين علاقاتهم التجارية مع مصر بعد أن تحسنت العلاقات السياسية بين بيزنطة والقاهرة منذ سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) ، فقد كانت بيزنطة في حاجة إلى النسيج الذي يصنع في تنيس ، في مقابل الغلال والفراء ، ويذكر ناصر خسرو أن « سلطان الروم (يقصد الامبراطور البيزنطي) كان قد أوفد رسولاً ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس ، فلم يقبل السلطان ، وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون » . ويشير ناصر خسرو إلى أنه كان يرابط حول تنيس ألف سفينة ، منها ما كان خاصاً بالتجار ، ومنها ما كان للسلطان ، وأن الرحلة من تنيس إلى القسطنطينية كانت تستغرق عشرين يوماً »[1]. وكان بالقاهرة حي لتجار البيزنطيين يعرف بحارة الروم ، وهي حارتان : حارة الروم السفلى ، وحارة الروم العليا التي عرفت في العصر المملوكي بالجوانية ، كما كان في القسطنطينية عدد من تجار مصر جاء ذكرهم في جملة من ذكرهم بنيامين التطيلي من الجاليات الإسلامية[2] .

ومن مظاهر إقبال بيزنطة على التجارة الإسلامية وسعيها إلى اجتذابها إلى القسطنطينية أنها أقامت وكالتين بالعاصمة ، إحداهما لتجار الحرير الفاخر ، والثانية لتجار التوابل والعطور[3] .

(ب) مع الأقطار الاسلامية

١ — المغرب الإسلامي

كان من الطبيعي أن تعمل الدولة الفاطمية في مصر على تدعيم علاقاتها التجارية بحراً مع بني زيري الصنهاجيين ، نوابها في المغربين الأدنى والأوسط ، من جهة ، ومع صقلية من جهة ثانية ، ومع الأندلس في عصري الطوائف

(١) ناصر خسرو ، ص ٤٠ .
(٢) Viajes de Benjamin de Tudela, Madrid, 1918, p. 62
(٣) أرشيبالد لويس ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

والمرابطين من جهة ثالثة . وكانت الطريق الممتدة بحذاء الساحل من الاسكندرية إلى سوســـة هي آمن الطرق البحرية التي كانت تسلكها السفن التجارية المصرية أو الزيرية أو الصقلية ، وحتى الأندلسية ، وذلك منذ أن سيطرت بيزنطة على كل من جزيرتي إقريطش وقبرص . ويذكر أبو عبيدالله البكري أن المهدية كانت مرفئاً لسفن الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها[١]، وكانت السفن تحمل من ليبيا والمغرب منتجات هذه البلاد التي عرفت بها كزيت الزيتون من المهدية[٢] وبرقة وسفاقس[٣] وقابس[٤]، وكالفستق الذي كان يحمل من قفصة وشط الجريد إلى مصر[٥] ، والثياب والعمائم السوسية[٦]، والثياب الحريرية من قابس[٧] ، وجلود النمور والبقر التي كانت تصل من أوجلة إلى برقة ، ثم تتجهز بها المراكب القادمة من الاسكندرية[٨] ، وجلود اللمط وقرونه[٩] ، والصوف والتبر من تكرور وغانة[١٠] وأودغست[١١] ، والقطران وجلود الدباغ من برقة وقصر طلميثة بليبيا[١٢] .

ومن الأندلس كان يصدر الزيت من إشبيلية إلى الاسكندرية[١٣]، والزئبق من قرطبة[١٤] ، والموشي من المرية ومالقه[١٥] ، والبسط التنتلية من مرسية ،

---

(١) البكري ، ص ٣٠ .
(٢) الإدريسي ، ص ١٠٩ .
(٣) البكري ، ص ٢٠ – ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٧٢ .
(٤) الإدريسي ، ص ١٠٦ .
(٥) البكري ، ص ٤٧ .
(٦) الإدريسي ، ص ١٢٥ – التجاني ، رحلة التجاني ، ص ٢٠٦ .
(٧) البكري ، ص ٩٧ – الإدريسي ، ص ١٠٦ .
(٨) الإدريسي ، ص ١٣١ .
(٩) البكري ، ص ١٧١ .
(١٠) الإدريسي ، ص ٣ ، ٧
(١١) البكري ، ص ١٥٩ .
(١٢) الإدريسي ، ص ١٣٦ .
(١٣) المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٩٩ .
(١٤) الإدريسي ، ص ٢١٣ .
(١٥) الضبي ، ص ٤٦٨ – المقري ، ج ٤ ص ٢٠٧ .

والتين المالقي من مالقة [1]. ومن صقلية كان يصل إلى مصر الكتان الرقيق والثياب المنقوشة القيمة في السفن [2]، وخشب السفن من جفلوذ وشنت ماركو [3]، والحديد من مسيني وبلرم [4].

٢ – المشرق الإسلامي

لم تنقطع الصلات التجارية بين مصر والعراق في العصر الفاطمي على الرغم من الخلافات السياسية والمذهبية بين الخلافتين العباسية والفاطمية، فقد كانت تصل إلى مصر من العراق الحرير الأزرق التستري القرقوبي المنسوج بالذهب، والنسيج المعروف بالعتابي الذي اختصت به بغداد، والنسيج المعروف بالموصلي الذي اشتهرت الموصل بصناعته، كما كانت تصل إليها كيزان البلور البغدادي. وكان تجار العراق يفدون إلى مصر لشراء ما يلزمهم من المنسوجات الصوفية التي اشتهرت أسيوط بصناعتها، وعن طريق هؤلاء التجار وصلت هذه المنسوجات إلى بلاد العجم، وعرفت هناك باسم الصوف المصري [5]. كذلك كان هؤلاء التجار يقبلون على شحن سفنهم بكميات من الشروب المصنوعة بتنيس، والأردية الملونة، ويذكر المقريزي أن الحمل من النسيج التنيسي كان يبلغ بعد سنة ٣٦٠ هـ «من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق» [6]، وقد أنشئ لتجار العراق والشام في القاهرة في سنة ٥١٦ هـ وكالة عرفت باسم دار الوكالة الآمرية [7]. ومن الشام كانت ترد إلى مصر الفواكه النادرة والصابون النابلسي والطرابلسي والأواني النحاسية التي اشتهرت دمشق

---

(١) الإدريسي، ص ٢٠٠.
(٢) ناصر خسرو، ص ٤٥.
(٣) معجم البلدان (المكتبة الصقلية) ص ١١١ – الحميري، الروض المعطار، ص ١٥٦.
(٤) الإدريسي (المكتبة الصقلية) ص ٣٤.
(٥) ناصر خسرو، ص ٧٠.
(٦) المقريزي، ج ١ ص ٣١١.
(٧) نفسه، ج ٢ ص ٣٢٤.

بصناعتها [١] ، والورق الذي اختصت دمشق وطرابلس بصناعته [٢] ، والمنسوجات الحريرية من طرابلس [٣] ودمشق [٤] ، بينما كان يصل إلى الشام الشب والنطرون والكتان والشروب والدبيقي والدمياطي من مصر. كذلك كانت مصر تصدر إلى الشام ما كانت تصنعه الفسطاط من الأنطاع المستحسنة والشروب الدمياطية والكرانات وخرائط الجلد والسيور [٥] ، ومن اليمن كانت تصل إلى مصر سواء إلى عيذاب أو أيلة أو القلزم السفن موسوقة بالزيت [٦] ، والطيوب والبخور واللبان [٧] ، والأحجار الكريمة كالعقيق الذي يكثر في جبل شبام [٨] ، والجزع [٩] ، ودم الأخوين [١٠] ، والعنبر من عدن والبحر الأحمر الجنوبي وساحل الشحر [١١] ، واللؤلؤ من عدن [١٢] وعمان [١٣] وقطر [١٤] وهجر [١٥] والأدم والأنطاع من صنعاء وجرش وصعدة [١٦] وزَبِيد [١٧]. ويذكر المقدسي أن اليمن « معدن العصائب والعقيق

---

(١) ناصر خسرو ، ص ٦١ .

(٢) المقدسي ، ص ١٢ — ناصر خسرو ، ص ١٣ — محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٤ ص ٢٤٣ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج ١ قسم ٣ ص ٧٤٨ .

(٤) خطط الشام ، ج ٤ ص ٢٢١ .

(٥) المقدسي ، ص ٢٠٣ — المقريزي ، ج ٢ ص ١٨٥ .

(٦) ناصر خسرو ، ص ٧٣ .

(٧) السيد عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب ، ج ١ ص ١٣٠ .

(٨) ابن حوقل ، ص ٤٤ .

(٩) الهمداني ، الإكليل ، ج ٨ ص ٣٠ .

(١٠) نفس المصدر ، ص ٣٢ — المقدسي ، ص ١٠٢ .

(١١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٥٠ .

(١٢) ابن حوقل ، ص ٥٢ .

(١٣) نفس المصدر ، ص ٥٢ .

(١٤) مروج الذهب ، ج ١ ص ١٤٨ .

(١٥) المقدسي ، ص ١٠١ .

(١٦) المقدسي ، ص ٩٨ — ابن حوقل ، ص ٤٣ .

(١٧) نفس المصدر ، ص ٩٨ .

والأدم والرقيق ، فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والأسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والغضار والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك ، وتزيد عدن بالعنبر والشروب والدرق والحبش والخدم وجلود النمور وما لو استقصيناه طال الكتاب وبتجارات الصين تضرب الأمثال »[1]. وكانت لآلئ البحرين وعقيق اليمن يستخدمان لترصيع الحلى في الفسطاط ، وكان عاج زنجبار يستخدم في صناعة العلب العاجية والمقابض. ويذكر ناصر خسرو أنه « رأى أنياب الفيل أحضرت من زنجبار وكان وزن كثير منها يزيد على مائتي من ، كما أحضر جلد بقر من الحبشة يشبه جلد النمر ويعملون منه النعال »[2]

(ج) مع الصين وبلاد ما وراء النهر

العلاقة بين الصين والمسلمين علاقة قديمة تبدأ منذ أيام الدولة الأموية. ومن المعروف أن الإسلام دخل إلى الصين عن طريق تجار سلكوا الطريق البحري الذي كانت تسلكه السفن التجارية[3] ، ويبدأ من البصرة حيث تقلع المراكب حاملة البضائع من الأبلة فرضة البصرة إلى الصين مارة بعمان ومسقط والبحرين وهرمز بخليج فارس[4] ، ثم ترسو السفن في ملابار وسيلان ومأبد وسومطرة وجاوة وتنكين. وكانت أهم مدن الصين المفتوحة لتجارة العرب العرب كانتون المعروفة في المصادر العربية باسم خانفو أعظم مراكز التجارة في الهند الصينية[5].

---

(١) المقدسي ، ص ٩٧.

(٢) ناصر خسرو ، ص ٦٠.

(٣) زكي محمد حسن ، الصين وفنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤١ ص ٩.

(٤) بدر الدين حي الصيني ، العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ، ١٩٥٠ ص ١٠٩.

(٥) جورج فاضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص ٢١٦ – محمد محمود زيتون، الصين والعرب عبر التاريخ ، سلسلة اقرأ ، عدد ٢٥٣ ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٥.

وكان يصل إلى عدن من الصين الحديد والمسك والكاغـــد والفخار والكافور والدارصيني وغيرها[١]، ولذلك عرفت بدهليز الصين[٢]. وقد أعجب المسلمون بالتحف الفنية الصينية، وخاصة الخزف الصيني، فقلدوه في العصر الفاطمي، وحاول الخزاف المشهور سعد ومن حـذا حذوه من تلاميذه أن يصيغوا نوعاً من الخزف ذي الزخارف المحفورة تحت الدهان، كانوا يقلدون به خزف سونج الصيني[٣].

وقد بلغت شهرة مصر في صناعة النسيج إلى بـلاد ما وراء النهر، فقلدت الثياب الدبيقية بنواحي خوارزم، كما قلدت الثياب الأشمونية في بخاري، وعرفت هناك باسم ثياب أشموني[٤]. ويبـدو أن مصر كانت تصدر من منتجاتها زيت الفجل الذي كان يحمل إلى العراق وغيرها، والعسل النحل الذي كان يفتخر به على أعمال الدنيا، ودهن البلسان، ودهن الخروع[٥]. وكانت مصر أيضاً من بين الأقطار المصدرة للشب، وشبّها يعرف بالشب الواحي، ويفوق الشب اليماني، كذلك كان يصدر منها في العصر الفاطمي البز الأبيض الدبيقي ووشي الاسكندرية، وأنطاع الصعيد، وستور البهنسا، ونطوع الخز الإخميمية، بالاضافة إلى الكتان الذي كان يحمل إلى سائر أنحاء العالم، والزمرد[٦] والسكر.

---

(١) ابن خرداذبة، ص ١٥٣ — ابن الفقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٧٠.
(٢) المقدسي، ص ٣٤.
(٣) زكي حسن، المرجع السابق، ص ٣٤.
(٤) المقدسي، ص ٣٢٤.
(٥) السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢ ص ١٩٣.
(٦) نفس المصدر، ص ١٩٤.

مراجع القسم الأول

المراجع

١ — ابن الأبار (أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي) :
كتاب الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، جزآن ، ١٩٦٣ .

٢ — ابن أبي دينار القيرواني :
المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ، تونس ، ١٢٨٦ هـ .

٣ — ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم) :
كتاب الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ (وطبعة صادر ، بيروت ، ١٩٦٥) .

٤ — الإدريسي (الشريف أبو عبدالله محمد) :
صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، طبعة ليدن ١٨٩٤ — ووصف فلسطين والشام ، تحقيق جوانيس جيلدميستر ، بون ١٨٨٥ .

٥ — أرسلان (الأمير شكيب) :
تاريخ غزوات العرب ، مصر ، ١٣٥٢ هـ .

٦ — البراوي (الدكتور راشد) :
حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٧ — پروڤنسال (الأستاذ ليڤي) :
الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور عبد العزيز سالم والاستاذ صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٨ .

٨ — البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) :
كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره البارون دي سلان ، الجزائر ١٩١١ .

٩ — البلاذري (أحمد بن يحيي بن جابر) :
كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

١٠ — البلوي (أبو محمد عبدالله بن محمد المديني) :
سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق الأستاذ محمد كرد علي ، دمشق ، ١٣٥٨ هـ .

١١ — BENJAMIN DE TUDELA

Viajes de Benjamin de Tudela, Madrid, 1918.

١٢ — BRUNSCHVIG (R.)

La Berbérie Orientale sous les Hafsides, Paris, 1940.

١٣ — PELLEGRIN

Histoire de la Tunisie, Tunis, 1948.

١٤ — التجاني (أبو محمد عبدالله بن محمد) :

رحلة التجاني ، تحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ، ١٩٥٨ .

١٥ — ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي) :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة، ١٩٣٨.

١٦ — توفيق (الدكتور عمر كمال) :

مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي ، الامبراطور حنا تزيمسكس وسياسته الشرقية ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .

١٧ — TORRES BALBAS (L.)

Atarazanas hispano musulmanas, al-Andalus, vol. XI, 1940.

١٨ — JEANINE - SOURDEL

Baalabeck, in New Encyclop. of Islam.

١٩ — ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد البلنسي) :

رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت ، ليدن ، ١٩٠٧

٢٠ — الجربي (محمد أبو راس) :

مؤنس الأحبة في أخبار جربة ، تحقيق الأستاذ محمد المرزوقي ، تونس ، ١٩٦٠ .

٢١ — الجوذري (أبوعلي منصور العزيزي) :

سيرة الأستاذ جؤذر ، تحقيق الدكتور محمد كامل حسين ، والدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

٢٢ — ابن الجوزي (أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قيزوغلى) :

كتاب مرآة الزمان ، ج ٨ ، طبعة شيكاغو ١٩٠٧ ، وحيدر أباد ١٩٥١ ، ١٩٥٢ .

٢٣ — حسن (الدكتور حسن ابراهيم) :

تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٢٤ — حسن :

المعز لدين الله الفاطمي ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

HASSAN (Dr. Zaki) — ٢٥
Les Tulunides, Paris, 1933.

٢٦ — حسن (الدكتور زكي محمد) :
كنوز الفاطميين ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٢٧ — حسن :
الصين وفنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤١ .

٢٨ — حسن :
فنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٢٩ — حسين (دكتور محمد كامل) :
الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، القاهرة ، ١٩٥٩.

٣٠ — ابن حمديس الصقلي :
ديوان ابن حمديس ، تصحيح وتقديم الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٣١ — حميد الله (دكتور محمد) :
مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، بيروت ، ١٩٦٩ .

٣٢ — الحميدي (أبو عبدالله محمد بن فتوح الأزدي) :
جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة ، ١٩٥٢ .

٣٣ — الحميري (أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم) :
منتخبات من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، خاصة بالجزر والبقاع الإيطالية ، تحقيق الدكتور اومبرتو ريتزيتانو ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٨ ، ج ١ ، مايو ، ١٩٥٦ .

٣٤ — الحموي (الأستاذ محمد ياسين) :
تاريخ الأسطول العربي ، دمشق ، ١٩٤٥ .

٣٥ — حوراني (الأستاذ چورج فاضلو) :
العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة الدكتور يعقوب بكر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٣٦ — ابن حوقل النصيبي :
كتاب صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٢ .

٣٧ — ابن خرداذبة : (أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله) :
المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ .

٣٨ — ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد) :
مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٥٧ (أربعة أجزاء) .
٣٩ — ابن خلدون :
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ
٤٠ — ابن الخطيب (لسان الدين) :
كتاب أعمال الأعلام ، الجزء الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، والأستاذ محمد ابراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ .
٤١ — DOZY (R.)
Supplément aux dictionnaires arabes, 2 vols. Beyrouth, 1968.
٤٢ — ديل (شارل) :
البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٤٨ .
٤٣ — DIEHL (Charles)
Histoire du Moyen-âge, t. III : Le Monde Oriental, Paris, 1936.
٤٤ — الذهبي (الحافظ أبو عبدالله محمد بن أحمد) :
العبر في أخبار من غبر ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، الكويت ، ١٩٦٠ .
٤٥ — رستم (الدكتور أسد) :
الروم والعرب ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٦ .
٤٦ — Recueil des Historiens des Croisades, t. III.
٤٧ — ROUSSET
Histoire des Croisades, Paris, 1957.
٤٨ — زكي (الدكتور عبد الرحمن) :
السلاح في الإسلام ، القاهرة ، ١٩٥١ .
٤٩ — زيتون (الأستاذ محمد محمود) :
الصين والعرب عبر التاريخ ، سلسلة اقرأ ، عدد ٢٥٣ ، القاهرة ١٩٦٤ .
٥٠ — سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) :
الصلات التاريخية بين الشام ومصر في العصر الإسلامي ، مجلة العلوم ، العدد الخامس ، بيروت ١٩٦٤ .
٥١ — سالم :
المغرب الكبير ، ج ٢ : العصر الإسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٦ .

٥٢ — سالم :
دراسات في تاريخ العرب ، ج ١ : عصر ما قبل الإسلام ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .
٥٣ — سالم :
طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .
٥٤ — سالم :
تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٩ .
٥٥ — سالم :
تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي (طبعة ثانية) الاسكندرية ، ١٩٦٩ .
٥٦ — سالم :
تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢ .
٥٧ — سالم والدكتور مختار العبادي :
تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، بيروت ، ١٩٧٠
٥٨ — سالم :
تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ١٩٧١ .
٥٩ — سالم :
دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي ، بيروت ، ١٩٧٠ .
٦٠ — سالم :
قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٧١ .
٦١ — سالم :
تاريخ الدولة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ .
٦٢ — سرور : (دكتور محمد جمال الدين) :
دراسات في العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
٦٣ — سرور :
سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
٦٤ — سلام (دكتور محمد زغلول) :
الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ .
٦٥ — سليم (الدكتور محمود رزق) :
النيل في عصر المماليك ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٦٦ — ابن سعيد (أبو الحسين علي الأندلسي) :
المغرب في حلى المغرب ، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ، تحقيق الدكتور زكي محمد حسن وآخرين ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

٦٧ — سوڤاچيه (الاستاذ چان) :
دمشق الشام ، لمحة تاريخية ، ترجمة الأستاذ فؤاد أفرم البستاني ، بيروت ، ١٩٣٩ .

٦٨ — السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) :
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، مصر ، ١٣٢١ هـ

٦٩ — السيوطي :
تاريخ الخلفاء ، بيروت ، ١٩٦٩ .

٧٠ — أبو شامة (عماد الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل) :
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق الدكتور محمد حلمي أحمد ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٧١ — ابن الشحنة (أبو الوليد مجد الدين محمد الحلبي) :
كتاب الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق الأستاذ يوسف سركيس، بيروت ١٩٠٩.

٧٢ — ابن شداد (أبو المحاسن يوسف بن رافع) :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٧٣ — ابن شداد (عز الدين أبو عبدالله محمد الحلبي) :
الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، المعهد الفرنسي ، دمشق ، ١٩٥٣ — ١٩٦٢ .

٧٤ — الشدياق (الشيخ طنوس بن يوسف) :
أخبار الأعيان في جبل لبنان ، بيروت ، ١٩٥٤ .

٧٥ — شعيرة (الدكتور محمد عبد الهادي) :
الاسكندرية من الفتح العربي إلى نهاية العصر الفاطمي ، مقال في كتاب غرفة الاسكندرية التجارية ، ١٩٤٩ .

٧٦ — CHEIRA
La Lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947.

٧٧ — الشيال (الدكتور جمال الدين) :
مجمل تاريخ دمياط ، الاسكندرية ، ١٩٤٩ .

٧٨ ــ الشيال :
وحدة مصر وسورية في العصر الإسلامي، محاضرات جامعة الاسكندرية ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

٧٩ ــ صالح بن يحيي :
تاريخ بيروت ، طبعة دار المشرق ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٨٠ ــ الصيني (الأستاذ بدر الدين حي) :
العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

٨١ ــ الضبي (أبو جعفر أحمد) :
بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ، تحقيق كوديره، مدريد ، ١٨٨٥ .

٨٢ ــ الطبري (محمد بن جرير) :
تاريخ الأمم والملوك ، طبعة دار القاموس الحديث ، بيروت .

٨٣ ــ الطرطوسي (مرضي بن علي بن مرضي) :
تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسوار ، تحقيق الأستاذ كلود كاهن ، مجلة الدراسات الشرقية بالمعهد الفرنسي بدمشق ، ج ١٢ ، سنة ٤٧-١٩٤٨ بيروت ، ١٩٤٨ .

٨٤ ــ عبد التواب (الأستاذ عبد الرحمن) :
منشآتنا المائية عبر التاريخ ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٨٥ ــ ابن عبد الحكم (عبد الرحمن) :
فتوح مصر والمغرب والأندلس ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١ .

٨٦ ــ عبد الحميد (دكتور سعد زغلول) :
فترة حاسمة في تاريخ المغرب ، مجلة كلية الآداب والتربية ، بالجامعة الليبية ، المجلد الأول ، بنغازي ، ١٩٥٨ .

٨٧ ــ عاشور (دكتور سعيد عبد الفتاح) :
الحركة الصليبية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٨٨ ــ عثمان (دكتور فتحي) :
الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والإتصال الحضاري ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٨٩ ــ عبد الوهاب (الأستاذ حسن) :
الآثار الاسلامية بمصر ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٩٠ ـ العبادي (دكتور أحمد مختار) :
دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

٩١ ـ العبادي :
في التاريخ العباسي والفاطمي ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٩٢ ـ العدوي (دكتور ابراهيم أحمد) :
إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين في القرن التاسع الميلادي ، المجلة التاريخية المصرية ، اكتوبر ، ١٩٥٠ .

٩٣ ـ العدوي :
الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

٩٤ ـ العدوي :
الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٩٥ ـ العدوي :
قوات البحرية العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ،

٩٦ ـ ابن العديم الحلبي (كمال الدين أبو القاسم عمر) :
زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، ج ١ ، دمشق ، ١٩٥١ .

٩٧ ـ ابن عذاري (أبو العباس أحمد) :
البيان المغرب في أخبار المغرب ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٠ .

٩٨ ـ العذري (أحمد بن عمر بن أنس بن الدلائي) :
ترصيع الأخبار ، وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى الممالك ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، ١٩٦٥ .

٩٩ ـ عريب بن سعد :
صلة تاريخ الطبري ، ليدن ، ١٨٩٧ .

١٠٠ ـ العريني (دكتور السيد الباز) :
الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

١٠١ ـ عماد الدين الاصفهاني (أبو عبدالله محمد) :
كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق الأستاذ محمد صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

١٠٢ ـ العمري (شهاب الدين بن فضل الله) :
وصف إفريقيــة والمغرب والأندلس ، من كتاب مسالك الأبصار ، تحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٩٠٦ .

١٠٣ — عنان (الأستاذ محمد عبدالله) :
مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، القاهرة ، ١٩٣٤ .

١٠٤ — عواد (الأستاذ ميخائيل) :
المآصر في بلاد الروم والإسلام ، بغداد ، ١٩٤٨ .

١٠٥ — VASILIEV
Byzance et les Arabes, t. I Bruxelles, 1935.

١٠٦ — أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) :
المختصر في أخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩ .

١٠٧ — ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) :
تاريخ ابن الفرات، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق، ونجلاء عز الدين، بيروت ١٩٣٩ .

١٠٨ — FAHMY (Dr. Ali Moh.)
Muslim sea power in the eastern Mediterranean, Cairo, 1966.

١٠٩ — WIET (G.)
Une inscription d'un prince de Tripoli de la dynastie des Banu Ammar, Mémorial Henri Basset, Paris, 1928.

١١٠ — القزويني :
آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، ١٩٦٠ .

١١١ — ابن القطان (علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي) :
جزء من كتاب نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، تطوان .

١١٢ — ابن القلانسي (ابو يعلى حمزة) :
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ .

١١٣ — القلقشندي (أبو العباس أحمد) :
صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩١٣ .

١١٤ — كاشف (دكتورة سيدة اسماعيل) ومحمود (دكتور حسن) :
مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين ، القاهرة .

١١٥ — CANARD
Les expéditions des Arabes contre Constantinople, dans l'histoire et dans la légende, Journal Asiatique, 1926.

١١٦ — كرد علي (الأستاذ محمد) :
خطط الشام ، ج ٤ ، دمشق ١٩٣٦ .

١١٧ — كرد علي :
دمشق مدينة السحر والشعر ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٦ ، القاهرة ١٩٤٤ .
١١٨ — الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف) :
كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق الأستاذ رفن جست ، بيروت ، ١٩٠٨ .
١١٩ — LÉVI-PROVENÇAL (E.)
Histoire de l'Espagne Musulmane, t. II, Leiden, 1950.
١٢٠ — لوكاس (ألفريد) :
المواد والصناعات عند قدماء المصريين ، ترجمة الدكتور زكي اسكندر ، القاهرة ، ١٩٤٥ .
١٢١ — لويس (أرشيبالد) :
القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
١٢٢ — ماجد (دكتور عبد المنعم) :
نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
١٢٣ — ماجد :
ظهور دولة الفاطميين وسقوطها في مصر ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ .
١٢٤ — ماجد :
تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
١٢٥ — ماهر (الدكتورة سعاد) :
البحرية في مصر الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
١٢٦ — متز (آدم) :
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تحقيق الدكتور محمد عبدالهادي أبوريدة ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٤٩ .
١٢٧ — مجهول :
كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ .
١٢٨ — مجهول :
الحلل الموشية ، طبعة تونس ، ١٣٢٩ هـ
١٢٩ — مرزوق (دكتور محمد عبد العزيز) :
الفن المصري الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

١٣٠ — المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) :
مروج الذهب ، طبعة محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
١٣١ — المسعودي :
التنبيه والإشراف ، طبعة بيروت ، ١٩٦٥ .
١٣٢ — المصراتي (علي مصطفى) :
ابن حمديس الصقلي ، سلسلة اقرأ ، عدد ٢٥٠ ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
١٣٣ — المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله محمد) :
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعة ليدن ، ١٩٠٦ .
١٣٤ — المقري (أحمد بن محمد التلمساني) :
نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق الأستاذ محي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩ .
١٣٥ — المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) :
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق الدكتور جمال‌الدين الشيال ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧ .
١٣٦ — المقريزي :
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، نسخة مصورة من مخطوطة مكتبة سراي أحمد الثالث باسطنبول ، محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية تحت رقم ٢٠ م
١٣٧ — المقريزي :
السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
١٣٨ — المقريزي :
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٣ أجزاء ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩ .
١٣٩ — المقريزي :
البيـــان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق الأستاذ ابراهيم رمزي ، القاهرة ، ١٩١٦ .
١٤٠ — ابن مماتي (الأسعد بن المهذب) :
كتاب قوانين الدواوين ، تحقيق الدكتور عزيز سوريال عطيـــة ، القاهرة ١٩٤٣ ، (وطبعة مطبعة الوطن ببولاق ، القاهرة ١٣٢٢ هـ) .
١٤١ — ابن منجب الصيرفي :
الإشارة إلى من نال الوزارة ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

١٤٢ — ابن منظور (جمال الدين محمد) :
لسان العرب ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٥٥ .

١٤٣ — ابن منكلى (محمد) :
كتاب الأحكام الملوكية والضوابط النموسية في فن القتال في البحر ، لوحة ٤١ ، الباب ٢٩ ، نسخة مصورة محفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية رقم ٩ م .

١٤٤ — مؤنس (دكتور حسين) :
أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية في البحر المتوسط ، المجلة التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ .

١٤٥ — مؤنس :
المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٤ ، ١٩٥١ .

١٤٦ — مؤنس :
فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

١٤٧ — ناصر خسرو :
سفر نامة ، ترجمة الدكتور يحيي الخشاب ، القاهرة ، ١٩٤٥ (وطبعة بيروت ١٩٧٠)

١٤٨ — الناضوري (دكتور رشيد) :
أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٨

١٤٩ — نسيم (دكتور جوزيف) :
الوحدة وحركات اليقظة إبان العدوان الصليبي ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .

١٥٠ — نسيم :
العرب والروم واللاتين ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ .

١٥١ — النعمان (القاضي أبو حنيفة بن محمد المغربي) :
المجالس والمسايرات ، مخطوطة محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٦٠ ، وقطعة نشرها الأستاذ فرحات الدشراوي ، بعنوان « قضية إقريطش في عهد المعز لدين الله » ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثاني ، تونس ، ١٩٦٥ .

١٥٢ — النعمان :
دعائم الإسلام ، تحقيق الأستاذ آصف علي فيظي ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥١ .

١٥٣ — النويري (محمد بن قاسم السكندري) :
الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الاسكندرية ، نسخة مصورة من مخطوطة الهند ، محفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، برقم ٧٣٨ م

١٥٤ — النويري (شهاب الدين أحمد) :
نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة محفوظة بـــدار الكتب المصرية ، برقم ٥٤٩ معارف عامة .

١٥٥ — ابن هانئ الأندلسي :
كتاب تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانىء الاندلسي المغربي ، تحقيق الدكتور زاهد علي ، مصر ، ١٣٥٢ هـ .

١٥٦ — HEYD (W.)
Histoire du Commerce du Levant, 2 vols., Leipzig, 1885.

١٥٧ — الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد) :
كتاب الإكليل ، الجزء الثامن ، تحقيق الدكتور نبيه أمين فارس ، برنستن ، ١٩٤٠ .

١٥٨ — الهمداني :
صفة جزيرة العرب ، تحقيق الأستاذ محمد بن بليهيد النجدي ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

١٥٩ — الهمذاني : (ابن الفقيه) :
مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥ .

١٦٠ — هونيرباخ (ولهلم) :
البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ، تطوان ، ١٩٥٤ .

١٦١ — ابن واصل (جمال الدين) :
تاريخ الواصلين في أخبـــار الخلفاء والملوك والسلاطين ، نسخة مصورة من مخطوطة باريس ، محفوظة بالمكتبة العامة بجامعة الاسكندرية ، برقم ٦٤ .

١٦٢ — ابن الوردي (زين الدين عمر) :
تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، القاهرة ١٢٨٥ ،

١٦٣ — ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله) :
معجم البلدان ، خمسة مجلدات ، بيروت ، ١٩٥٥ .

١٦٤ — يحيي بن سعيد الانطاكي :
صلة كتاب سعيد بن بطريق ، بيروت ، ١٩٠٩ .

١٦٥ — اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) :
كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩١ .

١٦٦ — اليعقوبي
تاريخ اليعقوبي ، طبعة دار صادر ، بيروت (جزآن) وطبعة النجف ، ٣ أجزاء ، النجف ، ١٣٨٥ هـ .

١٦٧ — يني (جرجي) :
تاريخ سوريا ، بيروت ، ١٨٨١ .

البَحريّة الإسلاميّة في مِصرَ والشام

في عصري الأيوبيّين والمماليك

للدكتور أحمد مختار العبادي

تمهيد

امتازت مصر بموقعها الجغرافي الفريد بين القارات الثلاث : أوربا وآسيا وافريقيا ، وقد لعبت الملاحة دوراً هاماً في ربط مصر بشعوب تلك البلاد عن طريق البحر الأبيض المتوسط شمالاً ، والبحر الأحمر شرقاً ، ثم بحر النيل الذي يربط بين أجزائها وبين شعوب افريقيا جنوباً .

وهذا التعدد في أنواع البحار التي تطل عليها مصر ، قد فرض عليها اتخاذ سياسة خاصة تتفق مع كل جبهة من هذه الجبهات البحرية المختلفة .

فكل بحر من هذه البحار الثلاثة — الأبيض والأحمر والنيل — له تاريخه وأحداثه وسفنه وتجارته وقواعده الخاصة به . ومن ثمّ رأيت أن يكون حديثي عن البحرية العربية أيام الأيوبيين والمماليك ، مبنياً على أحداث هذه البحار الثلاثة في تلك الفترة من تاريخ مصر ، وليس على أحداث كل دولة على حدة ، لأن كلتا الدولتين لم تأت مصر على فراغ ، وإنما وجدت فيها جذوراً تاريخية وحضارية ، ومؤثرات جغرافية وجهت سياستها وحددت لها معالم الطريق . وعلى هذا الأساس قسمت هذا الموضوع إلى ثلاثة أبواب :

١ — الباب الأول عن البحرية النيلية ، تكلمت فيه عن بحر النيل النيل وحراجة ودور صناعته وسفنه والأحداث التاريخية والمواقع البحرية التي وقعت فيه على عهد الأيوبيين والمماليك .

٢ — الباب الثاني عن البحر الأحمر وقواعده ومراكبه وأهميته لمصر بحكم اتصاله بالحجاز واليمن والمحيط الهندي وتجارة المشرق ، مع ذكر

المواقع الحربية التي وقعت في مياهه أبان الفترة التي ندرسها .

٣ - والباب الثالث عن البحر الأبيض المتوسط الذي يربط مصر والشام بأوربا والمغرب العربي ، مع بيان أهم أحداث الحرب والسلام التي دارت في مياهه العربية على عهد الأيوبيين والمماليك .

وكان ديوان الأسطول هو الديوان المختص بالنفقة على شؤون القوات البحرية من سفن حربية وجند وبحارة وأسلحة ومؤونة بالاضافة إلى دور الصناعة التي قامت بأعمال الصيانة اللازمة للأسطول . وكانت شؤون الأسطول قبل ذلك على عهد الفاطميين تتبع ديواناً اسمه « ديوان جيش المصريين » فجاء صلاح الدين وغيَّر إسمه إلى ديوان الأسطول ، وولّى عليه قائداً من قبله عرف بصاحب الأسطول ، وكتب إلى جميع الأعمال المصرية والشامية يؤكد عليهم وجوب طاعته وتلبية طلباته : « القول قول صاحب الأسطول وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه »(١) .

وخصص صلاح الدين لديوان الأسطول متحصلات اقليم الفيوم ، والحبس الجيوشي ، وحراج السنط ، وحصيلة النطرون التي بلغت وقتذاك ٨ آلاف دينار ، وذلك فضلاً عن متحصل الزكاة وقدره أكثر من ٥٠ ألف دينار ، وأجرة المراكب الديوانية . وأضيف إلى تلك المتحصلات المخصصة لديوان الأسطول ، حصيلة قريتي اشنين وطنيدي التابعتين لعمل البهنسا محافظة المنيا الحالية ، وفي سنة ١١٩١ م (٥٨٧ ه) عيَّن صلاح الدين أخاه العادل رئيساً عاماً لديوان الأسطول ، فعيَّن صفي الدين ابن شكر نائباً في ذلك الديوان (٢) .

ولقد اهتم صلاح الدين بزيادة مرتبات المشتغلين في الأسطول الذين كانوا

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٦٩ حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ص ٧١ (القاهرة ١٩٦٤) .

(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ٧٣ ، ١٠٨ .

يأخذون رواتبهم حسب دينار الأسطول . وكان دينار الأسطول مثل دينار الجيش مسمى لا حقيقة ، غير أن المراجع المختلفة لا تسعف بشيء في هذا الموضوع ما عدا أن صلاح الدين قرر سنة ١١٧١ م (٥٦٧ ﻫ) أن يكون دينار الأسطول ٣/٤ الدينار العام ، بعد أن كان ٥/٨ ذلك الدينار على عهد الفاطميين . ويبدو أن قيمة ذلك الدينار اختلفت باختلاف درجات رجال الأسطول (١) .

وبعد عهد صلاح الدين صار الاهتمام بأمر الأسطول يتوقف على مدى قوة أو ضعف الخطر الصليبي على السواحل العربية ، ففي أيام السلطان الكامل محمد وولده السلطان الصالح أيوب ، شهدت مصر إهتماماً بالاسطول الأيوبي نتيجة للحملات الصليبية التي هاجمت السواحل المصرية بقيادة جان دي بريين صاحب عكا ، ولويس التاسع ملك فرنسا . ويظهر لنا هذا الاهتمام أيضاً في الوصية التي كتبها الصالح أيوب قبل وفاته لابنه وولي عهده تورانشاه ، ويقول فيها : « واحفظ يا ولدي ما أقوله لك فهذا جميعه ما عرّفني به الأخ فخرالدين ، وأخبرني أنه وقف على كتاب بخط صلاح الدين أن الفيوم وسمنود والسواحل والحراج للأسطول ، فالأسطول أحد جناحي الأسلام ، فينبغي أن يكونوا شباعاً ، ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة دائبة ، جاؤوا من كل فج عميق ، وهم رجال معروفون بالقذف والقتال » (٢) .

ولقد حرص سلاطين المماليك بعد ذلك على الاحتفاظ بأسطول قوي ، لاسيما بعد أن تركز الخطر الصليبي في جزيرة قبرص ، واشتدت غارات القبارصة على سواحل مصر والشام . وقد أشار قدامة إلى أن نفقات

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٥ ، حسنين محمد ربيع : نفس المصدر ص ٧٢ .

(٢) النويري (شهاب الدين أحمد) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٧ ورقة ٩١ — ٩٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة) ويقوم الزميل الدكتور جوزيف نسيم بنشر هذه الوصية كاملة في مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

الأسطول العربي عندما كان يستعد للغزو في ذلك الوقت ، بلغت نحو مائة ألف دينار »[1] .

وتمكنت مصر في النهاية من القضاء على هذا الوكر الصليبي الخطير عندما احتلت جزيرة قبرص سنة ١٤٢٦ م ، ولكنها لم تلبث أن اصطدمت بخطر التوسع البرتغالي الذي سلبهـا تجارتها وأموالها في المحيط الهندي والبحر الأحمر ، ثم بالخطر العثماني التركي الذي سلبها أرضها وممتلكاتها سنة ١٥١٧ م فكان ذلك بداية لعصر جديد .

---

(١) محمد ياسين الحموي : تاريخ الأسطول العربي ص ٨٩ ، سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٠٢ .

الباب الأول

البَحريَّة النيليَّة
في عصري الأيوبيّين والمماليك



الباب الأول

البحرية النيلية
في عصري الأيوبيين والمماليك

ارتبطت حياة المصريين بالنيل[1] ارتباطاً وثيقاً ، فهو الذي يرويهم ويروي أراضيهم ، ولولاه لكانت مصر جزءاً من الصحراء الممتدة على جانبي الوادي . وقد بلغ من حب المصريين له أنهم قدسوه وألهوه من قديم وأطلقوا عليه إسم حابي . أما لفظ نيل الذي عرف به حتى اليوم ، فقد أطلقه عليه اليونانيون ، وهو مشتق من كلمة نيلوس ، وعنهم انتقل هـذا الاسم إلى مختلف اللغات . وعندما فتح العرب مصر ، ظلوا يستعملون لفظ النيل للدلالة على النهر ، ولم ينكروا أصله اليوناني ، وان أطلقوا عليه أيضاً اسم البحر كما فعل المصريون القدماء من قبل حينما أطلقوا عليه اسم يارو أي البحر العظيم .

ولقد ظلت موارد الدولة على مـدى العصور تعتمد على النيل ، تبعاً لارتفاعه وانخفاضه ، وما يخرجه ريفه[2] من غلات ومحاصيل . ولما كان مجرى النيل بمصر صالحاً للملاحة ، فانه أصبح الطريق الرئيسي لنقـل البضائع والمحاصيل والمسافرين من مكان لآخر سواء في داخل البلاد نفسها أو إلى الثغور البحرية كالاسكندرية ودمياط ورشيد والفرما[3] .

---

(١) يقدر طول النيل بنحو ٦٥٠٠ ك . م .

(٢) المقصود بالريف في مصر هو الأراضي الداخلية المتاخمة للنيل ، بينما تطلق في المغرب والأندلس على الأراضي المتاخمة للبحر أو المحيط ، فيقولون ريف البحر وأرياف العدوة والأندلس . ثم صار هذا اللفظ اسماً علماً على الجبال الممتدة بحذاء البحر المتوسط في شمـال المغرب الأقصى وهي جبال الريف التي ينتمي إليها بطل الريف عبد الكريم الخطابي .

(٣) محمد حمدي المناوي : نهر النيل في المكتبة العربية ص ٩ .

وفي زمن الفيضان عندما يغمر الماء الارض ، كان الانتقال بين القرى غير ميسر إلا عن طريق القوارب وخفاف المراكب . كذلك كان الاتصال بين شاطئ النيل يتم – كما هو الحال اليوم – أما عن طريق سفن خاصة تعبر بين شاطئيه ، أو عن طريق الجسور (الكبارى) التي لم تكن في ذلك الحين إلا سفناً متراصة بجانب بعضها ، ومغطاة بألواح خشبية ليمر عليها الناس ببضائعهم ودوابهم .

حراج خشب السفن في وادي النيل :

ومن المشاكل الرئيسية التي واجهت الحكومة المصرية على مر العصور ، مشكلة الحصول على المواد الخام اللازمة لبناء السفن مثل الخشب والحديد والكتان والقطران والزفت ... الخ . وكان الخشب هو أهم تلك المواد بطبيعة الحال . وقد عني قدماء المصريين بغرس أنواع من الأشجار التي جلبوها من وسط أفريقيا والهند مثل شجر السنط acacia ، والطرفاء أو الأثل Tamarisk ، واللبخ Lebeks ، والجميز Sycamore ، والسدر (النبق) Nabk .

وقد أشار الرحالة اليوناني استرابون الذي زار مصر في القرن الأول قبل الميلاد ، إلى وجود غابات من شجر السنط بنواحي ممفيس وأبيدوس (العرابة المدفونة) في صعيد مصر . كذلك استوردت مصر خشب الأرز والصنوبر من الشام والبلقان وخشب الأبنوس من الحبشة والسودان [١] .

وفي العصر الإسلامي استمرت الحاجة ملحة إلى خشب السفن خصوصاً بعد اشتداد الضغط المسيحي وامتناع بعض الدول المسيحية من تصديره إلى مصر . ومن المعروف أن موقعة الصواري التي انتصر فيها الأسطول المصري على الأسطول البيزنطي سنة ٦٥٤ م (٣٥ هـ) ما هي إلا مظهر

---

(١) أنظر : A. F. Weheba: The Agriculture of Egypt during the Arab Period: p. 642–1517 A. D. p. 134–141, (Thesis of. M. A. unpublished, University of London 1952).

من مظاهر ذلك الصراع العنيف بين المسلمين والبيزنطيين من أجل الحصول على خشب الأناضول (آسيا الصغرى) .

لهذا عني ولاة مصر وملوكها بزيادة انتاج الخشب المحلي عن طريق غرس أشجار السنط واللبخ والجميز والطرفاء أو الاثل على ضفاف النيل أو حول ضياعهم وبساتينهم الشاسعة . كذلك حرص هؤلاء الحكام على احتكار تجارة الخشب ومنع الناس من التصرف في أعواده ، وتشديد الحراسة على حراجه ولا سيما حراج السنط acacia التي كانت تعرف باسم الحراج السلطانية [١] .

وقد ذكر النابلسي أن صلاح الدين الأيوبي اعتبر هذه الحراج السلطانية كأنها من المعادن ، ليس لأحد فيها ملك ولا اختصاص ، فهي لبيت المال وقد عملت بها أوراق مخلّدة في الديوان [٢].

وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تحديد مساحة هذه الحراج المصرية ، إلا أنه من المعروف أنها كانت توجد في أماكن مبعثرة في جنوب الدلتا وصعيد مصر .

ففي جنوب الدلتا كان يوجد بضواحي مصر والقاهرة كالمطرية وما حولها شجر سنط يساوي ما يقرب من مائة ألف دينار . وكذلك الحال بالنسبة لحراج السنط في قليوب والأراضي القريبة منها مثل ناي وطنان . هذا إلى جانب ما كان يوجد في الجيزة من سنط واثل وغير ذلك [٣] .

---

(١) أنظر : (Aly Bahgat: Les Forêts en Egypte, Bull. Inst Egyp. 1900).

(٢) عثمان بن براهيم النابلسي (ت ٦٥٦ ﻫ (١٢٥٨م) كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ص ٤٥ – ٦٠) . (Bulletin d'Etudes Orientales. t. XVI, 1958 - 1960 (Damas 1961). وقد ألف النابلسي هذا الكتاب برسم خزانة السلطان الصالح نجم الدين أيوب .

(٣) النابلسي: كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية ص ٤٥ – ٦٠ ويشير المقريزي (اتعاظ الحنفا ص ٢٧٧) إلى أن الخليفة العزيز بالله الفاطمي خرج إلى الجيزة ليصيد سبعاً ، ثم عاد وهو بين يديه . وهذا قد يؤيد ما رواه النابلسي من وجود حراج في الجيزة .

أما حراج الصعيد ، فكانت أكثر من ذلك ، إذ يروي كل من ابن مماتي والمقريزي أنه في عهد صلاح الدين « كان يوجـــد في الأشمونين وفي أسيوط وأخميم وقوص[1] أشجار من سنط لا تحصى كثرة ، لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الاسطول فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه . وكان فيها ما تبلـغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار . وكان يستخرج من هــذه النواحي مال يقال له رسم الحراج ، ويحتج في جبايته بأنه نظير ما تقطعه أهل النواحي ، وتنتفع به من أخشاب السنط في عمارة طواحينهم وسواقيهم وخشب النار . وآخر ما كان يجبى منهم يعرف بقرر السنط، وهو بمثابة اجرة قطـــع الخشب وحزمه وحمله من الحراج بدلاً منهم . وكان على المستخدمين في ذلك أن لا يقطعوا من السنط ما يصلح لعمل مراكب الأسطول لكنهم انما يقطعون الأطراف التي ينتفع بها في الوقود فقط . ويقال لهذا الذي يقطع حطب النار ، فيباع للتجار منه كل مائة حمل بأربعة دنانير ، ويكتب على أيديهم زنة ما بيع عليهم ، فاذا وردت المراكب بالحطب إلى ساحل مصر ، اعتبرت عليهم وقوبل ما فيها بما عين في الرسالة الواردة واستخرج الثمن على ما في الرسالة . وكانت العادة أنــه لا يباع بما في البهنساوية إلا ما فضل عــن احتياج المصالح السلطانية »[2] .

على أن هذه العناية بالحراج لم تلبث أن أخذت تقل تدريجياً منذ أواخر أيام الدولة الأيوبية ، « وصار العوام والخواص على ممر الزمان يقطعون منها ما يحتاجونه بالنزر اليسير ، ويحضرونه إلى ساحــل مصر ويصالحون ديوان ساحل السنط على الثلث المقرر للديوان بشيء يسير ، ويبيعونه بالأموال المستكثرة حتى لما صار هذا مكسبه ، صار جماعة من الأعيان المنكمشين

---

(١) ذكر صاحب كتاب الاستبصار (ص ٨٧) أنه بالقرب من قوص وقفط كان يوجـد على أيامه (ق ١٢ م) شعراء كثيفة .

(٢) الأسعد بن مماتي (ت١٢٠٩م) : قوانين الدواوين ص٥ ٣٤-٣٤٧ ، المقريزي : الخطط ج ١ ص ١١١ ، ١٩٤ .

على الدنيا يبعثون ويحضرون السنط ويبيعونه وكلاؤهم بالجمل . وكذلك كان الحال بالنسبة لأهل الصعيد الذين حول الحراج ممن قرب وبعد ، صاروا يقطعون ما يحتاجونه من السواقي وآلات المعاصر وغيرها ، وما يوقدون به في معاصرهم بالجمل الكثيرة على مر الزمان »[١] .

وهكذا أخذت حراج السنط في الاختفاء بحيث لم ينته القرن الثالث عشر الميلادي إلا وكانت حراج الدلتا في طنان وناي وقليوب والجيزة قد اختفت تماماً ثم تلتها حراج الصعيد في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي ، وتحولت معظمها إلى أراضي زراعية[٢] . فالمقريزي الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي يقول إنه على أيامه : « قد بطل هذا جميعه ، واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة ، ونسي هذا من الديوان »[٣] .

على أن اختفاء حراج السنط من ضفاف النيل لم يمنع من وجودها في أماكن أخرى من الديار المصرية ، مثال ما يرويه بعض المؤرخين من أن أشجار السنط كانت تنمو بكثرة في شبه جزيرة سيناء وحول السويس ، وأن صلاح الدين اهتم بتلك الأشجار لأهمية أخشابها في بناء السفن في وقت اشتدت فيه الحرب البرية والبحرية ضد الصليبيين حتى بلغ ثمن العود الواحد من تلك الأشجار مائة دينار . وفي عصر المماليك ظلت القوافل تحمل أخشاب شجر السنط بانتظام بين السويس والقاهرة مما أضفى على السويس أهمية اقتصادية خاصة[٤] .

ومن الأشجار الأخرى التي استخدمها المصريون في بناء سفنهم ، نذكر شجر اللبخ Lebeks الذي يشبه السنط في قوته وله زهرة زكية الرائحة

---

(١) النابلسي : المرجع السابق ص ٤٨ .

(٢) المقريزي: الخطط ج ١ ص ١٢٠ . (Weheba Op. cit. p. 140 & Bahgat A. : Op. cit)

(٣) المقريزي : الخطط ج ١ ص ١١٠ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : مدينة السويس ومنطقتها منذ الفتح العربي إلى بداية العصر الحديث ص ٧٧ (كتاب السويس في سلسلة بلادنا) .

يسميها العامة « دقن الباشا » . وقد وصف خشبه بعض المؤرخين أمثال أبي حنيفة الدينوري (ت ٨٩٥ م) وعبد اللطيف البغدادي (ت ١٢٣١ م) والمقريزي (ت ١٤٤٢ م) ، فقالوا بأنه عود تنشر منه ألواح السفن ، وربما أرعفت ناشرها ، وأن أصحاب المراكب يستخدمونه لبعض العلل ، فاذا ضم منه لوحان ضماً شديداً وجعلا في الماء سنة التحما وصارا لوحاً واحداً ، ويباع اللوح منه بخمسين ديناراً[1] . ويذكر ياقوت الحموي (١٢٢٩ م) بأنه رأى شجر اللبخ في مصر ، وأنـه ينبت بكثرة في جميع نواحيها ، بينما ينص المقريزي (ت ١٤٤٢ م) على أنه ينبت بصفة خاصة في مدينة أنصنا[2] (النصلة الحالية) بمركز ملوى .

كذلك كان شجر الجميز من ضمن الأشجار التي استخدم خشبها أيضاً في بناء الأسطول المصري ، وقد أشار إليه المقريزي عند قوله :

« وكان يوجـد بشاطئ النيل في جزيرة الروضة صف جميز يزيد على أربعين شجرة قطعت جميعها في الدولة الظاهرية (الظاهر بيبرس) ، وعمر

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٥٠٥ .

(٢) ورد في تاريخ مصر أنه كان يوجد في شرقي النيل بالصعيد بلدة قديمة تسمى بيسا Bésa وفي سنة ١٣٠ م أنشأ الأمبراطور هدريان الروماني ملـك مصر بأرض هذه البلدة قبراً لغلامه انطونيوس الذي غرق عندها في النيل ، ثم بنى أعيان هذه البلدة مساكنهم حول حدائق هذا القبر ، فعرفت المدينة منـذ ذلك الوقت باسم انطنوية Antinoé واختفى اسم بيسا نهائياً . ولم يلبث اسم انطنوية ان حرف إلى An cina, Eansené, Enselé . سماهـا العرب أنصنا . وقد وصفها الادريسي (ق ١٢ م) بأنها مدينة مطلسمة كثيرة البساتين وأن فرعون جلب منها السحرة في يوم الموعد لقاء موسى النبي (نزهة المشتاق ص ٤٥ ، ٤٦) ويضيف صاحب صاحب كتاب الاستبصار (ق ١٢ م) بأنه ينسب إلى هذه المدينة مارية القبطية التي اهداها المقوقس إلى الرسول (صلعم) (كتاب الاستبصار ص ٨٥) . وقـد ظل اسمها يطلق على زمامها لغاية أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، وبسبب خراب مساكن هـذه البلدة قيد زمامها باسم الشيخ عبادة سنة ١٨١٥ م وبذلك اختفى اسم أنصنا ، ومكانها اليوم الاطلال الواقعة في حوض مدينة النصلة (المحرفة عن انصنا) بأراضي الشيخ عبادة الواقعة شرقي النيل بمركز ملوى . راجع محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، القسم الاول ، الخاص بالبلاد المندرسة ص ١٣٢ – ١٣٣ (القاهرة ١٩٥٣) .

بها الشواني عوض الشواني التي كان قد سيّرها إلى جزيرة قبرص »[1].

هذا ، ويشير ابن اياس في مواضع عديدة إلى أن بعض سلاطين دولة المماليك الثانية (الجراكسة) استخدموا في انشاء المراكب الحربية « أشجار الغيطان » لأنها كانت تقطع من الغيطان رغم أنف أصحابها ، ومثال ذلك قوله :

« وفي ذي القعدة سنة ٨٦٣ ﻫ (١٤٥٩ م) رسم السلطان اينال بعمارة المراكب بسبب التجريدة التي عينها إلى قبرص ، وكان الشاد[2] على عمارة المراكب سنقرقرق الزردكاش ، فأظهر في تلك الأيام التي كان شاداً فيها غاية الظلم والعسف ، وقطع أشجار الغيطان غصباً ، وحصل منه للناس غاية الضرر[3] ... وفي رمضان سنة ٨٦٤ ﻫ (١٤٦٠ م) انتهت عمارة المراكب الأغربة التي أنشأها السلطان بجزيرة اروى[4] ، بسبب التجريدة المعينة إلى قبرص[5].

وفي موضع آخر يذكر ابن اياس هذه الحادثة بقوله :

وفي سنة ٨٦٣ ﻫ (١٤٥٩ م) ، حضر إلى الأبواب الشريفة جاكم Jacques[6] ابن ملك قبرص ، وطلب من السلطان اينال نجدة ، فعين

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٨٥ .

(٢) الشاد موظف من كتاب الأموال بالدواوين وعمله ضبط أموال الديوان التابع له ، وكان لكل ديوان من دواوين الدولة ناظر تحته المستوفي والشاد (صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

(٣) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٦٦ .

(٤) جزيرة اروى أو الجزيرة الوسطى، تقع في وسط النيل بين بولاق وجزيرة الروضة وبر الجيزة انحسر عنها الماء حول سنة ٧٠٠ ق (١٣٠٠ م) وتعرف اليوم باسم الجزيرة أو جزيرة الزمالك . راجع (عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة ص ٩٤) .

(٥) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٧٦ — ٧٧ .

(٦) هذا الأمير جاكم ابن غير شرعي لملك قبرص جان الثاني دي‌لوزنيان Jean II de Lusignan وبعد وفاة هذا الملك سنة ١٤٥٨ م تولت الحكم ابنته الشرعية شارلوت التي تزوجت ابن‌عمها لويس دي سافوى وأشركته معه في الحكم . فاضطر أخوها جاكم Jacques إلى السفر إلى مصر للاستنجاد بسلطانها اينال الذي قبل طلبه وولاه ملكاً على قبرص وصار يعرف باسم Jacques II le Bâtard (١٤٦٠—١٤٧٣ م) .
راجع (ابن اياس) : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٦٥ حاشية ٤ ، تحقيق محمد مصطفى (القاهرة ١٩٥١) .

السلطان معه تجريدة ، وكان باش العسكر ، الامير يونس الدوادار . ثم أن السلطان شرع في عمارة أغربة بالجزيرة الوسطى ، وكان الشاد على عمارة هذه الأغربة الأمير سنقر قرق الزردكاش فحصل منه غاية الظلم لأرباب الغيطان بسبب الأخشاب . فلما كملت عمارة تلك الأغربة نزل السلطان بنفسه ، وكشف على عمارة الأغربة ، وكان له يوم مشهود ، ونزل من القلعة في موكب عظيم ، وتوجه إلى الجزيرة الوسطى فرموا قدامه الأغربة في البحر والنفط والطبل عمال حتى انتهى ذلك »[1] .

ومن الغريب أن اسم الغيطان كان يطلق أيضاً على بعض أنواع السفن المصرية منذ أيام الفاطميين وقد أشار إليها المؤرخ المغربي ابن القطان عند وصفه لبعض قطع الأسطول المصري التي وصلت إلى المغرب على أيامه ، فيقول : « وفيها (أي سنة ٥٣٢ هـ – ١١٣٧ م) كان غزو المراكب المصرية التي وصلت من الاسكندرية ، منها المركب الغيطاني ، والمركب العجزي ، وكانت عظيمة الجرم جداً ، وكانت فيها أموال عظيمة وخلق كثير »[2] .

ولا ندري ان كانت هذه المراكب الغيطاني والعجزي لها علاقة بالخشب الغيطاني وأعجازه ، وكيفما كان الأمر فانه من الملاحظ أن حكام مصر في مختلف العصور كانوا لا يترددون ، حينما يشح خشب السفن ، في استخدام أي نوع يجدونه من الأشجار ما دام يصلح لهذا الغرض . وقد ظلت هذه العادة مستمرة حتى عهد محمد علي ، إذ يروي الجبرتي أنه أضطر إلى استخدام أشجار التوت والنبق في عمل المراكب إلى جانب الأخشاب الرومية[3] .

ومن كل ما تقدم نرى أن مصر رغم انتاجها لأنواع مختلفة من خشب السفن ، فان هـذا الانتاج المحلي لم يسد حاجتها فضلاً عن أنه كان يقل جودة عن الخشب الأجنبي . ولهذا اضطرت مصر إلى استيراده من الشام

(١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٢ ص ٦٣ .
(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٣٣ – ٢٣٤ نشر محمود مكي .
(٣) الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج ٤ ص ١٥٨ .

والأناضول والبلقان والبندقية . وغير بعيد كذلك أن يكون تدخل الجيوش الأيوبية والمملوكية في افريقية (المغرب الأدنى) على عهد صلاح الدين [١] ، والظاهر بيبرس [٢] ، والناصر محمد بن قلاوون [٣] وغيرهم ، كان من دوافعه الحصول على أخشاب هذه المنطقة وكذلك على القطران الذي كان يصنع من زيوت بعض اشجارها ، وقد نص الادريسي على أن هـذه الصناعة كانت رائجة في نواحي طرابلس الغرب في مكان يسمى اللّـك .

أما بخصوص خشب الأناضول فيروي ابن بطوطة (ق١٤م) عند كلامه على مدينة العلايا الواقعة على ساحل الأناضول ، أنها كثيرة الخشب ومنها يحمل إلى الاسكندرية ودمياط ، ويحمل منها إلى سائر بلاد مصر [٤] .

كذلك يفهم من كلام ابن اياس أنـه في أيام دولة المماليك الجراكسة ، جرت العادة أن يخرج جماعة من الأمراء والجند في عدد من المراكب إلى مكان يسمى الجون لاحضار الأخشاب من هناك . وأغلب الظن أن المقصود بالجون هنا هو مدينة ببر التركية الواقعة على ساحـل البحر المتوسط في الأناضول ، إذ يقول ابن اياس في هذا الصدد : « وفي ربيـع الأول سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٨ م) عين السلطان قايتباي الأمير وردبش الظاهري بأن يخرج إلى الجون بسبب احضار الأخشاب ، وعين معه جماعة من الجند ، وأمرهم أن يدخلوا إلى قبرس ويطالبوا أصحابها بالجزية ، ويتوجهون من هنـــاك إلى الجون لاحضار الأخشاب على العادة [٥] .

كذلك كانت جمهورية البندقية Venecia تمـــد مصر بالخشب والمواد اللازمة لبناء السفن . ففي جميـع المعاهدات التجارية التي أبرمت بين مصر وبين البلاد المصدرة للخشب ، نلاحظ أن مصر كانت تنص دائماً على طلب

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٩ .
(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٨ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٧ .
(٤) ابن بطوطة : تحفـــة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج ٢ ص ٢٥٧ ، نشر وترجمة دفريمري وسانجينتي (باريس ١٩٢٢) .
(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٢ ؛ صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٣٧ .

خشب الأرز والصنوبر والحديد والقطران وغير ذلك من المواد التي تقوم عليها صناعة السفن والمراسي . وفي بعض الأحيان كانت هـــذه الدول المسيحية تضطر تحت ضغط الصليبيين والبيزنطيين إلى وقف بيع خشب السفن لمصر ، ولكنها لا تلبث أن تعود ثانية إلى تصديره لها عندما تتفق مصلحتها الاقتصادية مع مصالح المصريين . فحينما هـدد البرتغاليون تجارة مصر والبنادقة في المحيط الهندي ، والبحر الأحمر على عهد قنصوه الغوري سلطان مصر ، أرسل إليه البنادقة الأخشاب إلى السويس ومعهـــا عمال ماهرون في إنشاء الأساطيل ، وكان الغرض من ذلـك هو مقاومة نفوذ ذلك العدو المشترك في تلك البحار .

دور الصناعة المطلة على النيل

من المعروف أن لفظ دار الصناعة في المصطلح الإسلامي يعني المكان الخاص بصناعة السفن وقد انتقلت تلك التسمية بلفظها ومعناها إلى اسبانيا بعـــد أن فتحها العرب ثم انتشرت من هناك إلى أوربا في صور مختلفة مثل Arsenal, Atarazana, Darsana ومن الطريف أن هذا اللفظ ارتد إلينا بعد تحريفه في صورة ترسانة كما هو جار على الألسن اليوم .

وقد جرت العادة أن تكون دور الصناعة قريبة من ساحل البحر أو النهر ، وقريبة كذلك من مناطق الخامات الطبيعية اللازمة لانشاء السفن وأهمها الخشب . ولهـــذا كان من الطبيعي أن يكون نهر النيل مركزاً لصناعة الاساطيل الحربية والتجارية في مصر . وذلك لأن خشب السفن كانت أشجاره تنبت في واديه ، وكذلك الكتان الذي تصلح أليافه لعمل الحبال وأدوات السفن[١] . ثم إن نهر النيل نفسه كان طريقاً سهلاً لنقل

---

(١) قال ابن الفقيه (كتاب البلدان ج ٥ ص ٦٦) ومن عجائب مصر نوع من الكتان اسمه الدقس كانت تصنع منه حبال السفن وكانت تسمى الفرقس . راجع كذلك (سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ٣١٢) .

الخامات قبل تصنيعها إلى دور الصناعة المنتشرة على سواحله . وقد أشار ابن مماتي إلى بعض أنواع المراكب الحكومية النيلية التابعة لديوان الأسطول مثل مراكب أرباع الكيل ، والمراكب الملوحة ، التي كانت مهمتها نقل الأخشاب من الحراج إلى دور الصناعة الحكومية [1] . ولا شك أنه كانت توجد أيضاً صناعات غير حكومية لبناء السفن الأهلية على امتداد وادي النيل وفروعه مصر . ولا زالت بقايا هذه الصناعات الأهلية مستمرة حتى اليوم .

أما دور الصناعة الرسمية التي ينفق عليها ديوان الأسطول ، فقد أنشئ بعضها في الثغور البحرية المطلة على البحرين الأبيض المتوسط والأحمر ، وأنشئ البعض الآخر على ساحل النيل وهي التي تهمنا في هذا الباب .

ويلاحظ أن هذه الصناعات الرسمية أو الحكومية التي قامت على ساحل النيل ، قد تركزت بصفة خاصة بمدينة مصر عند قمة الدلتا . ونظراً لأن هذه المنطقة كانت عرضة لتغير مستمر نتيجة لتنقل النيل وعدم استقراره في اقليم الدلتا بوجه عام ، فان هذه الدور الصناعية لم تتخذ مكاناً ثابتاً على شاطئ النيل بل كانت تتغير على مر العصور نتيجة لانحسار مياه النيل عنها وظهور بعض الجزر أمامها .

ومن أهم دور الصناعات التي أنشئت على ساحل مدينة مصر والجزر المقابلة لها نذكر :

١ – دار صناعة الروضة

وهي أول صناعة انشئت في النيل عقب الفتح العربي لمصر وكانت تسمى في بادئ الأمر بدار صناعة الجزيرة ثم سميت بصناعة الروضة في العصر الفاطمي نسبة إلى البستان الذي أنشأه في شمال الجزيرة الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ١٠٩٦ م (٤٩٠ ﻫ)

---

(١) الأسعد بن مماتي : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٤٨ .

وسماه بالروضة . وهـذه الجزيرة تقع في النيل ويواجه طرفها الشمالي ما يسمى الآن جاردن سيتي ، والطرف الجنوبي أمام مصر القديمة . وظلت صناعة هـذه الجزيرة تعمل منذ الفتح العربي إلى أن حولها محمد بن طغج الأخشيد إلى ساحل النيل بالفسطاط ، وجعل موضعها بستاناً سماه المختار . وفي زمن الفاطميين أعيدت صناعة الجزيرة من جديد وصارت تختص بانشاء الحراريق والشلنديات ، بينما تخصصت صناعـة الفسطاط بانشاء الشواني وغيرها من المراكب النيلية الديوانية [١] . ولما ولى السلطان الصالح نجم الدين أيوب على مصر أنشأ بها قلعة الروضة التي امتدت مبانيها إلى مقياس النيل في طرفها الجنوبي فعرفت أيضاً بقلعة المقياس ، وجعلها مقراً له ولمماليكه البحرية .

وبعـد سقوط الدولة الأيوبية ، قلت العناية بجزيرة الروضة وخربت قلعتها ودار صنعتها ، وأهمل الجسر الذي يربط بينها وبين مدينة مصر . فلما ولـى السلطان الظاهر بيبرس ، اهتم بعمارة الجسر وقلعة الروضة كما اهتم بدار صناعتها لكثرة ركوبه بحر النيل واعتنائه بعمارة الشواني ولعبها في البحر ، فغدت السفن الحربية والتجارية تصنع في صناعة الروضة تارة ، وفي صناعة الفسطاط أو مصر تارة أخرى [٢] .

واستمرت عناية سلاطين المماليك بصناعـة الروضة حتى نهاية دولتهم وبداية الاحتلال العثماني . وقد أشار ابن اياس إلى ذلك عند قوله :

« وفي سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢٠ م) توجه ملك الأمراء إلى الروضة وكشف على المراكب الحربية التي عمرها هناك ثم شق البحر وطلع من عند قصر ابن العيني وتوجه من هناك إلى القلعـة ، فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان » [٣] . ويضيف ابن اياس في احداث السنة التالية (٩٢٨ م) أن

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ق ص ٣٠١ حاشية ١ ؛ الخطط ج ٢ ص ١٩٦ .

(٢) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٨٥ ، ٢٩٧ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٤٧ .

جماعة من النجارين والقلافطة في دار صناعة الروضة ، توجهوا إلى ملك الأمراء ، وعلى رؤوسهم المصاحف وهم يستغيثون « الله ينصر السلطان سليمان » ، فظن ملك الأمراء أنهم من الجامع الأزهر ثم تبين أنهم نجارون وقلافطة أتوا يشتكون من الشاد على المراكب التي عمرها ملك الأمراء في الروضة بأنه قد ظلمهم وجار عليهم . فلما كثر منهم الضجيج ، أمر ملك الأمراء من حوله من الانكشارية بضربهم فشتتوا أجمعين »[١] .

٢ - دار صناعة مصر (الفسطاط) أو صناعة العمائر

أنشأها محمد بن طغج الأخشيد سنة ٩٣٦ م بساحل مصر القديمة وظلت تعمل أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك . فيروي المقريزي أن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي أنشأ بها مراكب مفصلة وحملها على الجمال من القاهرة في عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة[٢] . وكانت قد ملكها الفرنج ، فنازلها في ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) وأقام المراكب وأصلحها وطرحها في البحر وشحنها بالمقاتلة والأسلحة ، وقاتل أيلة في البحر حتى فتحها[٣] . ويضيف المقريزي أن هذه المدينة الصناعية قامت بانشاء السفن والحراريق التي نقلت الأمراء والجنود إلى اليمن على عهد صلاح الدين[٤] . ولم تقتصر هذه الصناعة على إنشاء مراكب الغزو في البحر الأحمر أو النيل ، بل أمدت صلاح الدين أيضاً بأساطيل البحر المتوسط أثناء جهاده للصليبيين في الشام . فكانت هذه المراكب بعد تمام إنشائها في صناعة مصر ، تشحن بآلات الحرب والمقاتلة ثم تقلع في النيل إلى الثغور الشمالية كالاسكندرية أو رشيد أو دمياط أو الفرما[٥] ، حيث تمر من هناك إلى جهاد أعداء

---

(١) ابن اياس : نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٩ .
(٢) قلعة ايلة أو عقبة ايلة ، ومكانها اليوم العقبة الأردنية ، وايلات الخاضعة للحكم الاسرائيلي .
(٣) المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٨٥ .
(٤) المقريزي : السلوك ج ١ ق ص ٧٤ .
(٥) كان يمر بالفرما قديماً فرع النيل البلوزي ، أما الاسكندرية فكان يربطها بالنيل قناة الخليج التي تقابل ترعة المحمودية اليوم .

الدين من الروم أو الفرنج في البحر المتوسط[1] .

وفي عهد كل من السلطان الكامل محمد وولده الصالح أيوب ، قامت دار صناعة مصر بدور هام في إعداد المراكب الحربية التي كان لها الفضل الأول في صد العدوان الصليبي على مصر بقيادة جان دي برين صاحب عكا ، ثم لويس التاسع ملك فرنسا[2] .

ولقد سار سلاطين المماليك على سنّة أسلافهم الأيوبيين من حيث العناية بدار صناعة مصر ، فيروي المقريزي أن السلطان الظاهر بيبرس منع الناس من التصرف في أعواد العمل (أي خشب السفن) ، وأمر بانشاء عشرين شونة ، ولازم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم مدة شهر المحرم سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧١ م) إلى أن تم انشاؤها . فلما كان في نصف المحرم سنة ٦٧١ هـ زاد النيل حتى لعبت الشواني بين يديه ، فكان يوماً مشهوداً[3] . ومن طريف ما يحكى أنه بينما كان السلطان بيبرس منهمكاً في الاشراف على عملية بناء هذه السفن الحربية في صناعة مصر ، وفدت عليه رسل ملك صقلية ، فاستقبلهم وهو جالس بين الأخشاب ، والصناع والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشواني وهي تمد ، فراعهم ما شاهدوا[4].

واقتدى ببيبرس سلاطين المماليك الذين جاءوا بعده ، فاهتم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بانشاء أسطول قوي في صناعة مصر سنة ٦٩٢ هـ وعهد باعداده إلى الوزير شمس الدين محمد بن السعلوس . فلما كملت عدته ستين شينياً أمر بتجهيزها بالآلات الحربية والجند ، ثم سار السلطان إلى صناعة مصر لعرض الأسطول وأقام لذلك احتفالاً كبيراً أقبل عليه الناس من كل مكان قبل الاحتفال بثلاثة أيام ، وبنوا لهم أكواخاً من الخشب

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٨٩ .
(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٣٣ .
(٣) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٩٤ .
(٤) المقريزي : السلوك ١ ق ٢ ص ٦٠١ .

وأخصاصاً من القش على شاطئ النيل خارج مدينة مصر ، وعلى شاطئ جزيرة الروضة المقابل له بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا وخرج أهله لرؤية ذلك . وركب السلطان من قلعة الجبل بكرة ، ووقف قدام دار النحاس بشاطئ مصر القديمة ، ثم برزت الشواني واحدة بعد واحدة ، وقد عمل في كل شونة برج وقلعة ، وأخذت تقوم بمناورات بحرية وتقاتل بعضها بعضاً ، وترمى بالنفط ، كما تبارى البحارة ، وأظهر كل واحد منهم في شونته عملاً معجباً ، وصناعة غريبة يفوق بها صاحبه . ثم تقدم ابن موسى الراعي في مركب نيلية ، ودشن الأسطول الجديد بقراءة الآية الكريمة « بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم »[1] .

وسار السلطان الناصر محمد بن قلاوون على منوال أخيه الأشرف خليل من حيث العناية بصناعة مصر ومراكبها . ففي سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) ، أنشأ السلطان الناصر في هذا المصنع أسطولاً قوياً غزا به جزيرة أرواد عند ساحل مدينة طرطوس شمالي طرابلس . وقد أعطانا المقريزي وصفاً للاحتفال الذي أقيم بمناسبة انزال هذه الشواني البحر استعداداً لسفرها إلى طرابلس ، قال :

« فلما كان المحرم سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) تنجزت عمارة الشواني ، وجهزت بالمقاتلة والآلات ، والنفطية والأزودة مع الأمير جمال الدين أقوش والي البهنسا . واجتمع الناس لمشاهدة لعبهم في البحر ، ونزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون والأمراء لمشاهدة ذلك . ثم برزت الشواني للعب كأنها في الحرب : فلعب الأول والثاني والثالث . وأعجب الناس بذلك اعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط وآلات الحرب . ثم تقدم الرابع وفيه أقوش ، فما أن خرج من مينا الصناعة بمصر ، وتوسط النيل حتى لعب به الريح ، ومال به ميله واحدة ، فانقلب وصار أعلاه أسفله ، فصرخ الناس صرخة واحدة كادت تسقط منها ذات الاحمال ،

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٩٤ – ١٩٥ .

وتكدر ما كانوا فيه من الصفو ؛ وتلاحق الناس بالشيني وأخرجوا من سقط منه في الماء ، فلم يعدم منه سوى أقوش ، وسلم الجميع ، وعاد السلطان والأمراء إلى القلعة »[1] .

هذا ، ويفهم من كلام المقريزي أن دار صناعة مصر قد توقف العمل فيها بعد ذلك ، إذ تربي جرف في البحر الذي يفصل بينها وبين جزيرة الروضة ، ثم تحولت أرضها إلى بستان عرف ببستان كيسان ثم ببستان الطواشي[2] .

٣ – دار صناعة المقس أو المقسم

أطلق اسم المقس على القرية القديمة التي عرفت عند الفتح العربي باسم أم دنين ، وهي محلة بظاهر القاهرة على شاطئ النيل ومكانها اليوم محطة باب الحديد وشارع كلوت بك إلى حديقة الأزبكية . وقد أنشأ الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٩٧٢ – ٩٧٥ م) في هذا المكان داراً كبرى لصناعة الأساطيل عرفت بصناعة المقس . كذلك أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي (٩٩٦ – ١٠٢٠ م) مسجداً على النيل في تلك المنطقة أيضاً[3] .

وظلت المقس[4] ثغراً هاماً للقاهرة كما ظلت دار صناعتها تعمل حتى بداية العصر الأيوبي في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي حينما أخذ ماء النيل ينحسر غرباً عن ساحل المقس ، وعن سور القاهرة الذي ينتهي عند المقس ، فامتلأت المنطقة بالرمال ، وظهرت الجزر التي أخذت تزداد سنة بعد أخرى حتى أصبح النيل لا يمر بهذه المنطقة إلا في أيام الفيضان ، أما في باقي أيام السنة ، فكانت قطعة فسيحة من الأرض تكسوها الحلفاء

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٢٨ ، الخطط ج ٢ ص ١٩٥ .
(٢) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٩٧ .
(٣) كان جامع المقس يقع مكان جامع أولاد عنان حالياً في أول شارع ابراهيم باشا .
(٤) المقس تحريف لكلمة المكس بمعنى الجباية أو الضرائب حيث كان الماكس ، أو صاحب المكس يقيم هناك .

وتنزل فيها مماليك السلطان للرياضة ولرمي النشاب في التـــلال الرملية الموجودة بها . وعرفت هــذه المنطقة منذ ذلك الوقت باسم بولاق . وفي سلطنة الناصر محمد بن قلاوون ، الثالثة ، (١٣٠٩ — ١٣٤٠ م) اتجهت العناية إلى تعمير منطقة بولاق ، فسكنها الأمراء والجنـــد والكتّاب والتجار والعامة ، وصارت بولاق ثغراً لمدينة القاهرة [١] .

وهكذا نجد أن النيل عند ساحل القاهرة قد تزحزح عن مجراه نحو الغرب ، فبعد أن كان يمر بساحل المقس (ميدان رمسيس) ، انتقل تدريجياً إلى غربي بولاق .

٤ – دار صناعة بولاق

صارت بولاق ثغراً هاماً للقاهرة ، وقاعدة لصناعة السفن منذ أواسط القرن الرابع عشر الميلادي وقد أشار السيوطي في حوادث سنة ٧٥٧ هـ إلى هبوب عاصفة شديدة أغرقت نحو ثلثمائة مركب عند ساحل بولاق [٢] . وازدهرت هــذه الصناعة بوجه خاص في عصر دولة المماليك الجراكسة (ق ١٥ ، ١٦ م) . وقد وردت نصوص كثيرة في هذا الصدد . نكتفي بذكر بعضها على سبيل المثال . فيروي ابن اياس أن السلطان قنصوه الغوري « توجــه نحو طره [٣] في صفر سنة ٩١٧ هـ وكان سبب نزوله إلى هناك هو عرض المركب الكبير الغليون الذي عمره في بولاق عنــد الرصيف ، فلما كمل ، زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل ، وتوجهوا به إلى طرا وعرضوه على السلطان في البحر ، ورموا قدامــه بالمدافع ذهاباً وأياباً كما

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦ ، سعاد ماهر ، القاهرة القديمة وأحياؤها (المكتبة الثقافية ١٩٦٢) ص ٦٧ — ٦٨ ، عبدالرحمن زكي : القاهرة ص ٢٣٦ — ٢٣٧ (القاهرة ١٩٤٣) .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٠ .

(٣) طره اسمها المصري القديم طارو ، قرية قديمـــة على الشاطىء الشرقي للنيل جنوب الفسطاط وكان فوق جبلها منارة قديمة الآن شهيرة بمحاجرها .
راجع (عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة ص ١٥٤) .

فعل قبل ذلك لما عرض المراكب الأغربة . فمـــد هناك أسمطة حافلة ، وابتهج في ذلك اليوم ، وكان يوماً مشهوداً »[1]. ويضيف ابن اياس أن السلطان الغوري أنشأ بعد ذلك بسنتين مركباً ببولاق على صفة المركب القديم المسماة بالذهبية ، فلما فرغ منهـا العمل ، أمر بأن تزين بالصناجق ويضعوا فيها الطبول والزمور والنفوط ، وتجيء وهي على هذه الهيئة من بولاق إلى تحت المقياس حتى يشاهـدها السلطان وهو بالمقياس ، فانشرح السلطان في ذلك اليوم إلى الغاية[2] .

ولقد استمرت دار صناعة بولاق تعمل إلى ما بعد انتهاء دولة المماليك في مصر بوقت طويل ، وقد أفاض ابن اياس في ذلك وحسبنا أن نقتبس بعض كلامه عن بداية العصر العثماني ، يقول: « وفي صفر سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢٠ م) نزل ملك الأمراء من القلعـة وتوجه إلى بولاق وكشف على المراكب التي عمرها هناك ، فأنزلوها إلى البحر قدامه .. وحينما عزم السلطان العثماني على غزو جزيرة رودس ، واحتاج إلى المراكب والغزاة ، صار واليه على مصر يركب ويكبس على ساحل بولاق ومصر العتيقة ، ويقبض على النواتية والفلاحين والمغاربة ، فهرب الناس قاطبة من السواحل »[3] .

٥ – دار صناعة الجزيرة الوسطى أو جزيرة أروى (الزمالك)

هذه الجزيرة انحسر عنها الماء خلال سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) ، وهي تقع في وسط النيل بين جزيرة الروضة ، وبر الجيزة ، وبولاق ، وبر القاهرة . وكانت تعرف بالجزيرة الوسطى أو جزيرة أروى[4] ، أما اليوم فتعرف باسم الجزيرة أو جزيرة الزمالك[5] .

---

(١) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٢١٥ – ٢١٦ .
(٢) ابن اياس : نفس المرجع السابق ص ٢٩٨ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٠٣ .
(٤) أطلق اسم أروى على عدة شخصيات نسائية منها والدة الخليفة عثمان بن عفان ، وأروى بنت عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الأباضية في تاهرت بالجزائر والملكة الحرة أروى الصليحية في اليمن . راجع كتابنا (دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ٤٧) .
(٥) عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة ص ٦٤ .

وقد أقـــام سلاطين المماليك فيها دار صناعة لإنشاء السفن الحربية ، فيروي ابن أياس أن السلطان سيف الدين اينال (١٤٥٣ — ١٤٦٠ م) حينما رسم بارسال حملة إلى جزيرة قبرص ، شرع في عمارة مراكب أغربـــة بالجزيرة الوسطى ، فلما كملت عمارة تلك الأغربة ، نزل السلطان بنفسه من القلعة ، وتوجه إلى تلـك الجزيرة ، فرموا قدامه الأغربة في البحر ، والنفط والطبل عمال حتى انتهى ذلك [١] . ويضيف ابن اياس أنه في رجب سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢٠ م) توجه ملك الأمراء إلى الجزيرة الوسطى ، وسبب ذلك أن الأمير تم الناظر على وقف الدشيشة [٢] . كان قد صنع هناك مركباً عظيمة بسبب حمل الدشيشة . وكان طولها مائة وعشرون ذراعاً ، وبها فرن وطاحون ، وصهريج للماء الحلو ، ومقعـــد ومبيت ، واسطبل للخيل ، فعرضها على ملك الأمراء ، ثم فك أخشابها وأرسلها على ظهور الجمال إلى الطور ، ومن هناك يرسلها إلى البحر المالح [٣] .

٩ — دار صناعة قصر ابن العيني

بنى هذا القصر على شاطئ النيل شيخ ثري هو المقر الشهابي أحمـــد ابن العيني ، وذلـك سنة ٨٧٠ هـ (١٤٦٥ م) فنسب إليه وصار يعرف بقصر ابن العيني ثم القصر العيني الذي أقيمت على أرضه في أيامنا كلية الطب ومستشفى القصر العيني [٤] .

يروي ابن اياس أنه في ذي القعدة سنة ٨٧١ هـ (١٤٦٦ م) ركب السلطان الظاهر خشقدم من القلعة وشق مصر العتيقة إلى أن جاء إلى شاطئ البحر فنزل في الحراقة وانحدر إلى قصر ابن العيني الذي أنشأه في منشأة المهراني (على النيل تجاه آخر الروضة) فأقام به إلى آخر النهار ،

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٦٣ ، وصفحات لم تنشر ص ٧٦ — ٧٧ .
(٢) الدشيشة : القمح المجروش أي الذي يطحن غليظاً .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٤٧ ، ٢٦٠ .
(٤) عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة ص ١٦٦ .

ومد له ابن العيني هناك أسمطة حافلة ، وقـدم له بعد ذلك تقدمة حافلة ما بين خيول وقماش وغير ذلك[1] . واستمرت هذه الصناعة تعمل حتى بعد نهاية دولة المماليك ، إذ يشير ابن اياس في حوادث سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢١ م) إلى أن الوالي توجه نحو قصر ابن العيني ، وكشف على المراكب التي أنشأها هناك ، واستعجل الصناع في سرعة العمل[2] .

هذه هي دور الصناعة في مصر المطلة على النيل ، وقد تركزت كما رأينا على شاطئ النيل وجزره حول العاصمة . وبطبيعة الحال كانت هذه المصانع مزودة بكافـة أرباب الحرف المتخصصين في بناء السفن كالنجارين والحدادين والقلافطة وغيرهم .

ولقد اشتهرت مصر من قديم بهذه الصناعة ، ووجـدت بها عائلات قبطيـة تخصصت في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير أو الحبال في بنائها ، وكذلك في طلائها بالزفت والقطران ، وزخرفتها بمختلف الألوان .

ولهذا اعتمد المسلمون على اقباط مصر في دور الصناعة التي أقاموها بمصر والشام والمغرب . ولما استولى المغول على بغداد (١٢٥٨ م) وبلاد المشرق الإسلامي ، هاجر إلى مصر عدد كبير من أرباب الحرف والصناعات ومن بينها صناعة السفن .

ويعطينا النويري السكندري مثالاً على ذلـك عند قوله : « وقد صنع نجارو البغاددة بمصر في بضع وثلاثين وسبعمائة (ق ١٤ م) للسلطان الناصر محمد بن قلاوون مركباً بنيل مصر متقنة العمل ، مختصرة الطول ، طرف مجاذيفها كهيئة مطرحة الخبازين المدورة المبيكرة . تدور تلـك المراكب عند الجذف لها في جانبها الواحد بسرعة إذا اختير دورانها ، وإذا اختير سيرها تسير بالجذف بسرعة في الجانبين ، وتدعى الشبارة . فلما ركبها السلطان اختار الحراقة عليها وتركها »[3] .

---

(١) ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٧٥ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٠٢ .
(٣) ابو القاسم النويري ؛ كتاب الالمام ورقة ١٢٧ ب ، ١٢٨ م نسخة برلين .

الاحتفالات بأعياد النيل

اهتم المصريون بنهر النيل وفيضانه لارتباط حياتهم به ، ولهذا أقاموا له أعياداً مختلفة في مواسم معينة من السنة ، بعضها لاعتقادهم انها تجلب فيضاناً مناسباً ، والبعض الآخر احتفالاً بالوفاء وتمام الزيادة المطلوبة .

ومن أهم هذه الأعياد التي استمرت في أيام الأيوبيين والمماليك ، أعياد وفاء النيل وتتضمن الاحتفالات بتخليق[1] المقياس، وكسر سد خليج أمير المؤمنين ، وكسر سد قناة بحر أبي المنجا .

وكان تخليق المقياس ، وكسر سد الخليج يتم في يوم واحد على عهد الأيوبيين والمماليك . وقد أعطانا أبو السرور البكري الصديقي (ق ١٧ م) صورة لحفلات الوفاء في زمنهم فيقول : « كان يركب السلطان أو نائبه ومعه الأمراء وأركان الدولة من قلعة الجبل ، فيخرج من باب السلسلة إلى الرميلة ثم الصليبة ثم قناطر الكبش إلى أن يدخل مصر القديمة تجاه دار النحاس على شاطئ النيل ، فينزل هناك وقد أعدت له الحراقة الذهبية والحراقة التي يقال لها العقبة وهي باسم السلطان ، مزينة مزخرفة بالذهب وغيره ، فينزل السلطان ومن معه من الخواص في الحراقة ، وينزل من بقي في الذهبية . وهناك سفن شتى وحراقات كثيرة مزينة يركب فيها أربابها من الأمراء والمباشرين وغير ذلك . ثم تسير الحراقة بالسلطان والسفن المذكورة كلها تابعة لها في السير ، ويشق السلطان البحر حتى ينتهي إلى الروضة ، فيركب بعض خيوله إلى أن ينتهي إلى المقياس السعيد ، فيدخل هناك هو ومن معه ، ويخلّق المقياس بالزعفران المشرب بالورد والمسك ، ثم يصلي ركعتين هناك ، ثم تمد له أسمطة جليلة . ثم تقدم له سفينة من شباك المقياس وقد علق عليه سترة الذهب فوق البسطة فيركب هو ومن معه ثم يسير راجعاً في بحر مصر والناس حولهم في سفائنهم والطبول والزمور تضرب إلى أن ينتهي إلى بحر مصر ثم ينعطف على الخليج الحاكمي إلى

(١) خلقه (بتشديد اللام) بمعنى تعطيره ومسحه بالزعفران والمسك عند وفاء النيل .

القاهرة وهو مـــع ما ذكرنا يبدر الذهب والفضة على من حوله وعلى من قرب منه من الناس من الفقراء براً وبحراً ذهاباً وأياباً ، والفواكه والحلوى ونحو ذلك تفرق إلى أن ينتهي إلى سد مصر وهو عبارة عن جسر مكتوم من التراب تجاه القنطرة . ثم يشير السلطان إلى جماعة موكلين به بأيديهم المساحي اشارة بمنديل أو غيره ، فيقطعون ذلك في أقل من دقيقة . ثم تقدم له الخيول فيركب ويكر راجعاً إلى القلعة »[1] .

أما الاحتفال بفتح قناة أبي المنجا ، فكان بعد عيد الصليب بسبعة أيام . وكانت هذه القناة تخرج من النيل قرب بلدة شبرا الحالية ثم تمر ببلبيس وتلتقي في شماليها ببحر الفرما الذي يسير مخترقاً برزخ السويس إذ ذاك حتى مدينة الفرما على البحر المتوسط غربي بور سعيد الحالية . وقد بدئ حفر قناة أو بحر أبي المنجا سنة ٥٠٦ هـ (١١١٢ م) في عهد الخليفة الآمر الفاطمي ، ونيط بحفره أبو المنجا ابن شعيا اليهودي . وكان يوم فتح هــذه القناة من أيام القاهرة وأعيادها يشترك فيه السلطان والأمراء والناس جميعاً[2] .

على أنه يبدو أن هذا الاحتفال الأخير لم يستمر حتى نهاية دولة المماليك ، إذ يذكر المقريزي (ق ١٥ م) صراحة بأن الاحتفال بكسر سد بحر أبي المنجا قد تلاشى على أيامه[3] .

النيل مقبرة للغزاة

ساهمت البحرية النيلية بدور فعـــال في سلسلة الحروب المتقطعة التي نشأت عن الحركة الأوربية العدوانية ضد الشرق العربي منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي . واصطلح المؤرخون على تسمية تلك الحركة الواسعة

---

(١) ابو مسرور البكري الصديقي : قطف الازهـار من الخطط والاثار ورقة ٨ ، علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمـة والشهيرة ج ١٨ ص ٣٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧ — ٤٨ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١١٩ حاشية .

(٣) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٤٨٨ .

باسم الحروب الصليبية ، من باب الاشارة إلى أن غرضها هو الاستيلاء على الأراضي المقدسة التي تتصل بظهور المسيح عليه السلام في فلسطين ، مع أن غرضها الحقيقي هو الاستيلاء على بلاد الشرق العربي كله من الشام إلى فلسطين ، ومن فلسطين إلى مصر والعراق وتونس[١] . وحقق الصليبيون منذ بادئ الأمر نصراً سريعاً على المسلمين في الأراضي الشامية وأسسوا هناك أربع امارات صليبية وهي الرها وانطاكية وطرابلس وبيت المقدس .

ولم يكتف المستعمر الصليبي بهذا النجاح الذي أحرزه في الشام ، بل سعى إلى احتلال مصر أيضاً ، وتكررت محاولاته للوصول إلى وادي النيل ، ومنها تلك المحاولة التي قام بها ملك بيت المقدس عموري الأول Amalric (١١٦٢ — ١١٧٤ م) الذي صرح بأن بلبيس والقاهرة جبنه وزبدة يأكلها بسهولة[٢] ، ولكنه وجد في جيش نور الدين محمود بن زنكي بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، أكبر مدافع عن مصر .

وقد كان نهر النيل مسرحاً لمعارك الفريقين وتحركات جيوشهم ومراكبهم[٣] وانتصر شيركوه على خصمه عند قرية البابين ، إحدى قرى المنيا ، وانتهى الصراع آخر الأمر بانسحاب الصليبيين عن مصر سنة ١١٦٩ م .

ولم يستسلم الصليبيون لهذه الهزيمة ، بل عاودوا الكرة في العام التالي سنة ١١٧٠ م بحملة بحرية كان هدفها الاستيلاء على دمياط والدخول منها إلى وادي النيل . واشترك في هذه الحملة جنود عموري الأول ، وأسطول الأمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنين (١١٤٣ — ١١٨٠ م) وكان هذا العدوان في بداية عهد صلاح الدين الذي سارع بارسال الجيوش إلى دمياط في النيل وحشر فيها كل من عنده . ودام الحصار على دمياط

---

(١) محمد مصطفى زيادة : الغزوة الكبرى الأولى لاستيلاء الصليبيين على مصر (كتاب كفاحنا ضد الغزاة ص ٢٠٥) .

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٣١ نشر محمد حلمي (القاهرة ١٩٦٢) .

(٣) ابو شامة : نفس المرجع ص ٤٢٤ — ٤٢٥ .

خمسين يوماً اضطر الفرنج بعدها إلى العودة خائبين كقول المثل :

« ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا اذنين »[1] .

وكان عند مدخل فرع دمياط برج عال مبني في وسط النيل ومشحون بالمقاتلة ويعرف ببرج السلسلة ، إذ كانت تمتد منه سلسلتان : احداهما تتجه على النيل إلى دمياط على الضفة الشرقية ، والأخرى تتجه إلى جيزة دمياط وهي الشاطئ الغربي المواجه لدمياط . فاذا وثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور من فرع دمياط . لهذا كان هذا البرج هو مفتاح دمياط أو قفل الديار المصرية كما يسميه المؤرخون المعاصرون . ومن بقاياه عزبة البرج الحالية[2] .

ولقد اهتم صلاح الدين بتحصين مدينة دمياط ، فبنى أسوارها[3] وحفر خندقاً كبيراً حولها ، كما حرص على زيارتها بنفسه لتفقد حصونها . وفي ذلك يقول كاتبه العماد الأصفهاني : « ثم خرج السلطان من القاهرة واستصحب ولديه الأفضل عليا والعزيز عثمان ، وجعل طريقه على دمياط ، ورأى في الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط ، وكان له بها سبي كثير جلبه الأسطول ، فامتد مقامه بظاهر البلد يومين ووهب لي منه جارية »[4] .

واقتدى السلطان العادل بأخيه صلاح الدين فشيد سنة ١٢١٧ م مدينة العادلية جنوبي دمياط على الضفة الشرقية للنيل ، وشحنها بالمقاتلة خشية قدوم الصليبيين إلى مصر من جهة البحر ، فأصبحت منذ ذلك الحين مدينة

---

(١) المرجع السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٥٧ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٨٨ حاشية ٣ ، ابو شامة : النيل على الروضتين ص ١٠٨ نشرة عزت العطار الحسيني .
ويقال ان هذا البرج تم بناؤه في عهد الخليفة العباسي المتوكل سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) .

(٣) يقال ان سور دمياط استخدم في بنائه احجار بعض الاهرامات الصغيرة (السلوك ج ١ ص ١٣٨) .

(٤) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٩ — ٦٩٠ .

جهادية لحماية دمياط ومنع الصليبيين من دخولها[1]. على أن هذه الحصانة التي تميزت بها دمياط وغيرها من الثغور المصرية، لم تغير من عزم الصليبيين على غزو مصر خصوصاً بعد أن تبين لهم أن معظم المقاومة التي أبداها صلاح الدين وأخوه العادل كان مصدرها مصر.

وعلى هذا الأساس بدأ الصليبيون في تنفيذ ما عزموا عليه بمعاودة الهجوم على مجازهم المفضل دمياط سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ). وكانت هذه الحملة — وهي المعروفة في كتب التاريخ بالحملة الصليبية الخامسة — قد تجمعت في عكا ثم أبحرت في أسطول ضخم إلى دمياط بقيادة جان دي بريين ملك مملكة بيت المقدس التي لم يكن في يده منها سوى ثغر عكا، وشاركه في القيادة نائب عن البابا اسمه الكاردينال بلاجيوس. وكان يحكم مصر في ذلك الوقت الملك الكامل محمد الأيوبي نيابة عن أبيه السلطان العادل الذي كان يحارب الصليبيين في الشام.

ثم نزل الصليبيون في البر الغربي لمدينة دمياط (جيزة دمياط)[2]، وشرعوا في مهاجمة برج دمياط وقطع سلاسله لتمر مراكبهم في بحر النيل.

ونهض الملك الكامل فأرسل الأساطيل إلى دمياط، وصار يركب كل يوم عدة مرات من العادلية إلى دمياط لتدبير الأمور وأعمال الحيلة في مكايدة الفرنج. واستمر برج السلسلة يقاوم هجمات الصليبيين أربعة أشهر، ثم تمكن الفرنج آخر الأمر من الاستيلاء عليه بعد أن أقاموا أمامه برجاً ضخماً على بطسة كبيرة، سهل لهم التغلب على المقاومة المصرية.

وقد كان لهذا الحادث وقع أليم في نفوس المسلمين حتى أن العادل حينما بلغه خبره وهو بمرج الصفر بالقرب من دمشق، تأوه تأوهاً شديداً، ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومرض من ساعته ثم مات بعد أيام قليلة[3].

---

(١) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٢١٦ ، حسنين ربيع : النظم المالية زمن الايوبيين ص ٦٩ .

(٢) الجيزة في اللغة الناحية ، ولعله سمي كذلك لأنه يجاز إليه من دمياط . راجع جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ج ٢ ص ١٠٤ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٠٩ .

واستقل الملك الكامل بملك مصر بعد وفاة أبيه ، وأخذ يعمل على عرقلة تقدم الأسطول الصليبي في النيل بعد أن حطمت سلسلة البرج ، فنصب عوضاً عن السلاسل جسراً من السفن في عرض النيل ، ولكن الفرنج قاتلوا عليه قتالاً شديداً حتى نجحوا في قطعه واختراقه . عند ذلك أمر الكامل بتغريق عدة من مراكبه في النيل فاستحال بذلك على السفن الصليبية التقدم جنوباً .

واحتال الفرنج على هذا الاجراء بأن حفروا فرعاً قديماً من فروع النيل يسمى الخليج الأزرق كان يأخذ مياهه من فرع دمياط عند بلدة بورة [١] ، ويصب في البحر المتوسط شمالاً ، فأعاد الصليبيون حفرة من الرمال التي طمرته ، وصارت مراكبهم تجري فيه من البحر إلى بلدة بورة التي تواجهها على الضفة الشرقية المقابلة منزلة العادلية حيث يعسكر السلطان الكامل . وبهذا أصبح الجيشان الأيوبي والصليبي وجهاً لوجه ، لا يفصل بينهما إلا ماء النيل . ودارت بين الفريقين معارك بحرية ، استطاع المصريون خلالها أسر مرمة (سفينة كبيرة) للفرنج كانت من عجائب الدنيا لا تعمل فيها النار لأنها مصفحة بالحديد وفيها من المسامير ما زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً [٢] .

واستمر الحال على هذا الوضع بضعة أشهر كانت دمياط خلالها في مأمن من العدو ، إذ كان النيل يفصل بينها ، والامدادات تصلها بسهولة من العادلية . ولكن الظروف سرعان ما تغير الأحوال ، إذ وقعت مؤامرة في معسكر السلطان كان هدفها خلع الكامل وتولية أخيه الفائز . واكتشف الكامل المؤامرة في حينها ، ولكنه خشي على نفسه منها ، فترك معسكره

(١) بوره بلدة مندرسة على الضفة الغربية للنيل جنوب غرب دمياط ينسب إليها السمك البوري، ومكانها اليوم قرية كفر البطيخ . والظاهر أنه لكثرة زراعة صنف البطيخ بأراضيها ، اشتهرت به فتغلب اسمه عليها واختفى اسم بورة . (محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ج ١ ص ١٧٦ ، ١٧٩) .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٩٥ .

ليلاً وانسحب جنوباً إلى أشموم طناح وهي أشمون الرمان حالياً بمركز دكرنس . وحينما علم الجند بانسحاب قائدهم ، لحقوا بـه تاركين خيامهم وأثقالهم بالعادلية . وانتهز الصليبيون هذه الفرصة ، فعبروا النيل إلى البر الشرقي واستولوا على معسكر العادلية وما فيه من ذخائر ثم صعدوا شمالاً إلى مدينة دمياط واحدقوا بها من البر والبحر في يناير سنة ١٢١٩ م .

واستطاع السلطان الكامل في ذلك الوقت أن يتغلب على المؤامرة التي قامت ضده وأن يطرد زعماء المتآمرين من بلاده أمثال أخيه الفائز والأمير الكردي عماد الدين بن المشطوب . ثم نهض لمحاربة الصليبيين وفك الحصار عن دمياط .

وحاول السلطان الاتصال بأهل دمياط ليرفـع من روحهم المعنوية . فعهد إلى جندي من رجال حرسه يسمى شمايل أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة . فكان يسبح في النيل بعيداً عن أعين الصليبيين الذين امتلأ النيل بمراكبهم ، فيدخل إلى مدينة دمياط ويقوي قلوب أهلها ويعدهم بوصول النجدات ثم يعود إلى السلطان بأخبارهم[١] .

وظلت دمياط تقاوم مـا يقرب من سنة حتى استبد الجوع بأهلها ، وتفشت الأمراض والأوبئة فيهم ، فانهارت مقاومتهم واستولى الصليبيون على المدينة وعاثوا فيها فساداً في نوفمبر سنة ١٢١٩ م (شعبان سنة ٦١٦ هـ) .

وكان السلطان الكامل في ذلك الوقت مخيماً عنـد رأس بحر أشموم طناح (البحر الصغير حالياً) في المنزلة التي عرفت بعد ذلك باسم المنصورة تيمناً بانتصاره[٢] . وكانت النجدات والأمدادات تصل إليه باستمرار بقيادة

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٩٨ وقد كافأ السلطان هذا البطل الفدائي بولاية القاهرة بعد ذلك ، وإليه تنسب خزانة شمايل .

(٢) تقع مدينة المنصورة على الشاطىء الشرقي لفرع دمياط ، وكانت في أيام مؤسسها السلطان الكامل وولده محاطـه بالاسوار والآلات الحربية والستائر ثم أخذت تنمو حتى صارت من أمهات المدن المصرية .

اخوتـه وأقربائه أمراء الأيوبيين في الشام ، إلى جانب المصريين والعربان من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحي حتى أسوان ، ونودي بالنفير العام بألا يبقى أحد ، فاجتمع من المسلمين المجاهدين عالم لا يقع عليه حصر [1] .

كذلك وصلت إلى الصليبيين في دميـــاط امدادات وفيرة من أوربا والأمارات الصليبية في الشام فلما تكامل جمعهم تقدموا من دمياط بجيوشهم وأساطيلهم ، ونزلوا جنوباً تجاه بلدة طلخا شمالي المعسكر الإسلامي ، بحيث صار لا يفصل المعسكرين سوى قناة أو بحر أشمـــوم طناح . ثم التحم الفريقان في قتال عنيف بالبر والبحر ، وقامت البحرية الايوبية النيلية بدور هام في تلك المعارك ، إذ يروي المقريزي أن الأسطول المصري بقيادة الأمير بدر الدين بن حسون ، تقـدم في مائة شيني وحراقة كبيرة في بحر المحلة — وهو فرع قديم كان يخرج وقت ذاك من النيل قرب بنها ثم يتصل بالنيل ثانية شمالي طلخا والمنصورة أي قرب ميـدان القتال — واستطاع أن يقطع الطريق على السفن الصليبية القادمة من دمياط بالميرة والذخائر إلى ميدان القتال ، وأن يستولي على عـدد كبير منها برجالها وأسلحتها وميرتها [2] .

ويضيف المقريزي أن السلطان الكامـل استغل فرصة زيادة النيل في ذلك الوقت ، وأمر جماعـــة من المسلمين بعبور بحر المحلة في الأرض التي يعسكر عليها الفرنج ويفتحوا هناك مكاناً عظيماً في النيـل . فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد غرق الأرض التي هم عليها وحال بينهم وبين الرجوع إلى دمياط ، وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها سوى جهة واحدة ضيقة عند بحر أشموم طناح ، سددها الكامل بعدد من جنوده ، فانحصر الصليبيون بذلك من سائر الجهات ، وأدركوا أنهم خسروا المعركة فلاذوا إلى طلب الصلح وبعثوا إلى السلطان الكامل يطلبون الأمان لأنفسهم ، وأنهم يسلمون

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠٢ .
(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠٣ – ٢٠٧ .

دمياط بدون قيد أو شرط[1] ، وقبل السلطان هذا العرض ، وقد كان في مقدوره إبادتهم ، ودخلت الجيوش الايوبية دمياط سنة ١٢٢١م (٦١٨هـ) . وبذلك تنتهي أحداث تلك الحملة العدوانية التي كان للنيل وللبحرية النيلية أثر كبير في نهايتها واندحارها .

وعلى الرغم من كل هذا الفشل الذريع الذي باءت به حملة جان دي برين ، فان الصليبيين ظلوا متمسكين بشروعهم القديم الذي يقضي بضرورة غزو مصر واستعادة بيت المقدس عن طريقها . وكان المنقذ أو المخلص الصليبي في هذه المرة هو ملك فرنسا لويس التاسع الذي قرر اعادة الكرة ولم يكد يمضي على الحملة السابقة ثلاثون عاماً . ولم تخف تلك الحقيقة على المؤرخ العربي المعاصر جمال الدين بن واصل حينما قال : « ان ملك فرنسا ريدا فرانس حدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج .. وعلم أن ذلك لا يتم إلا بملك الديار المصرية »[2] .

ثم أبحر الأسطول الفرنسي من ميناء مرسيليا خريف سنة ١٢٤٨ م إلى جزيرة قبرص التي كانت تحت حكم آل لوزنيان Lusignan وهم مسيحيون لاتينيون . وهناك أقام لويس التاسع مدة الشتاء يعد لحملته التي عرفت في تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة السابعة . ثم أبحر من قبرص في مايو سنة ١٢٤٩ م متجهاً إلى مصر . وقد صحب معه أخويه شارل أنجو D'Anjou ، وروبرت دارتو D'Artois ثم لحق به بعد ذلك أخوه الثالث الكونت دي بواتييه .

وكان سلطان مصر في ذلك الوقت هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الكامل. ويقال إنه علم بأنباء هذه الحملة مسبقاً من صديقه وصديق أبيه فردريك الثاني هو هنشتاوفن ملك صقلية وأمبراطور الدولة الألمانية

(٢) المقريزي : نفس المرجع ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ج ٢ ص ٣٥١ ، المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٣٤ حاشية ١ .

وأن مدينة دمياط سوف تكون مجاز الصليبيين المفضل لغزو مصر . عندئذ أسرع السلطان حتى عسكر في بلدة أشموم طناح ، وأصدر أوامره بتحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والأسلحة ، كما وضع فيها حامية من عرب بني كنانة للدفاع عنها . ثم بعث إلى نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين ابن علي الهذباني الكردي ، أن يجهز قطع الأسطول في دار صناعة مصر ويعمرها بالرجال والعدد [١] ، إذ لم يكن يخفى عليه أهمية القوة البحرية في رد العدوان . فشرع الأمير حسام في تجهيز الشواني الحربية وارسالها إلى السلطان شيئاً بعد شيء . كذلك أرسل الصالح أيوب جيشاً إلى دمياط بقيادة الأمير فخرالدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وأمره أن ينزل في البر الغربي لدمياط (جيزة دمياط) ليحول دون نزول العدو إلى الشاطىء [٢] .

ثم وصل الأسطول الصليبي إلى المياه المصرية قبالة دمياط بتاريخ ٤ يونيو سنة ١٢٤٩ م وفي اليوم التالي نزل الصليبيون إلى البر الغربي للنيل حيث وقعت بينهم وبين المسلمين مناوشات انسحب بعدها الأمير فخرالدين بجيشه وبحامية المدينة إلى المعسكر السلطاني بأشموم طناح . وجفل أهل دمياط على أثر ذلك خائفين مذعورين ، وتركوا جسر السفن الذي يصل بين البر الغربي ودمياط قائماً ، فعبر عليه الصليبيون واحتلوا المدينة بسهولة . واستشاط السلطان غضباً لما وقع ، فأمر بشنق الكنانيين الذين ارتدوا عن دمياط دون قتال ، كما تغير على الأمير فخرالدين واشتد في تأنيبه لدرجة أن بعض الأمراء همّوا بقتل السلطان لولا نصيحة فخرالدين لهم بالتريث لأن السلطان مريض بمرض خطير وصائر لأجله عن قريب .

ويعلل المؤرخ الفرنسي وأحد فرسان الحملة جوانفيل ، سبب ذلك الانسحاب بأن الأمير فخر الدين أرسل إلى السلطان ثلاث مرات بالحمام الزاجل يخبره بنزول الفرنج إلى الساحل ، ولكنه لم يتلق رداً ، فظن أنه

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٣٣ .

(٢) ابو المحاسن بن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٢١ — ٢٣٢ .

مات وآثر الرحيل بسرعة [١]. وإذا علمنا أن الأمير فخر الدين كان يطمع فعلاً في سلطنة مصر لنفسه بعد وفاة السلطان ، اتضحت لدينا حقيقة هامة وهي أن انسحاب هذا الأمير كان سبيلاً لتحقيق أمانيه اعتقاداً منه بأن السلطان قد مات [٢].

وكيفما كان الأمر ، فان السلطان اضطر أمام هذه الأحداث إلى الارتداد بمعسكره إلى مدينة المنصورة حيث نزل بالقصر السلطاني على ساحل النيل ورابطت السفن الحربية تجاه المدينة كما أخذت جموع العربان والجنود المطوعة تفد إلى تلك القاعدة الجديدة ، واستمر الحال على ذلك المنوال ستة أشهر من يونيو إلى نوفمبر سنة ١٢٤٩ م ولويس التاسع ينتظر في دمياط قدوم أخيه الثالث الكونت دي بواتييه . فلما وصل هذا الأخ ، عقد الملك مجلساً للتشاور في أحسن طريق تسلكه الحملة . فأشار بعضهم بالذهاب إلى الاسكندرية لأنها مرفأ طيب تأوي إليه السفن ويكون التموين فيه سهلاً [٣]. ولكن الكونت دي أرتو عارض ذلك الرأي وقال بضرورة الذهاب إلى القاهرة العاصمة : « فمن يريد قتل الثعبان فليحطم رأسه أولاً » ووافق لويس التاسع على رأي أخيه [٤].

وبينما يستقر الرأي على الزحف صوب القاهرة ، توفي السلطان الصالح أيوب ، فقامت زوجته شجر الدر [٥] بتدبير شؤون الدولة بعد أن أخفت خبر موته خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين . وفي الوقت نفسه

---

(١) انظر (Joinville. Hist. of St. Louis tr. by Evans p. 48 — 49).

(٢) راجع (احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ص ١٠٣) وكذلك (ابن واصل : مفرج الكروب ورقة ٣٦٤ ، المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٤٥) .

(٣) عن طريق البحر بالطبع اذ ليس من المعقول ان امراء فرنسا كانوا يقصدون للوصول الى الاسكندرية اختراق الدلتا بالعرض وعبر نهر النيل بفروعه .

(٤) Joinville : Op. cit. p. 54.

(٥) المراجع المعاصرة وشبه المعاصرة تذكر الاسم كما اوردناه في المتن ، امـا المراجع المتأخرة فتذكره بصيغة شجرة الدر . ومن الواضح ان تسمية المعاصرين وأشباههم هي الأصح .

أرسلت إلى إبنه وولي عهده تورانشاه تحثه على الرحيل من ولايته في حصن كيفا بأطراف العراق إلى مصر ليعتلي السلطنة بعد أبيه .

ثم علم الفرنج بوفاة الصالح أيوب [1] ، فانتهزوا الفرصة وتركوا دمياط زاحفين جنوباً على شاطئ النيـــل الشرقي لفرع دمياط ، وسفنهم تسير حذاءهم في النيل . وبعد عدة وقفات في فارسكور وشارمساح وفارامون ، وصلوا إلى قناة أشموم طناح (البحر الصغير) في ١٩ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م . فصار على يمينهم فرع النيل ، وأمامهم بحر أشموم يفصلهم عن معسكرات المسلمين في المنصورة . ولمواصلة التقدم جنوباً تعين على الفرنسيين أن يعبروا فرع دمياط أو قناة (بحر) أشموم طناح ، فاختار لويس القناة [2] .

ولقد شاهد بحر أشموم ألواناً عديداً من البطولات التي قام بها المجاهدون المصريون لمنع العدو من عبوره . وكان السلطان قبل وفاته قد رسم ببذل المكافآت الكبيرة لكل من يأتي برأس فرنجي ، ولهذا أقبل الفدائيون على شن الغارات على معسكرات الصليبيين واختطاف كل من تصل يديهم إليه ، فاذا شعر بهم الفرنج ألقوا بأنفسهم في الماء ، وسبحوا إلى أن يصيروا في بر المسلمين . وكانوا يتحيلون في اختطاف الفرنج بكافــة الطرق التي تثير الدهشة والاعجاب ، مثال ذلك أن مجاهداً من المسلمين « قور بطيخة وأدخل رأسه فيها ثم غطس في الماء إلى أن قرب من الفرنــج ، فظنه بعضهم بطيخة سائبة في الماء ، ولما نزل لأخذها خطفه ذلك الفدائي وأتى به أسيراً إلى معسكر المسلمين » [3] .

وتمكن العدو أخيراً من العبور بعد أن دله بعض الخونة على مخائض في بحر أشموم مقابل مبلغ من المال . فعبرت الخيالة الصليبية دون أن

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ (٣٤٦) .

(٢) انظر ؛ (Oman : The History of the Art of War in the Middle Ages I. p. 342 — 345).

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٤٨ ، جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص ١٥٣ .

تلقي مقاومـــة اثناء عبورها ، ولم يشعر المسلمون إلا والفرنج معهم في المعسكر ، فانتشر الذعر بين الجند ، وخرج الأمير فخر الدين يوسف قائد الجيش من الحمّام وامتطى صهوة جواده دون أن يلبس درعـه ، وحاول أن يلم شمل الجنود الفارين بالهجوم هو وبعض مماليكه على العدو المتقدم ، ولكن السيوف اعتورته من كل جانب فسقط قتيلا بعـد أن تفرق عنه فرسانه . واقتحم الصليبيون بقيادة روبرت دارتوا أحد أبواب المنصورة ، وواصلوا تقدمهم في فصائل مبعثرة إلى داخل المدينة يقتلون المصريين يميناً وشمالاً حتى وصلت طلائعهم إلى أبواب القصر السلطاني نفسه [١] .

وبينما الكل على ذلك ، جمعت فرقة المماليك البحرية الصالحية [٢] قواها خارج المدينة ، ثم أطبقت على الفرنـج بقيادة الأمير بيبرس البندقداري فانقلب نصر الصليبيين إلى هزيمة ، وأوسعهم المماليك قتلاً حتى أهلكوهم عن آخرهم بما في ذلك قائدهم الكونت دى ارتوا نفسه الذي لقي جزاء تهوره واندفاعه .

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٤٩ ، أحمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ص ١٠٦ .

(٢) استكثر السلطان الصالح أيوب من شراء المماليك الأتراك الصغـــار السن ، واعتنى بتربيتهم تربية عسكرية اسلامية ثم ابتنى لهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة واسكنهم بها كا اتخذها مقراً لملكه . وعرف هؤلاء المماليك باسم المماليك البحرية الصالحية . ويرى بعض المؤرخين أمثال المقريزي وابن تغري بردي أن تسميتهم بالبحرية نسبة إلى بحر النيـل الذي يحيط بثكناتهم في جزيرة الروضة . غير أن المؤرخين المعاصرين أمثـال ابن واصل وأبي شامة لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل للفظ بحرية . يضاف إلى ذلك أن هناك فرقاً إسلامية عديدة سميت بالبحرية بعيداً عن جزيرة الروضة أو النيل مثل فرقة الغز البحرية في العصر الفاطمي، والبحرية العادلية التي كونها العادل جـــد" الصالح أيوب ، والمماليك البحرية في عهد الدولة الرسولية باليمن . وهذا يدل على أن لفظ بحرية استخدم قبل عهد الصالح أيوب وفي بلاد بعيدة عن بحر النيل . وأغلب الظن أنهم سموا بحرية لأنهم جاءوا من وراء البحر وقـد أورد هذا التفسير المؤرخ الفرنسي جوانفيل في كتابه عـــن الملك لويس التاسع . ومن المعروف أن جوانفيل أسر في مصر واختلط بالمماليك وتحدث إليهم . وقد يؤيد هذا الرأي أن المماليك البحرية جلبوا من أسواق النخاسة من بلاد القفجاق شمال البحر الأسود فعبروا هذا البحر ثم البحر المتوسط ثم بحر النيل فكأنهم جاؤوا من وراء البحار فعلاً .

وبعد ذلك بقليل وصل ملك فرنسا إلى ميدان القتال ، ونجح في إقامة جسر على بحر أشموم لتعبر عليه الرجالة ، غير أن الروح المعنوية الجديدة التي أثارتها موقعة المنصورة (٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م) في صفوف المسلمين قد طغت على أخبار النجاح المؤقت الذي أحرزه الفرنسيون .

وفي اليوم التالي عقد قائد الجيش الأمير فارس الدين أقطاى مجلس حرب عرض فيه على المسلمين كزاغند (أي معطف) الكونت أرتوا قائلاً بأنها سترة الملك نفسه ، وأن شعباً بدون ملك جسم بلا رأس لا يخشى منه خطر ، وعلى ذلك سوف نهاجم الفرنسيين في يوم الجمعة إذا طاب لكم ذلك . وواضح من هذه العبارة أن المسلمين قد اختلط عليهم الأمر حينما وجدوا على المعطف الشعار الملكي الفرنسي وهو زهرة الزنبق Fleur de Lis فظنوه معطف الملك نفسه وأن الذي قتل هو لويس التاسع .

وفي فجر يوم الجمعة (١١ فبراير ١٢٥٠م) أمر أقطاى أربعة آلاف من فرسانه بالتقدم حتى حاطوا معسكر الفرنج ، وهذا خلاف فرق الاحتياطي الرابطة عن كثب مستعدة للطوارئ . وبعد أن انتهى أقطاى من ترتيب جيوشه ، تقدم بمفرده راكباً فرساً ليشهد صفوف الصليبيين ومراكز القوة والضعف فيها حتى يحرك قواته على أساسها ، وشغلت هذه العمليات وقت أقطاى حتى منتصف النهار ، ثم أمر بقرع النقارات ، ومن ثمّ بدأ الخيالة والمشاة في الهجوم من جميع النواحي على شكل درج en échelon كما لو كانوا يلعبون الشطرنج على حد قول جوانفيل . واستخدم المماليك النار الأغريقية في هجومهم ، ولكن الملك لويس تمكن من الثبات واعادة خط القتال إلى ما كان عليه بعد أن تكبد خسائر فادحة وبذلك تنتهي موقعة المنصورة الثانية التي أيقن الصليبيون بعدها انهم لا يستطيعون البقاء في مراكزهم ، وأن عليهم الانسحاب إلى دمياط قبل فوات الفرصة [١] .

---

(١) انظر (Joinville : Op. cit. p. 79 – 80 ; King : Op. cit. p. 247)

ثم قدم تورانشاه بعد أيام قليلة من هذه الوقعة ، وتولى قيادة الجيوش بنفسه ، وأخذ في تدبير خطة لاجبار الصليبيين على التسليم ، وخلاصتها أن يقطع عليهم خط الرجعة كما فعل جده السلطان الكامل من قبل مع حملة جان دي بريين ، وكما أوصاه أبوه الصالح أيوب في وصيته التي تركها له قبيل وفاته والتي يقول له فيها : « .. وهذا العدو المخذول [الفرنج] ان نزلوا منزلة من تقدمهم قبالة المنصورة ، فرتب العسكر يكونو ثابتين خلف الستائر على البحر ليلاً ونهاراً ، فهم ما لهم زحف إلا بالشواني ، فقوّو الشواني كيفما قدرتم ، واجتهدوا أن تكون بعض الحراريق على بحر المحلة من خلف مراكبهم تقطع عنهم الميرة ، وهو يكون ان شاء الله سبب هلاكهم ، فتلك المرة ما انتصر الشهيد رحمه الله عليهم إلا من بحر المحلة »[1] .

وتنفيذاً لهذه الوصية أمر تورانشاه بنقل عدة سفن مفصلة أجزاء على ظهور الجمال ، وانزالها بعد تركيبها في بحر المحلة وراء الخطوط الفرنسية . وبهذه الوسيلة تمكن الأسطول المصري من مهاجمة السفن الفرنسية المحملة بالمؤن والأقوات والاستيلاء عليها وأسر من فيها . وقد نتج عن ذلك حلول المجاعة بالمعسكر الفرنسي ، وتفشي الأمراض والأوبئة بين الجنود فساء حالهم . وعول الملك لويس على الانسحاب إلى دمياط تحت جنح الظلام ، وأمر بازالة الجسر الذي على نهر أشموم ، غير أن الصليبيين تعجلوا أمرهم ، فسهوا عن قطع الجسر ، فعبره المصريون في الحال وركبوا أعناق الصليبيين ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، واستمرت المطاردة في فارسكور حيث أحدقوا بالصليبيين من كل جانب فقتلوا وأسروا منهم عدداً كبيراً[1] .

ولقد سار السلطان تورانشاه على سياسة والده وجده في بذل المكافآت السخية لكل من يأتي برأس فرنجي . وهنا يعطينا المؤرخ السكندري أبو القاسم

---

(١) أورد هذه الوصية شهاب الدين أحمد النويري (نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٧ ورقة ٨٩ – ٩٣ ، دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ورقة ٣٦٨ ، المقريزي السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٥٧ .

النويري صورة حية من أعمال المقاومة الشعبية في ذلك الوقت ، يقول :

« حدثني أحمد الدمياطي عن والده المعروف بإبن طهليش قال : كنت أصطاد السمك بدمياط ، فلما كانت وقعة دمياط ، كنت ابن خمس عشرة سنة ، فكنت أجد الجماعة من الفرنج على ساحل البحر (النيل) خائرين من الجوع فاطرح عليهم الشبكة وأبادرهم بالذبح ، وأحمـــل رؤوسهم في الشبكة وآتي بها السلطان . وكان السلطان رسم بأن من أتى برأس افرنجي يأخذ ديناراً ، فأخذت بعدد ما معي أول مرة من الرؤوس عن كل رأس ديناراً . ثم أعطيت بما جئت به ثاني مرة عــن كل رأس درهماً ، وكان غيري قد أتى بالرؤوس فأعطي كما أعطيت ، فقلت أخـــذت أولاً لكل رأس ديناراً وآخذ الآن لكل رأس درهماً !! فقيل قد رخصت الرؤوس لكثرتها من ذبح المسلمين لهم فصار لكل رأس بدرهم . وكان ذبحهم هيناً على المسلمين بسبب جوعهم ، لأن المسلمين قعدوا لهم على طريق ميرتهم متى يأتونهم بها من عند أصحابهم بدمياط فيقتلونهم ، ويأخذون الميرة منهم ، فجاعت الفرنج الذين يقاتلون المسلمين وانحلت عزائمهم عن القتال . وكسرت الخولة عليهم الجسور فغرقوا بماء النيل وأسر منهم نحــو سبعين ألف نفر حتى ملكهم الفرنسيس »[1] .

ولم يشأ لويس التاسع أن ينجو بنفسه رغم الحاح الدوسنطاريا عليه ، بل قرر الاقامة مع المؤخرة كي يحمي أصحابه على حد قول أبي المحاسن . وبذلـك تمكن المصريون من أسره وأسر من معه من الأشراف والفرسان في قرية مُنية أبي عبدالله شمالي المنصورة ببضعة أميال . ثم سيق لويس التاسع إلى مدينة المنصورة حيث سجن بـــدار القاضي فخرالدين ابراهيم ابن لقمان . وهكذا وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى نهايتها الفاشلة[2] .

---

(١) محمد بن قاسم النويري السكندري : كتاب الالمام بالاعـــلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية نسخة برلين ورقة ٢٠٨ أ (توجـــد صورة في كلية الآداب بالاسكندرية رقم ٦٦٧ م) .

(٢) قال الشاعر المعاصر جمال الدين بن مطروح محذراً الفرنسيين بعد هذا الفشل : =

نشاط البحرية النيلية في جنوب الوادي

إذا كانت البحرية النيلية قد ساهمت بدور ايجابي في القضاء على المعتدي الصليبي في دلتا النيل شمالاً ، فانها لم تتهاون أيضاً في القيام بواجبها نحو حماية الأطراف المصرية الجنوبية من غارات مملكة النوبة المسيحية في أعالي النيل . وغير بعيد أن يكون هناك صلة أو تجاوب صليبي بين عدوان الشمال والجنوب .

وكيفما كان الأمر ، فان السياسة المصرية بوجه عام ، وفي عهد الأيوبيين والمماليك بوجه خاص ، اهتمت بمملكة النوبة اهتماماً كبيراً ، لأنها تكوّن جزءاً أساسياً من الشبكة النيلية التي تجمعها مع مصر ، ولأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسياسة مصر التجارية في النيل والبحر الأحمر ، هذا فضلاً عن أن قوافل الحجاج القادمة من المغرب ومصر قد تحولت عن طريق سيناء إلى طريق النيل جنوباً حتى قوص فعيذاب وذلك بسبب الامارات الصليبية التي قامت في الشام وفلسطين مما جعل الطريق من هناك محفوفاً بالمخاطر [١] .

وكان النوبيون يدينون بالمسيحية على مذهب الكنيسة المصرية (كنيسة الاسكندرية) [٢] ، كما كانوا يدينون بالولاء والطاعة لسلطان مصر منذ اتفاقية البقط [٣] ، التي عقدها معهم القائد العربي عبدالله بن سعد بن أبي سرح سنة ٦٥٠ م ، إلا أنهم لم يحافظوا دائماً على هذا العهد ، فكثيراً ما امتنعوا

= وقل لهم ان اضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي صبيح

هذا ولا تزال دار ابن لقمان معروفة بمدينة المنصورة .

(١) مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٤٢ - ١٤٥ .

(٢) نفس المرجع ص ١٧٦ .

(٣) البقط ما كان يؤخذ من النوبة في كل عام في قرية القصر على بعد خمسة اميال جنوبي اسوان ولفظ البقط مأخوذ من الكلمة المصرية القديمة باق Bak بمعنى عبد ، أو الكلمة اللاتينية Pactum بمعنى عقد أو اتفاق ، أو انها عربية الاصل بمعنى الجماعة المتفرقة أو بقعة من الأرض ، راجع : (السيدة الكاشف : مصر في فجر الاسلام ص ١٥ ، مصطفى سعد : نفس المرجع ص ١١٢) .

عن دفع البقط وشنوا الغارات على بلاد الصعيد بالبر والبحر وكثر ايذاؤهم للمصريين[1] . واضطر ولاة مصر نتيجة ذلك إلى توجيه الحملات التأديبية إلى بلاد النوبة تمسكاً منهم بشروط هذا البقط الذي يرمز للنفوذ المصري في تلك البلاد .

ولقد ساهمت البحرية في هذه الحملات بنقل الجنود والأسلحة والآلات والأقوات حتى مدينة أسوان ثم تسير الجنود على جانبي الوادي في أراضي النوبة نظراً لوجود الشلالات والجنادل في مجرى النيل هناك . إلا أنه يفهم مع ذلك من النصوص التاريخية أن بعض الوحدات الخفيفة من الأسطول المصري كانت تقوم بمطاردة العدو في هذه المناطق الخطرة الملاحة .

وقد جرت العادة عندما تكون حركة العصيان في جنوب النوبة ، أن تتخذ الحملات التأديبية طريق البحر الأحمر بدلاً من النيل لتفادي اختراق النوبة من الشمال ، فتسير الأساطيل المصرية في البحر الأحمر إلى عيذاب أو إلى ميناء سواكن جنوباً ، ومن هناك تتقدم الجيوش في البر إلى جنوب النوبة .

ولقد شجعت هذه الحملات على هجرة بعض القبائل العربية إلى بلاد النوبة والاستقرار فيها والاختلاط بأهلها وخاصة في منطقة مريس شمالي النوبة . ونذكر على سبيل المثال عرب ربيعة الذين تزوجوا من بنات رؤساء النوبيين وأصبحت لهم مصالح مادية لانتفاعهم بنظام الوراثة المعروف هناك وهو توريث ابن البنت أو ابن الأخت . ونتيجة لذلك صار لبني ربيعة نفوذ كبير في منطقة أسوان وما يليها جنوباً في أرض مريس .

وتوطدت علاقات حسنة بين بني ربيعة والدولة الفاطمية في مصر ، واستعان بهم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في القبض على الثائر أبي ركوة عندما لاذ بالفرار من مصر إلى النوبة . ونجح أبو المكارم أمير ربيعة في

---

(١) يقول المقريزي اتعاظ الحنفا لوحة ١١٥ أ مثلاً « وفي سنة ٥٠١ هـ وردت الاخبار بأن متملك النوبة قد تجاوز براً وبحراً (النيل) وعول على قصد البلاد القبلية » .

القبض عليه وتسليمه للفاطميين سنة ١٠٠٦ م . وقد كافأه الفاطميون على ذلك بمنحه لقب كنز الدولة ، وتوارث أبناؤه هذا اللقب ، وعرف بنو ربيعة ببني كنز ، وهم الكنوز الحاليون هناك بين أسوان وكروسكو[١] .

وفي بداية عصر صلاح الدين الأيوبي ، تجمّع في شمالي النوبة عدد كبير من الجنود السودانيين الهاربين من مصر ، وأخذوا ، بمعاونة النوبيين ، يهاجمون بلاد الصعيد سنة ١١٧٢ م (٥٧٢ هـ) تمهيداً لاحتلال مصر وإعادة الحكم الفاطمي إليها . فأنفذ صلاح الدين أخاه تورانشاه لدفع هذا الخطر ، وشحن مراكب كثيرة في النيل بالرجال والأقوات ، ونازل تورانشاه قلعة ابريم[٢] واستولى عليها ، ثم مضى بجملته إلى داخل بلاد النوبة حتى دنقله وحاول جماعة من جنوده الأكراد بقيادة الأمير ابراهيم الكردي العبور إلى جزيرة في النيل تسمى دندان ولكنهم غرقوا جميعاً ، ثم عاد تورانشاه إلى أسوان بعد أن أخضع شمال النوبة وترك حامية أيوبية في قلعة ابريم . وقد عبر الشاعر أبو الحسن الذروي عن نشاط البحرية في هذه الحملة عند قوله في مدح تورانشاه :

تقلدوا الأنهار واستلأموا الـ غدران ، فالنيران تجري مياه[٣]

وترتب على جهود تورانشاه الحربية في النوبة أن حصل على اقطاع اشتمل على الجهات الواقعة بين قوص وأسوان وعيذاب ، وكانت عبرته في السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار[٤].

وفي عصر المماليك تكررت اعتداءات النوبيين على الأراضي المصرية ، فيروي المؤرخون أن ملك النوبة المدعو داود انتهز فرصة انشغال السلطان

---

(١) مصطفى محمد مسعد : المرجع السابق ص ١٣٤ – ١٣٥ و (Trimingham : Islam in the Sudan p. 68).

(٢) ابريم بلدة قديمة على الضفة الشرقية للنيل في منطقة النوبة المصرية التي عرفت في العصر الروماني باسم Nubatai وفي المراجع القديمة باسم بريس .

(٣) ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ج ١ ق ٢ ص ٥٣١ .

(٤) راجع (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦٦) .

الظاهر بيبرس بحروبه ضد المغول والصليبيين ومملكة أرمينيا الصغرى ، وهاجم ثغر أسوان سنة ١٢٧٢ م ويبدو أن داود قام بهذه الأعمال الاستفزازية مدفوعاً بروح صليبية وكراهية دينية بدليل أنه هاجم أيضاً ميناء عيذاب لا بقصد تهديد التجارة المصرية في البحر الأحمر فحسب ، بل لقطع طريق الحج في هذه المنطقة أيضاً (١) .

وقد رد بيبرس على هذا العدوان بارسال حملتين متتاليتين إلى بلاد النوبة في سنتي ١٢٧٣ – ١٢٧٥م بقيادة آقسنقر الفرقاني وعزالدين الأفرم . وقد ساهمت البحرية في هذه العمليات بعدد من الحراريق والسفن الحربية ، وتمكن الأمير عزالدين من اختراق الجنادل بمراكبه قرب الشلال الثاني والانتصار على الملك داود وأسره وإقامة عمه شكنده ملكاً على النوبة . وقد أنشأ السلطان بيبرس عقب هذا النصر ديواناً خاصاً للنوبة في القاهرة تحت اشراف الصاحب بهاء الدين ابن حنا لمراقبة وصول الجزية من النوبة بانتظام (٢) .

وفي عهد السلطان قلاوون تجددت الحرب بين مصر ومملكة النوبة بسبب امتناع الملك سمامون عن دفع الجزية المتفق عليها . فأعد السلطان قلاوون حملة ضخمة لاخضاعه . وامتازت هذه الحملة بوفرة عدد الحراريق التي بلغت عدتها خمسمائة لحمل الزاد والسلاح والأثقال . وغادرت الحملة القاهرة سنة ١٢٨٩ م ، فلما وصلت أسوان ، سار نصف الجيش في البر الشرقي بقيادة الأمير أيدمر والي قوص ، على حين سار النصف الآخر في البر الغربي بقيادة عزالدين الأفرم . واعتصم الملك سمامون بجزيرة في النيل تبعد خمسة عشر يوماً عن دنقله ، فبعث إليه أيدمر رسالة يطلب منه المفاوضة ووعده بالأمان ، غير أن سمامون لم يقبل المفاوضة وفر من

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٧٨ .

(٢) القريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٢١ – ٦٢٢ .

الجزيرة جنوباً إلى جهة الأبواب خوفاً من وصول المراكب المملوكية للقبض عليه . وانتهت تلك الحرب بانتصار قلاوون وعودة سمامون إلى دفع الجزية صاغراً [1] .

ولم تلبث هذه المملكة أن أخذت تصطبغ بصبغة عربية إسلامية ، وتفقد طابعها المسيحي تدريجياً نتيجة لاختلاطها بالعرب بحيث لم يكد ينتصف القرن الرابع عشر الميلادي حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام ، وانتقل الملك فيهم إلى بني كنز فسقطت عنهم الجزية لأن بني كنز عرب مسلمون من ربيعة [2] .

بعض أنواع السفن النيلية

كان وصف النيل وكثرة عدد السفن التي تجري فيه ، من أهم الموضوعات التي جذبت أنظار الرحالة الذين زاروا مصر في العصور الوسطى عامة وفي عهد الأيوبيين والمماليك خاصة . وقد جرت العادة أن المواطن العادي من أهل البلد قد تفوته أمثال تلك الملاحظات المحلية التي لا يتنبه إليها إلا الزائر الغريب عن ذلك البلد ، ومن هنا تظهر قيمة أقوال الرحالة والمسافرين من هذه الناحية .

فالرحالة الغرناطي ابن سعيد المغربي الذي زار مصر في القرن الثالث عشر الميلادي ، أبدى دهشته من كثرة المراكب التجارية التي تمر بساحل الفسطاط ثم يقول :

« ولئن قلت اني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل ، فاني أقول حقاً » [3] .

---

(١) المقريزي السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٤٩ — ٧٥١ ، جمال الدين سرور : دولة بني ملاوون في مصر ص ١٥٣ ، محمد مصطفى مسعد : المرجع السابق ١٥٨ .

(٢) حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقيا ص ٢٩٤ — ٢٩٨ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٩١ ، محمد مصطفى مسعد : المرجع السابق ص ١٧٢ — ١٧٥ .

(٣) المقريزي ؛ الخطط ١ ص ٣٤٢ ، محمد حمدي المناوي ؛ نهر النيل في المكتبة العربية ص١٩٤ .

كذلك لاحظ الرحالة الطنجي ابن بطوطة نفس هذه الملاحظة عندما زار مصر في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، إذ يقول : « ان بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية ، تمر صاعـدة إلى الصعيد ، ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق » (١) .

وقد يشك المرء في صحة هذا العدد لأول وهلة ، ولكن حينما يقارنه بوصف الرحـــالة الايطالي فريسكو بالدي Frescobaldi الذي زار مصر مصر سنة ١٣٨٤ م أي بعد ابن بطوطة بنحو ستين سنة ، يتضح له صدق رواية الرحالة العربي . يقول فريسكو بالدي : « كان في القاهرة عدد عظيم من المراكب حتى إنــه لو جمعت جميع المراكب التي شاهدتها في جنوه ، والبندقية ، وأنكونا ، بصرف النظر عن المراكب ذات الطابقين ، لما عادلت ثلث المراكب التي شاهدتها هنا » (٢) .

ويروي خليل بن شاهين (ت ١٤٦٩ م) أنه أحصى ما بساحل مدينة مصر من المراكب ، فكانت تنيف على ألف وثمانمائة مركب » (٣) .

ولقد اختلفت السفن النيلية في أسمائها وأشكالها وأحجامها تبعاً للغرض الذي استعملت من أجله ، فهناك سفن لحمل الغلال والبضائع وأخرى لنقل الحجاج والمسافرين وثالثة لنزهة الملوك والأمراء ، ورابعة للأغراض الحربية وهكذا . ولا يتسع المجال هنا لحصر أسماء تلك السفن ووصف أشكالها وتحديد مهمتهـا ، وحسبي أن أعرض على سبيل المثال نصاً مختصراً عن بعض أنواع هذه السفن نقلاً عن المؤرخ السكندري محمد بن قاسم النويري (ق ١٤ م) يقول فيه :

« ومراكب النيل معروف منها حراريق ودرامين ومراكب وشخاتير :

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٦٩ (نشر وترجمة دفريمري وسانجينتي ، باريس ١٩١٧) .
(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ، المقدمة الفرنسية ص ١٠ نشر وترجمة دفريمري وسانجينتي .
(٣) ابن خليل الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ٢٧ ، محمــد حمدي المناوي : المرجع السابق ص ١٩٤ .

فالحراريق واحدتها حراقة ، تتخذ لنزهة الملوك والأمراء لقضاء أشغالهم ومهماتهم ، والدرامين واحدتها درمونه تتخذ لحمل غلالهم من اقطاعاتهم في ابان زيادة النيل ، والمركب برسم حمل بضائع التجار والركاب من بلاد مصر إليهـا ، ومن مصر إلى بلادها ، والشخاتير واحدتها شختورة وهو برسم تعدية الناس من الشط إلى الآخر في ابان زيادة النيل واختراقه من مصر إلى الجيزة ، ومن الجيزة إليها . والنيل يركب أراضي مصر في ابان زيادته ، فلا يتوصل إلى قراها إلا في الشخاتير »[1] .

(١) النويري : كتاب الالمام ورقة ١٢٧ ب نسخة برلين .



الباب الثاني

البحرية الإسلامية في البحر الأحمر
في عصري الأيوبيين والمماليك
(١١٦٩-١٥١٧م)

الباب الثاني

البحرية الإسلامية في البحر الأحمر في عصري الأيوبيين والمماليك (١١٦٩-١٥١٧م)

امتازت مصر بشواطئها الشرقية الطويلة الممتدة على البحر الأحمر. وقد هيأ لها هذا الموقع الجغرافي أن تتصل في سهولة مع جيرانها سكان الجزيرة العربية ثم بلاد الهند والصين عبر المحيط الهندي. وقد نوه بذلك المؤرخون العرب عندما وصفوا مصر بأنها « فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها، فساحلها بمدينة القلزم (السويس) يحمل منه إلى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند – الخ »[١].

ويبلغ طول البحر الأحمر من السويس إلى باب المندب ٢٢٤٠ ك.م، وعرضه في أوسع جهاته ٣٥٠ ك.م. أما تسميته بالأحمر فهي تسمية أغريقية نسبة إلى لون الشعب المرجانية التي تكثر فيه. وكان المصريون القدماء يطلقون عليه اسم الأخضر العظيم[٢]، أما العرب، فقد أطلقوا عليه أسماء متعددة، هي نفس أسماء المدن والبلاد المطلة عليه مثل: بحر القلزم[٣]، وبحر جدة[٤]، وبحر عيذاب[٥]، وبحر اليمن[٦]، وبحر

---

(١) المقريزي: الخطط ج ١ ص ٢٨.
(٢) محمد السيد غلاب: منطقة السويس الجغرافية خلال التاريخ ص ٧.
(٣) رحلة ابن جبير ص ٣٥ (طبعة بيروت).
(٤) رحلة ابن جبير ص ٤٤.
(٥) نفس المصدر ص ٤٦.
(٦) النويري السكندري: كتاب الالمام ورقة ١٢٣ ب (نسخة برلين).

الحجاز[١] ، وبحر فرعون[٢]. ولعل هذه التسمية الأخيرة تعبر عن قصة غرق فرعون مصر في هذا البحر أثناء مطاردته للنبي موسى الكليم عليه السلام.

ولقد أجمعت كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب على أن البحر الأحمر يختلف عن البحر المتوسط في طبيعته وسفنه ورياحه وأعاصيره وطرق الملاحة فيه .

فالرحالة الأندلسي البلنسي ابن جبير (١٢١٧ م) يصف المصاعب التي واجهته أثناء عبوره لهذا البحر من عيذاب إلى جدة بقوله : « وكان نزولنا بجدة حامدين الله عز وجل ، وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عايناه في تلك الثمانية الأيام طول مقامنا على البحر ، وكانت أهوالاً شتى ، عصمنا الله منها بفضله وكرمه ، فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه ، وكثرة شعابه المعترضة فيه . ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المركب واختلالها واقتصامها[٣] المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه أو جذب مرسى من مراسيه . وربما سنحت[٤] الجلبة[٥] بأسفلها على شعب من تلك الصعاب أثناء تخللها ، فنسمع لها هدًّا يؤذن باليأس ، فكنا فيها نموت مراراً ونحيا مراراً .. وأبصرنا من صنعة الرؤساء والنواتية في التصرف بالجلبة أثناءها أمراً ضخماً ، يدخلونها على مضايق ويصرفونها خلال تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القياد ، ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه[٦] .

كذلك يصف الرحالة الطنجي ابن بطولة (ق ١٤ م) صعوبة السير في هذا البحر بقوله :

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩١ .
(٢) رحلة ابن جبير ص ٥٠ .
(٣) اقتصامها : انكسارها .
(٤) سنحت : لصقت بالارض .
(٥) الجلبة والجمع جلاب وجلبات نوع من سفن البحر الاحمر التي لا يستعمل في بنائها المسامير .
(٦) رحلة ابن جبير ص ٥١ – ٥٢ (طبعة بيروت) .

« وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ، ويرسون وينزلون إلى البر، فإذا كان الصباح صعدوا الى المركب ، وهم يسمون رئيس المركب الربان ، ولا يزال أبداً في مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الأحجار ، وهم يسمونها البنات »[١].

أما المؤرخ السكندري محمد بن قاسم النويري ، فيعطينا صورة جميلة لبعض العادات والتقاليد التي كانت متبعة بين ملاحي هـذا البحر مع الاشارة إلى أسماء بعض مراكبه وطريقة صنعها وترميمها فيقول :

« ومراكب بحر اليمن ليست مسمورة بالمسامير مثل مراكب بحر الروم (أي البحر المتوسط) ، بل مخيطة بالقنبار وهو ليف قشر جوز النارجيل[٢] ، وذلك لما في بحر الهند واليمن من جبال المغناطيس الذي إذا شمها الحديد طار إليها بسرعة لعشقه لها[٣] ... ومن أسماء مراكب بحر اليمن والهند ، الجلاب ، والزوم ، والسنابك ، واحدها جلبة ، وزومة ، وسنبوك . ومن عادة الجلبة في سيرها إذا قربت من بر عنده جبل ، يقف النواتية بقلّة

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ (الطبعة الاوروبية نشر وترجمة دفريمري وسانجنيتي).

(٢) يذكر ابن بطوطة ان هذا الليف كان يدبغ في مصر على ساحل عيذاب ثم يضربونه بالمرازب ثم يغزله النساء وتصنع منه الحبال التي يخيطون بها خشب المراكب بدلاً من المسامير ، ثم يضعون خلالها دسراً من عيدان الجريد ثم يطلونها بالشحوم مثل دهن الخروع أو دهن القرش حتى يلين عودها لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر .

(٣) اسطورة جذب جبال المغناطيس للسفن المسمرة في البحر الاحمر كانت شائعة في العصور القديمة والوسطى ، وقد ذكرها كل من النويري السكندري والقزويني وماركوبولو وغيرهم وواضح انها فكرة خاطئة بدليل ان السفن اليونانية والرومانية كانت تسير في البحر الاحمر وهي محملة بالمسامير والحديد . وقد اختلفت اقوال المؤرخين حول الاسباب التي من اجلها استعملت الخيوط فى بناء سفن البحر الاحمر والمحيط الهندي بدلاً من المسامير . وكيفما كان الامر فان دور الصناعة في مصر كانت تصنع هذين النوعين وترسل لكل بحر السفن الخاصة به . راجع التفاصيل في (سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص ١٩٣ - ١٩٥ ، محمد ياسين الحموي ؛ تاريخ الاسطول العربي ص ٥٨ وما بعدها) .

ويسلم على الجبل ويقول : « أيها الجبل ! هذا مركب الناخودا[١] . مسافر من البلد الفلاني يريد البلد الفلاني ، خاطرك معه » . وربما طبخ شيئاً من أرز ورمى به البحر ويقول له : « هذا ضيافتك أيها الجبل » . وهذا فعلهم في كل جبل يرونه . وكذلك في بحر عيذاب ، يجمع من التجار ما يؤكل ، ويرمى له في البحر برسم الهدية . ومن عادتهم إذا لم يكن عندهم ريح يذبحون دجاجة سوداء أو جدياً أسود ويلطخ بدمه أصول الصواري ، ويبخر بالعود القماري . قال بعض التجار :

« ولقد رأيت نوتياً وقد أخذ السكين وهو يحارب في الهواء وحده بها ، فسألته عن ذلك ، فقيل لي أنه يقاتل الريح لتخلفه عنا » . وقال أيضاً : أقمنا جمعة ليس معنا ريح والبحر كأنه جامد ، ونحن في اللجة ، فأخذوا قلّة مجوفة البطن وجعلوا فيها من جميع كل بضاعة شيئاً يسيراً ، وصوروها على شبه المركب بالصواري والقلوع ، وعملوا في الصواري شميعات ونزل النواتية في سنبوك ، وأخذوا القلة وطافوا بها في البحر سبع دورات حول المركب ثم تركوا القلة في الماء تعوم والشمع يقد بها ، وقالوا هذه هدية البحر . فلم تزل القلة على وجه الماء حتى يأتي الهواء ويقوى عليها الموج فيأخذها ويمضي بها . ثم من عادتهم أن يكون في المركب أربعة غطاسين ليس لهم شغل إلا إذا زاد الماء في المركب فيتدهنون بالشيرج ، ويسدون مناخرهم بالشمع ، وينزلون البحر مقلع بالقلوع يجري ، ومع كل واحد منهم مخطافان ، وبينهما حبل رقيق ، فيطرح المخطاف الأول في خشب المركب فوق الماء ، ويغطس بالثاني ويتنقل به تحت الماء قليلاً مثل الحوت حول المركب ، ويتجسس بأذنه ، فحيثما سمع خرير الماء ، سده بالشمع لأنها تكون ثقباً مسدودة بالجريد وهي موضع الخياطة ، فربما يزرق ذلك الجريد المشدود بحبل ليف النارجيل فأمره خفيف . فيسد في

---

(١) الناخودا أو الناخوذة هو قائد المركب Capitaine de navire والكلمة اصلها فارسي . ناو : مركب خداء : رب . راجع : Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes II p. 648.

نهاره العشرين والثلاثين ثقباً . ويطلع الغطاس لا يصعب عليه شيء من ذلك سواء ، كان الريح أو السكت ، وهذا من أعجب الأشياء . ومراكب الهند بأجمعها بسبعة قلوع مربعة في كل مركب ، وتلك القلوع من حصر النارجيل والكتان ، وهي مخيطـــة بخيط النارجيل المعروف بالقنبار . وبأرض الهند موضع يقال له البدكور يعمرون به مراكباً كباراً ليسافروا بها إلى عـــدن موسوقة بالفلفل والبضائع الجليلة ، ويعتدون بالقسي العقار والسلاح لقتال السارق في البحر . والسارق أجناس مختلفـــة من الهنود الكفار ، تجهزهم ملوكهم لقطع الطريق على التجار ولهم على ذلك جامكية ، وربما غلبوا وغابوا ، ولكنهم بعد أخذ الأموال لم يأسروا أحداً بل يرمونهم في أي ساحل لجأوا إليه . وملوك السواحل يحكمون لهم بالتمكن والبيع مما غنموه ، ومن عرف شيئاً لا يأخذه إلا بالشراء منهم ، ويقولون هذا عمارة المدائن » [١] .

هذا ، وقد أجمع المؤرخون على أن سفن البحر الأحمر والمحيط الهندي كانت تصنع من أخشاب متينة مثـل خشب الساج أو خشب جوز الهند Teak الذي امتاز بمتانته ومرونته وقوة احتماله للتأثيرات الجوية والبحرية القاسية في تلك البحار . كذلك يجمع المؤرخون على أن هذه السفن كان لا يستعمل في بنائها المسامير الحديدية مثل سفن البحر المتوسط بل كانت تخاط ألواحها بحبـال الليف وتثبت بدسر (مسامير خشبية) من عيدان النخل ، ثم تطـلى بالشحوم مثل دهن سمك القرش [٢] ، كي يلين عودها لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر علماً بأن سفن البحر المتوسط كانت

(١) راجع (النويري السكندري : كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية . ورقة أ ١٢٣ – ١٢٧ ب ، نسخة برلين (صورة بكليـــة آداب الاسكندرية) .

(٢) كانوا يصطادون ما صغر من سمك القرش ويطبخونه في القدور فيذوب جميع لحمـــه ويصير شحماً مذاباً ، وهذا الشحم مشهور ببلاد اليمن في عدن وغيرها من المدن الساحلية راجع (محمد بن منكلى : الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب لوحه ٣٧) .

تقلفط بالقطران أو القار كما سبق أن بينا ، ويلاحظ أن الليف المستعمل في خياطة هذه السفن كان يسمى بالقنبار أو القنبر وهو ليف قشر جوز النارجيل ، كانوا يدبغونه في حفر على الساحل ثم يدرسونه ويضربونه بالمرازب ثم يفتله النساء وتصنع منه الأمراس أو الحبال التي تصنع منها هذه المراكب التي كانت تنقل التجارة والحجاج في البحر الأحمر أو المحيط الهندي .

وقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التي دعت إلى استخدام الحبال بدلاً من المسامير في بناء هذه السفن ، فبعضهم يردد هذه الاسطورة القائلة بأن جبال البحر الأحمر كانت تحتوي على صخور المغناطيس تحت سطح الماء فتجذب السفن المبنية بالحديد إلى قاع البحر . ولا شك أن هذه الأسطورة غير صحيحة بدليل أن السفن الحديدية تسير في هذه البحار دون أن يصيبها أذى . ويرى فريق آخر ان استعمال حبال الليف في صنع هذه المراكب يرجع إلى ملوحة مياه البحر الأحمر التي كانت تتلف المسامير ، غير أن هذا الرأي أيضاً غير صحيح لأن مياه البحر المتوسط لا تختلف عن مياه البحر الأحمر في درجة الملوحة إلا بنسبة ضئيلة جداً . ولعل السبب الحقيقي في ذلك هو أن السفن المخيطة تكون أقل عرضة للكسر من المراكب المصنوعة بالمسامير إذا اصطدمت بشعاب المرجان في البحر فضلاً عن أنها تستطيع الرسو على الشواطئ الصخرية المنتشرة في هذه البحار ، هذا إلى جانب أن صناعة المسامير أو استيرادها في مناطق البحر الأحمر والمحيط الهندي كان يتطلب نفقات كثيرة ، في حين أن خشب جوز الهند وأليافه ودهن القرش وغير ذلك من المواد اللازمة للخياطة كانت متوفرة في هذه المناطق [1] .

---

(١) راجع (جورج فاضلو حوراني : العرب والملاحة ص ٢٤٥ ؛ سعاد ماهر : المرجع السابق ص ١٩٥) .

الصراع حول السيطرة على البحر الأحمر

أشارت كتابات المؤرخين القدامى إلى وجود علاقات تجارية وعسكرية بين مصر وبين سواحل البحر الأحمر منذ أيام الفراعنة ، كما أشارت كذلك إلى وجود قناة قديمة تربط النيل بخليج السويس لهذا الغرض أيضاً[1] .

وكانت هذه القناة تهمل أحياناً ، ويجدد حفرها أحياناً أخرى على مر العصور . ولما فتح عمرو بن العاص مصر ، أعاد حفرها من جديد لربط مصر بالحجاز سياسياً واقتصادياً ، وأطلق عليها اسم خليج أمير المؤمنين نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي أشار بحفرها . ومن ثمّ صار هذا الخليج مسلكاً لسفن التجار والحجاج التي كانت تسير فيه إلى البحر الأحمر لتتجه إلى الحجاز واليمن والهند .

وهكذا اهتمت مصر بمنطقة البحر الأحمر من قديم ، ورسمت لنفسها هناك سياسية تقليدية ثابتة تقوم على تأمين تجارة البحر الأحمر وضمان سلامة التجار والحجاج فيه ، والتحالف مع القوى الحاكمة في البلاد المطلة عليه كالحجاز واليمن والنوبة . وكثيراً ما دفعتها تلك السياسة في فترات قوتها إلى التدخل عسكرياً في حكم تلك البلاد لضمان احكام سيطرتها على هذا الشريان الحيوي الهام .

ففي أواخر العصر الفاطمي ، عندما هاجم أمير مكة بمراكبه ثغر عيذاب وقطع الطريق على تجار مصر (٥١٢ هـ ١١١٨ م) ، أعلن وزير مصر الأمير الأفضل ابن بدر الجمالي أنه سيسير بنفسه في أسطول أوله عيذاب وآخره جده ، وأرسل إلى أشراف مكة وأعلمهم بما فعل أميرهم ، وأقسم في كتابه أنه لا يصل إلى مكة من أعمال الدولة تاجر ولا حاج إلى أن يرد أمير مكة ما أخذه من أموال التجار ... فلما وردت المكاتبة على الأشراف بمكة ، اشتد الأمر عندهم وبعثوا رسولاً من قبل أميرهم ،

---

(١) ابراهيم نصحي : السويس في العصور القديمة حتى الفتح العربي ص ٣٩ وما بعدها .

فلما وصل ساحل مصر لم يؤبه به ، ولا جرى عليه ضيافه ، وقيل له : « ما يقرأ لك كتاب ولا يسمع منك خطاب دون إعادة المأخوذ من التجار إليهم » وشاهد مع ذلك الجد والاهتمام بأمر الأساطيل وتجهيز العساكر إلى صاحبه ، فالتزم باحضار جميع أموال التجار ، وسأل التوقف عن الاسراع بما عول عليه من قصد صاحبه ، وأجل لعوده أجلاً قريباً ، فأجيب إلى ذلك ، وسار فلم ينقضي الأجل حتى عاد وصحبته جميع ما أخذ من التجار من البضائع والأموال »[1] .

وحينما ولى صلاح الدين الأيوبي حكم مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) وجه عنايته نحو حماية البحر الأحمر وتجارته وحجاجه والأماكن المقدسة المطلة عليه من خطر المستعمر الصليبي الذي كان يحتل سواحل الشام وفلسطين .

واعتمد صلاح الدين في تنفيذ تلك السياسة على أسطوله البحري ، فعمل على تقويته مستغلاً في بنائه أخشاب السنط التي كانت تنمو بكثرة في وادي النيل وصحراء سيناء كما سبق ان ذكرنا[2] .

وفي سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) عزم صلاح الدين على احتلال قلعة أيله التي تقع على فوهة البحر الأحمر ومداخله ، وكانت بأيدي الصليبيين ، فعمر لها المراكب الحربية في دور صناعة مصر (الفسطاط) ثم نقل أجزاءها وأخشابها مفككة على الجمال إلى ساحل البحر الأحمر حيث تم تركيبها وشحنها بالرجال والآلات . ومن هناك « هاجم القلعة المذكورة وفتحها واستباح بالقتل والأسر أهلها ، وملأها بالعدد والعدد ، وحصنها بأهل الجلاد والجلد لأنها في ممر حجاج مصر »[3] .

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ورقة ١١٧ (نسخة مصورة بمكتبة المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال عن نسخة طوب قبو سراي) وكذلك (محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ص ٢٢٩ .

(٢) راجع القسم الأول الخاص بالبحرية النيلية .

(٣) أبوشامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٧ .

وبعد سنوات قليلة من فتح أيله ، أرسل صلاح الدين حملة بقيادة أخيه تورانشاه ، احتلت اليمن سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ثم بسط نفوذه على الحجاز وصار يدعى له على منابر مكة . ولا شك أن هـذا التدخل المصري في البلاد المطلة على البحر الأحمر جنوباً وشمالاً ، كان الهدف من ورائـه هو السيطرة على مداخل هذا البحر وحماية تجارته وحجاجه من الخطر الصليبي المرابط في سيناء وجنوب فلسطين .

ومهما قيل من روايات أخرى حول أسباب هـذا التدخل الأيوبي في منطقة البحر الأحمر وخاصة اليمن[١] ، فان الأحداث التالية تبرر صدق ما قلناه . فيروي المؤرخون أنه في سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) حاول الأمير الصليبي أرناط Renaud de Chatillon صاحب حصن الكرك جنوبي فلسطين ، مهاجمة مكة والمدينة عن طريق البحر ، « فبنى سفناً حربية حملهـا على جمال الأعراب المجاورين بكراء اتفق معهم عليه ، فلما بلغ ساحل البحر أكمل انشاءها وتأليفها ودفعها في البحر ، ثم أوقف منها مركبين عند قلعة أيله لمنع أهلها من استقاء الماء ، بينما سارت بقية السفن جنوباً نحو عيذاب ، فقتلوا وأسروا وأحرقوا في البحر نحو ستة عشر مركباً ، وأخذوا بعيذاب مركباً قادماً بالحجاج من جدة ، وأخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج بين قوص وعيذاب ، وقتلوا الجميع ، وأخـذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن ، واستولوا على أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين ، وأحدثوا حوادث لم يسمع في الإسلام بمثلها ولا وصل قبلهم رومي إلى ذلـك الموضع ، فانه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية

(١) اختلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعت صلاح الدين إلى احتـلال اليمن ، فالبعض يرى أنه أراد أن يتخذها ملجأ له ولأسرته إذا ما أخرجه سيده نورالدين محمود من مصر. والبعض الآخر يرى أن صلاح الدين أراد بذلك أن يقضي على النفوذ الشيعي في اليمن كما فعل في مصر. والبعض الثالث يرى أنها كانت مؤامرة صليبية فاطميـة كانت تهدف إلى تشتيت واضعاف قوات الأيوبيين بغية احتلال مصر . وكيفما كان الأمر في مدى صحة هـذه الأسباب ، فاننا نعتقد أن السبب الطبيعي المنطقي لاحتلال الأيوبيين لليمن هو الدفاع عن مجال مصر السياسي والاقتصادي في البحر الأحمر ، والسيطرة على مداخله الجنوبية .

سوى مسيرة يوم واحد ... ثم مضوا إلى الحجاز يريدون دخول مدينة الرسول ﷺ وإخراجه من الضريح المقدس ، وأشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم [١] ، فلما وصل الخبر إلى مصر وبها الملك العادل نائباً عن أخيه صلاح الدين ، أمر الحاجب لؤلؤ ، فعمر المراكب بمصر وسار بها براً إلى أيله حيث أنزلها في البحر هناك ، وشحنها بالرجال ذوي التجربة من أهل الدين والحمية مع أنجاد من المغاربة البحريين [٢] ، وسار إلى أيله فظفر بالمركب الفرنجي عندها ، فخرق السفينة وأخذ جندها ، ثم عدى إلى عيذاب ، وشاهد بأهلها العذاب ، ودلوه على مراكب العدو فتبعها ، فوقع بها بعد أيام ، فأوقع بها وواقعها ، وأطلق المأسورين من التجار ، ورد عليهم ما أخذلهم . ثم صعد إلى البر ، فوجد أعراباً قد نزلوا منه شعاباً ، فركب خيلهم وراء الهاربين ، وكانوا في أرض تلك الطرق ضاربين ، فحصرهم في شعب لا ماء فيه ، وأسرهم بأسرهم ، وكان ذلك في أشهر الحجج ، فساق منهم أسيرين إلى منى كما يساق الهدى ، ونحرهما بها كما تنحر البدن ، وعاد إلى القاهرة بالأسرى في ذي الحجة سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢م) ، فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم ، وقطع أسبابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ، ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف » [٣] .

وللشاعر أبي الحسن بن الذروي في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الوقعة أشعار منها :

مر يوم من الزمان عجيب	كاد يبدي فيه السرورَ الجمادُ
إذ أتى الحاجب الأجل بأسرى	قرنتهم في طيها الأصفاد
بجمال كأنهن جبال	وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدي	هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي	وسواه من اللآلي يصاد [٤]

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٧٩ .
(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٤ (طبعة بيروت) .
(٣) يقدر عدد الاسرى بنحو مائة وسبعين أسيراً . راجع (أبوشامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٥ - ٣٧) .
(٤) أبوشامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٣٦ .

أثار هـــذا التدخل الصليبي في البحر الأحمر انتباه سلاطين الأيوبيين والمماليك إلى ميناء عيذاب ، فازداد اهتمامهم بها خصوصاً بعد ازدياد أهميتها التجارية . كذلك يلاحظ في هـذا الصدد أن قرب الوجود الصليبي من جنوب الشام وصحراء سيناء ، وتخريبهم لمدينة الفرما سنة ١١٥٠ م ، قد جعل التجار والحجاج المسلمين يتجنبون طريق القلزم — أيله للوصول إلى الجزيرة العربية . وقـــد أدى ذلك إلى اضمحلال شأن خليج ومدينة القلزم[١] (السويس) منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بعد أن كانت تلـــك المدينة ميناء الملاحة إلى الحجاز والهند في القرون الإسلامية الأولى[٢] . لهذا اضطر التجار والحجاج إلى اتباع طريق صعيد مصر والصحراء الشرقية إلى عيذاب ومن الأخيرة عـبر البحر الأحمر إلى جدة والحجاز .

لم يلبث ميناء عيذاب نتيجة لذلك ان صار محط تجار الهند واليمن والحبشة ، يردون في البحر إليه ثم يسلكون الصحراء الشرقية التي سميت باسم هذا الميناء — صحراء عيذاب — إلى مدينة قوص على الضفة الشرقية للنيل ، ومنها يتجهون في النيل شمالاً إلى القاهرة[٣] .

كذلك ازدهر ميناء القصير شمالي عيذاب ، وذلـك لقربه من مدينة قوص التي كانت هي الأخرى عاصمة للصعيد ، ومركزاً للعلماء والتجار ورجال المال . وكان بها فندق للكارمية[٤] ، ينزل فيه تجارهم من القاهرة والاسكندرية .

---

(١) خربت مدينة القلزم في القرن الخامس الهجري ، وأنشأ التجار قاعدة جديدة لهم بجوارها وهي السويس ، وبذلك حل اسم السويس محل القلزم . ومـا زال التل المرتفع القائم بجوار السويس يعرف اليوم باسم قلعة القلزم (ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥١) .

(٢) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٢ — ١٥٤ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٤ — ٤٦٨ ، المقريزي : الخطط ج ١ ص ٢٠٢ ، صبحي يني لبيب : تاريخ تجارة الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي (رسالة لم تنشر) ص ٩١ .

(٤) هم التجار الكارمية أو تجار الكارم ، ويقال ان المقصود بالكارم هو العنبر الاصفر ، وقيل =

ولقد بلغ من اهتمام الأيوبيين والمماليك بتجارة البحر الأحمر وسواحله أن مدوا نفوذهم إلى الحجاز واليمن بل وإلى ميناء سواكن المنفذ البحري لممالك النوبة (٦٦٤ هـ سنة ١٢٦٥ م) مما أدى إلى أحكام السيطرة المصرية على البحر الأحمر مع تهديد المعاقل المسيحية في بلاد النوبة .

واستمر هذا الطريق الجنوبي : قوص — عيذاب مسلكاً للتجار والحجاج في ذهابهم وايابهم مـدة طويلة تزيد على ثلاثمائة سنة (٤٥٠ — ٧٦٠ هـ — ١٠٦٢ — ١٣٥٨ م) استطاعت دولة المماليك خلالها أن تقضي على دولة الصليبيين في الشام وتطردهم منه نهائياً سنة ١٢٩١ م[١] . وكان من نتائج ذلك زوال الخطر الصليبي عن جنوب الشام وصحراء سيناء ، وعودة الحياة من جديد إلى خليـج السويس ، فصارت كل من ميناء السويس والطور مكان حط واقلاع للسفن عابرات المحيط الهندي والبحر الأحمر .

ولقد استغلت دولة المماليك في مصر فرصة أمن الملاحة والتجارة في شمال البحر الأحمر وجنوبه من الخطر وعملت جاهدة على جذبها إليها ، يشهد على ذلك المنشور الرسمي الذي اذاعه السلطان المنصور قلاوون (ت ١٢٩٠ م) على التجار الذين يصلون إلى مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم ، وهو مرسوم جميل يذكرنا بالدعاية السياحية في الوقت الحاضر إذ يقول فيه : « ... ومن يؤثر الورود إلى بـلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة أفياؤها وأفناؤها ، فليعزم عزم من قـدر الله له في ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا ذخيرة ، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ، ونزهة لا

= انها تحريف لكانم Kanem احدى بلاد السودان الغربي في شمال شرق بحيرة تشاد وتنسب إليها جاليات تجارية في مصر واليمن كانت بيدها تجارة البهار — الواردة من الهند . وقـد نص أبوشامة على اكارم عدن وان لم يشر الى اصلهم أو جنسيتهم . راجع : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٧ . وكذلك (Dozy : Suppl. aux Dic. Arabes II p. 460)

(١) المقريزي : الخطط ١ ص ٢٠٢ ، مصطفى مسعد ، الاسـلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٣٣ — ١٤٤ .

يملها بصر ، والمقيم بها في ربيع دائم ، وخير ملازم ، ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه ... فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند والصين والسند وغيرهم ، فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها ، والقدوم عليها ، ليجد الفعال من المقال أكبر ، ويرى احساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر ، ويحل منها في بلدة طيبة ، وفي سلامـــة في النفس والمال ، وسعادة تمول الآمال ، ولهم منا كل ما يؤثرونه .. »[١] .

هذا ، ويلاحظ أن ازدهار حركة التجارة في خليـج السويس شمالاً ، قد أدى آخر الأمر إلى اهمال طريق عيذاب جنوباً ، ومن ثم أخـذت عيذاب تضمحل شيئاً فشيئاً حتى خربها السلطان برسباي سنة ١٤٢١ م[٢] .

على أن السلطان برسباي وان كان قـد قضى على ميناء عيذاب ، إلا أنه في نفس الوقت قد تنبه إلى أهمية ثغر جـدة المقابل له ، فعمل على ابعاد نفوذ شريف مكة عن هذا البندر ، وجعله تحت اشرافه مباشرة . وهكذا أصبحت جدة مدينة مصرية ، وصار ناظرها يعين من قبل سلاطين المماليك ، وكان يشد أزره حامية مملوكية للدفاع عن هـذا الميناء ضد غارات الأشراف[٣] .

ولقد جنت مصر أرباحاً طائلة من ضريبـــة العشر التي فرضتها على مراكب الهند وغيرها المارة بجدة ، حتى إنه يقال إن ناظر جدة كان يحمل إلى الخزانة المصرية في كل عام ما يزيد على السبعين ألف دينار[٤] .

---

(١) راجع (القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٠ – ٣٤٢ ، سعيد عاشور : السويس منذ الفتح العربي إلى بداية العصر الحديث ص ٨٢) .

(٢) مصطفى مسعد : نفس المصدر ص ١٤٣ حاشية ٣ .

(٣) احمد عبد الحميد خفاجي : موقف مصر من الحجـــاز في عصر المماليك الجراكسة ص ٩٠ (رسالة لم تنشر) .

(٤) انظر : Gaston Wiet : (Hist. de la Nation Egyptienne. Tome IV p. 574).

غير أن الظروف سرعان ما تغير الأحوال ، ففي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، فوجئت مصر بنجاح الملاح البرتغالي فاسكو دا جاما في الالتفاف حول أفريقيا عن طريق رأس الأعاصير (الرجاء الصالح فيما بعد) والوصول إلى شواطئ الهند[1]. وقد ترتب على هذا الكشف الجغرافي الخطير ، أن تحول النشاط التجاري إلى هذا الطريق الجديد بدلاً من طريق البحر الأحمر مما أدى إلى حرمان دولة المماليك من الأرباح التي كانت تحصلها على بضائع الشرق الأقصى المتجهة إلى جدة أو المارة عبر الأراضي المصرية إلى أوربا .

ولم يكتف البرتغاليون بذلك ، بل أخذوا في مهاجمة السفن الهندية المحملة بالبهار والتوابل إلى جدة ، وهددوا بغزو بلاد الحجاز وتخريبها بقطع كل اتصال بين المحيط الهندي والبحر الأحمر ، وتحويل متاجر الشرق الأقصى بالقوة إلى أسواق لشبونة . وقد نجم عن ذلك أن شحت البضائع الهندية في المواني المصرية ، وحرمت مصر من مصدر ثروتها وقوتها .

ولقد بذل السلطان قنصوة الغوري (١٥٠٠ – ١٥١٦ م) مجهودات كبيرة لمقاومة هذا الخطر البرتغالي ، فأخذ في اعداد الأساطيل وتجهيزها بالمدافع والأسلحة النارية ، كما احتكر خشب السفن في مصر[2] ، وعمل على استيراده من آسيا الصغرى ومن جمهورية البندقية التي أضر بتجارتها هذا الطريق الجديد أيضاً .

وفي سنة ١٥٠٥ م (٩١١ هـ) أبحرت من السويس حملة بحرية مصرية من خمسين سفينة بقيادة الأمير حسين الكردي . وصحبت الحملة جماعة كثيرة من البنائين والنجارين والفعلة لتحصين ميناء جدة وانشاء الأبراج اللازمة للدفاع عنها إذا ما داهمها البرتغاليون[3] .

---

(١) ينبغي ان نشيد هنا بفضل الملاح العربي احمد ابن ماجد الذي رافق فاسكودي جاما ودله على طريق الهند .

(٢) (ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٥٥) .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٨٤ – ٨٥ ، صبحي يني لبيب : المرجع السابق ص٢٢٣.

وكان أسطول للبرتغاليين في نفس هذا الوقت قد أبحر من المياه الهندية في عشرين سفينـــة بقيادة الفونسو دالبوكرك Alfonso d'Albuquerque واستولى على جزيرة سوقطره Socotra التي تشرف على مدخل البحر الأحمر ثم أغار على ميناء عدن اليمنى وعبر باب المندب ، وتحول إلى سواكن بقصد الاتصال بملك الحبشة ، والاتفاق معه على تحويـل مجرى نهر النيل ومنعه من الجريان إلى مصر ، ثم أبحر متجهاً نحو جدة بقصد انزال قواته على شاطئ الحجاز . غير أنه ما أن علم بوجود الأسطول المصري الكبير في مياه جدة ، حتى سارع بالانسحاب بسفنه من مياه البحر الأحمر . أما الأمير حسين الكردي ، فقد تقـدم على رأس وحداته البحرية لمطاردته ، واتجه نحو سواكن ومنها إلى عدن ثم إلى شواطئ الهند . وهناك تمكن في بادئ الأمر من انزال الهزيمة بالاسطول البرتغالي في صيف عام ١٥٠٨ م في موقعه شول Chaul على الشاطئ الغربي للهند . غير أنـــه ما كادت النجـدة تصل للبرتغاليين في العام التالي ، حتى تقدموا لمهاجمة الاسطول المصري في خليـــج ديو Diu على ساحل ملبار وألحقوا به هزيمة ساحقة في ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ م (٩١٥ هـ) [١] .

واستغل البرتغاليون هذا النصر في مواصلة التحكم في قواعـــد تجارة الشرق الأقصى ، وقطع الطريق البحري بين المحيط والبحر الأحمر ، فاستولوا على جوا Goa سنة ١٥١٠ م وعلى ميناء ملقه ملتقى سفن الصين والهند في جنوب شرق آسيا سنة ١٥١١ م ثم اتبعوا ذلـــك بمحاولات عديدة للاستيلاء على معاقل البحر الأحمر مثل جدة ومخا والحديدة ، ولكن محاولاتهم في تحقيق هذا المشروع باءت بالفشل بفضل نجدة الأسطول المصري ، وحسن دفاع الحاميات المصرية المرابطة هناك .

---

(١) احمد دراج : المماليك والفرنج في القرن الخامس عشر الميلادي ص ١٣٧ .

وقد أشار ابن اياس إلى الرحلات التفيشية التي قام بها السلطان الغوري إلى مدينة السويس للاشراف بنفسه على اعداد الأساطيل وتجهيزها بالآلات والمقاتلة قبل ابحارها لمنع البرتغاليين من دخول البحر الأحمر .

وهكذا نجد أن نفوذ البرتغاليين قـــد اقتصر فقط على مياه المحيط الهندي ، بينما ظلت مصر هي صاحبة السيادة في مياه البحر الأحمر .

الباب الثالث

البحرية الإسلامية في البحر المتوسط
في عصري الأيوبيين والمماليك



الباب الثالث

البحرية الاسلامية في البحر المتوسط

في عصري الأيوبيين والمماليك

أولاً - في العصر الأيوبي

(٥٦٤-٦٤٨هـ = ١١٦٩-١٢٥٠م)

يعتبر البحر الأبيض المتوسط منذ أقدم العصور مركزاً للحضارات الكبرى ، وأداة وصل بينها شرقاً وغرباً . وقد حمل لواءها الشعوب المطلة عليه كالمصريين القدماء ، والفينيقيين ، واليونان ، والرومان ثم العرب ، فتحكموا في مياهه وجزره وسواحله . وساهمت مصر بنصيب كبير في هذا المضمار لطول سواحلها ، وكثرة قواعدها ، وقوة أساطيلها التي كانت تمخر في عبابه .

ولقد اعتنت الدولة الفاطمية ، كما رأينا في القسم الأول ، - بأمر الجهاد البحري ، فكانت أساطيلها موزعة على جميع موانيها المصرية والشامية المطلة على هذا البحر كالاسكندرية ودمياط وعسقلان وعكا وصور وغيرها . وكان يشرف على قيادة تلك الأساطيل أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم جأشاً . وقد بلغت عدة الأسطول الفاطمي أيام المعز لدين الله ، أكثر من ستمائة قطعة واستطاع أن يسيطر على معظم سواحل هذا البحر ، ويبث الرعب في قلوب الأعداء[١] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٦١٩ .

غير أن هذه الدولة الفاطمية لم تلبث ان ضعفت في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي بسبب انقساماتها الداخلية ، فتقلصت قوتها البحرية ، وعجز أسطولها عن حماية المدن الساحلية الشامية من هجمات الأساطيل الصليبية ، فلم ينتــه القرن الحادي عشر الميلادي إلا وكان الأوربيون سادة لصقلية وجنوب ايطاليا والأقاليم الساحلية في الشام إلى جانب تحكمهم في طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب [١] .

ولما قامت الدولة الأيوبية المجاهدة (٥٦٤ – ٦٤٨ هـ = ١١٦٩ – ١٢٥٠ م) على أنقاض الدولة الفاطمية ، كانت البحرية العربية في مصر والشام قــد ضعفت تماماً بعد أن استولى الصليبيون على عسقلان وصور وعكا وغيرها من القواعد البحرية في الشام ، وامتدت غاراتهم إلى المدن الساحلية المصرية كالاسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد . ولهذا اهتم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي منذ بداية حكــه بالعمل على احياء البحرية العربية كسلاح مضاد للعدوان الصليبي ، وقام في سبيل تقويتها بعدة اصلاحات داخلية نذكر منها :

أولاً : أفرد للبحرية ديواناً خاصاً للانفاق عليها عرف باسم ديوان الأسطول ، وولى عليه سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) صديقاً من أصدقائه لم تذكر المراجـــع عنه شيئاً سوى أن صلاح الدين كتب إلى جميع ولاة الأعمال المصرية والشامية يأمرهم بتنفيذ طلباته كلما وصلت إليهم من حيث جمع الرجال للخدمة في الأسطول : « والقول قول صاحب الأسطول ، وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه » [٢] .

وفي سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) عين صلاح الدين أخاه العادل رئيساً عاماً لديوان الأسطول ، ثم عين العادل بدوره صفي الدين بن شاكر نائباً له في ذلك الديوان [٣] .

(١) ارشيبالد لويس : القوى التجارية والبحرية في حوض البحر المتوسط ص ٣٨٢ – ٣٨٣ .

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ج ١ ص ٢٦٩ ، حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ص ٧١ .

(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ١٠٧ – ١٠٨ .

ولقد تولى ديوان الأسطول الاتفاق على دور الصناعات المختلفة وأمدها بكل ما تحتاج إليه من أخشاب وآلات .

ثانياً : خصص صلاح الدين لديوان الأسطول أموالاً ضخمة وهي متحصلات أقليم الفيوم ، والحبس الجيوشي ، وحراج السنط ، وحصيلة النطرون التي بلغت وقتذاك ثمانية آلاف دينار ، إلى جانب متحصل ديوان الزكاة وقدره أكثر من خمسين ألف دينار ، وأجرة المراكب الديوانية ، وحصيلة قريتي أشنين وطنبذة من كورة البهنسا في محافظة المنيا الحالية [(١)] .

ثالثاً : استعان صلاح الدين في بناء أسطوله بالخشب المحلي في مصر بالاضافة إلى أخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في جبال لبنان فضلاً عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت [(٢)]. كذلك عقد معاهدات تجارية لهذا الغرض مع الجمهوريات الايطالية حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع [(٣)] .

وكان يوجد بالاسكندرية ديوان اسمه المتجر السلطاني لشراء مختلف البضائع المستوردة من الخارج واللازمة للجيش والأسطول كالأخشاب والحديد والأقمشة الصوفية ، فكان المتجر السلطاني يشتري هذه المواد بأموال الخمس المفروضة على التجار [(٤)] .

رابعاً : منع صلاح الدين الأهالي والتجار من التعامل مع البلاد المسيحية في المواد الحربية ، وأصدر مرسوماً في هذا الصدد يقول فيه : « واقتضى مرسومنا الشريف أن لا يمكن أحد من نقل سلاح ولا عدة حرب إلى

---

(١) المقريزي : نفس المرجع ج ١ ص ٧٣ .

(٢) محمد بن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ص ١٠١ نشر سامي الدهان (دمشق ١٩٦٣) .

(٣) انظر : (Heyd : Histoire du Commerce du Levant, tome I p. 396) وكذلك (الباز العريني : مصر في عصر الايوبيين ص ١٧٢) .

(٤) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٢٧ ، حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٥١ .

جهة البلاد الرومية . ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالي بأن لا يمكن أحد من نقل سلاح ولا عدة إلى جهة البلاد المذكورة ، والاحتراز على ذلك كل الاحتراز ، فيحيط علمه بذلك »[١] .

خامساً : اهتم صلاح الدين بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام . فحشد فيها الأجناد البطالين[٢] ، والايزاك[٣] ، والابدال[٤] ، والمنوّرين ، للمرابطة فيها وحراستها ، وقد أصدر مرسوماً بهذا المعنى يقول فيه : « إن مرسومنا الشريف اقتضى الاجتهاد في حفظ السواحل والمواني ، والاهتمام بأمرها ، واقامة الايزاك والابدال في أوقاتها على العادة ، والزام أربابها بمواظبتها ، وكذلك المنورون بالديدبانات[٥] ، والمناظر والمناور في الاماكن المعروفة ، وتعهد أحوالها »[٦] .

وكان على المنورين إذا ما كشفوا عدواً في البحر مقبلاً من بعيد ، أشعلوا النار على قمم المناور أو المنائر إذا كان الوقت ليلاً ، أو أثاروا فيها الدخان ان كان الوقت نهاراً . هذا إلى جانب استخدام الطبل والنفير لتحذير أهالي المدن المجاورة من غارة العدو . وكثيراً ما استعمل المنورون أشارات نارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للأخبار عن حالة العدو أو عدده أو جنسيته أو غير ذلك ، وان كانت المراجع للاسف لم تشرح لنا

(١) القلشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٠٥ .
(٢) البطالون من الأمراء والاجناد هم العاطلون من اعمال الدولة ووظائفها واقطاعاتها لأسباب ودوافع مختلفة . راجع (المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٣ حاشية ٤) .
(٣) اليزك والايزاك : الحراس ، وفي هذا المعنى ترد بعض النصوص في سيرة صلاح الدين مثل : واليزك بين الطريق وبين العدو مانعاً من يخرج من عسكرهم أو يدخل راجع :
(Dozy : Supplément aux Dic. Arabes, II. p. 851).
(٤) الابدال بمعنى البدل الذي يحل محل الحرس .
(٥) الديدبان كلمة فارسية الاصل (ديده بان) ومعناها المراقب أو الحارس وتعني أيضاً مكان المراقبة في موضع مرتفع .
(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٠٤ ، ج ١٠ ص ٢١٢ .

طريقة ارسال هـــذه الاشارات[1] . وبهذه الطريقة التي تشبه صفارات الانذار في وقتنا الحاضر ، كان من الممكن ابلاغ القاهرة عن وقوع غارة بحرية في أقصى شمال الشام في ليلة واحدة أو نهار واحد .

ولعل الوصف الذي أورده المقدسي لبعض مناور الشام ، يعطينا فكرة عن دورها في مقاومة الصليبين ، فيقول : « وكفرسلام من قرى قيسارية ، كبيرة آهلة ، بها جامع على الجادة ، ولهــذه القصبة رباطات على البحر ، ويقع بها النفير ، وتقلـــع إليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ، ويذهبون إليهم في الرسالات ، ويحملون إليهم أصناف الأطعمة وقــد ضج بالنفير لما تراءت مراكبهم ، فان كان ليــل أوقدت منارة ذلك الرباط ، وان كان نهاراً دخنوا . ومن كل رباط إلى القصبة عدة منائر شاهقة قد رتب فيها أقوام ، فتوقــد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الأخرى ، فلا يكون ساعة إلا وقــد انفر من بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ، ونودي إلى ذلك الرباط ، وخرج الناس بالسلاح والقوة »[2] .

سادساً : عمــل صلاح الدين على تحصين الثغور المصرية المطلة على البحر المتوسط مثل الاسكندرية ودمياط وتنيس ، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وحفر الخنادق حولها . وحرص صلاح الدين على تفقـــد سير العمل فيها بنفسه ، فزار دمياط في سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) صحبة ولديه الأفضل والعزيز وأقام فيها يومين متفقداً حصونها[3] ، كذلك أمر باخلاء مدينة تنيس المجاورة لها ، واعادة بناء أسوارها ولم يترك فيها سوى المقاتلة فقط[4] ، أما أسوار الاسكندرية ، فكان البدء في عمــارتها وتجديدها سنة ٥٦٦ هـ

(١) راجع كتابنا (دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٠١) .
(٢) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٧٧ .
(٣) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٩ .
(٤) المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١١١ .

(١١٧١ م) حينما كان صلاح الدين وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي ، ثم زارها للمرة الثانية في أوائل سلطنته سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) عقب زيارته لمدينة دمياط وذلك لمباشرة سير العمل في أسوارها . وقد صام بها رمضان وسمع الحديث على الحافظ أبي الطاهر السلفي .

ويضيف المؤرخ أبو شامة أن صلاح الدين خلال هذه الزيارة الثانية لمدينة الاسكندرية ، أمر بتعمير الأسطول ، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة . ولما تم عمل المراكب ، أمر بحمل الآلات ، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرجال ، وولى فيه أحد أصحابه ، وأمره بألا يبارح البحر وأن يغزو جزائره [١] .

أما زيارة صلاح الدين الثالثة لمدينة الاسكندرية ، فكانت في سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) ، وفيها عاين سور المدينة بعد اتمامه ، فكان من حسن الآثار والمآثر [٢] . ويقال ان صلاح الدين في خلال تلك الزيارة أمر والي المدينة واسمه وقتذاك فخر الدين قراجا ، بكسر أربعمائة عمود روماني كانت تحيط بعمود السواري ، والقائها عند شاطئ البحر لمنع مراكب العدو من الوصول إلى مرساها أو لكسر حدة الأمواج على سور الاسكندرية [٣] . وهكذا صارت مدينة الاسكندرية بفضل عناية صلاح الدين ، القاعدة البحرية الكبرى في مصر ، كما شارك أسطولها في كثير من العمليات الحربية التي دارت ضد الصليبيين سواء في مياه البحر المتوسط أو البحر الأحمر .

سابعاً : حرص صلاح الدين على رفع أجور رجال الأسطول لتحسين حالهم ، فقرر بأن يكون دينار الأسطول ٣/٤ الدينار العام بعد ان كان ٥/٨ ذلك الدينار ، أي بزيادة عشرين في المائة تقريباً [٤] ، كذلك استخدم

(١) (٢) ابو شامة : المرجع السابق ج ١ ق ٢ ص ٦٨٩ — ٦٩٠ .
(٣) عبد اللطيف البغدادي : كتاب الافادة والاعتبار ص ٢٨ ، عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية في العصر الاسلامي ص ٢٤٥ .
(٤) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٥ ، محمد ربيع : المرجع السابق ص ٧٢ .

الملاحين من المغاربة في أساطيله نظراً لاختصاصهم ومهارتهم في هذا الجهاد البحري . وقــد أشاد المؤرخون أمثال ابن جبير والنويري السكندري بشجاعتهم في هذا الميدان زمن الأيوبيين والمماليك .

ثامناً : عمل صلاح الدين على بث روح الحرب والجهاد في نفوس المسلمين ، وتهيئة عقولهم لهذا الواجب المقدس عن طريق المدارس العديدة التي أنشأها في مصر والشام . وقد حرص صلاح الدين على أن يكون هو نفسه قدوة صالحة لهــذا العمل ، فكان مجلسه لا يخلو من ذوي الفضل وأولي النباهة الذين كانوا يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد ولا سيما فضائل الجهاد وفرائض التأهب والاستعداد له [(١)] . وكان الرجل الذي يريد التقرب إلى صلاح الدين ، يحثه على الجهاد أو يذكر له شيئاً من أخبار الجهاد . ولقد ألفت له كتب عديدة في هــذا الموضوع ، وكان وزراؤه وكتابه في مقدمة الذين لبوا رغبته . فيقول العماد الأصفهاني : « وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها بجميع آدابه وأحكامه ، فقدمته بين يديه فأعجبه ، وكان يلازم مطالعته » [(٢)] ، وكذلك يقول القاضي الفاضل : « وأنا ممن جمع له في الجهاد كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روي فيه ، وشرحت غريبها ، وكان رحمــه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل » [(٣)] .

وبعد عشر سنوات قضاها الأسطول الأيوبي في اعداد وتدريب ، قام في ربيع ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) بثلاث عمليات حربية ناجحة ضد العدو في مياه البحر المتوسط ، وهي :

العملية الاولى : يصفها الكاتب المعاصر القاضي الفاضل بأنها كانت غارة لستين شينياً أغارت على سواحل الأمبراطورية البيزنطية ، وعلى الأمارات

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٥ .
(٢) ابو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٢٤ .
(٣) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢١ .

الصليبية بساحل الشام ، حيث هبط المجاهدون المسلمون وتوغلوا في داخل أراضيها ، وأسروا فيهـــا ما يقرب من الألف أسير ، « أحضروهم قيد الأسار ، وغنمت من هذه الغزوة أقوام كانت أعينهم لا تعرف عين الدرهم ولا وجه الدينار » [١] .

والعملية الثانية : كانت معركة بحرية مـع سفن العدو ، ظفر فيها الأسطول المصري ببطستين كبيرتين [٢] ، عاد بهما وبمن فيهما إلى الاسكندرية . وقد حدث هذا النصر في نفس الوقت الذي انتصرت فيه جيوش صلاح الدين بالبر عند مرج العيون بنواحي مدينة بانياس في شمال الشام ، وفي ذلك يقول القاضي الفاضل : « فما أقرب مـــا بين النصرين في المصرين ، وما أعذب عذاب الفئتين ، وتجريعها الأمرين ، لقد عم النصر ، وتساوى فيه البر والبحر » [٣] .

أما العملية الثالثة : فكانت غارة بحرية مصرية على ميناء عـــكا التي يعتبرها القاضي الفاضل « قسطنطينية الفرنج ودار كفرهم » . وقد استطاع الأسطول المصري أن يقتحم الميناء ويحطم ويكسر ما فيه من مراكب وبضائع مدة يومين ، وهذا — كما يقول القاضي الفاضل — « ما لم يقم به أسطول مثله في سالف الدهر ، ولا في حالة قوة اسلام ولا ضعف كفر [٤] .

وفي سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) هاجم الأسطول المصري جزيرة أرواد واستولى عليها ، ومن هناك صار يغير على مدينة انطرطوس المواجهة لها شمال طرابلس ، فخرب مبانيها وأشعل النار فيها [٥] .

---

(١) نفس المرجع ج ٢ ص ١١ .
(٢) البطسة مركب كبير الحجم يستخدم لنقل الجنود .
(٣) ابو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ٩ .
(٤) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٣ — ١٤ .
(٥) الباز العريني : مصر في عصر الايوبيين ص ١٧٤ ، Grousset : Hist. des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Vol. II. p. 680 - 681.

وفي السنة التاليـــة ٥٧٧ هـ سنة (١١٨١ م) ظفر الأسطول المصري ببطسة عظيمة من سفن العدو كانت قادمة من ايطاليا (ابوليا) وتحتوي على ألفين وخمسمائة نفس من رجال القوم وأبطالهم [١] .

وفي السنة التي تلتها (٥٧٨ هـ سنة ١١٨٢ م) قـام الأسطول المصري بعدة غارات على مواقع العدو في البحر المتوسط ، منها غارة على مدينة بيروت سبي منها غنائم كثيرة [٢] ، وأخرى على جزيرتي كريت وقبرص ، وغارة ثالثة على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى ظفر فيها بمركب شحن صليبية كبيرة تحمل أخشاباً إلى عكا ومعها نجارون ليبنوا منها شواني للصليبيين ، فأسر النجارون ومن معهم ، وهم نيف وسبعون . وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون وكفى شرها المؤمنون [٣] .

وفي سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ظفر المسلمون ببطسة أخرى مقلعة من الشام فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون علجا منهم خيالة ذوو شكة وازعة ، وتجار أولو ثروة واسعة [٤] .

كل هذه الانتصارات السالفة تبين بوضوح أن نشاط الأسطول المصري ضد قوافل العدو وقواعده البحرية خلال السنوات العشر التي سبقت وقعة حطين ، قد عمل على شل حركة امداداته ومواصلاته البحرية مما ساعد على نجاح خطط صلاح الدين في الشام .

كان صلاح الدين خلال هذه المدة يعمل على جمع كلمة المسلمين ، وتوحيد الممالك الإسلامية المتفرقـة في الشرق الأدنى ، واستطاع أخيراً أن يكون جبهة عربية متحدة تمتد من برقـة غرباً إلى الفرات شرقاً ، ومن الموصل وحلب شمالاً إلى النوبة واليمن جنوباً .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٧ .
(٢) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٩ .
(٣) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٧ .
(٤) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٨ .

وقد شرح صلاح الدين سياسته هـــذه في خطاب أرسله إلى الخليفة العباسي المستضيء يقول فيه : « ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وانما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة ، فاذا صح التدبير لم يحتمل في اللقاء إلا العدة »[1] .

وكانت الخطوة المنطقية التالية لهذه الوحدة هي أن يقوم صلاح الدين بهجوم إسلامي عام على مملكة الصليبيين في بيت المقدس . فاتجه بجيوشه إلى قلعة طبرية فحاصرها وسيطر على آبار المياه المجاورة ، وجعل نهر الأردن وراءه ، وكان هدفه من ذلـك هو استدراج الجيوش الصليبية من ساحل الشام إلى المكان الذي حدده هو للمعركة ، وهو تل صخري مجاور لا مياه فيه وهو تل حطين . ففي هذا المكان أنزل صلاح الدين بالصليبيين هزيمة فادحة في يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) وقتل وأسر منهم عدداً كبيراً حتى قال المؤرخ المعاصر ابن الأثير : « وكان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى ، ومن كان يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى! »[2] .

ولقد فتح هذا النصر الطريق إلى بقية الممتلـكات الصليبية ، واختار صلاح الدين أن يبدأ أولاً بالمدن الساحلية ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي وخاصة غرب أوربا قلب الحركة الصليبية فيصبحوا محصورين داخل بلاد الشام ويسهل القضاء عليهم . هذا فضلاً عن أن استيلاء صلاح الدين على موانئ الشام سيمكنه من تحقيق الاتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر والشام[3] .

ولقد تعاونت البحرية المصرية مـع الجيوش الشامية على استرداد عكا وقيسارية وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرها من الثغور الساحليـــة . ولم

---

(١) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٨ .

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٢٢٤، Stevenson : The Crusaders in the East p. 249

(٣) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٩٣ ، ٩٦ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨٩ - ٩٢.

يستعص على صلاح الدين سوى مدينة صور لأنها – كما يصفها العماد الأصفهاني – محاطة بالبحر من معظم نواحيها كأنها سفينة [1]. واضطر صلاح الدين إلى استدعاء الأسطول المصري المرابط في عكا لمحاصرة صور من جهة البحر بينما حاصرها هو بجيوشه من جهة البر.

وكان للصليبيين في داخل ميناء صور مراكب وحراريق مجهزة برماة الجروخ والسهام، فلما دنا منها الأسطول المصري، دارت بين الفريقين معركة بحرية، ونجح المصريون في تشتيت مراكب العدو وابعادها وضرب حصار قوي حول ميناء صور. وكان من المنتظر أن تسقط المدينة سريعاً بعد هذا النصر الذي أحرزه المسلمون، ولكن حدث أن رجال الأسطول احتفلوا بانتصارهم، وسهروا في تلك الليلة إلى السحر أمام ميناء صور، ثم غلبهم النوم، فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم وأسروا خمسة من شوانيهم، وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي، وألقى بحارتها بأنفسهم في البحر بين ناج وهالك. واضطر السلطان إلى اصدار أوامره إلى رؤساء المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت خوفاً عليها من السقوط في يد العدو لقلتها [2].

ولا شك أن هذه الهزيمة التي مني بها الأسطول المصري في مياه صور قد رفعت من روح الصليبيين المعنوية بداخل المدينة، فصاروا يخرجون منها من حين لآخر ويغيرون على جيوش المسلمين المحاصرة للمدينة مما اضطر صلاح الدين آخر الأمر إلى رفع الحصار عن صور والانسحاب جنوباً إلى عكا [3].

ولكن على الرغم من كل ذلك فان صلاح الدين قد خرج من نصر حطين باحراز انتصارات أخرى حرر فيها فلسطين واسترد بيت المقدس في

---

(١) (٢) ابو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ١١٩ .

(٣) راجع الرسالة التي كتبها صلاح الدين يصف فيها صعوبة احتلال صور في (القلقشندي : المرجع السابق ج ٧ ص ٣٤٠) .

ذكرى ليلة الإسراء والمعراج ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ، كما استرد جميع القواعد البحرية الشامية باستثناء صور وطرابلس وانطاكية . وقد عبر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله في رسالة إلى أخيه تورانشاه باليمن :

« وان بلاد الشام اليوم لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً » [١] .

على أن سقوط بيت المقدس وضياع معظم الممتلكات الصليبية ، كان له رد فعل عظيم في غرب اوربا ، إذ أخذت البابوية تبشر بحملة صليبية جديدة ، وتحض الملوك والحكام على فض منازعاتهم الداخلية والاشتراك في هذه الحملة .

وقد لبى الدعوة ثلاثة من كبار ملوك غرب أوربا وهم : فردريك بربروسا أمبراطور ألمانيا ، ريتشارد قلب الأسد ملك أنجلترا ، وفيليب الثاني ملك فرنسا . وتعتبر هذه الحملة التي تعرف بالحملة الصليبية الثالثة والتي امتد تاريخها ثلاث سنوات (١١٨٩ – ١١٩٢ م) ، من أكبر الحملات الصليبية في عدد جيوشها وأساطيلها [٢] . ولا شك أن أخبار الاستعدادات لهذه الحملة قد بلغت صلاح الدين ، ففي خطابه إلى أخيه تورانشاه باليمن ، نجد اشارة صريحة إلى أن صاحب القسطنطينية وأصحاب الثغور المغربية والمستخدمين بالاسكندرية ، كتبوا له ينذرونه بأن العدو قد أجمع أمراً وأوقد نار الحرب [٣] . كذلك يروي المؤرخون أن بعض رجال صلاح الدين نصحوه بتخريب عكا وتدمير أسوارها واقامة عدد من المرابطين مكانها لخطورة موقعها على المسلمين إذا ما تملكها الصليبيون . غير أن صلاح الدين كان لا يميل إلى تخريب المدن العامرة [٤] . ولهذا لم يستجب لهذا الرأي ،

---

(١) راجع الرسالة التي كتبها صلاح الدين إلى أخيه تورانشاه ، في (القلقشندي : المرجع السابق ج ٧ ص ٢٤) .

(٢) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٠١) .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣٦ .

(٤) يؤيد ذلك ان صلاح الدين حينما اضطر بعد ذلك الى تخريب عسقلان خوفاً من سقوطها في يد الصليبيين ، جمع أولاده ورجال دولته وناقشهم في هذا الامر قبل صدوره . ويؤثر =

وفضل أن يزيد في استحكامات عكا ووسائل الدفاع عنها، واختار لهذا العمل الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي الذي سبق ان أدار السور حول مصر والقاهرة، وبنى قلعة جبل المقطم، «فاستدعاه من مصر هو وأساتيذ العمل وأنفاره وآلاته ودوابه وأبقاره، وفوض إليه عمارة عكا، وعينه والياً عليها». كذلك استدعى حامية من جنود مصر للمشاركة في الدفاع عن هذا الثغر الهام[1].

ثم أخذت حشود الصليبيين وأساطيلهم تنزل تباعاً على عكا في سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م). ويقدر عدد سفنهم بما لا يقل عن ٥٥٢ سفينة من مختلف البلاد الأوربية. وهذا العدد الكبير كان يزيد بكثير على ما كان عند صلاح الدين من سفن حربية[2]. وقد اعترف صلاح الدين بهذا التفوق البحري للعدو في بعض رسائله مثل قوله: «ومن خبر الكفار أنهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه، ويخرج للمسلمين منهم أمرّ من أجاجه... فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعث البحر عوضه ألفاً»[3].

على أن صلاح الدين لم يقف ساكناً حتى تكتمل تجمعات العدو حول عكا، بل سارع في مهاجمته، واستطاع فتح الطريق إلى المدينة لامدادها بالمؤن والأسلحة والرجال، كما رتب اليزك الدائم (الحرس) لمنع العدو من الخروج من خيامه، فانحصر فيها بحيث صار لا يخرج منها أحد إلا يقتل أو يجرح[4]. وأظهرت حامية المدينة تحت قيادة قراقوش بطولة وشجاعة تسترعي الانتباه.

= عنه أنه قال في هذا الصدد: «والله لان افقد أولادي بأسرهم أحب إليّ من ان اهدم فيها حجراً واحداً، ولكن اذا قضى الله بذلك لحفظ مصلحة المسلمين فكيف أصنع؟». راجع (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٢).

(١) أبو شامة: المرجع السابق ج ٢ ص ١٢٥، ١٣٨.

(٢) الباز العريني: مصر في العصر الايوبي ص ١٨٤ وكذلك
(Grousset: Hist. des Croisades, III. p. 23).

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٧ ص ١٢٧ – ١٢٨.

(٤) أبو شامة: المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٢.

واستمر الوضع على هذا النحو ، والقتال دائر على عكا إلى أن كثرت جثث القتلى ، وجيف الدواب من الجانبين ، واضطر صلاح الدين إلى الإبتعاد من رائحتها إلى مكان داخلي بعيد عن عكا يسمى الخروبة . وقد أفاد الصليبيون من هذا الانسحاب ، إذ تمكنوا من أطباق الحصار حول المدينة وقطع الطرق إليها .

وهنا نجد البحرية العربية تتحمل عبء الاتصال بحامية المدينة من جهة البحر ، وامدادها بالمؤن والأموال والذخائر والرسائل وغير ذلك . فيروي أبو شامة أن السلطان صلاح الدين استدعى الأسطول المصري في أواخر سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) ، فقدمت خمسون قطعة بقيادة أمير البحر حسام الدين لؤلؤ الذي فاجأ مراكب العدو في مياه عكا وانتصر عليها وبدد شملها وظفر منها بمركبي شحن مملوءتين بالغلال والأموال والرجال ، كما أمد حامية المدينة بما تحتاج إليه من طعام وسلاح [١] .

على أن هذه الميرة لم تلبث ان نفدت بعد قليل مما اضطر الأمير بهاء الدين قراقوش والي المدينة ، إلى الاستنجاد بصلاح الدين من جديد [٢] . واستمر الأسطول المصري يشق طريقه بنجاح إلى عكا حاملاً إليها مختلف الامدادات . وقد اتخذ من ميناء حيفا — في جنوبها — مأوى يختبئ فيه إذا ما اشتد خطر الفرنج في البحر . وكثيراً ما ارتطمت بعض سفنه بصخور الشاطئ بسبب هيجان البحر في فصل الشتاء . وقد اضطر الملك العادل أن يرابط بجيوشه عند ميناء حيفا للاشراف على السفن القادمة من مصر في طريقها إلى عكا [٣] .

أما في شمال عكا ، فكانت مدينة بيروت هي قاعدة الأسطول الشامي . وكان يوجد على سواحلها في مكان يسمى الزيب أو الزئب طائفة من

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٤٨ ، ١٥٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٠٥
(٢) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦١ .
(٣) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨١ — ١٨٢ .

المسلمين يجهزون السفن الداخلة إلى عكا ويقطعون الطريق على الفرنج[1].
وكان لأمير بيروت في ذلك الوقت واسمه عز الدين سامه ، غزوات كثيرة في البحر ضد مراكب العدو المارة ببيروت في طريقها إلى عكا ، فغنم هو ورجاله مغانم كثيرة خلدت له ادخار الغنى. ويؤثر عن هذا الأمير سامة أو أسامة ، أنه استولى على خمس سفن من أسطول ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد ، كانت مملوءة خيلاً ورجالاً ونساءً وأموالاً[2].

كذلك يروي العماد الأصفهاني أن السلطان صلاح الدين « كان قد أمر نواب الاسكندرية بتجهيز سفن كبار وتعميرها بالغلال والأقوات وتسييرها إلى عكا ، ولكنها أبطأت عن الموعد المطلوب مما أضر بالمقيمين بمدينة عكا. وفكر صلاح الدين فيما يتعجل به الغرض ، فكتب إلى متولي بيروت عزالدين سامة ، فجهز بطسة كبيرة ملأها ميرة وغلة كثيرة وأركبها جماعة على زي الفرنج ممسوحي اللحى ، ممسوخي الحلى ، وأصحبهم صلباناً ، وخيل بهم رهباناً. وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة ، وهي بساحل بيروت منبوذة ، فأمر السلطان بترميمها وتتميمها ، فملئت بالشحوم واللحوم ، وأربعمائة غرارة غلة ، وأحمال من النشاب والنفط ، ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت. وأرادوا أن تتشبه ببطس العدو في البحر ، فشدوا زنانير واستصحبوا خنازير ، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين ، وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين. ولما حاذوا بها عكا ، صوبوا بها نحوها ، والريح تسوقها ، والفرنج من مراكبهم تقول : « ما هذه طريقها » ، وهي كالسهم النافذ قد سدد فوهها ، فدخلت الثغر ، واجتزأ البلد نصف شهر »[3].

---

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٤ ، ولعل المقصود بالزيب في المتن هو المكان المعروف حالياً بجل الديب على ساحل بيروت الشمالي.

(٢) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٣ — ١٨٤.

(٣) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦١.

ويضيف العماد الأصفهاني « انه بعد ذلك بقليل ، وصلت في البحر ثلاث مراكب مصرية كأنها ثلاث هواضب ، فجاءت أعلامها كالأعلام ، طائرة كالسهام ، ولم تبال بمراكب العدو فخرقتها ، وقربت من سفينة للعدو فغرقتها ، وعين الكفر عبرى ، وامتلأ الثغر بها وأثرى »[1].

هذا ، ويروي ابن شداد رواية أخرى تتفق مع رواية العماد الأصفهاني حول أهمية الدور الذي قامت به بيروت في امداد عكا بالغلال والطعام فيقول :

« وكان السلطان صلاح الدين قد أعد ببيروت بطسة وعمرها ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة . وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين . وكان قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة ، فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين ، وتزيوا بزي الفرنج حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد ، وعلقوا الصلبان ، وجاؤا قاصدي البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني ، وقالوا : نراكم قاصدين البلد » . واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : أو لم تكونوا أخذتم البلد ؟ فقالوا : لم نأخذ البلد بعد . فقالوا : نحن نرد القلوع إلى العسكر ، ووراءنا بطسة أخرى في هوائها ، فانذروهم حتى لا يدخلوا البلد . وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها لينذروها ، فاشتدت البطسة الإسلامية في السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البد وسلمت ولله الحمد ، وكان فرحاً عظيماً فان الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد »[2].

هذا وقد ظهرت خلال تلك المعارك بطولات عديدة نذكر منها بطولة الضفدع البشري عيسى العوام الذي كان يشد على وسطه الرسائل والذهب

---

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦١ .
(٢) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦٠ .

ثم يغوص ليلاً في البحر على غرة من العدو ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ، ويدخل عكا حيث يسلم الرسائل إلى رجال الحامية ، بينما كان الذهب يصرف نفقة للمجاهدين .

وفي ذات يوم حمل عيسى العوام أكياس الذهب والكتب ، وعام في البحر ، فجرى عليه أمر أهلكه ولم يسمع لم خبر ، فأيقن البعض بهلاكه بينما ظن البعض الآخر بفراره بالأموال . وبعد أيام بينما كان الناس على طرف البحر في المدينة وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً ، فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب والكتب ، فبرأه الله مما قالوا ، وقدر له اداء الأمانة بعد وفاته كما كان يؤديها في حياته »[1] .

بطولة أخرى كان صاحبها الأمير مجاهد جمال الدين محمد بن اركز الذي تخلفت سفينته عن بقية الأسطول المصري ، فأحاطت بها مراكب العدو ، واضطر ملاحوها إلى القفز في الماء طالبين النجاة بأنفسهم بينما ظل أميرهم يقاتل ويقاوم ، فعرض عليه الصليبيون الأمان إذا استسلم لهم ، « فقال ما أضع يدي إلا في يد مقدمكم الكبير ، فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير . فجاء إليه المقدم الكبير ، وظن أنه قد حصل له الأسير ، فعاقره وعانقه ، وقوي عليه وما فارقه ، ووقعا في البحر وغرقا وترافقا ، وعلى طريق الجنة والنار افترقا ! »[2] .

وهناك أيضاً بطولة يعقوب الحلبي الذي خرج من بيروت على رأس سفينة كبيرة (بطسة) مشحونة بالآلات والميرة الرجال لامداد حامية عكا ، فاعترضه ملك انجلترا ريتشارد وحاصره بسفنه التي كانت تبلغ الأربعين قطعة ، فقاتلهم المسلمون قتالاً عنيفاً ، وأحرقوا لهم سفينة كبيرة غرقت بمن فيها . ولما تكاثر العدو على سفينة المسلمين وكاد أن يستولي عليها ،

---

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦٢ .
(٢) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٢ .

قال المقدم يعقوب : « والله لا نقتل إلا عن عز ، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً » . ثم حطموا جوانب البطسة بالمعاول حتى فتحوها ، فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها وما فيها ، ولم يظفر العدو منها بشيء[1] .

هذه النصوص وأمثالها تعطينا صورة واضحة لما بذلته البحرية العربية من شجاعة وتضحية ضد عدو يفوقها قوة وكثرة في هذا الميدان . ولهذا اعتمدت في مقاومته على عنصري المفاجأة والحيلة مع صدق العزيمة ، وفي هذا يقول صلاح الدين نفسه في احدى رسائله : « وكان عدد مراكبهم كبيراً ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمة ، والقليل مع العزم الصادق كثير »[2] .

هذا ، ولم يتردد صلاح الدين في استغلال كل فرصة تعينه على قهر خصمه في هذا الميدان البحري . فيروي على سبيل المثال أنه اتفق مع جماعة من قراصنة الفرنج على الاغـــارة على مراكب العدو التجارية وأمدهم ببعض السفن الصغيرة المعروفة باسم البراكس[3] ، فركبوها وظفروا بمراكب لتجار ، بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة ، فأسروهم وأحضروهم بين يدي السلطان ، فأعطاهم جميع ما غنموه ، وأبت عليه نفسه أن يأخذ منها شيئاً .

كذلك تروي المصادر أن صلاح الدين أرسل في سنة (٥٨٦ هـ ١١٩٠ م) سفيراً من قبله هو الأمير عبد الرحمن بن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور الموحدي يطلب اعانته بالاساطيل لتحول بين أساطيل الأعـداء وبين امداد النصرانية بالشام . وعلى الرغم مما قيل من أن المنصور رفض هذا الطلب لأن صلاح الدين لم يلقبه في رسالته بلقب أمير المؤمنين[4] أي لم يعترف بخلافة الموحدين ، فقد ذهب بعض المؤرخين المغاربة إلى أن

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥١ .
(٢) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨١ — ١٨٢ .
(٣) براكس جمع بركوس وهي السفينة الصغيرة ، راجع (أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٢) .
(٤) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٧٥ وما بعدها .

المنصور قد أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من سواحل الشام [١] . وكيفما كان الأمر فانه يلاحظ أن أساطيل الموحدين في ذلك الوقت كانت هي الأخرى تجابه أخطاراً جسيمة في مياه المحيط الأطلسي غربي الأندلس حيث كانت أساطيل الألمان والأنجليز والفلمنك (سكان الأراضي الهولندية) المتجهة إلى الشام ، كثيراً ما ترسو في الموانى البرتغالية وتعاون ملك البرتغال سانشو الأول في مهاجمة جيرانه المسلمين في غرب الأندلس . لهذا كان على أسطول الموحدين أن يعمل على حماية هذه الأطراف المغربية الإسلامية من هذا الخطر الصليبي [٢] .

وفي أوائل سنة ١١٩١ م اشتد ضغط الصليبيين على عكا ، وعظمت شكاية حامية المدينة من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً . وقرر صلاح الدين تجديد حامية المدينة بواسطة اسطوله ، إلا أن هذه العملية لم تتم بنجاح بسبب صعوبة الظروف التي تمت فيها وتكالب العدو على المدينة من كل ناحية . ويعلق كل من ابن الأثير وأبي شامة على ذلك بقوله : « ودخل إلى عكا من لم يجرب حصارها ، ولم يخبر منافعها ومضارها .. ودخل إليها عشرون أميراً عوض ستين ، فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا ، فلا جرم ان وقع الوهن وقضي الأمر » [٣] .

هذا وقد زاد الموقف حرجاً ، احتلال ملك انجلترا ريتشارد لجزيرة قبرص من أيدي البيزنطيين في نفس تلك السنة سنة ١١٩١ م . ومن ثم صارت قبرص قاعدة بحرية جديدة للصليبيين ، ومركزاً دائماً لتموين أماراتهم في الشرق العربي . وقد أثار هذا الحادث موجة من الفرح والحماس في نفوس الصليبيين ، فشددوا هجماتهم على عكا ، واضطرت حامة المدينة أن

---

(١) السلاوي الناصري : الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ج ٤ ص ١٧٥ وكذلك :
(Huici Miranda : Historia politica del Imperio Almohade. I. p. 342).

(٣) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨٢ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٦٢ .

توجه آخر نداء بالحمام الزاجل إلى صلاح الدين يقولون فيه : « إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغــد ثامن الشهر (جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ ١١٩١ م) ان لم تعملوا معنا شيئاً ، نطلب الأمان ونسلم البلد[١] .

ولم تنجح جميع المحاولات العسكرية التي بذلها صلاح الدين لانقاذ عكا ، فاضطر قائدها قراقوش إلى الاستسلام في يوليه سنة ١١٩١ م بعد مقاومة دامت سنتين تقريباً .

ثم واصل الملك ريتشارد زحفه جنوباً بحذاء الشاطئ ، وأساطيله تسير بجواره في البحر . واستطاع أن يستولي على شاطئ فلسطين من عكا إلى يافا ، ثم انحــدر جنوباً نحو عسقلان . وخشي صلاح الدين على مصر من اطماع الصليبيين خصوصاً وأن ملك انجلترا ريتشارد قد صرح بذلك مراراً وحصل على كثير من الجمال والظهر لهذا الغرض[٢] . واضطر صلاح الدين إلى تخريب مدينة عسقلان فحرم الصليبيين من هــذه القاعدة البحرية التي كان من الممكن استغلالها في مهاجمة مصر ومثلما فعلوا بعــد سقوطها في أيديهم من قبل سنة ١١٥٣ م على عهد الفاطميين . وهكذا استطاع صلاح الدين بهذا أن يحتفظ بمفتاح المسالك الشرقية المؤدية إلى مصر[٣] .

وحاول ريتشارد قلب الأسد أن يسترجع بيت المقدس ، ولكنه فشل تماماً ، واضطر أن يعقد صلح الرملة مع صلاح الدين في نوفمبر سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ) ، وأهم شروطه أن يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية من صور إلى يافا ، وتبقى بيت المقدس تحت الحكم الإسلامي على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج إليها دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك[٤] .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٦٧ – ٢٦٨ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٩ – ٢٠٠ .
(٣) الباز العريني : مصر في عصر الايوبيين ص ١٨٦ .
(٤) عماد الدين الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٣٤٣ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٩٨ ، عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٠١ .

وقام صلاح الدين عقب هذه الهدنة بالعمل على خلاص أصحابه من الأسر ، ونذكر منهم بهاء الدين قراقوش ، والي عكا السابق ، الذي تلقاه السلطان بالبشر والبر [1] . كذلك اهتم صلاح الدين بتفقد بعض الثغور الشامية ، فزار صيدا ثم بيروت حيث استقبله وإليها عز الدين سامة في شوال سنة ٥٨٨ هـ [2] .

واضطر صلاح الدين بعد ذلك إلى العودة إلى دمشق حيث وافته المنية في العام التالي سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) ، ودفن هناك ومعه سيفه الذي كان معه في الجهاد ليتوكأ عليه إلى الجنة [3] .

كان صلاح الدين من الحكام القلائل الذين آمنوا بقيمة السلاح البحري في جهاد الصليبين وتأمين سلامة بلاده . ولعل الحوار التالي الذي دار بينه وبين وزيره القاضي الفاضل يعطينا صورة صادقة لما كان يجيش في نفسه من مشاعر نبيلة نحو هذا الجهاد البحري . قال القاضي الفاضل :

« وقع للسلطان في ذي القعدة سنة ٥٨٤ هـ أن يتفقد البلاد الساحلية ويرتب أحوالها ، فسرنا على الساحل من عسقلان إلى عكا وكان الزمان شتاءً عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً عظيماً ، وموجه كالجبال ، كما قال الله تعالى ، وكنت حديث العهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي قادر : لو جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا ، لما كنت أفعل ، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم ، واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب البحر . هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه . فبينا أنا في ذلك إذ التفت إليّ وقال عن نفسه : « أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ٢٠٧ .
(٢) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ٢٠٧ .
(٣) أبو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٥ .

بالله أو أموت » . فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي ، وقلت له : « ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى ولا أقوى نية منه في نصرة دين الله » ، وحكيت له ما خطر لي ، ثم قلت : « ما هذه إلا نية جميلة ، ولكن المولى يسيّر في البحر العساكر ، وهو سور الإسلام ، ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه » . فقال : « أنا استفتيك ، ما أشرف الميتات ؟ » . فقلت : « الموت في سبيل الله » . فقال : « غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات » [1] ! هكذا كان شعور صلاح الدين نحو الجهاد البحري ، وهو شعور قلما نجد مثله بين حكام العصر الوسيط .

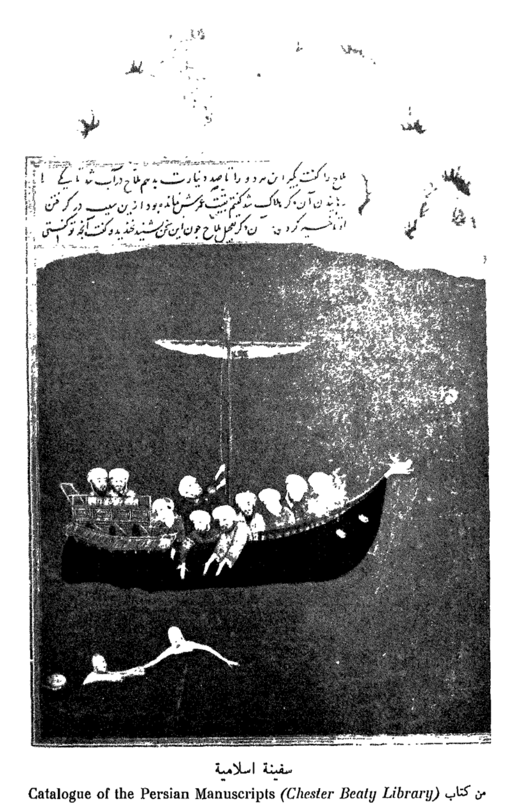
نرى مما تقدم أن الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت في تحقيق هدفها الأساسي وهو استرداد الأماكن المقدسة في فلسطين من المسلمين ، إلا أنها في الوقت نفسه استطاعت أن تسيطر على معظم شواطئ الشام بما فيها من مواني مثل صور وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا فضلاً عن عكا التي غدت المنفذ الرئيسي لمملكة بيت المقدس الصليبية على البحر المتوسط [2] . ولا شك أن البحرية العربية قد خسرت كثيراً من جراء ضياع معظم سواحلها وقواعدها الشامية ، وزاد الطين بلة أن وفاة صلاح الدين قد أدت إلى وقوع خلافات ومنازعات بين أبناء البيت الأيوبي مما أضعف المقاومة الإسلامية بوجه عام .

ولقد انتهز ملك قبرص عموري لوزنيان هذه الفرصة ، وهاجم مدينة بيروت بأساطيله وجنوده واستولى عليها سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٧ م) بعد أن فر عنها صاحبها عز الدين سامة بدون حرب أو مقاومة . وقد أثار هذا العمل استياء الكثيرين مثل قول الشاعر المعاصر :

سلّم الحصنَ ما عليك مَلامه ... ما يُلام الذي يروم السلامه
فعطاءُ الحصون من غير حربٍ ... سنةٌ سنّها ببيروتَ سامه [3]

---

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .
(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٠٢ ،
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٣ .



سفينة اسلامية

من كتاب Catalogue of the Persian Manuscripts *(Chester Beaty Library)*



وعلى الرغم من أن الملك العادل قد نجح في توحيد الدولة الأيوبية من جديد تحت سلطانه ، واستعاض عن بيروت بمدينة يافا التي استولى عليها سنة ١١٩٧ م ، إلا أن البحرية الأيوبية في الواقع كانت قد أصابها الضعف والاهمال منذ ذلك الوقت .

وإذا استثنينا بعض الانتفاضات التي حدثت فيها على يد كل من الملك الكامل والملك الصالح أيوب ، نتيجة للعدوان الصليبي على مصر في حملتي جان دي برين سنة ١٢١٨ م ولويس التاسع سنة ١٢٤٨ م[١] ، إلا أنها كانت كما وصفها المقريزي بقوله :

« ثم قل الاهتمام بالاسطول ، وصار لا يفكر في أمره إلا عند الحاجة إليه ، فاذا دعت الضرورة إلى تجهيزه ، طلب له الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات ، وقيدوا بالسلاسل نهاراً ، وسجنوا في الليل ، حتى لا يهربوا . فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب بـه الرجل في مصر ، وإذا قيل لرجل يا أسطولي ، غضب غضباً شديداً ، بعدما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ، ويتبرك بدعائهم الناس »[٢] .

(١) راجع القسم الأول الخاص بالبحرية النيلية .

(٢) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٧٤ .

ثانياً - البحرية في مصر والشام في عصر المماليك
(٦٤٨-٩٢٢هـ = ١٢٥٠-١٥١٧م)

فقد المسلمون سيطرتهم على البحر المتوسط منذ قيام الحركة الصليبية، وتمكن الغرب المسيحي من السيطرة على سواحل هـــذا البحر وجزره وتجارته بحيث صار بحراً أوربياً. وقد اعترف ابن خلدون بهذا التحول عند قوله: لما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام باسترجاع ثغور الشام من يد الأمم النصرانية... تتابعت أساطيلهم الكفرية بالمـدد لتلك الثغور من كل ناحية، فأمدهم بالعدد والأقوات، ولم تقاوم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد أساطيلهم فيه، وضعف المسلمين منذ زمن طويل عن ممانعتهم هناك. ولم يكن سلطان الفرنج على غرب البحر المتوسط بأقل منه على شرقه، فلقد ملكوا الجزائر التي بالجانب الغربي من البحر الرومي، وقويت ريحهم في بسط هذا البحر، واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم، وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم ثم تراجعت بعد ذلـــك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدول ونسيان عوائد البحر، ورجع النصارى فيه إلى ديدنهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الأمم في لجه وعلى أعواده، وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلاً من أهل البلاد الساحلية»[١].

وورث المماليك دولة أساتذتهم[٢]، الأيوبيين في مصر والشام، وواصلوا

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٣٧-٤٠.

(٢) كانت علاقـــة المملوك بسيده أو أستاذه تسمى في المصطلح الرسمي المملوكي بالاستاذية، بينما كانت رابطة الزمالة التي تربط المملوك بزميله المملوك في الخدمـة تسمى بالخشداشية. وكانت هاتان العلاقتان الاستاذية والخشداشية من أقوى الروابط التي قامت عليهـــا دولة المماليك في مصر والشام.

سياستهم الجهادية نحو اخراج الصليبيين من أماراتهم الباقيـة على الساحل الشامي مثل عكا وطرابلس وأنطاكية وما تبعها من قلاع وثغور .

وتنبغي الملاحظة هنا أن المماليك كانوا فرساناً وأصحاب خيل ، وقوتهم برية في أساسها ، فضلاً عن أنهم كانوا يعانون عجزاً كبيراً في مواد بناء الأساطيل ولا سيما خشب السفن ، فأشجار السنط التي كانت توجد بكثرة في جنوب الدلتا وصعيد مصر وشبه جزيرة سيناء على عهـــد الفاطميين والأيوبيين ، قد أخـذت تقل تدريجياً منذ أواخر العصر الأيوبي ، وصار العوام والخواص يقطعون منها ما يحتاجونه لعمل السواقي وآلات المعاصر وغيرها ، وما يوقدون به في بيوتهم ومعاصرهم بالجمل الكثيرة بحيث لم ينته القرن الثالث عشر الميلادي إلا وكانت حراج الدلتا حول القاهرة في المطرية وقليوب والجيزة قـد اختفت تماماً ، ثم تلتها حراج الصعيد في البهنساوية والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص ، فاختفت هي الأخرى في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي وتحولت إلى أراضي زراعية ، ثم يأتي المقريزي في القرن الخامس عشر فيؤيد ذلك بقوله : وقد بطل هذا جميعه ، واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء البتة [1] .

على أن هذه الموانع في مجموعها لم تحل دون اهتمام بعض سلاطين المماليك بانشاء الأساطيل لمواجهة الخطر الصليبي الكامن بوجه خاص في جزر البحر المتوسط ولا سيما جزيرة قبرص التي تزعم ملوكها آل لوزنيان [2] مشروعات الصليبيين في الشرق العربي .

---

(١) المقريزي : الخطط ج ١ ص ١١٠ ، ج ٢ ص ١٩٤ .

(٢) سبقت الاشارة إلى أن ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد انتزع جزيرة قبرص من يـد اسحاق كومنين البيزنطي وكان مستقلاً بها عن الأمبراطورية البيزنطية وذلك بمساعدة جي ده لوزنيان ملـك بيت المقدس سنة ١١٩١ م . ثم باع ريتشارد جزيرة قبرص لفرسان الداوية ولكنها ثارت عليهم وبطـــل البيـع . ثم عرض ريتشارد على جي دي لوزنيان أن يشتريها فاشتراها ومنذ ذلك الوقت (١١٩٢ م) قامت أسرة لوزجنان الصليبية في قبرص .

استرداد الثغور الشامية من أيدي الصليبيين

كان السلطان الظاهر بيبرس ٦٥٨ – ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ – ١٢٧٧ م) أول سلاطين المماليك اهتماماً بانشاء قوة بحرية يستعين بها في حرب أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر المتوسط فيروي المقريزي : « انه نظر في أمر الشواني الحربية واستدعى رجال الأسطول ، وكان الأمراء قد استعملوهم في الحراريق وغيرها وندبهم للسفر ، وأمر بمد الشواني وقطع الأخشاب لعمارتها واقامتها على ما كانت عليه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأحرز على الخراج ومنع الناس من التصرف في الأخشاب ، وتقدم بعمارة الشواني في ثغري الاسكندرية ودمياط ، وصار ينزل بنفسه إلى الصناعة بمصر ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشواني ومصالحها . فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد فانها كانت عدة كثيرة » [١] .

ويضيف المقريزي رواية طريفة تدل على مبلغ عناية هذا السلطان بأسطوله وهي أنه اضطر يوماً إلى استقبال – سفراء ملك صقلية في دار صناعة مصر ، فدخلوا عليه وهو جالس بين الأخشاب والصناع والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشواني وهي تمد فراعهم ما شاهدوا » [٢] .

كذلك اهتم بيبرس بتحصين الثغور وحفظ السواحل وتعمير الجسور المؤدية إليها ، فأمر بردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخوراً عظيمة ليحول دون مرور سفن الصليبيين وتتكرر مأساة دمياط من جديد ، كما شيد برجاً للمراقبة في ثغر رشيد ، وعمر أسوار الاسكندرية ونصب عليها مائة منجنيق للدفاع عنها ، وجدد بناء المنار الذي بها ، وطهر ترعة الخليج (المحمودية الآن) التي تصل المدينة بالنيل وتمدها بالمياه العذبة . وقد بلغ من اهتمام بيبرس بمدينة الاسكندرية أنه زارها أربع زيارات رسمية وحرص على التقرب إلى أهلها وزيارة صلحائها أمثال أبي القاسم

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٩٤ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٤٧ .

(٢) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٦٠١ .

محمد بن منصور القباري وأبي عبدالله محمد بن سليمان الشاطبي اللذين يطلق اسمها على أكبر حيين من أحياء المدينة وهما حي القباري التجاري وحي الشاطبي الجامعي .

ولقد اتسمت سياسة السلطان بيبرس نحو الصليبيين في الشام بطابع العنف والقسوة . والسبب في ذلك يرجع إلى أن الصليبيين أخذوا يتعاونون مع مغول فارس ضد دولة المماليك ، ويعملون كأدلاء ومرشدين لجيوشهم المغيرة على الأراضي الشامية . وقد ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافي في الشام الذي أتاح لهم معرفة تحركات الجيوش المصرية والشامية واحاطة المغول علماً بها مما سهل عليهم احباط خطط المسلمين في كثير من الأحيان . ولم يقتصر الأمر على ذلك النحو ، بل نجد أن بعض الامارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات المغولية بالنزول في حصونها من باب التعاون العسكري أو الدفاع المشترك ضد المسلمين . ولم تلبث هذه الحاميات المغولية أن فرضت ارادتها على الصليبيين في كثير من الأحيان ، وصارت تملي عليهم إرادة الخان المغولي المقيم في تبريز أو مراغة أو بغداد .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الحركة الماكرة من جانب الصليبيين في الشام ، كانت بلا شك السبب الحقيقي لتلك السياسة العنيفة التي أتبعها بيبرس وخلفاؤه نحو الصليبيين إذ عز عليهم أن يكونوا مراقبين من الفرنج لحساب المغول ، فصمموا على طردهم من الشام[1] .

وبدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين على شكل مناوشات محلية ، ويفهم من كلام المقريزي أن بيبرس ذهب بنفسه إلى الشام سنة ١٢٦٣ م ، وكانت حركاته وقتئذ تدل على أنه كان يتفقد قواته ويوزعها توزيعاً استراتيجياً خاصاً . وعندما سارعت إليه وفود الامارات الصليبية تطلب

(١) راجع (مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٩٢ – ١٩٥ تحقيق وترجمة المستشرق الفرنسي بلوشيه E. Blochet باريس ١٩١٢)

منه السلام والمهادنة ، قابلهـا بمنتهى الجفوة ، وقال لرسلهم : « ردوا ما أخذتموه من البلاد ، وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فإني لا أقبل غير ذلك » ، ثم طردهم من مجلسه مما يدل على تصميمه على القتال [١] .

وفي أوائل سنة ١٢٦٥ م دخل بيبرس في عمليات حربية واسعة النطاق ضد الإمارات الصليبية الساحلية ، فاستولى على مدينــــة قيسارية ثم على مدينة أرسوف في جنوبها . وفي السنة التالية ١٢٦٦ م هاجم بيبرس قاعدة استراتيجية خطيرة في الشام وهي قلعــة صفد التي كانت قاعدة لفرسان الداوية ، وبعد قتال عنيف تمكن من الاستيلاء عليها .

ولا شك أن هــذا النصر قد أصاب الصليبيين بضربة قاسية ، وحطم معنوياتهم إلى حد كبير بدليل أن بعض القوى الصليبية سارعت إلى عقد هدنة مع السلطان بيبرس على أساس مبدأ المناصفة أو المشاركة معه في غلات بلادهم ومنتجاتها [٢] ، ولعل من أطرفها تلك الهدنة التي أبرمت بين السلطان بيبرس وبين ملكة بيروت ازابيلا Isabella بنت الملك جون الثاني ابلين John II Ibelin ، التي تطلق عليها المراجع العربية اسم الدبونة وهو تعريب لاسم البيت الحاكم في بيروت D'Ibelin [٣] .

وقد خلفت ازابيلا أباها بعد وفاته سنة ١٢٦٤ م على بيروت وجبالها باعتبارها ابنته الكبرى . وكانت هذه الملكة قد تزوجت وهي طفلة من الملك الطفل هيو الثاني ملك قبرص الذي مات قبل أن يعقد عليها . وحاول خليفته هيو الثالث الوصي على قبرص أن يستغلها كوريثة لعرش قبرص لتنفيذ مشاريعه الصليبية في الشرق ولكنه لم ينجح . وذلك لأن الملكة ازابيلا عقدت هدنة مــع السلطان بيبرس سنة ١٢٦٨ م (٦٦٧ هـ)

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٨٥–٤٨٦ .
(٢) راجع على سبيل المثال (القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٤٢ – ٥١ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥١٠)
(٣) تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٣٥ تحقيق قسطنطين زريق .

مدتها عشر سنوات ، وصارت كلما سافرت إلى قبرص ، تذهب إلى لقاء السلطان بيبرس وتترك مملكتها وديعة بين يديه إلى حين عودتها[١] .

وقد أورد القلقشندي[٢] نصوص هذه الهدنة ، وهي في مجموعها مفيدة لأنها تبين لنا حدود مملكة بيروت ونواحيها في ذلك الوقت . ونلاحظ أن كثيراً من أسماء مدنها وأحيائها ما زالت باقية إلى اليوم . وفيما يلي نص هذه المعاهدة :

« استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة ، فلانة بنت فلان ، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحتية مدة عشر سنين متوالية ، أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة ، على بيروت وأعمالها المضافة إليها ، الجاري عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر ابن أيوب ، وأيام ولده الملك المعظم عيسى ، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز . والقاعدة المستقرة في زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدنة الظاهرية . وذلك مدينة بيروت وأماكنها المضافة إليها :

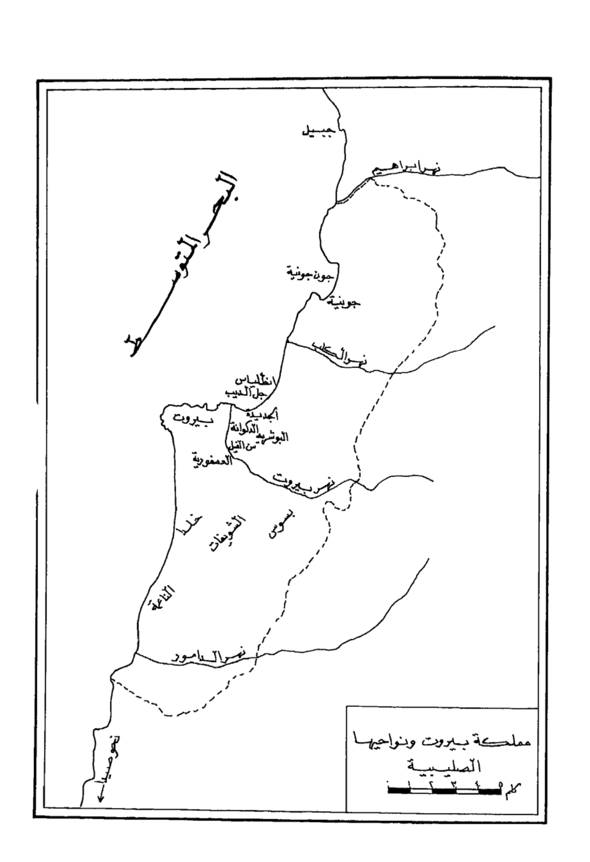
---

(١) تزوجت هذه الملكة سنة ١٢٧٢ م (٦٧٠ هـ) رجلاً انجليزياً يدعى هامو الغريب Hamo l'Estrange كان من اتباع الأمير الانجليزي ادوارد (ادوار الأول ملك انجلترا فيما بعد) على أن هذا الزوج لم يلبث ان مات في العام التالي ، ويبدو أنه كان لا يثق في نوايا هيو الثالث ملك قبرص ، فأوصى قبيل وفاته بوضع زوجته ومملكة بيروت تحت حماية السلطان بيبرس . ولما علم هيو الثالث بذلك أقدم على محاولة جريئة وهي خطف الملكة ازابيلا كي يزوجها في قبرص من الشخص الذي يختاره لها . ولكن السلطان بيبرس احتج على هذا العمل وهدد بضرورة تنفيذ وصية هامو واعادة الملكة ازابيلا إلى بيروت في الحال . واضطر الملك هيو أن يعيد ازابيلا إلى بيروت حيث اتخذت لنفسها حرساً من المماليك . وعاشت هذه الملكة بعد وفاة بيبرس وتزوجت مرتين ثم ماتت سنة ١٢٨٢ تاركة حكم بيروت إلى اختها اشيفا . واستمرت بيروت في حكم اسرة ابلين إلى أن سقطت نهائياً في يد السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون عقب سقوط عكا ١٢٩١ م . راجع :
(Steven Runciman: A History of the Crusades Vol. III p. 342-343).

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩-٤٢ .

من حد جبيل شمالاً ، إلى حد صيدا جنوباً وهي المواضع الآتي ذكرها : جونية بحدودها ، والعـذب بحدودها ، والعصفورية بحدودها ، والرواوق بحدودها ، وسن الفيل بحدودها ، والرح والشويف بحدودها ، وأنطلياس بحدودها ، والجديدة بحدودها ، وحسوس بحدودها ، والبُشرية بحدودها ، والدّكوانة وبرج قراجار بحدودها ، وقرينة بحدودها ، والنصرانية بحدودها ، وخَلدا بحدودها ، والناعمـة بحدودها ، ورأس الفقيه ، والوطاء المعروف بمدينة بيروت ، وجميع ما في هذة الأماكن من الرعايا والتجار ، ومن سائر أصناف الناس أجمعين ، والصادرين منها ، والواردين إليها من جميع أجناس الناس ، والمترددين إلى بلاد السلطان بيبرس وهي :

« الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها ؛ والمملكة الأنطاكية وقلاعهـا وبلادها ؛ وجبلة واللاذقية وقلاعها وبلادها ؛ وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها ؛ ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه ؛ والمملكة الحموية وقلاعهـا وبلادها وما هو مختص بها ؛ والمملكة الرحبية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ؛ والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ؛ والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها ؛ والمملكة الشقيفية ومـا يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها ؛ والمملكة القدسية ومـا يختص بها ؛ والمملكة الحلبية وما يختص بها ؛ والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بهـا من القلاع والبلاد والرعـايا ؛ والمملكة النابلسية ؛ والمملكة الصرخدية ؛ ومملكة الديار المصرية جميعها بثغورها وحصونها وممالكها وبلادها وسواحلها وبرها وبحرها ورعاياها وما يختص بها ؛ والساكنين في جميع هذه الممالك المذكورة ، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده ، وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وغلمانه ، يكون داخلاً في هذه الهدنة المباركة ، ومنتظماً في جملة شروطها ، ويكون جميع المترددين من هـذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم ، من الملكة فلانـة وغلمانها ، وجميع من هو في حكمها وطاعتها ، بحراً وبراً ، ليلاً ونهاراً ، ومن مراكبها


جبيل
نهر ابراهيم
البحر المتوسط
جون جونية
جونية
نهر الكلب
انطلياس
جل الديب
بيروت
الجديدة
الدكوانة
البوشرية
سن الفيل
الحمضورية
نهر بيروت
خلدا
الشويفات
بسوس
الناعمة
نهر الدامور
نحو صيدا
مملكة بيروت ونواحيها الصليبية
كلم ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠



وشوانيها . وكذلك رعية الملكة فلانة وغلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته : براً وبحراً ، ليلاً ونهاراً ، في جبلة واللاذقية ، وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه وشوانيه .

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة ، بل يجرون على العوائد المستمرة ، والقواعد المستقرة من الجهتين . وان عدم لأحد من الجانبين مال أو أخذت أخيذة ، وصحت في الجهة الأخرى ، ردت ان كانت موجودة ، أو قيمتها إن كانت مفقودة . وان خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوماً ، فان وجدت ردت ، وإن لم توجد حلّف والي تلك الولاية المدعى عليه ، وحلف ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعي ، وبرئت جهته من تلك الدعوى . فإن أبى المدعى عليه عن اليمين ، حلف الوالي المدعي وأخذ ما يدعيه . وان قتل أحد من الجانبين خطأً كان أو عمداً ، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره ؛ فارس بفارس ، وراجل براجل ، وفلاح بفلاح . وان هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره ، رد من الجهتين هو والمال ، ولا يعتذر بعذر .

وعلى أنه إن صدر فرنجي من بيروت إلى بلاد السلطان ، يكون داخلاً في الهدنة ، وان عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة .

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحداً من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين .

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين ، لا ينقضها مرور زمان ، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ، ولا تنقض بموت أحد الجانبين .

وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً ،

ولا يمنع أحـــد منهم من العود إلى مستقره ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها ، والله الموفق في تاريخ كذا » .

وفي سنة ١٢٦٨ م (٦٦٦ هـ) استولى بيبرس على مدينة يافا في الجنوب ، ثم وجه ضربة حاسمة في نفس السنة إلى أهم أمارة صليبية وهي انطاكية في أقصى الشمال . فيروي المؤرخون أنـــه هاجمها بثلاث فرق : احداهما اتجهت إلى ميناء السويدية لقطع الصلة بين انطاكية والبحر خوفاً من أساطيل العدو ، والثانية سدت الممرات بين قليقية والشام لمنـع وصول امدادات من أرمينيا الصغرى ، والثالثة وهي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها سنة ١٢٦٨ م [١] . ويفهم من كلام النويري أن بيبرس استخدم الحيلة قبل التوجـــه بجيوشه إلى امارة انطاكية إذ تظاهر بأنه يريد مدينة طرابلس وحاصرها فعلاً ، فهرع صاحب انطاكية بوهمند السادس بأسطوله لنجدتها ، وعندئذ ترك بيبرس خيامه ومتاعه عند طرابلس متظاهراً بالخوف والهزيمة واتجه من فوره إلى انطاكية واحتلها بالطريقة التي ذكرناها ، بينما كان أهـل طرابلس يلهون ويقولون « الظاهر بيبرس خاف منا !! » [٢] . ويفهم من هذه النصوص أن بيبرس لم يحاول استخدام اسطوله عند الهجوم على انطاكية بل اعتمد في ذلك على قوته البرية فقط ، بدليل أنه عمد إلى استبعاد اسطول انطاكية من المعركة أولاً ، ثم وضع فرقة عسكرية بين المدينة والبحر لتمنع عنها أي مدد من هذه الناحية ، وبذلك تم له احتلال المدينة [٣] .

وكيفما كان الأمر فإن سقوط امارة انطاكية كان في الواقع كارثة

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٦٨ .

(٢) النويري : كتاب الإلمام فيما جرت بـه الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية لوحة ١٦٩ ف (مخطوطة الهند) .

(٣) غنم بيبرس من انطاكية غنائم كثيرة حتى قيل إن النقود قسمت بين الجنود بالطاسات ، كما بلغ من كثرة الأسرى انه لم يبق غـــلام إلا وله غلام وبيع الصغير باثني عشر درهماً ، والجارية بخمسة دراهم . المقريزي : السلوك ج ١ ص ١٤٧ .

كبرى على القوى الصليبية لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافي سنداً قوياً للدولة الصليبية منذ أوائل الحروب الصليبية وتشير المراجع إلى الرسالة التي كتبها بيبرس إلى أميرها بوهمند السادس الذي كان مقيماً وقتئذ في امارته الثانية طرابلس في جنوب انطاكية . وكانت هذه الرسالة مليئة بعبارات السخرية والتهكم . وليس الذي يعنينا هنا هو السخرية أو التهكم وإنما استنتاج ما وصلت إليه أحوال الصليبيين من ضعف حتى استطاع بيبرس أن يوجه أمثال تلك العبارات إلى صاحب أكبر امارة صليبية في الشام في ذلك الوقت[١] .

ثم أخذ بيبرس بعد ذلك في مهاجمة امارة طرابلس سنة ١٢٧٠ م (٦٦٩ هـ) فاستولى على المنافذ المؤدية إلى المدينة والحصون المحيطة بها ومن أهمها حصن الأكراد Crac de Chevallier وحصن عكار ، فأصبح في مقدوره بذلك حصار مدينة طرابلس نفسها ، ولكن الأنباء الواردة بوصول حملة صليبية انجليزية بقيادة الأمير ادوارد إلى عكا ، جعلته يجيب صاحب طرابلس إلى طلبه بعقد صلح معه لمدة عشر سنوات سنة ١٢٧١ م[٢] . ومن الطريف ما يحكى في هذا الصدد من أنه في أثناء المفاوضات التي دارت بين رسل بيبرس وبوهمند السادس ، كان بيبرس نفسه مندساً بين أعضاء الوفد الذي يمثل بلاده ، ومتنكراً في زي خادم كي تتاح له حرية التنقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوة والضعف فيها تمهيداً لفتحها فيما بعد .

هذه الجرأة التي اتصف بها بيبرس جعلته يقوم بمحاولة أخرى جريئة

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٧ .

(٢) الأمير ادوارد المذكور في المتن هو ادوارد الأول ملك انجلترا فيما بعد . وقد حاول اثناء مقامه في الشام أن يعقد حلفاً مع خان مغول فارس أبغا بن هولاكو على غزو مصر والشام ولكن هذا المشروع لم يتحقق نتيجة لانشغال أبغا في محاربة مغول تركستان . ولم يلبث ادوارد نفسه ان طعنه أحد الحشيشية بخنجره ولكن الطعنة لم تكن قاتلة واضطر إلى العودة إلى انجلترا بعد أن عقد هدنة مع بيبرس .

حينما حاول غزو جزيرة قبرص سنة ١٢٧٠ م وكان يحكم هـــذه الجزيرة الملك هيو الثالث لوزجنان الذي اشتهر باطماعه الصليبية في الشام وبعداوته الشديدة لدولة المماليك . وقد بلغ من غدر هذا الملك أنه قبض على رسل السلطان بيبرس وهم في طريقهم إلى سلطان سلاجقة الروم بآسيا الصغرى عن طريق قبرص رغم الأمان المعطى لهم . وغضب بيبرس من جرأة هذا الملك وغدره ، فصمم على غزو جزيرته ، وانتهز فرصة غيابـه في زيارة لعكا سنة ١٢٧٠ م (٦٦٩ هـ) وأرسل اسطولاً من سبعة عشر شينياً تحت قيادة الرئيس جمال الدين مكي بن حسون لغزو قبرص أثناء غيبته . ويفهم من كلام المؤرخين أن هـــذا القائد لجأ إلى سلاح الحيلة والخدعة لمباغتة العدو على حين غفلة وذلك بأن طلى ظاهر السفن بالقار ، ورسم على أعلامها الصلبان كما كان يفعل الصليبيون في سفنهم . وقـد أنكر بعض المجاهدين على قائدهم هذا العمل ، ولكنهم اضطروا إلى تنفيذ أوامره بعد اقتناعهم بأن الحرب خدعة وأن من مصلحة المسلمين ايهام العدو بأن سفنهم مسيحية . وحينما اقترب المسلمون من ميناء ليماسول على الشاطئ الجنوبي للجزيرة ، هبت عليهم ريح عاصفة ، فاصطدمت معظم سفنهم بشعب الميناء وتحطم منها أحـــد عشر شينياً ، وعرف القبارصة من صياح البحارة انها سفن اسلامية ، فأسروا جميع من فيها وعدتهم ألف وثمانمائة رجل . أما الشواني الستة الباقية فإنها نجت وعادت سالمة وعليها الرئيس ابن حسون .

وشمت هوج الثالث بالظاهر بيبرس وكتب إليه يقرعه ويوبخه ، ولكن بيبرس رفض أن يجعل من هذا الحادث هزيمة ، واعتبره إصابـة عين لأن رايته لم تخذل قط .

وتصادف في ذلك الوقت أن استولى بيبرس على حصن القرين بالشام ، فرد على ملك قبرص بخطاب يقارن فيه بين العمليتين بقوله : « وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديـــد وخشب ، وإنما الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب ... وما النصر بالهواء مليح ، وإنما النصر بالسيف هو المليح ، ونحن ننشئ في يوم واحد عدة قطائع ، ولا ينشأ لكم من حصن

قطعة ، ونجهز مائة قلع ، ولا تجهز لكم في مائة سنة قلعة . وكل من أعطى مجدافاً جَدَّف ، وما كل من أعطى سيفاً أحسن الضرب به أو عرف . وأنتم خيولكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيول .. ولو أن في الملك سكوناً ، كان من الواجب عليه (هيو الثالث) أن سكت وما تكلم[١] .

وواضح من هذا الخطاب أنه رغم طرافته يتضمن اعترافاً صريحاً من بيبرس بالتفوق البحري لخصمه خصوصاً عند قوله : « وأنتم خيولكم المراكب ، ونحن مراكبنا الخيول » . ولكن على الرغم من ذلك فان السلطان بيبرس صمم على اعادة بناء اسطوله ، إذ يذكر المقريزي : « أنه أمر بقطع أربعين شجرة جميز من جزيرة الروضة ليبني بها اسطولاً عوض الاسطول الذي تحطم على سواحل جزيرة قبرص ، وانه لزم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم مرة مدة شهر المحرم سنة سبعين وستمائة (أغسطس ١٢٧١ م) إلى أن تنجزت ، فلما كان في نصف المحرم سنة احدى وسبعين وستمائة (يوليو ١٢٧٢ م) زار النيل حتى لعبت الشواني بين يديه فكان يوماً مشهوداً[٢] .

غير أنه يلاحظ أن بيبرس رغم هذا الاستعداد البحري ، لم يحاول غزو جزيرة قبرص مرة ثانية . ولعل ذلك راجع إلى انشغال هذا السلطان بمجابهة خطر أشد وأخطر من الخطر الصليبي ، ألا وهو الخطر المغولي . إذ يروي المؤرخون أنه في نفس تلك السنة (أي سنة ١٢٧٢ م) توجه بيبرس لملاقاة التتر في أرضهم ، وحمل معه عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال ، وأنزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه ، واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والانتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الأراضي العراقية سنة ١٢٧٣ م . ويبدو أن نجاح بيبرس في هذه الحملة مكنه من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية إلى جانبه ، إذ يروي مؤرخ المغول رشيد الدين أن أباقا أو أبغا خان نكب أسرة الجوينيين

---

(١) المقريزي : السلوك ج ص ٥٩٤ ، سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٤٧ — ٤٩ .
(٢) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٨٥ ، ١٩٤ .

الذين كانوا يحكمون العراق في عهده بتهمـــة الاتصال بملك مصر الظاهر بيبرس ، والاتفاق معه على تسليم العراق له ، ومن بين هؤلاء المؤرخ عطا الجويني حاكم العراق وأخوه الخواجا شمس الدين محمـد وزيره وأبناؤهما . وكلهم أهل فضل وأدب وأرباب جود وكرم ، وكانت مجالسهم محط رحال الأدباء والكتاب والشعراء ومناط آمالهم . بذلوا كل ما في وسعهم لتعمير ما خربه المغول ولم يتأخروا عن تنفيذ كل ما هو نافع وصالح [١] .

هذه الحادثة التي تذكرنا بنكبة البرامكة أيام هارون الرشيد ، تدل بوضوح على أن بيبرس استطاع أن ينتصر على أعدائه في هـــذه الجبهة المغولية ، وأن يؤمن بذلك حدوده الشرقية من المغولي ولو على حساب انتقامه من القبارصة في الجبهة الغربية وعدم القيام بغزو جزيرتهم مرة ثانية .

وفي عهد خلفه السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨–٦٨٩ هـ = ١٢٧٩–١٢٩٠م) سقطت مدينة اللاذقية سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٧ م) وهي آخر مـا تبقى من إمارة انطاكية الصليبية ، وسقطت بعـــد ذلك مدينة طرابلس الشام سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) ويفهم من كلام المؤرخين أن السلطان قـلاوون أطبق عليها بجيوشه ومجانيقه من جهة البر ، ولم يحاول الاستعانة بالاسطول لمهاجمتها من ناحية البحر لدرجة أن الكثيرين من سكانها الصليبيين فروا من هـذه الجهة على ظهر السفن إلى جزيرة قريبة من الساحل تعرف بجزيرة القديس نيقولا ، ولكن المماليك لحقوا بهم وقتلوهم عن آخرهم . ويذكـر المؤرخ المعاصر أبو الفداء أنه ركب سفينة من طرابلس إلى هـذه الجزيرة بعد أن فرغ الناس من نهبها ، ولكنه لم يستطع البقاء فيها من رائحـــة جيف القتلى [٢] .

كذلك يلاحظ أن السلطان قلاوون بعد أن استولى على مدينة طرابلس ،

---

(١) فؤاد عبد المعطي الصياد : مؤرخ المغول رشيد الدين ص ٥٨ – ٥٩ .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبـار البشر ، ج ٣ ص ٣٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ ؛ سعيد عاشور : العصر المماليكي ص ٦٩ .

أمر بهدمها وأقام مكانها عدداً من الأبراج على طول الساحل حول الميناء ، ونقل مدينة طرابلس إلى سفح الجبل في الداخل بعيداً عن الشاطئ حول قلعة صنجيل (سان جيل) خوفاً من تهديد الأساطيل الصليبية [١] .

وخلف قلاوون على عرش مصر والشام ابنه السلطان الأشرف خليل (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ = ١٢٩٠ — ١٢٩٣ م) الذي وجه كل اهتمامه نحو القضاء على الأمارة الباقية من دولة الصليبيين في الشام وهي عكا . وهنا تتكرر نفس الظاهرة السالفة وهي أن الأشرف خليل هاجم المدينة من ناحية البر ، وضرب حول أسوارها حصاراً قوياً مزوداً بآلات المجانيق الضخمة التي بلغ عددها ما يقرب من المائة منجنيق وذلك في ابريل سنة ١٢٩١ م . وبعد شهر من الضرب المتواصل تمكن المسلمون من اقتحام المدينة في ١٨ مايو سنة ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) وهنا يشير المؤرخون إلى أن أهالي المدينة اقتحموا الميناء وتجمعوا على ظهر السفن الراسية هناك بغية الفرار إلى قبرص أو إلى أي مكان آخر ينجيهم من الموت . وقد تسبب عن ذلك الزحام الشديد غرق بعض السفن وحدوث هرج واضطراب في جميع انحاء الميناء التي كان يجب أن تظل مفتوحة لامداد المدينة بوسائل المقاومة والامدادات .

وواضح من وصف سقوط عكا أن البحرية الإسلامية لم تحاول قطع الطريق على الصليبيين الفارين من عكا عن طريق البحر على غرار ما حدث تماماً في طرابلس وانطاكية من قبل مما يدل على أن دور البحرية في هذه الفتوحات الشامية كان لا يذكر تماماً بالنسبة إلى ضخامة العمليات العسكرية البرية التي قام بها كل من بيبرس وقلاوون والأشرف خليل . ولقد تلي سقوط عكا احتلال المرافئ الصليبية القليلة الباقية مثل صور وصيدا وحيفا وبيروت وانطرطوس ، فيتم بذلك طرد الصليبيين من الشام .

---

(١) الأمير صالح بن يحيي : أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت (المعروف بتاريخ بيروت) ص ٢٢ .

وعلى الرغم من أن دور البحرية العربيـــة لم يكن ايجابياً في حروب الاسترداد للثغور الشامية ، إلا أننا نلاحظ بعد ذلك حقيقة هامة وهي أن امتلاك المسلمين لسواحل بلادهم جعلهم يشعرون بمسؤولية المحافظة عليها ويهتمون بوسائل الدفاع عنها خصوصاً بعد أن تركز الخطر الصليبي في الجزر المجاورة في مياه البحر الأبيض المتوسط .

وهنا نلمس حركة أحياء جديدة للبحرية العربية ، يشهـد بذلك اهتمام المنصور قلاوون بطرابلس وجعلها نيابـــة سلطانية يحكمها نائب للسلطان بمرسوم سلطاني ، وكان من أهم اختصاصاته شد البحر وشد الشواني[1] ، بموانى نيابته وهي طرابلس واللاذقية وانطرطوس وجبلة[2] .

كذلك أشار المقريزي إلى اهـتمام السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بانشاء أسطول قوي بعد عامين من استيلائه على عكا (أي في سنة ٦٦٢ هـ — ١٢٩٣ م) ، وكيف أن المصريين أقبلوا من كل صوب وحدب لمشاهدة مناورات هذا الاسطول بعد اتمامه بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا وخرج أهله لرؤية ذلك فصار جمعاً عظيماً[3] .

وخلف الأشرف خليل أخوه الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣— ٦٩٤ ، ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ ، ٧٠٩ — ٧٤١ هـ) الذي واصل سياسة أخيه البحرية واهتم بانشاء الأساطيل للدفاع عن سواحل بلاده[4] . وكانت بعض فلول الصليبيين المنسحبة من الشام قـد استقرت في جزيرة أرواد الواقعة على بعد ثلاثة

---

(١) كلمة شد لها معاني كثيرة وقـد تعني هنا الأشراف أو الاعداد أي أنه يشرف على البحر وعلى اعداد السفن ، ومنهـا كلمة الشاد أو المشد على عمارة الراكب وهو الموظف أو الناظر الذي يشرف على اعداد المراكب . راجـع (ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٦٥ — ٦٦) .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢٢ ص ١٧٦ .

(٣) راجع (المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٩٤—١٩٥) .

(٤) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٩٥ ، السلوك ج ١ ق ٣ ص ٢٨ .

أميال في البحر أمام بلدة انطرطوس شمال طرابلس ، واتخذتها قاعـــدة يشنون منهـا الغارات على الموانئ الشامية ولا سيما مدينة طرابلس القريبة منها . ومن ثم قرر السلطان الناصر محمد احتلال تلك الجزيرة ، فأعــد الأسطول وشحنه بالمقاتلة والسلاح والنفط ، وأسند قيادته إلى أمير البحر سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري . ثم أبحر الأسطول سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢م) متجهاً إلى ميناء طرابلس حيث انضم إليه نائب طرابلس الأمير اسندمر كرجي ومعه الرئيس البطراني المغربي ببعض القطع البحرية التي تحت قيادته ، ثم أطبقت الحملة على جزيرة أرواد واستولت عليها عنوة بعد أن حطمت أسوارها وقتلت ألفاً من أهلهـا وأسرت نحواً من خمسمائة [١] . وهكذا خلت السواحل من الصليبيين ولم يبق منهم أحد بالشام إلا من هو أسير أو نصراني ذمي .

جزيرة قبرص وخطورتها على مصر والشام :

على أن طرد الصليبيين من الشام لم يحـل دون استمرار غاراتهم على الثغور المصرية والشامية . ولقد تزعمت جزيرة قبرص هــذه المشروعات الصليبية العدوانية بحكم طبيعة موقعها الجغرافي بين شواطئ المسلمين في مصر والشام وآسيا الصغرى ، وبحكم منفعتها الخاصة من الحروب الصليبية كمركز تجاري هام وسوق عالمية للممالك الصليبية الغربية في حوض البحر المتوسط ، وكل هذا دفع بملوكها من آل لوزنيان إلى تبني الفكرة الصليبية ومحاولة استعادة مملكة بيت المقدس من جديد .

وزاد الموقف خطورة أن ملوك هــذه الجزيرة رحبوا بفلول الفرسان الاسبتارية الفارين من الشام ، وعاونوهم على انتزاع جزيرة رودس من الدولة البيزنطية سنة ١٣٠٩ م ، واتخاذها قاعدة صليبية أخرى شاركت قبرص في سياستها الحربية والاقتصادية ضد المماليك . وكانت هذه السياسة تقوم

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٦ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٧ ص ٥٧ .
Dozy: Suppl. aux dic. arabes I p. 735.

على بناء السفن الحربية وفرض حصار بحري ضد تجارة الدولة المملوكية في البحر المتوسط بغية اضعافها سياسياً واقتصادياً ، فيسهل بذلك التغلب عليها واستعادة الأراضي المقدسة .

ولعل الذي يهمنا من هؤلاء الملوك القبارصة هو الملك بطرس الأول لوزنيان Peter I. Lusignan (١٣٥٠ — ١٣٦٩ م) الذي ولد وترعرع في أحضان الفكرة والتقاليد الصليبية في قصر أبيه الملك هوج الرابع . ولهذا كان الملك بطرس الأول من الأشخاص الذين تتجلى فيهم فروسية العصور الوسطى بأجلى معانيها : فهو فارس ومحارب ، وهو أيضاً متدين ومتصوف ، هذا إلى جانب تمسكه بلقب الملكية وتاجها في مملكة بيت المقدس الوهمية التي لم يعد لها وجود . وكل هذا دفعه إلى التحمس بشدة للحركات والأعمال الصليبية .

واختار هذا الملك مدينة الاسكندرية لتكون هدفاً لعدوانه نظراً لأهميتها كثغر تجاري عالمي تنتهي عنده طرق التجارة الشرقية لتبدأ منه الطرق التجارية المتجهة إلى الغرب [(١)] .

وكانت الضرائب التي تجبى على مرور البضائع خلالها تمد السلطان بمورد مالي ضخم يساعده على محاربة الصليبيين . فسقوط الاسكندرية في أيدي الصليبيين سوف يهدم بمركز اقتصادي كبير فضلاً عن مركزها الاستراتيجي الذي يمكن استخدامه كنقطة ارتكاز لغرض حصار بحري على مصر ونجاح مبدأ التحريم التجاري المنشود .

ولا شك أن هذا الملك كانت له عيون وجواسيس ليحيطونه علماً بأحوال المدينة وحصونها ونقط القوة والضعف فيها كي يمهدوا له الطريق . وقد أعطانا المؤرخ المعاصر محمد بن قاسم النويري أمثلة لأعمال بعض هؤلاء الجواسيس الذين اكتشف المصريون أمرهم قبل وقعة الاسكندرية .

---

(١) من أهم ما كانت الاسكندرية تستورده من الغرب هو الحديد والخشب والرقيق والعنبر . أما المشرق فقد حمل إلى الاسكندرية سلعاً عديدة أهمها التوابل والعطور والأحجار الكريمة .

من ذلك مثلاً أنه ضبط شخص في داخل خندق سوق الاسكندرية يقيسه ولكنه لم يقر بشيء رغم تعذيبه بايقاد فتاويل في أصابعه وسجن. وشوهد شخص فرنجي على أعلا سور الاسكندرية من جهة دار الصناعة يقيس ارتفاع السور بحبل فلما قبض عليه أشهر اسلامه فأخلي سبيله. وقد انتقد النويري هذا الاجراء وقال انه كان ينبغي التحفظ عليه لمنع تسرب هذه المعلومات إلى الأعداء، ودلل على ذلك بأن القبارصة نزلوا الاسكندرية من نفس هذا المكان الذي تدلى فيه بالحبل، وأن الملك بطرس طلب هذا الأسلمي (أي الذي أسلم) فلم يوجد إذ كان قد هرب متنكراً بعد خلاصه. كذلك وجد في القاهرة جواسيس من الفرنج متنكرين في زي النساء وقبض عليهم وعوقبوا بالعذاب المهين. وكذلك وجد في ناحية أبي قير شرقي الاسكندرية قبل الواقعة فقير زاهد تبارك به أهل الناحية من الصيادين واعتقدوا فيه، ثم طلب منهم سمكاً فجاءوا له بسمك كثير، فأشعل ناراً على الساحل لشي السمك ثم اعطاه لهم، فلما ذهبوا إلى منازلهم جاء غرابان للفرنج إلى هذا المكان ونهبوه وأسروا عدداً كبيراً من سكانه، فلما بحثوا عن هذا الفقير لم يعثروا عليه، فأيقنوا أنه كان جاسوساً للفرنج باشعاله النار في تلك الليلة من غير عادة له بايقادها. ومنذ ذلك الوقت تنبه الناس وتحرزوا من الفقراء وصاروا يسألونهم عن ما هو التصوف للتأكد من شخصياتهم. كذلك عثر على سقاء أشقر أزرق العينين مستعرب اللسان فلما سئل عن أمره أجاب بأنه من جزيرة قبرص وأنه اعتنق الإسلام وتزوج أمرأة مسلمة من القاهرة وأنجب منها غلاماً أسماه محمداً. فلما كشفوا أمره أودعوه السجن وعذبوه فاعترف بأنه من جملة جواسيس متفرقة بمصر والشام أرسلهم بطرس قبل وقعة الاسكندرية. واستطاع أن يحصل على معلومات خطيرة من كبار رجال المسلمين بحيل مختلفة.

ويذهب النويري كذلك إلى أن ملك قبرص قد حضر بنفسه إلى الاسكندرية كأحد التجار ونزل عند شمس الدين بن غراب كاتب الديوان بالمدينة، فأتاح له ذلك فرصة التعرف على أحوال المدينة. ويبدو أن حاكم المدينة الأمير

صلاح الدين بن عرام قد تأثر بما شاع عن خيانة ابن غراب فأمر بقتله [1] .

هذا ويضيف الكاتب والفارس الصليبي المعاصر جيوم دي ماشو [2] ، أن شخصاً يدعى برسڤال الكولوني Perceval de Cologne كان في استطاعته التجول في مدينة الاسكندرية بحرية تامـــة مما ساعده على احاطة الملك القبرسي علماً بمواطن ضعف المدينة في شرقي السور الشمالي [3] .

حملة بطرس الأول لوزنيان على الاسكندرية

لعل من نتائج المعلومات التي حصل عليها ملك قبرص من جواسيسه المنتشرين في مصر ، أنه اختار وقتاً مناسباً جداً للقيام بحملته على الاسكندرية وهو ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م (٢٢ المحرم سنة ٧٦٧ هـ) ففي هذا الوقت كان والي المدينة صلاح الدين بن عرام غائباً عنها لاداء فريضة الحج . وكان نائبه جنغرا أو جنفرا ضعيفاً متردداً لا يصلح لمثل هذه المواقف الحاسمة .

كذلك كان هـــذا الوقت موسماً لفيضان النيل والطريق بين القاهرة والاسكندرية عبر الدلتا قد غمرته المياه ولا يصلح لمسير نجـدة عسكرية سريعة من العاصمة لانقاذ المدينة ، بل كان على هـذه النجدة أن تسلك طريقاً آخر عبر الصحراء وهو طريق طويل متعب .

---

(١) عن أخبار هؤلاء الجواسيس راجع (محمد بن قاسم النويري المالكي السكندري) : كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية نسخة الهند الخطية لوحات ٢٢١ أ – ٢٢٢ ب وتوجـــد منها صورة بمكتبة كلية آداب الاسكندرية تحت رقم ٧٣٨ م) .

(٢) هذا الكاتب الفارس جيوم دي ماشو Guillaume de Machaut اشترك مع بطرس في حملته على الاسكندرية وألف عنها كتاباً بالشعر (٩٠٠٠ بيت) اسمه La Prise d'Alexandrie ويلاحظ أنه يمثل وجهة النظر الصليبية بينما كان معاصره النويري يمثل وجهة النظر المصرية . وقد نشر ديوان ماشو في جنيف سنة ١٨٧٧ ، أما كتاب الالمام فلا يزال مخطوطاً .

(٣) راجع : Paul Kahle, Die Katastrophe des Mittelaterlichen Alexandria mélanges maspéro, t. LXVII, III, Orient Islamique pp. 137-154, Le Caire 1940. وقد ترجم هـــذه المقالة وعلق عليها درويش النخيلي وأحمد قدري في مجلة كلية الآداب بالاسكندرية) .

يضاف إلى ذلك أن سلطان مصر في ذلك الوقت كان طفلاً في الثانية عشرة من عمره وهو الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون ، بينما كانت السلطة الفعلية في يـــد يلبغا الخاصكي ، وهذا أدى إلى اضطراب الأحوال الداخلية بمصر في تلك الفترة . لهـذا كانت الظروف كلها مهيأة لخدمة العدو .

اتجهت السفن الصليبية [1] إلى الميناء الغربي لمدينة الاسكندرية ، فظنها الأهالي أول الأمر سفناً للبنادقة جاءت للتجارة على عادتها في كل سنة ، ففرحوا لرؤيتها وخرجوا لاستقبالها ولكنهم قوبلوا بوابل من السهام فأدركوا أنهم أمام خطر صليبي . عندئذ بدأت الاستعدادات على عجـل لاغلاق الأبواب وشحن القلاع بالمقاتلة واستدعاء عرب البحيرة للمشاركة في الدفاع عن المدينة . وحاول الصليبيون اختراق أبواب المدينة من هـذه الناحية ولكنهم فشلوا ، عندئذ اتجهت بعض قواتهم إلى الميناء الشرقي حيث وجدوا ثغرة لم يحسب المصريون حسابها . ذلك ان ترعة الخليج (المحمودية الآن) التي تصل مياه النيل بالمدينة ، كانت تصب مياهها في الميناء الشرقي بالقرب من باب الديوان عن طريق فتحة تحت السور . فاستغل بعض الصليبيين هذه الثغرة وعبروا منها وتسلقوا السور من سلمـــه الداخلي وتمكنوا من احراق باب الديوان المجاور كي يدخل منه بقية زملائهم . هذا في الوقت الذي كان فيه المدافعون السكندرون مشغولين في الجانب الآخر من الحائط برد الغزاة عن الميناء الغربي . وكان من المتعذر على هؤلاء المدافعين التحول بسرعة إلى الميناء الشرقي لوجود بعض الأبراج الحائلة ، فأسقط في أيديهم وعم الهرج والاضطراب في صفوف القوة المدافعة ، وأخذ الأهالي يفرون من المدينة بشكل جنوني ، بينما انقض عليهم الصليبيون انقضاضاً وحشياً ، ولم يفرقوا بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود المقيمين في البلد ، فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من رجالها ونسائها وعاثوا في المدينة فساداً وتخريباً

(١) يقدر المؤرخون الاوربيون عدد هذه السفن الصليبية بمائة قطعة فأكثر . أما النويري فحدد مجموع السفن التي حملت الغنائم عند الانسحاب بما يزيد على سبعين مركباً .

ونهباً أسبوعاً كاملاً . وقد أعطانا النويري — وهو شاهد عيان — صورة حية لهذا التخريب عند قوله : « وأحرق الفرنج حوانيت الصوف بكمالها ، وسوق القشاشين ، والحوانيت الملاصقة لقيسارية [١] ، الأعاجم من خارجها ، وحوانيت شارع المرجانيين وبعض فنادقه [٢] ، وفندق الطيبية مع فندق الجوكندار [٣] وفندق الدماميني الذي بسوق الجواري ، ووكالة [٤] الكتان المقابلة للجامع الجيوشي بالقرب من العطارين . ثم أن الملاعين أحرقوا فندق الكتلانيين وفندق الجنويين وفندق المرسيليين . ثم كسروا أيضاً حوانيت الشماعين والبياعين ودمروا ما فيها من الأوعية والأواني والحقاق ، فصارت ملقاة مطروحة في الطرقات قد سال ما فيها من زيت وعسل وسمن وغير ذلك . وكسروا أيضاً حوانت الصاغة وأخذوا ما فيها من مال ومصاغ كما أخذوا من حوانيت الصرف ما كان فيها من دنانير ودراهم ثم أتى القبارصة على قياسر البزازين ونهبوا أقمشة التجار المصريين والشاميين المهيأة للسفر بها إلى مصر والشام ، ونهبوا أيضاً الحرير الذي قدمت به تجار الأعاجم وغيرهم إلى الاسكندرية . ونهبوا من الدور الأموال والأقمشة والمصاغ والفرش والبسط والنحاس وغيره ، كما قتلوا الناس في الدور والحمامات والشوارع والخانات . وكانت الفرنج تخرج بالنهب من الاسكندرية

---

(١) (٢) (٣) تسمية الفندق جاءت من الكلمة اليونانية Pandokeon ، وهي تقابل كلمة الخان الفارسية ، وكلمة الوكالة العربية (من التوكيل) ، وكلمة القيسارية اللاتينية الأصل لأنها كانت تنشأ بواسطة القيصر أو الأمبراطور الروماني . فهي كلها منشئات تجارية كان ينزل فيها التجار بأمتعتهم . ويبيعون فيها بضائعهم . إلا أنه يلاحظ ان القيسارية كانت سوقاً مخصصة لبيع سلعة معينة وغالباً ما كانت هذه السلعة تصنع بنفس القيسارية التي يقطن بأعلاها صناع هذه السلعة مثل قيسارية البزازين . أما الوكالة فكانت مركزاً لتجارة الجملة وغالباً ما تكون باسم السلعة التجارية التي هي مخصصة لها مثل وكالة الكتان أو وكالة البلح . أما الفندق فيكون باسم الطائفة التي تنزل به مثل فندق الكتلانيين ، أو قد يكون باسم منشئة مثل فندق الدماميني ، أو قد يكون باسم نوع من التجار تخصصوا في تجارة معينة مثل فندق الطيبية (أي تجار الطيب والعطور) .

(٤) الجوكندار هو حامل الجوكان للسلطان عند لعب الكرة . والجوكان هو الصولجان الذي تضرب به الكرة وهو عصا طولها أربعة ورأسها معقوفة تزيد عن نصف ذراع .

إلى مراكبهم على الابل والخيل والبغال والحمير ، فلما فرغوا من النهب وقضوا أربهم من البلد طعنوها بالرماح وعرقبوها بالصفاح وتركوها ملقاة في الميناء »[١] .

ويفهم من كلام المؤرخين ان هذه الحملة لم تقتصر على القبارصة والروادسة فقط ، بل كانت تضم عدداً من نصارى الاسبان[٢] والانجليز وغيرهم من الاوربين الذين انخرطوا في جماعة السيف التي أسسها بطرس لوزنيان وهي جماعة من من الفرسان لهـا صبغة دولية لأنها تضم عدداً كبيراً من أبناء الأشراف من ممالك متعددة .

وكانت خطة ملك قبرص تقوم على البقاء في مدينة الاسكندرية لتنفيذ المشروع الصليبي الذي جاء من أجـله وهو فرض الحصار الاقتصادي على سواحل مصر وغيرها من الموانى الإسلامية واستعادة بيت المقـدس ، غير أن غالبية أتباعه خالفوه في رأيه ، ورأوا ضرورة الاسراع في الانسحاب عـن المدينة حرصاً على الأسلاب التي غنموها وخوفاً من وصول جيوش النجدة المصرية من القاهرة خصوصاً بعد أن أحرق الأهالي أبواب المدينة أثناء فرارهم مما جعل الجيوش الصليبية مهددة من كل جانب .

وفي يوم الخميس ١٦ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م وجد الملك نفسه وحيداً في قلة من أنصاره الصليبين المتحمسين بينـما ركب الباقون السفن استعداداً للابحار قانعين بما أصابوه من غنائم وأسلاب . واضطر الملك بطرس وأصحابه إلى سرعة الابحار إلى قبرص عندما علم بأن طلائع الجيش المصري قد وصلت إلى ضواحي الاسكندرية .

---

(١) النويري : كتاب الالمام لوحة ٨٢ وما بعدها (مخطوطة دار الكتب) .

(٢) نذكر منهم الكتلان والاراجونيين سكان أراجون وقطالونيا في شمال شرق اسبانيا . راجع : (Madelena Luz pomes : Los Aragoneses en la conquista y Saqueo de Alejandria por Pedro I. de Chipre, Estudio de Edad media de la Corona de Aaragon tome. V. p. 361-405).

وعلى الرغم من الخسائر التي لحقت بالسكندريين ، فان هذه الحملة قد فشلت في تحقيق الهدف المنشود منها وهو الاحتفاظ بثغر الاسكندرية ، ولهذا شبه النويري الملك القبرصي باللص الغادر سواء في طريقة دخوله المدينة أو خروجه منها ، لأن الملوك إذا ملكوا بلداً صمدوا فيه ودافعوا عنه [١].

صدى هذه الغارة في العالم الاسلامي

أثارت هذه الغارة الوحشية على السكان الآمنين في الاسكندرية موجة من السخط والغضب في أنحاء العالم الإسلامي شرقاً وغرباً :

ففي الأندلس غرباً ، لم يجد المسلمون وسيلة للتعبير عن سخطهم سوى بالاغارة على جيرانهم المسيحيين الاسبان في مدينة جيان Jean التابعة لملك قشتالة رغم المعاهدات المبرمة بين الطرفين . ففي رسالة كتبها وزير مملكة غرناطة لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه أبي عبدالله محمد الخامس الغني بالله إلى سلطان بني مرين بفاس يصف له فيهـــا حملته على جيان ودوافعها بقوله :

« سلام كريم بفتح الفتوح المؤيد بالملائكة والروح ... فنوينا أن نرفع بها هضم جانب الاسكندرية ، ونقوم بفرض الكفاية على الكافة المرضية ، فاستدعينا أهل الجهاد ونقصنا أطراف البلاد عن أولى الجلادة والجلاد في المحرم سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) بعد سنة كاملة من حادث الاسكندرية ، ونادى منادي الحمية : « يا لثارات أهـــل الاسكندرية !! » هذه الصيحة الجميلة التي كانت شعار الاندلسيين في هجومهم تعبر عن موجـة الغضب التي أثارتها بالاندلس غـارة القبارصة الوحشية على الاسكندرية ، كما أنها تحمل في طياتها معاني الأخوة والتضامن بين الشعوب الإسلامية أمام الغدر والعدوان مهما بعدت بينها المسافات [٢] .

---

(١) راجع (سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٦٠ – ٧٠) وكذلك .
(Atiya Surial: The Crusades in the later Middle ages p. 345-370).
(٢) راجع كتابنا دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ٤٤٥ .

ويسوق لنا النويري قصة طريفة في هـذا الصدد وهي أن رجلاً من أهل بلدة مليج[1] كان قد دخل الاسكندرية يتسوق منها لدكانه التي ببلده على جاري عادته فصادف بها وقعة القبرصي حين ظفر بها فأسر بجملة من أسر من أهلها ، ووقع في سهم رجل من نصارى أسبانيا ، وانتقل معه إلى مدينة جيان . فلما ظفر السلطان ابن الأحمر (محمد الخامس الغني بالله) بها ، كان في جملة من أسره منها . قال الأسير المليجي : « لما وقفت بين يدي سلطان غرناطة أبي عبدالله محمد (الخامس) بن الأحمر (الغني بالله) ، قلت له متسغيثاً :

« أيها الملك المنصور ، انني رجل مسلم من ذرية المسلمين ، ولم أكن نصرانياً ولا أبنائي ولا أجدادي نصارى » . قال : ومن أين أنت ؟ قلت : أنا من بلدة يقال لهـا مليج من أرض مصر بين القاهرة والاسكندرية ، دخلت الاسكندرية أتبضع منها على جاري عادتي بدكاني التي هي ببلدتي ، فصادفت وقعة القبرصي بها ، فنهبت وأسرت ، فأتت بي النصارى إلى هذه الأرض واستوفيت ما كتب علي ، وقد خلصني الله تعالى من الأسر على يديك بما فتح الله عليك ، وقد حصلت بين يديك ، وأنا الآن في جملة أسراك ، وأنا مسلم مثلك ، أقرأ ما تيسر من القرآن وأصلي على سيد الأنبياء محمد ابن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم سيد ولد عدنان . ثم تشاهدت وقرأت سورة من القرآن ، فعلم أني من المسلمين لا من النصارى الكافرين ثم قال لي : « ووقعة الاسكندرية صحيحة كما قيل ؟ قلت له ظفر بها صاحب قبرص ، نهبها وأسر منها ، وأنا من جملة تلك الأسارى . ثم أخبرته بخبر ظفره بها وفرار أهلها منها حتى تسلمها الملعون منهم في يوم واحد وهو يوم الجمعة في أواخر المحرم سنة ٧٦٧ هـ . فقال السلطان عند ذلك : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . إنا لله وإنا اليه راجعون ، لقد هتكتنا أهـل الاسكندرية بين النصارى ، أتاهم كلب من كلاب الجزر ، فـل عددهم ،

(١) مليج بلدة في محافظة المنوفية بمصر ، وبها مسجد سيدي علي المليجي .

ونهب بلدهم ، ولا أخذ لهم بثأر ، فآه آه ! ، لو كنا بالقرب من قبرص لكانت قبرص أكلة رجل من أهل الأندلس » . قال الأسير المليجي : ثم ان السلطان أحسن إلي وأطلق سبيلي . ولي الآن نحو سنة أقطع السهل والوعر إلى أن وصلت إلى الاسكندرية صحبة الركب المغربي ، وهـا أنا سائر إلى بلدي مليج .

ويضيف النويري ان بعض الاندلسيين القادمين في الركب المغربي بسبب الحج أخبروه بأن ملك قشتالة أرسل إلى سلطان غرناطة يطلب منه الصلح بعد ان داخله الرعب بسبب تخريبه لمدائنه . فقال السلطان لرسوله : « هو يريـد أن يصالحني بينما تمضي النصارى إلى سواحل المسلمين بأرض مصر يقاتلوهم ! ؟ ، لا كان ذلك أبداً حتى ترد أموال الاسكندرية إليها مع أسراها ويأتيني كتاب صاحب مصر بأنكم أصطلحتم معه لأنه خادم الحرمين الشريفين وأنا خادمه بسبب ذلك . وحينئذ أصالح صاحبك القند (القمط) وإلا السيف بيني وبينه حتى أملك أشبيلية وقرطبـة وطليطلة وأعيدها للمسلمين كما كانت لهم » . فلما بلغ القند مقالته قصر لسانه عن رد جوابه [1] .

أما المشرق الاسلامي فانه هو الآخر لم يقف مكتوف الأيدي أمام هذا العدوان الوحشي على الاسكندرية فيروي النويري أن الخـان المغولي أويس بن الشيخ حسن برزج Burzug (أي العظيم) سلطان الدولة الجلائرية المغولية بالعراق وفارس حينما بلغـه خبر تلك المذبحة تألم ألماً كبيراً . وتصادف أن جماعة من تجار الفرنج دخلوا بلاده لبيع أقمشة ومنسوجات في مدينة تبريز ، فقبض عليهم وأحضرهم وقال لهم :

« هذا قماش الاسكندرية نهبتموه منها وجئتم تبيعونه ببلدي » . فقالوا : لا والمسيح ما نهبناه ولكن اشتريناه ممن نهبه . فقال كذبتم بل أفسدتم

(١) راجع النويري : كتاب الالمام لوحات ١١٠ – ١١٤ (مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٤٤٩ ونجد صورة شمسية منها بكلية الآداب جامعة الاسكندرية رقم ٧٣٧ م) .

بلد المسلمين يا كلاب ، وأتيتم تبيعون أقمشتهم ببلدي . فعند ذلك أمر بالحوطة على أموالهم وقتلهم عن آخرهم . قيل كان عدتهم ثمانمائة علج ، هكـذا أخبرت عنهم تجار البغاددة الواردين إلى الاسكندرية ببضائعهم [١] .

ويضيف النويري ان جماعة من رسل ملوك الفرنج حضروا بعد ذلك بين يدي السلطان أويس المذكور وقدموا له الهدايا ، وسألوه أن يترك تجارهم يدخلون بلاده يبيعون ويبتاعون . فقال لهم الملك أويس :

« أنا اسمي أويس بن حسن بن حسين ، مسلم بن مسلم ، وأنتم تعتـدون على بلاد المسلمين وتأتون بلادي بمتاجركم تبتغون الفضل ؟ لا والله لا أرضى بذلك ، ولو سبقني ملك إلى قتل الرسل لقتلتكم ، ولكن ارجعوا من حيث أتيتم واجتهدوا في صلحكم مع سلطان مصر ، واستدركوا ما أفسدتم من الحال الذي فعلتم بالاسكندرية . فان أتيتموني بخط ملك مصر بدخولـكم تحت طاعته ، مكنتكم حينئذ تبيعون ببلدي وتبتاعون منه ما تختارون . وان لم تفعلوا ذلك وعدتم إلى بلدي فليس لـكم عنـــدي إلا السيف » . فرجعوا بالخيبة من حيث أتوا مردود عليهم هداياهم [٢] .

أما مصر والشام فقد تجلى الغضب فيها على شكل اجراءات انتقامية سريعة من الجاليات الاوربية وطوائف المسيحيين المقيمين في البلاد وذلك بمصادرة ربـــع أموالهم لاصلاح ما خرب في الاسكندرية وفداء أسرى المسلمين واعداد أسطول لغزو قبرص . ولم تلق سياسة الانتقام من أهـل الذمة تأييداً من بعض فقهاء المسلمين أمثال الفقيه الشافعي عماد الدين اسماعيل ابن كثير الذي أفتى في دمشق بأنه طالما كان النصارى باقـين على الذمة ويؤدون إلينا الجزية وأحكام الملة قائمـة فلا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد فوق ما يبذلونه من الجزية [٣] .

---

(١) النويري : كتاب الالمام لوحة ٢٥٢ (مخطوطة الهند) .
(٢) النويري : كتاب الالمام لوحة ٨١ ، ٨٢ (مخطوطة دار الكتب المصرية) .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية . ج ١٢ ص ٢٥١ .

غير أنه يبدو أن الأمير يلبغا الخاصكي لم يعمل بكلام ابن كثير وجمع أموالاً من أهل الذمة وغيرهم ثم شرع في اتخاذ خطوات حاسمة نحو العناية بالاسطول ، وبمدينة الاسكندرية ، وبرد أسرى المسلمين .

١ ـ العناية بالاسطول :

حرص يلبغا الخاصكي على توفـــير الأخشاب والحديد والآلات بدور صناعة مصر والشام لبناء مائة وخمسين مركباً حربياً ما بين شواني وغربان للغزو ، وحمالات وطرايد لحمل الجنود والخيل . فكتب إلى نوابه بالشام باخراج النجارين إلى الغابات المجاورة لمدينة انطاكية لقطع ونشر أخشاب الصنوبر وغيرها وارسالها إلى دور صناعة مصر . كما كتب إلى بلاد الساحل الشامي مثـل طرابلس وبيروت وغيرها بأمرها بعمل الشواني والحمالات وجمع الرجال من البحارة والغزاة برسم غزو قبرص . قال المؤرخ اللبناني صالح بن يحيي في هـــذا الصدد : « ورسم يلبغا للأمير بيدمر الخوارزمي بالتوجه إلى بيروت ليعمر من حرشها مراكب كثيرة حمالات وشواني للدخول إلى قبرص فحضر إلى بيروت وأحضر صناع كثيرة من ساير الممالك فكانوا جماً غفيراً . وعمر الأمير بيدمر بظاهر بيروت مسطبة عرفت به إلى الآن (أي وقت المؤلف في القرن ١٥ م) وكانت المراكب تعمل عندها على بعـــد من البحر وحضر عسكر الشام فأنزلوه فيما بين البحر والمراكب حذراً من مراكب صاحب قبرص لئلا يحضروا حين غفلة فيحرقوا ما يعمل من المراكب[١] .

ويذكر النويري ان دور الصناعة في مصر استطاعت أن تبني في عام واحد مائة مركب حربي ، وأنه نودي في القاهرة ومصر بحضور البحارة والنفاطة ومن يريد الجهاد في سبيل الله للسفر مع المراكب ، فاجتمع عدة من المغاربة ، رجال البحر ، وكتبت أسماؤهم وقررت لهم المعاليم ، وأقيمت

---

(١) راجع (صالح بن يحيي : أخبار السلف ص٣٠ ، أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ص٣٠ ، ولعل مكان هذه المسطبة هو المعروف اليوم باسم المسيطبة في بيروت .

لهم نقباء . ولما اكتمل الجمــع في ربيع الأول سنة ٧٦٨ ، أمر الأمير يلبغا بشحن المراكب بالرجال الأبطال والأسلحـة الثقال ، كما أمر الغزاة أن تلبس الزرد النضيد ومصفحات الحديد بالبر فلبستها ، وتسلحت بأسلحتها وركبت خيولها . ثم أمر يلبغا باحضار رسل صاحب الكتلان لمشاهدة عرض هذين الجيشين البري والبحري ، فنظروا لتلك المراكب الحربية وإلى ما فيها من الهمم العالية ، ورأوا تلك الجنود التي هي كالدود قد تهيأت للقتال والحرب والنزال ، وجذفت تلـك الطرايد والغربان ، الشبيهة لوناً بالطيور الغربان ، ببحر النيـــل حادرة وصاعدة تود أنها حينئذ بجزيرة قبرص قاصدة ، بعد أن سترت جوانبها بالطوارق المدهونة وبباطنها الأسلحة المسنونة ، وقد صارت برجال الحرب الشجعان مشحونة ، والأعلام بالرياح تخفق ، والأبواق تزعق ، والمزامير تزمر والأبطال بأصواتها تزمجر ، والطبول تضرب ، والنفط بشرره ملتهب ، وقد اجتمع لرؤية تلك المراكب ألوف صاروا على شاطئ النيل صفوف ينظرون لتلك المراكب التي صارت من أعجب العجائب فعند ذلك انخلعت قلوب رسل صاحب الكتلان من رؤية تلك المراكب الحربية التي عمرت بسبب أخـذ ثأر الاسكندرية وسرعة عمارتها في عام واحد ، فتحققوا أن يلبغا لاخراب قبرص وسائر الجزائر قاصد » [١] .

ويضيف النويري أن الأمير يلبغا لم يتردد في حشد كل ما يضر العدو من المكائد في هذه الحملة التي يعدها لغزو قبرص . من ذلك مثلاً أنه ملأ قدوراً من الفخـــار بالثعابين والحيات الكبار والصغار كي يرمي بها على الفرنج فيقتل بصكها من صادفته ثم تنكسر وتسعى الأحناش بينهم تنهشهم وتدهشهم وتحيدهم عن مواقفهم في الحرب وتكون لهم شغلاً شاغلاً فتورثهم العطب وسوء المنقلب [٢] .

---

(١) النويري : كتاب الالمام لوحة ١٣٧ – ١٣٨ (الهند) .
(٢) النويري : كتاب الالمام لوحة ٢٠٧ أ (الهند) .

غير أن الأمير يلبغا الخاصكي لم يعش للأسف لتحقيق هدفه ، إذ اغتيل بيد بعض مماليكه سنة ٦٧٨ هـ فتوقف بموته اعداد الاساطيل لغزو قبرص [١] .

٢ - العناية بالاسكندرية :

كانت العناية بثغر الاسكندرية من أهم الأعمال التي واكبت حركة تعزيز الاسطول العربي ، فقد صدرت الأوامر عقب غارة القبارصة بتحويل الاسكندرية من مجرد ولاية إلى نيابة للسلطنة ، فبعد ان كان يتولاها أمير طبلخاناه أي أمير أربعين صار يحكمها نائب لسلطان برتبة أمير مقدم ألف يسمى ملك الأُمراء وله من السلطات في نيابته ما يماثل السلطان كي يتحمل مسؤولية حمايتها ورعاية مصالحها . وفي ذلك يقول القلقشندي : « صارت الإسكندرية نيابة جليلة تضاهي نيابة طرابلس وحماه وصفد ، وبها كرسي سلطنة ونمجاة [٢] سلطانية توضع على الكرسي ، ونائبها من المقدمين يركب في المواكب بالشبابة [٣] السلطانية ومعه أجناد الحلقة المرتبون بها ، ويخرج في موكبه إلى ظاهر الإسكندرية خارج باب البحر ويجتمع إليه الأمراء المسيرون بها هناك ثم يعود وهم معه إلى دار النيابة ، ويمدّ السماط السلطاني ويأكل الأمراء والأجناد ويحضره القضاة وتُقرأ القصص على عادة النيابات ثم ينصرفون » [٤] .

---

(١) يعطينا المؤرخ البيروتي صالح بن يحيي مثالاً على توقف العمل في المراكب الحربية التي كانت تعد في صناعة بيروت بقوله : فلما توفى يلبغا العمري في ليلة الأحد عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وسبعمائة بطلوا العمارة في المراكب المذكورة ولم ينزل منهم إلى البحر سوى حمالتين كبار الواحدة باسم سنقر والثانية باسم قراجا وهما أميرين من أمراء ذلك الوقت . ثم بقوا بعد ذلك في مساحة بيروت حتى تلفا وكذلك تلف بقية الشواني التي لم تنزل إلى البحر . وكان قد صرف عليها مال عظيم فذهب ضياعاً لم يستفاد منها سوى الحديد بعدما أخذت الناس منه شيئاً كثيراً . راجع (صالح بن يحيي : أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت المعروف بتاريخ بيروت ص ٣٠) .

(٢) النمجاة خنجر مقوس يشبه السيف .

(٣) الشبابة آلة موسيقية من نوع المزمار .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢

وتنسب معظم أعمــال الإصلاح والانشاء في الاسكندرية بعد وقعة القبارصة إلى نائبين من نواب السلطنة بها وهمـــا : سيف الدين إلاكز ٧٦٧ — ٧٦٨ هـ ، وصلاح الدين خليل بن عرّام الذي تولى نيابتها ست مرات ، الأولى في سنة الموقعــة ٧٦٧ هـ ، والأخرى على فترات متقطعة بعدها (١) .

وينسب النويري إلى الأمير سيف الدين إلاكز عدة إجراءات دفاعية مضادة لحيل الفرنج من ذلك أن العدو اعتاد أن يستخدم للزحف نحــو الخنادق والأسوار زحافات تمشي على بكر يحركها من هو بداخلها وهي مصنوعة مِن الخشب القرو الملبّس بصفائح الحديد وجلود الجمــال والبقر والقطن المبلل واللّبد حماية لها من رمي النار كي تستطيع أن تصل إلى السور أو الخندق فيقوم مَن بداخلها بردم الخندق ونقب السور . وكانت هذه الزّحافة تُعرف عند المغاربة بإسم القطوس أي القط وجمعها قطاطيس لأن مشيتها كمشي القط إذا أراد سرقة اللحم .

ولإتقاء خطرها أمر سيف الدين إلاكز بإحضار الأحجار الصوانيــة المرشوق بها أكف الحديد المثنية الأصابع ، والمغرزة فيها النصول المحددة الأطراف ، وتعليقها بسرياقات من القنب في البكر في أعـــلا أبواب الاسكندرية . فإذا أُرخيت هذه الآلة على الزحافة كسرتها ورفعت من بداخلها حياً أو ميتاً (٢) .

ويضيف النويري أن مجاهداً مغربياً عرض على الأمير إلاكز سلاحاً جديداً عبارة عن قدور كفّيات صغيرة من الفخار ضيقة الأفــام مملوءة جيراً ناعماً مطفياً بالبول ، وكانت الواحدة منها ملء الكف في قدر الرمانة مسدودة الفم الضيق بمشاقة (كالقنابل اليدوية الآن) ثم حكى له قصة استعمال هــذا السلاح ومدى تأثيره فقال : بينا كنا مسافرين في البحر

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها ص ٣٥١ ، ٣٧٠

(٢) النويري : كتاب الالمام لوحة ٢٠٥ ، ٢١٠ ب (الهند)

المالح بين سفاقس وطرابلس ، صادفنا مركب للأفرنج فيه مقاتلة وتجار فلما رأونا قصدونا فلما قربوا منا ألقوا الكلاليب بمركبنا . وكانوا بأجمعهم عليهم سرابيل الحديد . وكنا قبل تكليبهم لمركبنا نرمي عليهم بالسهام فلا تؤثر فيهم ، فلما تكلبت المركبان ، وصار الجانب ملتصقاً بالجنب ، قفز من مركبنا رجال حصلوا بمركبهم فصاروا يضربونهم فلا يؤثر فيهم. وكنت قد أعددت بمركبنا هذه القدور الكفيات ، فأمرت مَن بمركبنا من أصحابنا أن يرموا الفرنج بها ، وكانت الواحدة منها ملء الكف ، فصار كل واحد يتناول واحدة ويرمي عليهم فتصكهم ، فيصعد الجير بعد إنكسارها في وجوهم ويدخل في أعينهم ويصعد في خياشيمهم يفسد أنفاسهم ويعمي أبصارهم، وصارت المسلمون يلقونهم في البحر فيغوص الواحد منهم إلى قعر البحر لثقل ما عليه من الحديد . فرمينا منهم نحو ستين علجاً وهربت بقيتهم نزلوا بطن المركب ، فعمدنا إلى باب بطنها وسددناه عليهم وسمرّناه بالمسامير ، وأطلعنا من مركبهم إلى مركبنا ثلاثين تاجراً مسلماً وعشرين مملوكاً وخمس عشرة جارية كانت الفرنج أسرتهم ، ثم أخـذنا ما كانوا أخذوه لهم من حرير وبسط وقوت ، وأخذنا ما كان للفرنج من الأثاث وقلاع مركبهم، وعمدنا إلى بئر مركبهم خسفناها ومضينا إلى مركبنا سالمين ، فغُمر مركب الفرنج بالماء من ذلك الخسف الذي خسفناه بها فامتلأت بالماء وغرقت ، وكان إنتصارنا عليهم بعون الله تعالى وبتلك القدور الكفّيات المملوءة جيراً وبولاً » قال : فلمـا رآها الأمير إلاكز أعجبه مرآها واستحسنها وأمر القرموسي [١] أن يصنع مثلها عدة كثيرة، فعملوا نحو عشرة آلاف واحدة ملئت جيراً ناعماً مطفياً بالبول ورُفعت بقصر السلاح [٢] في المدينة حاصلاً

(١) القرموسي او القرموصي كلمة دخيلة من أصل يوناني معناها الخزّاف أو الفخاري Potier راجع (Dozy : Suppl. aux Dic. Arabes. II. p. 337)

(٢) هذا القصر كان بمثابة مخزن قد شحنت قاعاته بالاسلحة المختلفة التي تمون المقاتلة في الحرب . ويفهم من كلام النويري أن هـذه القاعات كانت تسمى بأسماء السلاطين بدليل ان السلطان الأشرف شعبان حينما زار الإسكندرية سنة ٧٧٠ ﻫ رسم بأن يعمل له به أيضاً قاعة سلاح تسمى به كما سميت قاعات الملوك بهم فبنيت له فيها من السلاح الجديد شيء كثير فكان عمله =

لوقتها المحتاج اليها . وعملوا أيضاً من القدور الكبار كثيراً صارت حاصلاً لرمي المجانيق كما يعمل فيها من المكائد المضرة للفرنج الكفرة »[١] .

وجاء بعد الأمير إلاكز في نيابة الإسكندرية الأمير صلاح الدين خليل بن عرّام الذي ينسب إليه تعمير وترميم ما تخرّب في المدينة من مساجد ومدارس وأسوار وأبواب . كما ينسب اليه أيضاً حفر المطرقين أو الخندقين اللذين يحيطان بأسوار الاسكندرية من جهة البحر . المطرق الغربي الذي يحمي الساحل الغربي للمدينة من الباب الأخضر وبحر السلسلة (الميناء الغربية) إلى قلعة ضرغـام . والمطرق الشرقي الذي يحمي الميناء الشرقي من جهة باب الديوان ومجاري الأقنية وهو المكان الذي صعد منه القبارصة السور . ثم أوصل ابن عرام الخندقين بعضهما ببعض كما أوصلهما بالخندق القبلي الذي يحيط الإسكندرية من جهة الـبر . وبذلك صار من السهل على جيوش النجدة القادمة من القاهرة في وقت الحرب أن تصل خفية إلى جزيرة المنار عبر هذه المطارق أو الخنادق بدلاً من دخولها عبر المدينة من أبوابها القبلية البرية مما يعرّض المدينة لأعمال النهب والعبث التي يقوم بهـا بعض الجنود[٢] .

غير أن كل هذه الإصلاحات وإن كانت قـد أفادت الإسكندرية من الناحية العسكرية ، إلا أنها لم ترجع اليها نشاطها التجاري ولا مكانتها الإقتصادية القديمة ، فمنذ ذلك الوقت أخذ نجم الاسكندرية التجاري في الأفول وقد علق المقريزي على هذه الحالة بقوله : « وكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث ، ومنها اختلّت أحوالهـا ، واتضع أهلها ، وقلت أموالهم ، وزالت نعمهم »[٣] . وفي هذا المعنى أيضاً

= لذلك حسنة كاملة ونعمة شاملة وكان هذا القصر يقع بالقرب من جامع عمرو الذي يحتل دير الفرنسسكان الآن جزءاً منه (الالمام ص ١٤٤ ب ، دار الكتب) .

(١) النويري : كتاب الالمام لوحة ٢٠٦ – ٢٠٧ (الهند) .

(٢) النويري : كتاب الإلمام لوحة ٢٠٨ ، عبدالعزيز سالم ، المرجع السابق ص ٣٧٤ وما بعدها .

(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج٣ ص ١٣٥ (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٣٣٧ت) .

أشار الرحالة امانويل بيلوتي Emmanuel Piloti الذي زار الإسكندرية في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي ، إلى أن المدينة كانت شبه مهجورة من السكان ، وأن مساكنها الكثيرة لا يتعرض لها أحد بالشراء إلا للحصول على رخامها المزخرف وغيره من الأشياء الثمينة التي بداخلها[١] .

٣ – العناية برد أسارى الاسكندرية :

أحدثت غارة القبارصة على الاسكندرية اضطراباً شديداً في العلاقات بين مصر والبلاد الأوربية في البحر المتوسط ولا سيما الجمهوريات الايطالية وقطالونيا الاسبانية التي كانت لها علاقات تجارية كبيرة مع مصر . ولهذا سارعت البندقية وجنوا وقطالونيا إلى إرسال رسلها إلى سلطان مصر الأشرف شعبان لتؤكد له عدم اشتراكها في تلك الحملة المشؤومة ولكن السلطان رفض أن يسمح لها بالمتاجرة في بلاده إلا إذا أعاد ملك قبرص أسرى المسلمين ، فوعده الرسل بذلك وذهبوا إلى مدينة الماغوصة (فماجوستا) شرقي قبرص حيث وجدوا الملك قبرص يعد حملة لمهاجمة بيروت فأقنعوه بالعدول عنها ، كما طلبوا منه اعادة أسرى الاسكندرية ومفاوضة السلطان في الصلح ، وما زالوا به حتى وافق على ذلك وسمح لأسرى الاسكندرية بالعودة إلى بلادهم حيث استقبلهم المصريون استقبالاً رائعاً[٢] .

وقدر الملك بطرس أن سلطان مصر سوف يعقد معه صلحاً عقب حصوله على أسراه حسبما كان مفهوماً من مفاوضات الصلح . ولكن السلطان شعبان في الواقع لم يستطع أن يغفر للقبارصة ما فعلوه في الاسكندرية ، وكان يأمل أن تتاح له فرصة الانتقام منهم ، ولهذا أخذ يماطل في عقد

---

(١) (٣) انظر (Paul Kahle : Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alexandria, melanges maspero p. 137) .

(٢) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٧٢ وكذلك (Machaut : La Prise d'Alexandrie p. 180) .

الصلح معهم . وأدرك الملك بطرس أن السلطان قد خدعه وأنه لا توجد وسيلة لاجباره على الصلح إلا بالاغارة على سواحل بلاده من جديد . وفي أول عام سنة ٧٦٩ هـ (سبتمبر ١٣٦٧ م) أغار بأسطول ضخم على مدينة طرابلس الشام ، غير أن استعدادات المسلمين في هـذه المرة لم تمكنه من احراز أي نجاح ، فارتد عنها خائب السعي بعد أن فقد من رجاله نحو الألف . ويذكر النويري أن مجاهداً من أهـل طرابلس لحق بالملك بطرس وهو يهم بركوب سفينة عند انسحابه من طرابلس فرمى بنفسه عليه في البحر وأخذ يضربه بالسيف على جوشنه فأصابه بجراحات حصل له منها الألم الكبير ولم يخلصه من الموت سوى جماعـــة من اتباعه خفوا لنجدته وقتلوا المسلم بسيوفهم [١] .

وحاول بطرس لوزنيان أن يعوض خسارته في طرابلس بالاغارة على اللاذقية ولكن ثلاثاً من سفنه ارتطمت بسلسلة الميناء وتخطتها إلى داخل الميناء ، عندئذ بادر المسلمون برفع السلسلة بدوران لوالبها فارتفعت السلسلة وصارت الشواني محبوسة ، فقبض المسلمون على شيني منها وقتلوا جميع من فيه من القبارصة ، وانكسرت الاثنتان لثقلها على السلسلة حين دخولها [٢] .

وهاجم بطرس بعد ذلـك مدينة بانياس فأخلاها أهلها ، فأحرقها ، إلا أن جيش المسلمين المحاذي لمراكبه في الـبر أدركوه فقتلوا من الفرنج الكثيرين [٣] .

وغضب السلطان شعبان من هذه الغارات العدوانية على سواحل بلاده ، ورد عليها بأن كلف قائـــداً بحرياً من قواده وهو رئيس دار الصناعة بالاسكندرية الرايس ابراهيم التازي بالاغارة على جزر العدو . وفي ٢٩ رجب

(١) النويري : كتاب الالمام لوحة ٢٥٦ ب .
(٢) النويري : نفس المرجع لوحة ٢٥٧ أ .
(٣) النويري : نفس المصدر لوحة ٢٥٧ . وكذلك (Makhairas: Recital concerning the sweet Land of Cyprus entitled « Chronicle », edited by Dawkins, Vol. I. p. 193)

سنة ٧٦٩ هـ (مارس ١٣٦٨ م) اقلع التازي من ثغر الاسكندرية في مركبين حربيين بهما خمسمائة مقاتل متجهاً إلى جزيرة قبرص وما يجاورها من جزر فغنم سفينة بقلعين للعدو أرسلها إلى الاسكندرية بعد أن حجز معه رجالها واستمر التازي في غاراته ثلاثة وعشرين يوماً عـــاد بعدها محملاً بالغنائم والأسرى فارتجت الاسكندرية لقدومه ، وخرج أهلها إلى موضع منارها لاستقباله ، واصطف الترك المجردة لحراسة الاسكندرية بطـــول الساحل راكبين خيولهم ، متطلعين إلى الغرابين القادمين ، وقد ارتفعت عليهما أعلام السلطان . ودخل الرايس ابراهيم التازي الاسكندرية وسار من خلفـــه أسارى الفرنج يتقدمهم راهب كهل وهو راكب حمار ووجه لذنبه ، وخلفه يسير خمسة وثلاثون أسيراً حفاة الأقدام قد ربطت أعناقهم بالحبال وأيديهم بالخشب [1] .

ثم لقي الملك بطرس لوزنيان مصرعه على يد بعض رجاله سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٩ م) ، إلا أن موته لم يغير من سياسة قبرص العدوانية نحو مصر والشام نتيجة لرفض سلاطين المماليك ابرام صلح معها . لهذا استمر قراصنتها يغيرون على الشواطئ الاسلامية ، ويجدون من وسائل دفاعهـــا البحري والبري خير مقاوم لهم . وحسبنا أن نشير إلى تلك المحاولة التي قام بها الأسطول القبرصي لغزو مدينة الاسكندرية من جديد سنة ٧٧٠ هـ ، فتصدت له المراكب بقيادة الرايس ابراهيم التازي ، ووسائل الدفـــاع الساحلي من جروخ وسهام ومجانيق ، وخاضت معه معركة بحرية ضارية فقد فيها بعض سفنه وعدداً كبيراً من رجاله ، ثم فر هارباً لا يلوي على شيء [2] .

وهكذا نرى أن محاولة القبارصة في فرض صلـــح بالقوة لم تحرز أي نجاح بل زادت من اصرار المسلمين على الانتقام ولو بعد حين .

---

(١) النويري : الالمام لوحة ٩٧ وما بعدها ، عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية ص ٣٦٣ ، سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٧٩ .

(٢) واجع تفاصيل هذه المعركة في (النويري: كتاب الالمام لوحة ٢٧٤ — ٢٧٧ نسخة الهند الخطية).

غزو المماليك لجزيرة قبرص (٨٢٧ – ٨٢٩ هـ = ١٤٢٤ – ١٤٢٦ م)

ظلت اعتداءات قراصنة قبرص مستمرة على البلدان والسفن المصرية والسورية حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي . ولم تكن تلك الاعتداءات في الواقع قاصرة على القبارصة وحدهم بل شارك فيها قراصنة مسيحيون من مختلف الجنسيات اتخذوا من سواحل جزيرة قبرص المتعرجة قواعد وأوكاراً يخرجون منها للاغارة على البلدان والسفن الاسلامية ، كما وجدوا من ملوك قبرص ورجالاتها خير مشجع ومعاون على اعتداءاتهم ، وخير مشتر لبضائعهم المنهوبة من المسلمين . لهذا كانت السياسة المصرية تعتبر جزيرة قبرص مسؤولة عن أعمال هؤلاء القراصنة الذين يعيثون في البحر فساداً .

وكان من المستحيل على دولة المماليك في مصر والشام أن تصبر على تلك الاعتداءات المتكررة على أراضيها ومراكبها . وإذا كانت ظروفها في الماضي لم تمكنها من القيام بعمل انتقامي سريع ضد جزيرة قبرص ، إلا انها لم تهمل هذا المشروع في الواقع بل ظلت تنتظر الوقت المناسب للانتقام لشهداء الاسكندرية .

ثم جاءت تلك الفرصة المناسبة على يد السلطان الأشرف سيف الدين برسباي (٨٢٥ – ٨٤٢ هـ = ١٤٢٢ – ١٤٣٨ م) أحد سلاطين دولة المماليك الثانية ، أي بعد حوالي ستين سنة من تاريخ هذا العدوان .

وكان السبب المباشر لغزو قبرص عبارة عن حادث قرصنة مثل كثير من الحوادث السابقة ، إلا أن السلطان برسباي اتخذه ذريعة للقيام بهذا الغزو الذي كان أمنية مطوية في نفوس المسلمين جميعاً . وقد وصف لنا هذا الحادث المباشر المؤرخ اللبناني المعاصر الأمير صالح بن يحيي بقوله : وبموجب ابتداء الحال مع صاحب قبرص أن شخصاً من تجار دمياط يسمى أحمد بن الهميم ، كان له مركب كبير قد أوسقه من طرابلس الشام صابون وبضائع بمال كثير . فلما وصل إلى فم دمياط صدفه مركب من حرامية

الفرنج من طائفة البسقاوية[1] ، فأخـــذ مركب بن الهميم وتوجه به إلى قبرص ، فنسب السلطان لصاحب قبرص أنه مواطئ لحرامية الفرنج »[2] .

أرسل برسباي ثلاث حملات متتابعة لغزو جزيرة قبرص التي كان ملكها في ذلك الوقت جانوس لوزنيان Janius Lusignan (١٣٩٩ — ١٤٣٢ م) .

الحملة الاولى : سنة ١٤٢٤ م (٨٢٧ هـ)

ابتدأت أولى هذه الحملات . على شكل حملة استكشافية للوقوف على مدى معاونة ملك قبرص للقراصنة المعتدين على الشواطئ والسفن المصرية والسورية .

أبحرت الحملة من دمياط في ثلاثة أغربـة انضم إليها غراب صغير في بيروت وآخر في طرابلس فصار المجموع خمسة أغربة منها ثلاثة كبار بكل واحد مائة وثمانين مجذافاً ، واثنان صغيران بكل منهما دون المائة ، ومعهم ثلاثــة أمراء من مصر ، وأمير من كل من بيروت وطرابلس[3] . ثم اتجهت الحملة إلى قبرص ، وهناك عند الشاطئ الجنوبي بالقرب من ميناء ليماسول (اللمسون) صادفت سفينة تجارية راسية هناك . فلما رأى بحارتها السفن الإسلامية فروا هاربين تاركين سفينتهم للمسلمين الذين أضرموا النار فيها بعد نهب حمولتها النفيسة .

ثم اتجهت الحملة بعد ذلك إلى ميناء ليماسول نفسه ، وكان الملك جانوس قد علم بقدوم الأسطول المملوكي واستعد لملاقاته براً وبحراً . فلما وصلت الحملة إلى ليماسول اصطدمت بثلاث سفن للقبارصة وانتصرت عليها واشعلت النار فيها ، ثم أغار المحاربون المسلمون على المدينة نفسها وهزموا الحامية

---

(١) البسقاوية قوم من الفرنج يقيمون في شمـــال أسبانيا وجنوب غرب فرنسا . ويعرفون باسم البشكنس Basque أو Vascos .

(٢) راجع (الأمير صالح بن يحيي : أخبار السلف من ذرية بحتر بن عـــلي أمير الغرب ببيروت (تاريخ بيروت) ص ٢٤٢ .

(٣) صالح بن يحيي: أخبار السلف ص٢٤٢ . (تحقيق فرنسيس هورس وكمال سليمان الصليبي بيروت).

المعدة هناك لقتالهم بقيادة حاكم ليماسول فيليب بكويني Philip Picquigni الذي ركن إلى الفرار . وتوغل المسلمون بعـــد ذلك في داخل المدينة ، واكتفوا بنهب بعض أحيائها دون التعرض لقلعتها . ثم أقلعت الحملة عائدة إلى مصر ، بعد ان قضت شهرين في هذه الغزوة ، ومعها قدر كبير من الغنائم والأسلاب مع عـــدد من الأسرى يقدر بخمسة وعشرين أسيراً . ويلاحظ أن هذه الحملة رغم قلة حجمها ، وصغر الدور الحربي الذي قامت به ، إلا أنها أثبتت للسلطان برسباي مـدى معاونة قبرص للقراصنة إذ شاهد المسلمون بعض أوكارهم على سواحلها فضلاً عن بضائـع المسلمين التي نهبوها . وعلى ضوء هـــذه المعلومات قرر برسباي ارسال حملته الثانية إلى قبرص[1] .

الحملة الثانية سنة ١٤٢٥ م (٨٢٨ هـ)

كانت هذه الحملة أكبر من الأولى ونتيجة لها كما رأينا ، وقد بلغ من اهتمام السلطان بها أنه أشرف بنفسه على بناء سفن جديدة في دار صناعة بولاق ، وأمر عمال اللاذقية في الشام بصناعة مجاديف لهذه السفن وإرسالها إلى مصر . واستطاع برسباى بذلك أن يعمر في مصر أربـع حمالات كبار برسم حمل الخيول والأثقال والناس . وعمَّر عدة أغربـة كبار وصغار . كذلك رسم السلطان بعمارة حمالة ببيروت لعسكر الشام ، وغرابين أحدهما بثمانين مقذافاً ، والثاني بأربعين مع غراب عتيق كان ببيروت قبل ذلك . ورسم السلطان أيضاً لنائب طرابلس بعمارة حمالة مع الغراب الذي عنده[2]. هذا إلى جانب السفن التي أمده بها الخليفة الحفصي سلطان تونس[3].

---

(١) راجع Ziada: The Mamluk Conquest of Cyprus in the Fifteenth Century (Bulletin of the Faculty of Arts of Cairo).

وقد ترجم الاستاذ عبد الرحمن زكي هـذا المقال إلى اللغـة العربية بعنوان المصريون في قبرص (في إحدى الرسائل الثقافية التي كانت تصدرها وزارة الدفاع) .

(٢) صالح بن يحيى : أخبار السلف ص ٢٤٣

(٣) انظر (Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome. IV. p. 555). ، سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٩٢) .

ثم تجمعت جيوش الحملة ومراكبها في ميناء طرابلس . وقد بلغ عدد القطع الذي تألف منها الأسطول الإسلامي أربعين قطعة وهم : ست حمالات، وعشرة أغربة كبار وصغار ، وست مراكب قراقير ، ومركبان مخروط كبار ، وإثنا عشر زورقاً ، وست بنوق صغار ، فكانوا أربعين قلاعاً »[1].

وتجدر إشارة هنا إلى أن المؤرخ اللبناني المعاصر الأمير صالح بن يحيى صاحب كتاب تاريخ بيروت أو أخبار السلف ، كان على رأس الغراب العتيق الذي عمل ببيروت متقدماً ، وقد علق على ذلك بقوله : « وكان هذا الغراب من أحسن الأغربة مشياً ، وكان معي قريب من مائة رجل بحرية ومقاتلة »[2].

وأقلعت السفن الإسلاميـــة من ميناء طرابلس في ٣٠ يوليو وعليها الآلاف من جنود الـبر والبحر ورماة النفط . وبعد أربعة ايام وصلت الحملة إلى ميناء كورباس Korbass على الساحل الشمالي الشرقي القبرصي ، ثم تحركت من هناك جنوباً حتى رست على بعد ثلاثين ميلاً من فاماجوستا (الماغوصة) وأنزلت قواتها على الشاطىء . ولم تسع مدينة فاماجوستا إلا الإستسلام للمسلمين في سهولة ، ورفع حاكمها على قصره العـلم السلطاني . ثم أقلعت السفن الإسلامية جنوباً إلى ناحية الملاحة ، فاعترضها اسطول قبرصي من احدى عشرة سفينة أمام ساحل لارناكا Larnaka حيث دارت معركة بحرية عنيفة إنتهت بهزيمة القبارصة وفرارهم إلى عرض البحر تحت وطأة قذائف السفن الإسلاميـة . ثم نزلت قوات المسلمين إلى بر الملاحة لمقاتلة الجيش الذي أرسله الملك إلى هناك ، فانتصروا عليه وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من أفراده كما نهبوا الملاحات والقرى المجاورة .

وبعد بضعة أيام أبحر المسلمون إلى مدينة ليماسول جنوباً واستولوا عليها ورفعوا على قصرها العلم السلطاني .

---

(١) ، (٢) صالح بن يحيى : نفس المرجع ص ٢٤٤ .

وقبل أن يقر المسلمون خطة الزحف نحو العاصمة نيقوسيا بلغهم أن البندقية أرسلت نجـدة قوية إلى قبرص وأن الملك جانوس لوزنيان يعيد توحيد صفوفه من جديد . عندئذ رأى القائد العام للحملة الإسلامية وهو الأمير سيف الدين جرباش الظاهري أنه من الأفضل الرجـوع إلى مصر بعد هذه الإنتصارات التي أحرزها والأسلاب الثقيلة التي حملها . فوصل القاهرة في سبتمبر ١٤٢٥ م حيث عرض الغنائم والأسرى أمام السلطان في إحتفال شعبي كبير(١).

الحملة الثالثة ١٤٢٦ م (٨٢٩ هـ)

لم تحقق الحملة الثانية الهدف الذي كان ينشده برسباى وهو إخضاع قبرص نهائياً للنفوذ المصري . ولهذا قرر إرسال حملة ثالثة لتحقيق هذا الهدف . وكان استعداد برسباى لهذه الحملة أكثر من المرة السابقة ، إذ أعلن الجهاد العام في جميع أنحاء مملكته ، واستجاب لندائه جم غفير من الناس من مصر والشام حتى اضطر السلطان إلى رفض طلبات عدد كبير منهم لعدم وجود أماكن لهم في السفن المعدة لهذه الحملة . وكان برسباى قد أعدّ لهذه الحملة أكثر من مائة سفينة حربيـــة من مختلف الأنواع والأحجام . ويلاحظ أن خطة الحملة في هذه المرة هي الخروج من مصر إلى قبرص مباشرة دون المرور على موانى الشام . ولهذا كان على السفن الشامية أن تحضر إلى مصر للإنضمام إلى أسطولها والإبحار معاً الى قبرص . ويحدثنا المؤرخ البيروتي المعاصر الأمير صالح بن يحيى أنه كان على رأس احدى الحمالات التي صنعت في بـيروت واتجهت إلى مصر للإنضمام الى الحملة إلا أنها وصلت متأخرة بسبب هيجان البحر ومضادة الريح وتفتح أجناب الحمالة ، فلم تستطع اللحاق بالاسطول ، وأضطر صالح بن يحيى إلى

---

(١) صالح بن يحيى : اخبار السلف ص ٢٤٥ – ٢٤٧ ، (Ziada : The Mamluk Conquest of Cyprus, cit.) ويضيف الأمير صالح بن يحيى الذي شارك في هـــذه الحملة بأن السلطان أنعم عليه بمائتي دينار ذهب وخلعة. كما استضافه الدوادار الامير اركاس وأنزله عنده في بيته ورتب له كل يوم سماطاً بكرة والعصر إلى ان سافر الى بلده بيروت .

البقاء في مصر لإصلاحها بعد أن صرف من عليها من المجاهدين[١] .

وكانت الحملة قد أقلع معظمها من ثغر الاسكندرية في أول يونيو سنة ١٤٢٦ م وعليها ما يزيد على خمسة آلاف مقـــاتل من المماليك والغزاة والمتطوعين . وعندمـــا اقتربت من ثغر رشيد لأخذ بعض السفن حيث هبت ريح عاصفة حطمت أربعاً من سفنها مما اضطر السلطان إلى تعويض ذلك بمراكب من النيل وبمراكب للفرنج استولى عليها من الاسكندرية[٢].

ثم اتجهت الحملة مباشرة إلى جزيرة قبرص ، ونزلت جيوشها بنواحي مدينة ليماسول التي سبق أن احتلها المسلمون ودمروا قلعتها في الحملة الثانية ، غير أن القبارصة أعادوا تحصينها من جديد ، ولهذا لم يتمكن المسلمون من إحتلالها إلا بعد قتال عنيف .

ثم أخذت جيوش المسلمين تتوغل بعد ذلك في داخل الجزيرة نحـــو العـــاصمة نفسها مدينة الأفقسية أو نيقوسية Nicosia في قلب الجزيرة . وكان الملك جانوس قد أعد جيشاً كبيراً لايقاف زحف المماليك عند بلدة خيروكيتا Kherokita في شمال شرق ليماسول . وهناك في هذا المكان دارت بين الفريقين موقعة حاسمة انتهت بهزيمة القبارصة وأسر ملكهم جانوس . وفي نفس هذا الوقت دارت معركة بحرية بين الأسطولين الأسلامي والقبرصي انتهت كذلك بهزيمة القبارصة وأسر بعض سفنهم .

ولم يجد المسلمون بعد ذلك صعوبة في دخول مدينـــة نيقوسيا عاصمة قبرص حيث أعلن القائد العام الأمير تغري بردي المحمودي في قصر الملك بأن الجزيرة صارت «من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباى»[٣].

---

(١) و (٢) صالح بن يحيى : أخبار السلف ص ٢٥٠ .

(٣) خليل بن شاهين ، زبدة كشف الممالك ص ١٤٢ ، العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ص٥٨٣ ، سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٨ – ١١٤ . راجع كذلك :
Mahharias: Op. cit. p. 655-670; Ziada, The Mamluk Conquest of Cyprus, Op. cit.

وعادت الحملة بعد هذا النصر الكبير إلى مصر ومعها ألوف الأسرى وعلى رأسهم ملك قبرص جانوس ، فخرجت القاهرة لاستقبالها باحتفال كبير في أوائل اغسطس من تلك السنة . وهنا نترك ضيف القاهرة صالح بن يحيى البيروتي ، الذي لم يكن له حظ الإشتراك في هذه الحملة، يصف هذا الاستقبال كما رآه بقوله : « وتناهت الناس في الزينة ، فكانت زينة لا رأيت مثلها ، وكنت نهار دخولهم بملك قبرص واقفاً في سوق الخيل بمصر برسم الفرجة عليه ، ورأيتهم قد رتبوا جند مصر وعسكرها صفين إلى باب القلعة ، ودخلوا بالملك بين الصفين وقد ركبوه على بغل عالي ، والنهب والأسرى تساق قدامه ، ومن أعلامه علمين محمولة قدامه منكسة السنجق .. وكان ذلك اليوم بمصر يوماً مشهوداً ما عهد مثله . فلما دخل ملك قبرس على السلطان بوّسوه الأرض عـــدة مرار أولهم لما استقبل الايوان ثم كلما تقدم قليلاً يبوّسوه الأرض إلى أن صار قدام السلطان ، فأمر السلطان بسجنه وأن يُقيد بقيد ثقيل »[1] .

وهكذا انتقمت دولة المماليك لِمـا حل بشعبها وثغورها وتجارتها في مصر والشام على يد القبارصة ، وكان انتقاماً رائعاً . ولم يُطلق سراح الملك جانوس إلا بعد أن تعهد بدفع فدية قدرها مائتي ألف دينار ، يدفع نصفها قبل رحيله ، والنصف الآخر بعـد عودته الى جزيرته . ثم خلع عليه السلطان قبل سفره بخلعة طرد وحش بفرو قاقم ، وأنعم عليه بفرس بسرج ذهب وأمره أن يدور على الأمراء الكبار يسلم عليهم . ثم توجه الملك إلى الاسكندرية حيث كان في انتظاره غرابان حضرا من قبرس برسم أخـذه ، فنزل في البحر ساعة وصوله إلى الاسكندرية ولم يتأخر في البر . وسافر معه رسول من قِبل السلطان لقبض ما تأخر عليـــه من المـــال[2] .

---

(١) صالح بن يحيى : أخبار السلف ص ٢٥١

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٢ . والمقصود بطرد وحش نوع من القماش منقوش بمناظر الصيد والطرد وكانت تصنع منه بعض الخلع السلطانية (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

وظلت قبرص تابعة للقاهرة وتؤدي لها جزية سنوية حتى نهاية حكم المماليك على يد العثمانيين سنة ١٥١٧م ، فصارت الجزيرة ترسل الجزية إلى السلطان العثماني حتى سنة ١٥٧٧ ، حينما احتلها الأتراك العثمانيون ، وحكموها حكماً مباشراً عن طريق ولاتهم الأتراك .

حملات المماليك على جزيرة رودس (٨٤٣–٨٤٧هـ = ١٤٤٠ – ١٤٤٤ م)

لم يبق من رواسب الصليبيين في الشرق الأدنى بعد تخليص الشام من الصليبيين واخضاع آل لوزنيان في قبرص سوى دولة الفرسان الاسبتارية في جزيرة رودس . وكانت هذه الدولة قد تكونت عقب سقوط عكا بمساعدة آل لوزنيان ملوك قبرص ، ومن ثم صار لها أهداف صليبية مشابهة تماماً لأهداف ملوك قبرص . ونتيجة لهذا التشابه شمل الجزيرتين نوع من التعاون السياسي والتضامن الحربي المشترك ضد المسلمين في مصر والشام وآسيا الصغرى ، وصار تاريخ كل منهما ، فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ، مرتبطاً تمام الارتباط بتاريخ الأخرى : فالأسطول القبرصي الذي فاجأ الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م كان يضم عدداً كبيراً من فرسان رودس ، كذلك شارك الروادسة إخوانهم القبارصة في الدفاع عن جزيرة قبرص عندما هاجمها المماليك ، كما انهم ساهموا بنصيب كبير في خدمة الملك جانوس عندما وقع في أسر المماليك .

لهذا أيقن فرسان رودس أن انتصار المسلمين في قبرص ما هو إلا انذار بقرب حلول دور رودس في الغزو . وقد تأكدت مخاوفهم خلال المفاوضات التي جرت حول فدية الملك جانوس حينما صرح برسباي عن ضرورة إرسال حملة إلى رودس . ومن ثم أخذ الروادسة يستعدون لمواجهة هذا الغزو المملوكي المنتظر ، فأقاموا الحصون والأسوار والأبراج لحماية جزيرتهم ، كما بثوا الجواسيس في مصر والشام لمعرفة نوايا السلطان وما يجريه من استعدادات لهذا الغزو . على أن حملات المسلمين على جزيرة رودس لم تتم في عهد السلطان برسباي — كما كان متوقعاً — بسبب انشغاله

بالاضطرابات الداخلية فضلاً عن حروبه الخارجية مع شاه رخ بن تيمورلنك المغولي . ولهذا فان محاولات غزو رودس حدثت في عهد خليفة برسباي وهو السلطان سيف الدين جقمق (٨٤٢ — ٨٥٧ هـ = ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م) الذي رأى أن يواصل سياسة سلفه بفتح رودس ، واتخذ من بعض حوادث القرصنة سبباً مباشراً لاعلان الحرب عليها كما فعل برسباي مع قبرص من قبل [1] .

ولقد وجه جقمق ثلاث حملات إلى رودس اقتداءً بسياسة سلفه أيضاً . الحملة الأولى كانت في سنة ١٤٤٠ م ، وكانت تتكون من خمس عشرة سفينة حربية عليها مائتي مملوك وعدة مئات من المتطوعين حتى بلغ مجموع جنود الحملة ألف محارب تقريباً . ثم أبحرت الحملة من ثغر دمياط واتجهت إلى قبرص للتموين باعتبارها قاعدة مملوكية . ثم توجهت بعد ذلك إلى ساحل آسيا الصغرى ، ومنها إلى رودس . وهناك وجد المسلمون أن الفرسان الاسبتارية على أتم استعداد لمواجهة الهجوم ثم دارت عدة معارك برية وبحرية انتهت بفشل المسلمين في اقتحام الجزيرة وانسحابهم أثناء الليل عائدين إلى مصر .

الحملة الثانية سنة ١٤٤٣ م

لم يستسلم جقمق لهذا الفشل الذي منيت به الحملة الأولى ، فأعد حملة ثانية أقوى وأكبر من سابقتها بقيادة اينال العلائي الذي سار سلطاناً فيما بعد . وأقلعت الحملة من دمياط في شهر أغسطس واتجهت إلى بيروت وطرابلس حيث انضمت إليها قوات شامية ثم توجهت كالمرة السابقة إلى لياسول بقبرص لأخذ التموين اللازم . ومن هناك تحركت إلى ساحل آسيا الصغرى بغية الصعود بعد ذلك إلى رودس . ولكن حدث أن جزيرة صغيرة هناك بساحل آسيا الصغرى تسمى قشطيل الروج

(١) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ترجمة جمال الشيال ، ومنصور (مجلة الجيش ١٩٤٦) .

Chateau rouge أي الحصن الأحمر كانت تابعة لفرسان الاستبارية ، أطلقت بعض مدافعها نحو الحملة على سبيل السخرية . فأثار هـــذا العمل غضب المسلمين فاتجهوا نحوها وحطموا قلعتها وأبراجها ، وكان في نية الحملة مواصلة السير نحو رودس ، ولكن نفاذ الذخيرة واقتراب فصل الشتاء حملها على العودة إلى مصر [١] .

الحملة الثالثة ١٤٤٤ م

صمم جقمق على إرسال حملة ثالثـة إلى رودس تشبهاً بسياسة برسباي في قبرص ، وأنفق على هذه الحملة أموالاً طائلة مؤملاً الاستيلاء عليها . وخرجت الحملة من دمياط كما هي العادة يقودها اثنان من كبار أمراء المماليك وهما اينال العلائي للقوات البرية ، والأمير تمرباي لقيادة الأسطول . وبعد أن انضمت إليها القوات الشامية ، أبحرت بسرعة إلى رودس مباشرة دون أن تمر بقبرص وآسيا الصغرى . وتمكن المسلمون بعـد قتال عنيف من انزل قواتهم إلى البر ومحاصرة مدينة رودس عاصمة الجزيرة . واستمر الحصار مدة أربعين يوماً أرسل المسلمون خلالها عـدة كتائب إلى داخل الجزيرة . وقد استطاعت هذه الكتائب أن تقوم بأعمال عسكرية كثيرة ، ولكنها من الناحية الاستراتيجية كانت أعمالاً عقيمة عديمـة الفائدة لأن العاصمة لم تسقط وظلت تقاوم المسلمين خصوصاً بعد أن وصلتها امدادات مسيحية من أوربا في الوقت الذي أخذت فيه مؤن المسلمين وذخيرتهم تقل وتنفد بسرعة . وأخيراً اتخذ الاستبارية المحاصرون خطة الهجوم واندفعوا إلى خارج المدينة وانتصروا على المماليك كما هاجموا أساطيلهم ممـا اضطر المسلمين في النهاية إلى الانسحاب من الجزيرة والابحار إلى دمياط [٢] .

---

(١) السيوطي : غزوات قبرص ورودس ص ١٤-١٦ (وهو جزء من كتاب السيوطي المسمى بكتاب تاريخ الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري . وقد نشر هذا الجزء في فيينا مع ترجمة ألمانية سنة ١٨٨٤) .

(٢) راجع (زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس (مجلة الجيش سنة ١٩٤٦) ، وكذلك مادة رودس في دائرة المعارف الإسلامية لعزيز سوريال) .

ولقد أثارت حملات المماليك على رودس لانتزاعها من أيدي الاستبارية موجة من الغضب ورغبة في الانتقام من المسلمين . ولهذا شنت الاستبارية هجوماً بحرياً على السفن الإسلامية التجارية عند شواطئ الاسكندرية ودمياط وصور وغيرها [١] . وقد رد السلطان جقمق على هذه العمليات العدوانية بأن فرض على جميع تجار الفرنج بلا استثناء في دولته غرامة مالية فادحة لتعويض خسارته ، كما سجن عدداً كبيراً منهم .

وخشيت البندقية على مصالحها التجارية مع دولة المماليك من جراء هذا العمل ، فقامت بدور الوسيط بين السلطان والاستبارية ، وحاولت اقناع الروادسة برد أسرى المسلمين وأموالهم ومتاجرهم ، ولكنهم رفضوا مما اضطر البنادقة إلى الاغارة بأساطيلهم على رودس واجبارهم على رد ما أخذوه من المسلمين [٢] .

كذلك قام بمهمة الوساطة بين جقمق والاسبتارية التاجر الفرنسي الكبير جاك كير Jacques Cœur الذي استطاع أن يزيد من حجم التجارة بين فرنسا ودولة المماليك حتى بلغت مستوى تجارة البندقية وجنوا وقطالونيا فترة من الزمان . وقد نجح هذا البرجوازي الفرنسي الكبير في عقد صلح بين جقمق ولاستيك رئيس الاسبتارية غير أن جماعة الاسبتارية لم يلتزموا كثيراً بشروط هذا الصلح فتارة نراهم أصدقاء للمسلمين وتارة أخرى أعداء لهم . ولكن المهم هنا هو أن دولة المماليك لم تستطع أن تقضي على نشاطهم بسبب ظهور قوى أخرى جديدة معادية في الميدان البحري ، وهما قوة الاتراك العثمانيين في البحر المتوسط شمالاً ، وقوة البرتغاليين — بعد اكتشافهم الجغرافي — في المحيط الهندي والبحر الأحمر جنوباً [٣] .

---

(١) السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك ص ٣٢٣ ، ٣٥٠ (نشر أحمد زكي ١٨٩٦) .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٨٢ (نشر وليام بوبر Popper) بكاليفورنيا منتخبات من حوادث الدهور ج ٣ ص ٤٨٨ (نشر وليام بوبر) .

(٣) راجع (ابراهيم طرخان : مصر في عصر المماليك الجراكسة ص ١١٠ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٦) .

وهكذا أصبحت دولة المماليك محصورة بين هذين الخطرين ، وعجز سلاطينها في ابعاد خطرهما التجاري والحربي . يضاف إلى ذلـك أن المماليك كانوا فرساناً بطبيعتهم ، عشقوا الفروسية ولم يقبلوا عنها بديلاً . ولهذا لم يتجاوبوا مع الاسلحة النارية والمدافع التي انتشرت في ذلك الوقت وأقبل العثمانيون والبرتغاليون على استخدامها في الـبر والبحر بينما اعتبرها المماليك أسلحة منافيـة للرجولة والانسانية . وأخيراً اضطر بعض سلاطين المماليك لانقاذ دولتهم إلى تكوين فرق غير مملوكية من المغاربة والعبيد السود لحمل هذا السلاح الجديد عرفوا بالنفطية والبارودية . ولكن رغم كل هذا كانت دولة المماليك قـد هرمت وتحجرت على أنظمتها العتيقة ، فلم تلبث ان انهارت أمام جيوش السلطان العثماني سليم الأول في موقعة مرج دابق شمالي حلب سنـة ١٥١٦ م ، ثم في موقعة الريدانية في صحراء العباسية شمالي القاهرة سنة ١٥١٧ م ، وصارت كلّ من الشام ومصر منذ ذلك الوقت مجرد ولاية في الأمبراطورية العثمانية [١] .

---

(١) راجع مقالنا حول كتاب البارود والأسلحة النارية في الدولة المملوكية لدافيد أيالون في مجلة هسبريس . (Hespéris 1959, 3-4 Trimestres p. 264)


مراجع القسم الثاني



المراجع

أولاً : المصادر العربية

ابن أبي الفضائل : مفضل (ت ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م)
«النهج السديد والدرّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد» جزءان . حققه وترجمه الى الفرنسية مع مقدمة تاريخية بلوشيه E. Blochet (باريس ١٩١٢)

ابن الأثير : علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين (٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م)
«الكامل في التاريخ» ، ١٢ جزءاً . (بولاق ١٢٩٠ هـ)

ابن اياس : أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ م)
(أ) « كتاب تاريخ مصر المعروف بإسم بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، ٣ اجزاء (بولاق ١٣١١-١٣١٢ هـ)
(ب) صفحات لم تنشر من بدائع الزهور . تحقيق محمد مصطفى (القاهرة ١٩٥١)

ابن بطوطة : محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م)
«تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» المعروف برحلة ابن بطوطة نشر وترجمة دفريمري وسانجينتي Defremeri et Sanguinetti (باريس ١٩٢٢)

ابن جبير : محمد بن احمد الأندلسي (ت ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م)
رحلة إبن جبير (بيروت ١٩٤٩)

ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين احمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ = ١٤٤٩ م)
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء (حيدر أباد ١٣٥٠ هـ)
- رفع الإصر عن قضاة مصر (في آخر كتاب الولاة والقضاة للكندي ، طبعة روفن جست)

ابن حسول : الوزير أبو العلاء (ت ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م)
كتاب تفضيل الأتراك على سائر الأجناد
تحقيق عباس العزاوي في المجلة التركية بأنقره (الجزء الرابع ١٩٤٠)

ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م)
- « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » . ٧ أجزاء . (بولاق ١٢٨٤ هـ)
- التعريف بإبن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً . نشر محمد بن تاويت الطنجي (القاهرة ١٩٥١)

ابن خلكان : شمس الدين ابوالعباس احمد بن ابراهيم الشافعي (ت ٦٨١هـ = ١٢٨٢م)
«وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان» نشر محيى الدين عبدالحميد ٦ أجزاء (القاهرة ١٩٥٠)

ابن دقماق : ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ م)
« الإنتصار لواسطة عقد الأمصار » (بولاق ١٨٩٣ م)

ابن شداد : بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م)
« كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » نشر جمال الشيال (القاهرة ١٩٦٤)

ابن شداد : محمد (ت ٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م)
الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، جزءان . نشر سامي الدهان (دمشق ١٩٥٦)

ابن شاهين الظاهري : غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ = ١٤٦٨ م)
« زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » حققه بول رافيس Paul Ravisse (باريس ١٨٩٥)

ابن عذارى المراكشي : ابوالعباس احمد بن محمد (كان حياً سنة ٧١٢هـ = ١٣١٢م)
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب
(أ) الجزءان الأول والثاني طبعة دوزي (ليدن ١٨٥١)
(ب) الجزء الثالث نشر ليفي بروفنسال (باريس ١٩٣٠)
(جـ) قطعة خاصة بتاريخ المرابطين نشرها أويثي ميراندا في مجلة هسبريس ١٩٦١
(د) الجزء الرابع ويتناول تاريخ الموحدين وبداية عهد بني مرين ، نشره اويثي ميراندا ومحمد بن تاويت التطواني وابراهيم الكتاني (الرباط ١٩٦٣)

ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرازق بن احمد الشيباني البغدادي (ت ٧٢٣ هـ = ١٣٢٣ م)
« الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » (بغداد ١٣٥١ هـ)

ابن الفرات المصري : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ = ١٤٠٥ م)

« تاريخ ابن الفرات المعروف باسم الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك » . تسعة أجزاء (تشمل اخبار سني ٥٠١ – ٧٩٩ هـ) حقق قسطنطين زريق الأجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ التي تضم أخبار سني ٦٧٢ – ٧٩٩ هـ (بيروت ١٩٣٩) أما الجزء السادس الخاص بأحداث سني ٦٢٥ – ٦٥٩ هـ يوجد بمكتبة الفاتيكان ويتضمن تاريخ قرطاى العزي وأخبار صارم الدين أزبك التي نشرها المستشرق ليفي دلا فيدا في مجلة Orientalia سنة ١٩٣٥ روما .

ابن فضل الله العمري : شهاب الدين احمد (ت ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م)

(أ) « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ٢٠ جزءاً . حقق الجزء الخاص بافريقية والأندلس ، حسن حسني عبدالوهاب في مجلة البدر بتونس ، وحقق الجزء الخاص بالمغرب الأقصى ، محمد المنوني في مجلة البحث العلمي ١٩٦٤ ، أما القسم المشرقي وهو معظم الكتاب فلم يظهر منه إلا قسم جغرافي صغير بتحقيق احمد زكي باشا والباقي لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية .

(ب) التعريف بالمصطلح الشريف . (القاهرة ١٣١٢ هـ)

(ج) ممالك عباد الصليب . نشره ميشيل أماري في روما ١٨٨٣ .

ابن القطان : أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي (ت ٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م)

نظم الجمان في أخبار الزمان . نشره محمود مكي (الرباط ١٩٦٤)

ابن كثير : عماد الدين اسماعيل (ت ٧٧٢ هـ = ١٣٧٢ م)

البداية والنهاية (القاهرة ١٣٥٨ هـ)

ابن واصل : جمال الدين أبوعبدالله محمد بن سليم الشافعي (ت ٦٩٧ هـ = ١٢٩٧ م)

« مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » نشر جمال الشيال معظم الجزء الخاص بالدولة الأيوبية وبقي الجزء الخاص بقيام دولة المماليك ونهاية الدولة الأيوبية مخطوطاً .

ابن مماتي : الأسعد (ت ١٢٠٩ م)

قوانين الدواوين . نشر عزيز سوريال عطيه (القاهرة ١٩٤٣) .

ابن منقذ : أسامة (ت ١١٨٨ م)

كتاب الاعتبار . نشر فيليب حتي .

ابن منكلي : محمد الناصري

كتاب الأحكام الملوكية والضوابط النموسية في فن القتال في البحر (مخطوط بمكتبة تيمور رقم ٢٣ فروسية ، وتوجد صورة شمسية بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية رقم ٩)

الأستاذة الدكتورة

السيد عبد العزيز سالم

ابو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم شهاب الدين الشافعي الدمشقي
(ت ٦٦٥ هـ = ١٢٦٨ م)

١ – كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . جزءان (القاهرة ١٢٨٧ هـ)
٢ – الذيل على الروضتين . نشر عزت العطار الحسيني الدمشقي : بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع (القاهرة ١٩٤٧)

ابو الفداء : اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة (ت ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م)
المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ) .

ابو المحاسن : جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ = ١٤٦٥ م)
(أ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . نشرت منه دار الكتب المصرية ١٣ جزءاً حتى حوادث ٨٠٨ هـ (القاهرة ١٩٢٩–١٩٤٣) ثم رجعنا بعد ذلك إلى طبعة كاليفورنيا نشر وليم بير Popper (كاليفورنيا ١٩٣١)
(ب) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي
(مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١١٣ في ثلاثة أجزاء)

الإدريسي : أبو عبدالله محمد الشريف السبتي (ت حوالي ٥٤٨ هـ = ١١٥٤ م)
(أ) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس – عن نزهة المشتاق في اختراق الآفاق نشره وترجمه إلى الفرنسية دوزي ودي خويه (ليدن ١٨٦٦)
(ب) وصف افريقيا الشمالية والصحراوية – عن نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . نشر هنري بيريس (الجزائر ١٩٥٧) .
(ج) وصف الاندلس – عن نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . نشره وترجمه إلى الاسبانية كوندي Conde (مدريد ١٧٧٩) .

أرشيبالد لويس :
القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (من ٥٠٠ إلى ١١٠٠م) . ترجمة محمد عيسى .

أشباخ :
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ترجمة محمد عبدالله عنان.

الأصفهاني : عماد الدين محمد (ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م)
(أ) دولة آل سلجوق (القاهرة ١٩٠٠) .
(ب) الفتح القسي في الفتح القدسي (القاهرة ١٣٢٢ هـ) .

الأهواني : عبد العزيز
سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مايو ١٩٥٤) .

أماري : ميشال
المكتبة الصقلية (ليبسك ١٨٧٥)

الباز العريني : السيد
مصر في عصر الأيوبيين (القاهرة ١٩٦٠) .

البكري : عبدالله بن عبد العزيز المرسي (ت ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م)
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . نشر دي سلان (الجزائر ١٩١١) .

البلاذري : أبو الحسن أحمد بن يحيي البغدادي (ت ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م)
فتوح البلدان (القاهرة ١٩٣٢) .

الجبرتي :
عجائب الآثار في التراجم والأخبار .

جمال الدين الشيال :
تاريخ مصر الاسلامية .

جورجي زيدان :
تاريخ التمدن الإسلامي (٥ أجزاء) القاهرة ١٩٠٢–١٩٠٦) .

جوزيف نسيم :
(أ) لويس التاسع في الشرق الأوسط (القاهرة ١٩٥٩) .
(ب) العدوان الصليبي على مصر (الاسكندرية ١٩٦٨) .

الحسن بن عبدالله : (ت ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م)
آثار الأول في ترتيب الدول (القاهرة ١٣٠٥ هـ)

حسن ابراهيم حسن :
(أ) الفاطميون في مصر .
(ب) النظم الإسلامية بالاشتراك مع علي ابراهيم حسن .

حسن حبشي :
نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨) .

حسنين محمد ربيع :
النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين .

حسن محمود :
الإسلام والثقافة العربية بافريقية (القاهرة ١٩٦٣) .

الخزرجي : علي بن حسن (القرن الثامن الهجري)
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية . جزءان (الجزء الثالث من مجموعة جب) .
ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية
(ترجمة عزت عبدالكريم وتوفيق اسكندر ، مصر ١٩٤٩) .
دراج : أحمد
المماليك والفرنج في القرن الخامس عشر الميلادي .
زين الدين :
تحفة الجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين نشره دافيد لويس في لشبونه ١٨٩٨) .
زترستين : ك . ف
تاريخ سلاطين المماليك (ليدن ١٩١٩) .
سرهنك باشا : اسماعيل
حقائق الأخبار عن دولة البحار . جزءان .
السخاوي :
التبر المسبوك في ذيل السلوك . نشر أحمد زكي (القاهرة ١٨٩٦) .
سعاد ماهر :
البحرية في مصر الإسلامية .
سعيد عبد الفتاح عاشور :
(أ) الحركة الصليبية . جزءان .
(ب) مصر في عصر دولة المماليك البحرية .
(ج) العصر المماليكي في مصر والشام .
(د) قبرص والحروب الصليبية .
(هـ) مدينة السويس منذ الفتح العربي حتى بداية العصر الحديث (سلسلة بلادنا) .
السلاوي الناصري : أبو العباس شهاب الدين (ت ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م)
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٩ أجزاء (الدار البيضاء ١٩٥٤) .
السيوطي : جلال الدين (ت ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م)
(أ) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة (القاهرة ١٢٥١ هـ) .
(ب) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ) .
(ج) غزوات قبرص وردوس (فيينا ١٨٨٤) .

صالح بن يحيي :
أخبار السلف من ذرية بحتر بن علي أمير الغرب ببيروت (المعروف بتاريخ بيروت) نشر فرنسيس هورس وكال سليمان (بيروت ١٩٢٧) .

طرخان : ابراهيم
مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة ١٩٥٩) .

العبادي : أحمد مختار
(أ) قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام (بيروت ١٩٦٩)
(ب) تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس بالاشتراك مع عبد العزيز سالم (بيروت ١٩٧٠) .
(ج) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (الاسكندرية ١٩٦٨) .
(د) دراسة حول كتاب البارود والاسلحة النارية لدافيد ايالون (مجلة هسبريس ١٩٥٩)

العبادي : عبد الحميد
صور وبحوث في التاريخ الإسلامي (الاسكندرية ١٩٤٨) .

عبدالله بن أيبك : ابو بكر (عاش في القرن الثامن الهجري)
كنز الدور وجامع الغرر أو الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية . (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٨٧ في ٢٧ مجلد) .

عبد الرحمن زكي :
(أ) معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية .
(ب) القلاع والحروب الصليبية .
(هـ) موسوعة مدينة القاهرة

عبد العزيز سالم :
(أ) تاريخ الاسكندرية في العصر الإسلامي (١٩٦٨) .
(ب) طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي (الاسكندرية ١٩٦٧)
(ج) البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس بالاشتراك مع مختار العبادي (بيروت ١٩٧٠)

عبد الفتاح السرنجاوي :
النزعات الاستقلالية في الخلافة العباسية (القاهرة ١٩٤٦) .

عبد الفتاح عبادة :
كتاب سفن الأسطول الإسلامي .

عبد المنعم ماجد :
(أ) نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (القاهرة ١٩٦٤) .
(ب) الناصر صلاح الدين الأيوبي (القاهرة ١٩٥٨) .
عبد الواحد المراكشي : محيي الدين التميمي (ولد سنة ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب . نشر دوزي (ليدن ١٨٨١) .
عبد اللطيف البغدادي :
كتاب الافادة والاعتبار (القاهرة ١٢٨٦ هـ)
العذري : احمد بن عمر المعروف بإبن الدلائي (ت ٤٧٨ هـ = ٩٨٨ م)
ترصيع الأخبار وتنويع الآثار في غرائب البلدان والمسالك والممالك .
نشر عبدالعزيز الأهوائي (مدريد ١٩٦٥) .
علي ابراهيم حسن :
دراسات في عصر المماليك (القاهرة ١٩٤٢) .
علي مبارك :
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءاً (بولاق ١٣٠٥–١٣٠٦ هـ)
عمارة اليمني : أبو الحسن نجم الدين (ت ٥٦٩ هـ = ١١٧٤ م)
تاريخ اليمن . نشره كاي Kay (لندن ١٣٠٩ هـ)
عمر كمال توفيق :
مملكة بيت المقدس الصليبية (الاسكندرية ١٩٥٨)
العيني : بدر الدين أبو محمد (ت ٨٥٥ هـ = ١٤٥٢ م)
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤)
فؤاد عبدالمعطي الصياد :
مؤرخ المغول رشيد الدين فضل‌الله الهمذاني (القاهرة ١٩٦٧)
القلقشندي : أبو العباس احمد (ت ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م)
صبح الأعشى في صناعة الانشاء ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣–١٩١٩)
القرماني : ابو العباس احمد بن يوسف (ت ١٠١٩ هـ = ١٦١٠ م)
أخبار الدول وآثار الأول (القاهرة ١٢٩٠) .
الكتبي : فخر الدين محمد بن شاكر (ت ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ م)
فوات الوفيات جزءان (بولاق ١٢٩٩ هـ)

كرد علي : محمد
خطط الشام ٦ أجزاء (دمشق ١٩٢٥) .

محمد جمال الدين سرور :
(أ) الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده (القاهرة ١٩٣٨) .
(ب) دولة بني قلاوون في مصر (القاهرة ١٩٤٧) .

محمد حمدي المناوي :
(أ) نهر النيل في المكتبة العربية .
(ب) الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي .

محمد رمزي :
القاموس الجغرافي للبلاد المصرية (القاهرة ١٩٥٣) .

محمد مصطفى زيادة :
(أ) الغزوة الكبرى الأولى لاستيلاء الصليبيين على مصر (كتاب كفاحنا ضد الغزاة) .
(ب) المصريون في قبرص (من رسائل وزارة الدفاع الوطني) .
(ج) المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس (مجلة الجيش المصري ، يناير ١٩٤٦) .
(د) بعض ملاحظات جديدة في تاريخ المماليك في مصر (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد الرابع ١٩٣٦) .
(هـ) نهاية سلاطين المماليك (مجلة الجمعية التاريخية المصرية مايو ١٩٥١) .

محمد ياسين الحموي :
تاريخ الأسطول العربي .

محمد رزق سليم :
عصر سلاطين المماليك .

مظهر : اسماعيل .
السفن والملاحة بمصر (مجلة المقتطف يناير ١٩٣٤) .

مصطفى مسعد :
الإسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٠) .

المقدسي : ابو عبدالله (القرن الرابع الهجري)
كتاب احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . نشر دي خويه (ليدن ١٩٠٦)

المقريزي : تقي الدين أحمد (٨٤٥ هـ = ١٤٤٢ م)
(أ) السلوك لمعرفة دول الملوك . نشر وتحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٦)
(ب) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار . جزءان (بولاق ١٢٧٠ هـ)
(ج) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا (القاهرة ١٩٤٨) .

مؤلف مغربي مجهول : (من علماء القرن السادس الهجري)
كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار . نشر سعد زغلول (جامعة الاسكندرية ١٩٥٨)

ميخائيل عواد :
المآصر في بلاد الروم والإسلام (بغداد ١٩٤٧) .

نصحي : ابراهيم
السويس في العصور القديمة حتى الفتح العربي (كتاب السويس في سلسلة بلادنا) .

النابلسي : عثمان بن ابراهيم (ت ١٢٥٨ م)
كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية .
Bulletin des Etudes Orientales, Tome XVI 1958 - 1960 (Damas 1961)

النويري : شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م)
نهاية الأرب في فنون الأدب (دار الكتب المصرية) .

النويري : محمد بن القاسم السكندري المالكي (عاش في القرن الثامن الهجري)
الإلمام بالاعلام لما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الاسكندرية وما أضيف الى ذلك من الاستطرادات المستحسنات (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٩٣ ٤) .

هونيرباخ : (فلهلم)
البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية (تطوان ١٩٥٤) .

ياقوت : شهاب الدين ابو عبدالله الحموي الرومي (ت ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م)
معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان . ٨ أجزاء (القاهرة ١٩٠٦) .

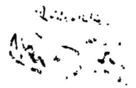
ثانياً : المصادر الأوربية

Ali Bahgat : Les forêts en Egypte. (Bulletin de l'Institut d'Egypte 1900).

Ameer Ali, S. : A short history of the Saracens, (London 1900).

Arnold, Sir Thomas : The Caliphate, (Oxford 1924).

Atiya, A. S. : The Crusade in the later middle ages, (London 1938).



BLOCHET, E. : Histoire des mamlouks par Mufazzal Ibn Abil Fazail. Texte Arabe publié et traduit en français. 2 vol., (Paris 1912).

Cambridge Medieval History, vol. IV, VI.

CRESWELL : The works of Sultan Baibars Al-Bunduqdari in Egypt. Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, tome 26, fasc. 2.

COUPLAND, R. : East Africa and its Invaders, (Oxford 1956).

CZAPLICA, M. : The Turks of central Asia in history and the present day, (Oxford 1918).

DAVIS, F. J. : Invasion of Egypt in A. D. 1249 (A. H. 647) by Louis IX of France, (London 1899).

DAVIS, FOX : A complete guide to Heraldry.

DEMOMBYNES, G. M. : La Syrie a l'époque des Mamelouks, (Paris 1922).

DOZY, REINHART : *a)* Histoire des musulmans d'Espagne. Tr. in English by Francis Griffin, (London 1913).

b) Supplement aux Dictionnaires Arabe, 2 Vol., (Leiden 1881).

c) Dictionnaire des noms des vetements chez les Arabes, (Amesterdam 1842).

DEVONSHIRE, R. L. : Rambles in Cairo, (Cairo 1931).

Encyclopedia of Islam.

FELIX PAREJA, M. : Islamologia, 2 tomos, (Madrid 1952 - 1954).

GUILLAUME : Legacy of Islam, (Oxford 1931).

GROUSSET : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem 3 tomes.

HEYD, W. : Histoire du commerce du Levant au moyen age, 2 Vols. (Leipzig 1889).

HITTI, P. K. : The History of the Arabs, (London 1934).

HOWORTH, SIR HENRY : History of the Mangols 4 Vols. (London 1876 - 1880).

HUICI, MIRANDA : Historia politica del Imperio Almohade, 2 tomos (Tetuan 1956).

HILL, G. : A History of Cyprus, (Cambridge 1948).

JOINVILLE, JEAN SIR DE : *a)* Memoirs of John Lord de Joinville by Thomas Johnes, (Oxford 1807).

b) Memoirs of the Lord of the Joinville by Wedgwood (London 1906).

c) Histoire de Saint Louis par Natalis de Wailly, (Paris 1847).

d) Saint Louis King of France by James Hutton, (London 1868).

e) The History of Saint Louis by Joan Evans, (Oxford 1938).

KAY, H. CASSELS : Yaman, its early medieval history by Omara, (London 1892).

King, E. J. : The Knights Hospitallers in the Holy Land (London 1931).

LYBYER : The Ottoman Empire in the time of Suleiman (Cambridge 1913).

LANE POOLE S. : *a)* History of Egypt in the middle ages, (London 1925).

b) The Muhammadan Dynasties, (Paris 1925).

c) Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem, (New York 1898).

d) The Story of Cairo, (London 1902).

LE STRANGE G. : Palestine under the Moslems, (London 1890).

LÉVI, PROVENÇAL : *a)* L'Espagne Musulmane aux Xème Siècle, (Paris 1932).

b) Histoire de l'Espagne Musulmane 3 Vols. (Paris 1950).

MACHAUT : La prise de l'Alexandrie, (Genève 1877).

MADELENA LUZ POMES : Los aragoneses en la conquista y Saqueos de Alejandria por Pedro I de Chipre. Estudio de la edad medio de la Corana de Aragon tomo V.

MAKHIARAS : Recital Concerning the sweet land of Cyprus, (Oxford 1932).

MUIR, SIR WILLIAMS : *a)* The mameluk or slave dynasty of Egypt, (London 1896).
b) The Caliphate, its rise, decline and fall, (Edinburgh 1924).

MORELAND W. H. : The Ships of the Arabian Sea about A. O. 1500, (J. R. A. S., January 1939).

OMAN, SIR CHARLES : A history of the art of war in the middle ages, (London 1924).

PILOTI : L'Egypte au commencement du Quinzième Siècle, (Le Caire 1950).

PAUL KAHLE : Die Katastrophe des Mitclalterlichen Alexandria. Melanges maspero, t. LXVII, III, Orient Islamique, (Le Caire 1940).
(ترجمه إلى العربية درويش النخيلي وأحمد قدري في مجلة كلية الآداب بالاسكندرية)

POLIAK A N. : — Le Caractère Colonial de l'Etat mamelouk dans ses rapports avec la Horde D'Or. (Revue des Etudes Islamiques, Cahier III 1935).

— Les revoltes populaires en Egypte a l'époque de mamelouks et leur cause économiques. (R. E. I. cahier III 1934).

— Le Dialectes des mamelouks. (R. E. I. 1935).

— Some notes on the Feudal system of the mamelouks. (J. R. A. S. 1937 January).

QUATREMERE E.T.: Histoire des sultans memelouks de l'Egypte. 2 Vols (Paris 1845).

RIBERA JULIAN : Disertaciones y Opusculos. 2 Tomos (Madrid 1928).

RUNCIMAN S. : A History of the Crusades. 3 Vols. (Cambridge 1967).
ترجمه إلى العربية في ثلاثة أجزاء السيد الباز العريني (بيروت ١٩٦٩)

REINAUD : Traité de Commerce entre la republique de Venice et les derniers sultans mameloucs d'Egypte, (journal asiatique tome 4, Paris 1829).

SAUVAGET J. : — Historiens Arabes, (Paris 1946).

— Introduction a l'Histoire de l'Orient musulman, (Paris 1934).

SAUVAIRE E. : Description de Damas, Journal Asiatique, t. IV, 1894).

SCHLUMBERGER G. : — Prise de Saint Jean d'Acre en l'an 1291, par l'armée de Suldan d'Egypte, (Paris 1914).

— Renauld de Chatillon prince d'Outre Jourdin, (Paris 1923).

SETTON : A History of the Crusades. (Pensylvania 1958).

STEVENSON W. B. : The Crusaders iu the East, (Cambridge 1909).

TRIMINGHAM J. S : Islam in the Sudan, (Oxford 1949).

WEHABA E. F. : The Agriculture of Egypt during the arab period. (Thesis of M. A. unpublished, Uuiversity of London 1952).

WIET GASTON : Histoire de la nation Egyptienne tome IV (L'Egypte Arabe) (Paris 1926).

— Précis de l'Histoire d'Egypte, (Le Caire 1932).

— Le SULTAN BAIBARS : (Revue du Caire 1939-1940 tome III).

ZAMBAUR E. K, : Munuel de Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam, 2 vols, (Hanover, 1927).

ترجمه في جزأين زكي حسن وآخرون بعنوان معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي (مصر ١٩٥١)



فهرس تفصيلي بموضوعات الكتاب

فهرس تفصيلي بموضوعات الكتاب

القسم الأول

البحرية الاسلامية في مصر والشام من الفتح العربي حتى العصر الأيوبي (١٥ – ٥٦٧ هـ)

الباب الأول

البحرية الاسلامية في مصر والشام منذ نشأتها حتى العصر الفاطمي

الفصل الأول

البحرية العربية الاسلامية في دور الانشاء

الفصل الثاني

القوى البحرية في مصر والشام في ظـــل العباسيين والطولونيين

صفحة

الباب الثاني

البحرية في مصر والشام في العصر الفاطمي

الفصل الأول

البحرية الفاطمية في المغرب

الفصل الثـــاني

البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر القوة

(من المعز لدين الله إلى المستنصر بالله)

الفصل الثالث

البحرية الفاطمية في مصر والشام في عصر الضعف

(من المستنصر بالله إلى نهاية الدولة الفاطمية)

صفحة

الفصل الرابع

التنظيمات البحرية في العصر الفاطمي

صفحة

الفصل الخامس

البحرية التجارية في العصر الفاطمي

القسم الثاني

البحرية الاسلامية في مصر والشام في عصري الأيوبيين والمماليك
(٥٦٤ - ٩٢٢هـ = ١١٦٩ - ١٥١٧ م)

صفحة

الباب الاول

البحرية النيلية في عصري الأيوبيين والمماليك

صفحة

الباب الثاني

البحرية الاسلامية في البحر الأحمر في عصري الأيوبيين والمماليك

الباب الثالث

البحرية الاسلامية في البحر المتوسط
في عصري الأيوبيين والمماليك

صفحة

صفحة

صفحة

and West of the Mediterranean, a matter which had historical repercussions.

***

This research work is divided into two sections: the first, concerns the history of Islamic sea power in Egypt and Syria until the fall of the Fatimid dynasty, by Elsayed Abdel Aziz Salem, and the second deals with the same topic during the Ayyubids and Mamelouks by Ahmad Mokhtar el-Abbady.

will deal with the Islamic sea power in the Arabian Gulf and the Indian Ocean.

Moslem sea power has been connected, willy-nilly, with the Islamic conquest of eastern and southern coasts of the Mediterranean. It was inevitable that a bitter struggle should take place between Islamic and Byzantine forces. For some time the Arabs had to adopt a defensive policy in the face of the Byzantine superior sea power until they could build up their own navy. Meanwhile, they resorted to the establishment of coastal fortifications and castles (Rawābit or Maḥāris) as deterrents. Moʿāwiya ibn Abī Sufyān, viceroy of Syria during the califate of both ʿOmar b. al-Khaṭṭāb and Othmān, was aware of the importance of defending the coasts; and so he encouraged the inhabitants to settle down along the coasts and sail the seas.

There followed another stage of Islamic sea power which depended on defensive and offensive strategy. Thus he had to build up navies and make use of the inhabitants of Syria (al–Shām) and Egypt who had experience in navigation such as the Copts in Egypt and sailors of Tyre and Sidon. In addition, he had to make use of Yemenite sea-faring experience in pre-Islamic history.

Events moved to a head when he looked for other sources of wood for ship building besides Egyptian acacia wood and Lebanese cedars. So he turned towards the Anatolian coasts. This led to the naval decisive battle of "Thāt al-Ṣawārī" in 34 H. between Byzantine naval forces and the Islamic fleet. This sea battle established the supermacy of the Islamic sea power in the Mediterranean and encouraged them to look for more sea conquests in the East

AN ABSTRACT OF
MOSLEM SEA-POWER IN EGYPT AND SYRIA

Modern academic researches have proved the important rôle played by sea power in the political, economic and scientific fields. That is why researches have given this branch of study a prominent place in historical works. In this connection we should refer to the significance of the Islamic sea power and its intimate relationship with Islamic history in particular and world history in general. Yet it is worth notice that most of the researches were confined to the treatment of Islamic sea power in certain periods of Islamic history, or dealt with certain aspects in general terms. Consequently, these researches lack the comprehensive and integrated outlook towards the naval Islamic power in the Middle ages.

To embark upon such a task is rather difficult ; first because of the wide area encompassed by the Moslem world, and secondly due to the continuity of Islamic history from its emergence till the present day. Henceforth such a task requires joint efforts on the part of researchers. This was accomplished, fortunately, in our first book entitled : "History of Moslem Sea Power in the Occident". The favourable reception of this book was an incentive to write the second book about Moslem sea power in Egypt and Syria. To complete this comprehensive study, there remains the third book which

BEIRUT ARAB UNIVERSITY

MOSLEM SEA POWER IN EGYPT AND SYRIA

BY

Dr. A. MOKHTAR EL ABBADY
PROFESSOR OF ISLAMIC HISTORY
ALEXANDRIA UNIVERSITY
AND BEIRUT ARAB UNIVERSITY

Dr. ELSAYED ABDEL AZIZ SALEM
PROFESSOR OF ISLAMIC HISTORY
ALEXANDRIA UNIVERSITY
AND BEIRUT ARAB UNIVERSITY

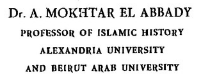
1972



BEIRUT ARAB UNIVERSITY

MOSLEM SEA POWER IN EGYPT AND SYRIA

BY



Dr. A. MOKHTAR EL ABBADY
PROFESSOR OF ISLAMIC HISTORY
ALEXANDRIA UNIVERSITY
AND BEIRUT ARAB UNIVERSITY

Dr. ELSAYED ABDEL AZIZ SALEM
PROFESSOR OF ISLAMIC HISTORY
ALEXANDRIA UNIVERSITY
AND BEIRUT ARAB UNIVERSITY



1972